

أول دورية إلكترونية - محكمة - ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

كان التاريخية

تأسست في ١٠ جمادى الثاني ١٤٣٠ هـ

ISSN: 2090 - 0449 الترخيم الدولي المعياري للدورية

السنة الثالثة - العدد التاسع | سبتمبر (أيلول) ٢٠١٠م / رمضان ١٤٣١هـ

Kan historique périodique

www.historickan.com



الراعي الرسمي

وليمبيريا كومننز

الأرشيف العالمي

دار ناشر

مناحة للقراءة والتحميل عبر

يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم
منه خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية
بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله
إلى الأجيال نقلاً صحيحاً، بحيث يكون نبراساً
وهادياً لهم في حاضريهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا
وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيي بوجوده
وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس
دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية
أكاديمية موجهة لأساتذة وطلبة الجامعات
العرب و الباحثين وأصحاب الدراسات العليا
في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في
كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد

المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



علاقات تعاون



معهد سيراكون



الجامعة العربية المفتوحة لشمال أمريكا



شبكة ومنتديات حكماء للآثار والتراث



مركز المقريزي للدراسات التاريخية



معهد المناهج



رابطة الآثاريين بالإسكندرية



مدرسة محمد بن عبد الوهاب
المستقلة (قطر)



المعهد العالي
لحضارات الشرق الأدنى القديم



الإتحاد العالمي للمدن



الجامعة الاسكندنافية (النرويج)



جمعية الآثاريين المصريين



جمعية المحافظة على
التراث المصري

العدد التاسع



المشرف العام

بهاء الدين ماجد

المستشارون

أ.د عائشة محمود عبد العال
د.خليف مصطفى غزايبة
د.نعملة أنيس مصطفى
د.بشار محمد خليف
أ.د عبد العزيز غوردو
د.خالد بلعربي
أ.ريهام عبد الله المسادي
أ.أنور محمود زنتاتي
أ.نواف نمار طيشات
د.أيمن المنسي
د.وليد سامي
م.أسامة الخضرجي
أ.مسل محمد أمين
أ.هشام سمير شاهين

رئيس التحرير

أشرف صالح

هيئة التحرير

إسراء عبد ربه
محمد حمدي سعودي
مروة عبد الكريم
عماد البحرانسي
أسماء صلاح
حسن علي سالم
إسلام طه
إيمان محي الدين
حسين علي علام

الإشراف اللغوي

محمد عبد ربه
محمد محمد زكي

الإشراف الفني

سيد سعد

سكرتير التحرير

نشوى عادل

دورية كان التاريخية

تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.

ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والطلاب ، والباحثين ، والكتاب ، والمتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.



حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.



موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.



الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr

ISSN: 2090 - 0449 Online



جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والإلكتروني محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٠

الرأسي الرسمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف
إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



دورية كان التاريخية
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشرى للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net





ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وأن تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:



نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.



- أن يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.

- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.



عروض الأطاريح الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.

- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.

- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية حلها.

- ملخص لمنهج البحث وفروعه وعينته وأدواته.

- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.

- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.



تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزاً على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.



Posting Rules

Historical Kan Periodical

ISSN:2090 - 0449

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include : Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com



هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية، للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال "إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com





٨٥ - ٣٦

الأسرة الخامسة والعشرون:
أصول نشأتها في كوش



٧٠ - ٥١

الإستراتيجية والتكتيك بسين
المسلمين والروم: الصدام المبكر



٥٦ - ٧٨

مملكة ماري في عصر
الفاعلية الأكادية التاريخية



٦١ - ٨١

الأبعاد النفسية
للمحنة الموريسكية



٦٨ - ٣٨

نماذج من القضايا الاجتماعية من
خلال كتاب المصادر العربية
لتساريف المغرب



٦١ - ٧٨

حكاية الحيوان عند أحمد
شوقي: دراسة تاريخية وفنية



٣٧ - ٣٠١

بليوجرافيا القضية الفلسطينية



٥٦ - ٣٦

دور زعماء الإصلاح تجاه
تحرير المرأة التونسية



٣٠١ - ١١١

تقارير ..
مشروع الكشف عن أسوار صلاح
الدين الشرقية (١٩٩٧ - ٢٠٠١)



٣٦ - ٠٣

العلاقات التجارية بين المغرب
والسودان الغربي



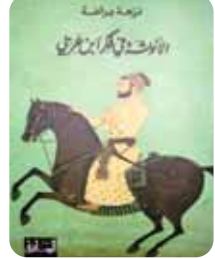
١١١ - ٥١١

تقارير ..
مَن هم الآراميون؟



١٣ - ٨٣

مراكز المكتبات والخزائن
الشعبية للمخطوطات في توات



١١١ - ٥١١

عرض كتاب ..
الأنوفة في فكر ابن عربي



٧٣ - ٢٥

جواب يعقوب والعدراء المزيفة:
نظريتان في المنشأ



١٢١ - ٥٣١

ملف العدد ..
الفكر المعماري العربي:
جذوره وأبعاده



٣٥ - ١٥

التعليق في عصر
نور الدين زنكي

اللغة .. الأدب .. والتاريخ

اللغة والأدب خبرة معرفية تسهم في تشكيل الفعل التاريخي - الحضاري، وهي تتدرج في سياق العلوم الإنسانية لتمييزها عن العلوم الصرفة أو التطبيقية. إن دراسة تاريخ اليونان، أو الثورة الفرنسية، أو التاريخ الأندلسي - على سبيل المثال - لا تستكمل أسبابها دون دراسة اللغة والأدب في البيئات المذكورة.

اللغة والأدب خبرة ثقافية تساعد على تأصيل الفعل الحضاري ومنح الحضارات خصائصها وتميزها. إن الأدب صيغة ذات حساسية خاصة في التعبير عن الوضع التاريخي والحضاري، وهي تعكس بتقنياتها الكثير من مفردات الفعل التاريخي والحضاري. إن دراسة الواقعة التاريخية كدولة (مثل الدولة الحمدانية) على سبيل المثال، أو كحلقة حضارية (مثل النهضة الإيطالية)، أو كتجربة سياسية - عسكرية (مثل الحروب الصليبية) لا تتحقق دون الرجوع إلى أدباء كأبي فراس والمتنبّي ودانتي والعماد الأصفهاني .. إلى آخره.

اللغة والأدب من الأدوات المساعدة أو الموصلة للحقيقة التاريخية، لا يمكن الاستغناء عنها، مع ضرورة الحذر من إشكالية التداخل في المعطى الأدبي بين الذات والموضوع. وبالاتصال من العام إلى الخاص نجد كيف تصير اللغة والأدب من الأدوات الضرورية للتعبير في نطاق البحوث الخاصة. فاللغة تمنح صياغة البحث التاريخي سويته المطلوبة، والأدب يمنح المؤرخ حساسية حادة، وخيالاً نافذاً لتجاوز ظواهر الأشياء والأحداث والشخوص والخبرات صوب الجوهر والمغزى ومقاربة الحقيقة التاريخية. إن معضلة الكثيرين من طلبة الدراسات العليا في التاريخ، والعديد من الأساتذة والباحثين فيه أنهم لا يملكون أسلوباً محكماً في التعبير، ولا قوة خيال تمكنهم من تجاوز الثغرات. إنهم - إذا استخدمنا عبارة أروالد شبنغلر لا يزدون عن أن يكونوا "منظّفي أثرية أكاديميين".

يلتقي الأدب مع التاريخ في تعامله مع الزمن ومحاولة تغطية امتداداته الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، كل بأسلوبه الخاص. ويعتمد الأدب - بأنواعه - على الواقعة التاريخية في مساحات واسعة من أنشطته الإبداعية (من مثل ملحمة الإلياذة وقصائد أبي تمام والبحتري، ورواية (الحرب والسلام) لتولستوي... إلى آخره.

إن تاريخ الأدب كما يدلّ عليه اسمه، عمل في التاريخ، وبأدوات البحث التاريخي، بعد إضافة النصّ الإبداعي إليها. وبعد الأدب مورداً خصباً للتوثيق الذي يخدم الحقيقة التاريخية ويصونها من الضياع، وذلك بسبب قدرة الذاكرة البشرية على استيعاب النصّ الإبداعي. كما يمثل فن الترجمة والسيرة الذاتية لقاءً حميماً بين الأدب والتاريخ بسبب تداخل المفردات في الحقلين.

وأخيراً، فإن المؤرخ الكبير هو - بالضرورة - لغوي وأديب كبير بما تمنحه إياه اللغة والأدب من أدوات عمل وخلفيات ثقافية وتمارين عقلي تمكنه - جميعاً - من أداء عمله بأكثر قدر من الإتقان والإبداع، وبما يمنحه البحث الجاد في التاريخ من إلمام بمطالب التعبير وطرائق الخطاب الأدبي.



د. عماد الدين خليل

مجلة المنار، العدد (٧٦)

ذو القعدة ١٤٢٤هـ

بدأت الفتوحات الإسلامية علي الجانب الرومي مبكرة عن تلك التي دارت علي الجانب الفارسي . وكتب الكثير عن تلك الفتوحات ، وخاصة في الفترة من بداية القرن الثامن ٧٠٠م إلي منتصف القرن العاشر ٩٥٠م ، وهي الفترة المؤثرة للغزوات الإسلامية . إلا أن الفترة الباكورة . النصف الأول من القرن السابع . هي الأجدر بمزيد من الدراسة والبحث لما تمثله من ركيزة لعمليات الفتح ، وما تبينه من طبيعة العلاقات بين الدولة الإسلامية الناشئة وجيرانها من الفرس والروم . وكان الفرس في قمة نشاطهم الحربي ، في الوقت الذي عمل فيه الروم علي إحداث تغييرات عسكرية للجيش الإمبراطوري . بدءا من عهد طبريوس وموريس . بعد قرون من الركود . ولا ريب أن الإمبراطورية البيزنطية (الروم) لم تكن في حالة انهيار عندما واجهت المسلمين في تلك الفترة .

كما تعطينا أحداث تلك الفترة أيضا صورة حقيقية للمقاتل المسلم ، ومفهومه عن الحرب ، وفكره العسكري ، تغاير كل المفاهيم التي عكستها كتابات تقلل من شأن ذلك المقاتل الذي بدا فوزه وانتصاره . في تصورهم . وكأنه جاء بالصدفة . وإن أعادت بعض دراسات جادة الأمور إلي نصابها فهي قاصرة عن بيان القيمة الحقيقية للقادة وخططهم الحربية وتحركاتهم في ميادين القتال . وفي هذه الدراسة نحاول استجلاء طبيعة الحياة العسكرية وفن الحرب والنظم الحربية علي الجانبين الإسلامي والرومي (البيزنطي) في مرحلة الصدام المبكر . أيضا معرفة ما أحدثته الفتوحات الأولية علي كل من الإستراتيجية والتكتيك للروم .

اشتقت كلمة إستراتيجية Strategia من لفظة Stratos أي الجيش و Strategos أي قائد الجيش وهي تعني فن القيادة ، علي العكس من المفهوم الحديث للكلمة " فن وتقنية استغلال كل المصادر المتاحة لتحقيق أهداف الحرب " ^(١) . والواقع أن كلمة إستراتيجية تغير مدلولها عبر العصور ، فصارت تستخدم علي المستوي المدني أيضا كما هو معلوم . غير أن مدلول الإستراتيجية العسكرية ظل يعني ليس فقط استخدام القوة ، بل التهديد باستخدامها أيضاً . ولا تهتم الإستراتيجية العسكرية بالحرب فحسب ، وإنما التهديد بنشوبها . بينما تعني كلمة تكتيك علم الحركة في الحرب أي أن التكتيك هو إستراتيجية فن الحركة ، والتسلح ، وحركة الجيش . أما الدعم اللوجستي ، فهو ما يتعلق بالإمداد والتموين أو ما تمثله إدارة التنظيم والمهمات .

ولم يكن الأمر سهلا دوما بالنسبة لقادة الروم وبيزنطة وحكومتها في التفرقة بين الإستراتيجية والتكتيك . حيث تفيدنا المصادر والأبحاث العسكرية الخاصة بتلك الفترة أن الاثنين كانا كلا لا يتجزأ . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يعيننا هو مدي التغير الذي أحدثته الفتوحات الإسلامية علي كل من الإستراتيجية والتكتيك للدولة البيزنطية أو دولة الروم .

عرض تاريخي

الروم أو البيزنطيون ، هم سكان القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، تلك الإمبراطورية التي قسمها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩١ م بين ولديه هونوريوس الذي كان القسم الغربي من نصيبه ، وأركاديوس الذي تولى القسم الشرقي . ولم يكن يعني بذلك فصل الإمبراطورية ، فالعقيدة السياسية الغالبة تقول



الإستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم "الصدام المبكر"



د. فتحي عبد العزيز محمد

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
جامعة الباحة - المملكة العربية السعودية



fathyaziz7@gmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فتحي عبد العزيز محمد ، الإستراتيجية والتكتيك بين المسلمين والروم: الصدام المبكر - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ . ص ٨ - ١٥

(www.historicalkan.co.nr)



السيف لتغرق القدس في الدماء ، بعد مقتل ما يتجاوز التسعين ألفا من سكان المدينة . ويبدو أن ذلك الرقم مبالغ فيه . وهناك رقم آخر ذكره الراهب انطاكيوس ستراتيغوس الذي كان شاهد عيان لما جرى ، حيث ذكر بعد وصفه لهم بالخنازير البرية وهي تنقض علي المدينة المقدسة ، وقد ملأ الجو زئيرهم وفحيحهم أنهم قتلوا كل من وجدوه بل ودون الإبقاء علي حياة النساء والأطفال ، فبلغ عدد القتلى حسب تقديراته ٦٦٥٥٥ شخصا^(٥) .

ويبدو أن الأحوال كانت مواتية تماما للفرس ، فلم تتوقف الجيوش الفارسية عند ذلك الحد ، بل تقدم أحد جيوشها مخترقا آسيا الصغرى حتى وصل سنة ٦١٥ إلي مدينة كريسوبوليس المواجهة للقسطنطينية . في الوقت الذي تقدم فيه جيش آخر نحو مصر ، حيث فقدت الإمبراطورية باستيلاء الفرس عليها أكبر مورد للقمح^(٦) . وحدثت ضائقة اقتصادية في القسطنطينية بسبب ذلك . في الوقت الذي انقطع فيه عن هرقل كثير من الموارد البشرية التي كانت توفرها له البلقان والشام ومصر^(٧) .

ويمكن أن يعزو أمر تلك الكارثة إلي الوضع العام الذي كانت عليه الإمبراطورية قبل عام من تولي هرقل الحكم . حيث تولي إمبراطورية نصفها في أيد أجنبية ، وخزانة مستنفدة ، ورعايا تدنت أخلاقياتهم ، وإدارة مدنية سيئة السمعة . وفيما يتعلق بالجيش فالموقف أسوأ ، حيث كانت رواتب الجند تتأخر أو تتوقف ، وذلك حسب وضع الخزانة الإمبراطورية . ومفهوم أن تلك الظروف تضعف عزيمة الجند للقتال ، وتجبر الأباطرة علي الاتجاه لجلب المرتزقة الأجانب غير الموثوق بهم . أيضا كان ذلك الموقف هو الذي أتاح للآفار ومعهم البلغار والسلاف اجتياح البلقان التابعة للروم بسهولة ، وسمح للفرس . كما رأينا . بالتقدم والتوغل في أراضي الإمبراطورية^(٨) .

ولا شك أن وضعاً مثل ذلك ، كان حرباً به أن يبعث اليأس في قلب الإمبراطور الذي فكر جديداً في ترك القسطنطينية والتوجه إلي قرطاجنة ليس بأساً من مواجهة الفرس كما قد يتبادر إلي الذهن وإنما ليتخذ منها قاعدة ، وتدعمه أسرته الحاكمة هناك . والواقع أن تغيير العواصم كان موروثاً تاريخياً ، فقد نقل بعض الأباطرة عاصمة حكمهم من روما إلي أماكن أخرى ، مما دفع بهرقل لمثل هذا التفكير^(٩) . خاصة بعد أن فقد جانباً كبيراً من العمق الاستراتيجي للدولة في جانبها الشرقي .

ولأول مرة كان علي الإمبراطورية أن تدافع حقاً من أجل البقاء . وبالحاح من البطريك سرجيوس بطريك القسطنطينية الذي ناشده البقاء قرر هرقل التراجع عن موقفه . ولأن الإمبراطورية في حاجة ماسة إلي المال ، فقد دفع سرجيوس إليه بأموال وكنوز الكنيسة . ويبدو أن ذلك كان قرصاً ضخماً حيث شمل معظم ذهب وفضة الكنيسة^(١٠) . ولأجل استنهاض معنويات البيزنطيين صبغت المواجهة مع الفرس بصبغة دينية . لقد صارت حرباً دينية خاصة وأن الفرس عند مهاجمتهم بيت المقدس استولوا علي الصليب المقدس عند المسيحيين . كما قتلوا وأسروا الرهبان والقساوسة وكان بطريك بيت المقدس من بين الأسرى . لقد كانت أول حرب شنتها بيزنطة بدافع الحماسة الدينية ضد الفرس عباد النار .

هادن الإمبراطور هرقل كل من السلاف والآفار ليتفرغ لتلك الحرب ، وتمركز هرقل في الأناضول مع ما تبقى من الجيش الرئيسي ، وجيوش تراقيا ، وأرمينيا ، والشرق ، وأعد عدته للهجوم . بدأ هرقل

بإمبراطورية عالمية واحدة . لذلك كانت المراسم في أي من القسمين تسري في القسم الآخر ، إلا أنه وبمضي الزمن تباعد القسمان . وتعرض القسم الغربي للوقوع في أيدي الجماعات الجرمانية التي مزقته إلي ممالك تعاقبت في حكمه ، بينما ظل القسم الشرقي متماسكاً . وعرف باسم الإمبراطورية الرومانية ، في الوقت الذي أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو الشرقية ، ثم الإمبراطورية البيزنطية .

وتجدر الإشارة إلي أن الإمبراطورية البيزنطية لم تعرف في زمنها بهذا الاسم . وكان مصطلح بيزنطي يستخدم بالفعل للدلالة علي قاطني القسطنطينية فقط ، تلك المدينة التي شيدها قسطنطين علي أنقاض بيزنطة القديمة علي مضيق البوسفور ، لتكون عاصمة للإمبراطورية بدلاً من روما . وأطلق عليها روما الجديدة ، في الوقت الذي أبت فيه إلا أن تحمل أسمه ، بينما صار الاسم القديم بيزنطة يدل علي حقبة طويلة استمرت ألف ومائة عام هي عمر الإمبراطورية البيزنطية . ولقد ظل رعايا الإمبراطور في القسطنطينية يشيرون إلي أنفسهم علي أنهم رومان Rohomaioi . تمسكاً بالمجد الروماني التليد . كما وصفهم القرآن الكريم بهذا الوصف . حيث جاء ذكرهم في سورة باسم الروم . " **الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** " . وهو ما عرفهم به العرب أيضاً .

وإذا كان القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية تعرض لقوي فتكت به ، فإن القسم الشرقي (الروم البيزنطيون) كان طيلة الوقت في مواجهة تحد دائم من قبل جيرانه صغرت أم كبرت قوتهم . فعلي الجانب الشرقي وهو ما يهمنها كان الفرس ، ومن بعدهم القوي الإسلامية ... ناهيك عن باقي الجوانب . مما فرض علي الإمبراطورية استراتيجية معينة ترتكز علي محورين : ففي مواجهة جيرانها كان عليها أن تعمل من أجل البقاء ، فالجيران منهم الأعداء ومنهم من يحتمل عداوته . أما المحور الثاني هو العمل علي تحقيق عقيدتها السياسية الرامية علي المدى البعيد لاسترجاع ما فقدت في الغرب من أراضي . بيد أن ذلك الهدف الاستراتيجي . أي المحور الثاني . كان بعيد المنال ، خاصة خلال القرنين السابع والثامن اللذان يوصفان بأنهما عصور بيزنطية مظلمة . فالإمبراطورية لم تعد قادرة علي التمسك بدفاعاتها في مواجهة الضغط الخارجي^(١٢) ، ففي خلال سنوات قليلة استولي السلاف والبلغار في أوروبا علي أجزاء واسعة مما كان يعرف سابقاً بيوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وشمال اليونان ، والبلغار . بينما أخذت تضعف سيطرة الإمبراطورية البيزنطية علي شبه الجزيرة الإيطالية^(١٣) حيث تركت لمقتسميها .

كانت بالفعل كل تلك الأعمال بداية فترة مظلمة في تاريخ الإمبراطورية . وكان أخطر تلك الهجمات أثراً ما دار علي الجانب الشرقي لدولة الروم وهو الغزو الفارسي ، وما تلاه من فتوحات إسلامية . فقد قام الفرس الساسانيون ، بعد اعتلاء هرقل (٦١٠ - ٦٤١) العرش الإمبراطوري بعام - أي في سنة ٦١١ م - بمهاجمة الإمبراطورية البيزنطية^(١٤) . حيث قاد الملك الفارسي خسرو الثاني قواته التي اخترقت الحدود الفاصلة بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية الرومانية . وقاموا بغزو شرق الأناضول ، فاستولوا علي أنطاكية ، ثم دمشق ومنها إلي قليقية ، وطردها البيزنطيين من أرمينيا . وجاءت الطامة الكبرى باستيلائهم علي بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، وذلك بعد حصار دام لأكثر من ثلاثة أسابيع ، فجعلوها طعمة للنيران ، وأعملوا في أهلها

وقادة الشعوب إلى الإسلام^(١٦). وأدى بالتالي إلى تغير جذري في الإستراتيجية الإسلامية.

ومهما يكن من أمر ، فإن سرية مؤتة لها قيمتها من حيث الفكر العسكري أو الإستراتيجية والتكتيك الحربي ، فمن الناحية الإستراتيجية كانت محاولة لتأديب عرب الشام وإرهابهم. أما الناحية التكتيكية فكانت مثالا للمرونة وسرعة التحرك وفق الإمكانيات المتاحة. لقد فوجئ المسلمون بقوات الروم ولم يكن ذلك في حسابهم. وكان عليهم العمل سريعا. بدءاً من الموقع الذي رآوه مناسباً كميدان قتال ، فالموقع الذي اختاره المسلمون للقتال كان حصيناً ، حيث الحواجز الطبيعية التي يمكن لهم التحصن بها أمام الأعداد الكبيرة لقوات العدو. وكان علي القائد الذي اسند له اللواء بعد استشهاد زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحه أن ينقذ المسلمين ويقلل عدد الخسائر. فقام خالد بن الوليد بعمل تكتيكي يدل علي المرونة وسرعة الحركة والقدرة علي خداع العدو. حيث عدل نظام الجيش ، بأن جعل مقدمته ساقه ، وساقه مقدمته وميمنتها ميسرته وميسرته ميمنتها فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم وقالوا: قد جاءهم مدد. وبذلك أمكن للقائد ، وما يمكن أن نسميه فن القائد أن يرجع إلي المدينة دون أن يجرؤ العدو علي مطاردته.^(١٧)

وإذا كان مدلول الإستراتيجية يعني استخدام القوة ، أو التهديد باستخدامها. فإن التهديد باستخدام القوة والقدرة علي فعل ذلك بدا جلياً في غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة. حيث علم الرسول صلي الله عليه وسلم أن الروم تجمعوا في جنوب الشام وقد انضمت إليهم بعض القبائل العربية. وكان لابد من التهديد باستخدام القوة "ففي رجب من هذه السنة أمر النبي صلي الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم ، وأعلم الناس مقصدهم لبعده الطريق ، وقسوة العدو. وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة وري بغيرها"^(١٨). ويتبين لنا مما ذكره أبو الفدا كيف كان يأمر للغزو والتجهز للقتال ، كما بين لهم مصاعب الطريق وقدرة العدو ليعدهم معنوياً لهلاقة عدو لا يستهان به.

وسمي الجيش بجيش العسرة لجذب البلاد وشدة الحر ، ومما تذكره المصادر ما يبين لنا طريقة التمويل والإمداد وهو ما يعرف حالياً بالدعم اللوجستي. فقد أمر النبي صلي الله عليه وسلم المسلمين بالنفقة ، فأنفق أبو بكر الصديق جميع ماله ، وأنفق عثمان نفقة عظيمة قيل كانت ثلاثمائة بعير طعماً ، وألف دينار ، وروي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال لا يضر عثمان ما صنع بعد اليوم دلالة علي عظمة الإنفاق في سبيل الله^(١٩).

وخرج الرسول صلي الله عليه وسلم ومعه ثلاثون ألف مقاتل ، وأما الخيل فكانت عشرة آلاف ، ولقوا في الطريق من المصاعب الكثير حيث شدة العطش والحر. وبلغ الرسول صلي الله عليه وسلم تبوك ، وأقام بها عشرين ليلة. وهنا التساؤل ، ما الدافع لهذه الغزوة في وقت شديد الصعوبة علي المشاركين فيها؟ ولماذا لم يتم قتال بين المسلمين والروم؟ وما النتائج التي حققتها؟. لقد تنامي إلي علم الرسول الكريم ما كان يعد له الروم وحلفائهم ، لذا تطلب الأمر مواجهة التهديد. الذي يمثل ذلك التكتل ضد المسلمين. دونما إبطاء أو توان ، حتى يتبين للأعداء أن المسلمين قادرون علي الردع الحربي. ولقد انسحب الروم وأتباعهم ، قبل أن تصل قوات المسلمين ، فقد وصلتهم المعلومات عن ضخامة جيش المسلمين وارتفاع معنوياتهم ،

الحرب ضد الفرس في أبريل سنة ٦٢٢ ، وأمكنه أن يحرر آسيا الصغرى من سيطرة الفرس. وفي عام ٧٢٧ م تمكن من مهاجمة الفرس في داخل بلادهم. وحدث الصدام بين الجيشين في مقابل نينوى بالقرب من الموصل شمالي العراق ، وكان النصر حليفاً له^(٢٠).

لقد بينت أحداث الصراع الفارسي الرومي مدي مقدرة هرقل الحربية الفائقة ، كذلك قدرته علي التخطيط الجيد. وحق له أن يسعد بانتصاره علي الفرس. بيد أن السعادة لم تلازمه طويلاً ، فما استرده في بضع سنين ، فقدته أيضاً في بضع سنين في محاربه المسلمين الذين أحدث قادتهم انقلاباً في التاريخ العسكري في عالم العصور الوسطى. وهذا ما نبغي ، وما سنعرض له.

لم يكن المسلمون في يوم من الأيام دعاة حرب ، بعكس تلك الصورة التي حاول بعض المستشرقين تسويقها عنهم. ولأن الإسلام دعوة إلي الناس كافة في كل زمان ومكان ، فإن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، قام بعد صلح الحديبية بإرسال الرسل إلي الملوك والأباطرة يدعواهم بدعاية الإسلام. وكتب معهم كتباً مؤداها الترغيب في الإسلام ، فبعث الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي إلي هرقل ، فلقبه في بصري بالشام ، وقيل في بيت المقدس. ورد هرقل علي الرسالة رداً حسناً ، وقال لحامل الرسالة : "عندما يسلم به أقرب الناس إليه نري رأينا"^(٢١). ومن هنا بدأت العلاقة بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام.

كانت البداية إذن بين الجانبين محاولة لهد يد السلام وعرض رسالة الإسلام. ولا ريب أن علاقات المسلمين بالروم علي مر العصور لا يمكن أن يكون لها إلا هذا المدخل الطبيعي ، ولا يمكن أن تفهم علي وجهها الصحيح بمعزل عن منبعها الأول وهو عصر النبوة^(٢٢). لقد كانت كتب الرسول دعوة للإسلام ، ولحسن الجوار والعلاقات السلمية. بيد أن الفساسة. حلفاء البيزنطيين الذين كانوا بمثابة إمارة حدودية عربية عازلة بين الروم وباقي الجزيرة العربية. كانوا سبباً في قلب الموازين. فقد استقبلوا كتب الرسول بصورة عدوانية وقاموا بقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث رسول الله إلي حاكم بصري ، كما قتل فروة بن عمر الجذامي عامل الروم في معان عندما أعلن إسلامه. وبعد ذلك العمل عملاً عدائياً ، وبمباشرة إعلان للحرب^(٢٣). وعندما علم الفساسة بمقدم المسلمين إليهم لعقابهم (سرية مؤتة ٨هـ / ٦٢٩ م) جراء ما اقترفوا في حق مبعوث الرسول سارعوا باستعداد البيزنطيين عليهم. لقد أشعل عرب الشام فتيل القتال بين المسلمين والروم.

ومن هنا بدأت العلاقة التي أراد لها الرسول الكريم أن تكون علاقة سلام بينما أراد لها الروم أن تكون علاقة حرب وعدوان. وبمعركة مؤتة بدأت الحرب بين الدولتين ، أو العداء. وليس عداء أو تنافس بين عقيدتين كما ذهب المؤرخ نيكول حيث ذكر أن الرسول صلي الله عليه وسلم كان يعتبر المسيحيين حلفاء ، ولكن فقط بعد صدام أتباعه مع القبائل العربية المتحالفة مع بيزنطة في مؤتة فإن أصحاب العقيدتين صاروا متنافسين^(٢٤) وهذا القول فيه تجن ، حيث نظر الإسلام إلي النصراني علي أنهم أقرب مودة ، بيد أن ما فعلته القبائل المسيحية شمال الجزيرة العربية ضد المسلمين تجاوز تلك المودة وكان السكوت عليه يعني تهديد أمن الدولة الإسلامية الناشئة.

وتجدر الإشارة إلي أن ذلك المسلك من قبل الروم اصطدم بإستراتيجية الدولة الإسلامية الناشئة في جانبها السياسي ، حيث كانت تعتمد في الأساس علي أساليب الإقناع من خلال دعوة الحكام

وقد عارض الخليفة الحل الثاني بشكل قاطع. فالعودة إلى الجزيرة غير واردة ، وفتح بلاد الشام قد بدأ ولا تراجع عنه ، ويجب تدعيمه.

وأمام ذلك الموقف المعقد كان لابد من عمل سريع. قرر الخليفة أبو بكر الاستعانة بخالد بن الوليد الذي خاض معارك من نوع المعارك الكبرى في مواجهة الفرس ، ولخبرته تلك فهو مناسب لقيادة الألوية في الشام. لقد كان استدعاء خالد إلى الشام ضرورة قدرها الخليفة خاصة بعد أن تمكن خالد من إنجاز المرحلة الأولى من مهمته بفتح الحيرة. وكانت المدائن هي المرحلة الثانية والأخيرة من تلك المهمة. كما أضعف فتح الحيرة قوة الفرس ولم يعد بإمكانهم التدخل في العمليات الحربية بالشام إن فكروا في توحيد جهودهم مع الروم للإطباق علي المسلمين. لذلك كان ممكناً أن يتوجه خالد إلى الميدان الذي يحتاج دعمه. ولا يعني ذهاب خالد إلى الشام ترك الجبهة الفارسية بلا تواجد إسلامي ذا شأن. فقد أمر الخليفة بأن يترك خالد نصف قواته بها تحت قيادة المثنى الذي خلفه في العراق.^(٢٣)

واجتاز خالد بادية الشام في وقت قياسي ونزل علي بصري الحصينة وعليها أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، واجتمعوا عليها حتى فتحها الله علي المسلمين ، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر. كانت أولي ثمار انضمام خالد إلى جيوش الشام ، كما رأينا ، الفوز ببصري. وجاء دور أجنادين ، حيث كانت قوات الروم محتشدة في أعداد كبيرة بأجنادين. وخشي خالد أن تسارع تلك القوات بتقييد حركته ومنع تقدمه ، لذلك عمل علي إجهاد أي محاولة من هذا القبيل. وكتب إلي قواده بالتجمع عند أجنادين ، وحشدت القوات الإسلامية علي مسافة ميل من قوات الروم ، وبلغ عددها حوالي اثنين وثلاثون ألف مقاتل. وبدأ يستطلع أخبار القوات الرومية لجمع المعلومات عنها. وفي صباح الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣هـ ، بدأ في التحرك في تشكيل مفتوح علي مسافة خمسة أميال حتى لا يعطي فرصة للعدو من الالتفاف حول قواته. استمرت المعركة يومان لم تكن نتائجها الأولية في صالح المسلمين غير أن خالد دفع بقوات الاحتياط التي تمكنت من قتل قائد الروم ، وعندها تفرق شمل الروم.

كان هرقل يتابع الموقف من حمص ، وعندما علم بهزيمة قواته أدرك أن جيوش المسلمين لن تتوقف عند هذا الحد ، فعمل علي الإعداد لمعركة الحسم وإبادة الجيوش الإسلامية وطردها من الشام نهائياً. وقد حاول جر جيوش المسلمين بعيداً عن الصحراء التي تمثل مسرحاً جيداً للحرب بالنسبة للمسلمين وهو ما لم يتم. وكان عليه ليحقق هدفه بعدما لم يتمكن من استدراج المسلمين أن يحشد أكبر عدد من الجند ليهاجم. وكانت معركة اليرموك ٦٣٦م.

اختلفت آراء المؤرخين حول طبيعة تلك المعركة ، وخطة كل من الطرفين فيها. فهل كانت خطة الروم دفاعية أم هجومية ، والعكس بالنسبة للمسلمين هل كانت خطتهم هجومية أم دفاعية. ولا شك أن الروم لم يكن أمامهم غير الهجوم خاصة بعد تلك الهزيمة الكارثية في أجنادين ، وكان بإمكان الروم علي الرغم من هزيمتهم أن يحشدوا أعداداً أكبر فدولة الروم بما لها من إمكانيات كانت قادرة علي أن تتجاوز هزيمة في معركة مهما كانت آثارها. بينما لجأ المسلمون لا إلي الدفاع فحسب ، بل إلي الدفاع والهجوم معاً. الدفاع أولاً لاستنزاف أكبر

مما استلزم من جانبهم مزيد من الإعداد^(٢٠). وإذا لم يحدث الصدام إلا أن تلك الغزوة أثمرت. فقد حدث خلال إقامة الرسول صلي الله عليه وسلم بتبوك أن صالحه أهلها كما أقبلت إليه الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه علي دفع الجزيرة. ومن تبوك أوفد الرسول صلي الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلي دومة الجندل فأستولي عليها ، وأسر حاكمها. اهتم الرسول صلي الله عليه وسلم بالحدود الشمالية ، وما قد تمثله من خطر علي الدولة ، فأعد في العام الحادي عشر من الهجرة جيشاً لمحاربة البيزنطيين وعين له أسامة بن زيد ، إلا أنه توفي قبل أن يتحرك الجيش. غير أن الخليفة أبو بكر الصديق أنفذ الجيش وعلي رأسه أسامة لمحاربة الروم كما أراد الرسول الكريم. خرج أسامة مع غرة ربيع الآخر سنة احدي عشر للهجرة ، حتى وصل تبوك فلم يجد أحداً ، عندها قرر العودة ، وعند وصوله استقبله أبو بكر الصديق^(٢١).

بدأت المعارك في عهد الخليفة أبي بكر في صورة المعارك الكبرى ، فبعد أن عاد أبو بكر من الحج ، بدأ يفكر في فتح الشام. كانت بلاد الشام أرضاً جميلة ، وهي أجمل أقاليم الإمبراطورية البيزنطية آنذاك فمناخها معتدل بتأثير البحر المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الأجواء الشمالية. وكانت أنطاكية عاصمة المناطق الآسيوية من الإمبراطورية وتأتي بعد القسطنطينية في البهاء والأهمية السياسية. وكانت بلاد الشام سياسياً تتكون من إقليمين إقليم سوريا وهو يمتد من أنطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الأعلى من البحر الميت. ويضم الأماكن المقدسة للأديان السماوية ومدناً لا تقل غني ومدنية عن سائر مدن العالم وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن إقليم الأردن والذي يقع بين سوريا وفلسطين ولكن هذه المنطقة يمكن اعتبارها إقليماً من الناحية الجغرافية فقط وليس من الناحية السياسية أو الإدارية. وهذه الأقاليم جميعها تابعة للروم. لذا فإن فتح الشام يعني الكثير للقسطنطينية.^(٢٢)

لقد كان فتح الشام ضرورة فرضتها التهديدات المتكررة من قبل الروم وجيرانهم من القبائل العربية المتحالفة معهم. وبالتالي فإن تأمين الحدود الشمالية كان أمراً فرضته الأوضاع عند تلك الحدود. وتوجهت وفقاً لهذا المطلب الاستراتيجي أربعة جيوش إلي الشام يقودها أشهر قادة المسلمين. الجيش الأول بقيادة أبي عبيدة وتوجه إلي حمص ، الجيش الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان وتوجه إلي دمشق ، الجيش الثالث بقيادة شرحبيل بن حسنة وتوجه إلي الأردن ، أما الجيش الرابع فكان بقيادة عمر بن العاص وتوجه إلي فلسطين.

عندما انطلقت ألوية المسلمين من المدينة ، تلقى جيش الروم معلومات التحرك بواسطة العرب النصارى. وعندما أخبر بها هرقل أدرك أن هذا التحرك هو محاولة جادة لفتح إمبراطوريته. وكان أخطر ما بلغه - بعد ذلك بوقت قصير - هو هزيمة قوات التغطية الرومانية التي أرسلت إلي أجنادين علي يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين ، لذلك قرر أن ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين. وبناء علي أوامره بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم في التحرك إلي أجنادين من الحاميات المنتشرة في أنحاء سوريا وفلسطين. وقد تزايدت الحشود الرومية وعلم بأمرها المسلمون. وتم إبلاغ الخليفة بالأمر ، بدأ الموقف سيئاً ، كان الروم يحشدون قواتهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية شاملة في الميدان. وليس أمام المسلمين إلا أن يختاروا حلاً من اثنين: إما الحرب ضد الروم في معركة من الثبات ، وإما الانسحاب السريع إلي الجزيرة العربية ، وهما حلان غير مناسبان للتفكير بشأنهما.

والضرورات الاستراتيجية التي تواجدت في ميدان القتال . لقد كانت حركة هرقل من فلسطين إلى أنطاكية حركة منطقية وسليمة من وجهة نظر عسكرية ، ولم تكن هروبا من مواجهة المسلمين . لقد أظهر ذلك التحرك قدرة هرقل علي تقييم الموقف تقييما سليما . وإن جاء ذلك متأخرا ، بل وعلي حساب خسارة معركة أولي هي أجنادين . أما في اليرموك فإن ما قدره الرجل من تكتيك لم يتورط فيه المسلمون كما رأينا . كان فن القيادة وإدارة المعارك أقوى في المعركتين من جانب المسلمين .

القيادة :

قادة الجيوش الرومية في مرحلة الصدام المبكر

ترجع شهرة القادة إلي ما حققوه من انتصارات ، وليس لما لحق بهم من هزائم ، وذلك أمر بديهي غير أن هرقل بلغ شهرته بما حقق من نصر وبها لحق به من هزائم . لقد كان شخصية مأساوية ، علي الرغم من شجاعته . فهو أول إمبراطور يقود جيوشه بنفسه منذ أجيال ، ولأنه ألقى بكل ألقابه الإمبراطورية واتخذ لنفسه في العام ٦٢٩ لقب باسيلوس الذي كان يلقب به الحكام الإغريق وذلك ليزعم بالحق الإلهي في الحكم حيث قامت الدعاية لحروبه علي خلفية دينية كما سوق دعائه الحروب التي خاضها علي أنها حروبا دينية ليلهب حماسة جيوشه . ولعل تلك الشهرة التي اكتسبها هرقل أقلقت المسلمين لكنها لم تقف في عضدهم بل زادتهم إصرارا . وعلي الرغم من أنه كان قائدا قديرا فإنه كان يميل إلي الشك كثيرا . مما كان يدفعه إلي التدخل في سير الأحداث اليومية للعمليات ، وإن لم يكن حاذقا في هذا الشأن . وإذا كانت أكبر انجازاته هو استرجاع ما فقدته الإمبراطورية في عهود سابقة بل وفي عهده أيضا ، فإن مأساته الكبرى هو فقدان جانب كبير من الإمبراطورية أمام القوي الإسلامية الناشئة . ويشير المؤرخ ستيفن رنسيما إلى أن السنوات التي أعقبت وفاة هرقل كانت أحلك أيام التاريخ البيزنطي ، ذلك أن فتوحات المسلمين لم تتوقف وهجماتهم لم تنقطع ^(٢٨) .

ومن بين القادة الروم في فترة الصدام المبكر يأتي تيودور القربلاط أخي هرقل والمعروف عنه قليل . لقد كان القائد العام الذي قاد الروم في أجنادين وهو قائد متمرس قاد عددا من الحملات ضد جيوش الفرس في الشرق ، وتصوره المصادر الإسلامية علي أنه شخص عدواني طائش . وكثيرا ما تجاهل تيودور تعليمات الإمبراطور بخصوص انتظار الإمدادات والتعزيزات . وقد أبعد هرقل إلي العاصمة القسطنطينية بعد كارثة أجنادين .

أما القائد تيودور ترثوريوس Theodore Trithourios فهو الذي قاد جيوش الروم لطرد المسلمين نهائيا من الشام عام ٦٣٦ م ، وهزم في معركة اليرموك ^(٢٩) . وكان وزيرا للمالية ، عمل علي رفع معنويات الجند بسبب تخوف هرقل منهم فيما يتعلق بسداد رواتبهم . أما فاهان فكان قائدا ميدانيا للقوات الرومية في اليرموك ويعتقد أنه من أصول أرمينية ، وبلي هرقل في المسؤولية الحربية عن القوات الرومية في الشام .

قدر ممكن من قدرات العدو ، ثم انتهز الفرصة المناسبة للهجوم الخاطف .

وبالفعل تؤكد الأعداد الكبيرة لقوات الروم وتنظيمها القتالي أنها في تشكيل قتالي هجومي بينما اعتمد خالد بن الوليد خطة من مرحلتين الأولى دفاعية لاستنزاف قدرات العدو ، ثم انتهز الوقت المناسب للهجوم . حيث ابقى لذلك الوقت جزءا من قوات الخيالة تعمل علي هذه الغاية ^(٢٤) . وهو ما حقق له النصر بفضل الله . ويعتبر ذلك نصرا تاريخيا تفوق فيه الفرسان المسلمون خفيقي الحركة والذين برعوا في حرب الصحراء علي القوات الرومية الثقيلة البطيئة الحركة ^(٢٥) .

لقد بينت تلك المعركة طبيعة التكتيك العسكري الجيد لدي الجيش الإسلامي . وكيف عمل علي تحريك القوات في الوقت الملائم وبالشكل الذي يمكنها من تحقيق الإستراتيجية المستهدفة . فقد تمكن المسلمون في سنوات قليلة من بدء تكوين الدولة الإسلامية من امتلاك بصري الحصن المهم علي حدود بيزنطة ، والاستيلاء علي دمشق ، بل أن سوريا كلها صارت في أيديهم في عام ٦٣٦ . كما أصبحت فلسطين إقليها عربيا مع ٦٣٧ أو ربما عام ٦٣٨ ، بعد استلام المسلمين للقدس ، وأجبر الروم علي مغادرة مصر بعد ذلك بقليل ^(٢٦) . لا ريب أن هزيمة الروم أمام الجيوش الإسلامية متعددة الأسباب وتعود في بعض منها إلي الجانب البيزنطي ، من بين تلك الأسباب عدم الكفاءة ، والفتور وسخط الجند ، وإجراءات الدفاع غير الكفؤة إن الإستراتيجية التقليدية التي اتبعتها بيزنطة في وضع خططها القتالية اعتيادا علي الأعداد الكبيرة للقوات في إطار معارك كبرى لم تمكنها من تحقيق أي فوز . كما أن التكتيك الذي حاولت فرضه علي الجيوش الإسلامية لم ينفذ علي أرض الميدان بل كان الميدان أكثر ملائمة للجيوش الإسلامية خفيفة الحركة التي تجيد حرب الصحراء .

الإستراتيجية والنكتة في الصدام المبكر

لا نختلف كثيرا مع المؤرخ نيكول فيما ذهب إليه من أن الغزوات الإسلامية أصابت بيزنطة بالمفاجأة ، بل يمكننا القول أنها ضربت الإستراتيجية الرومية في الصميم . فهم . أي الروم . كسبوا لتوهم حربا مكلفة ضد أعدائهم التقليديين ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أما قوة حربية ناشئة وربما يعزو ذلك إلي أن آلاف السنين عبر التاريخ علمتهم ألا يتوقعوا خطرا من الجزيرة العربية ^(٢٧) . ولعل ذلك يفسر ما يذهب إليه البعض بالقول بأن الروم لم يعطوا كثير اهتمام ، أو ربما لم يهتموا بالمسلمين ظنا منهم أنهم جماعة من رجال الصحراء يرغبون بالسلب والنهب . ومثل أولئك أمرهم يسير متروك للمناطق الحدودية الموالية للدولة البيزنطية .

كذلك نظر الروم إلي الإسلام نظرة خاطئة فظنوه نحلة من النحل أو بدعة جديدة . لكن رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل كانت كفيلة بإعلامه بالحقيقة وتزيل أي لبس أو سوء ظن . وبينما كان اندفاع الروم بتحريض من القبائل الحدودية سببا في تورط الروم في حرب واستعداد المسلمين . فإن سوء تقديرهم للأحداث علي الأرض بدا واضحا . بدا ذلك واضحا في أجنادين وحينها كان هرقل في حمص . ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لهرقل مما دفعه إلي إعادة النظر في استراتيجياته الحربية ، والتمركز في أنطاكية . وقد حاول بعض المؤرخين تفسير الأمر علي أنه هروب من جانب هرقل ، لكن ذلك يجانب الواقع ، ولا يمكن القبول به . فعندما قرر هرقل مغادرة فلسطين إلي أنطاكية فإن ذلك كان بسبب المستجدات العسكرية

قادة الجيوش الإسلامية في الفترة المبكرة من الصحاح

كانت أولى المعارك كما رأينا هي معركة مؤتة ، وهي تدل علي شجاعة المقاتلين ، وقادتهم ، وقائدهم الأعلى الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، لقد قاد بنفسه جيشه لغزو الروم في تبوك. وقد قاد الجيش في ظل ظروف صعبة ، ولقت أنظار المسلمين إلي ضرورة تأمين الحدود الشمالية لدولة الإسلام عندما علم بتجمع الروم مرة أخرى في تبوك ، فأعد لإرسال حملة بقيادة أسامة للتأكيد علي هيبة الدولة الجديدة.

بينما أخذ الخليفة الراشد أبي بكر الصديق بعد أن فرغ من حروب الردة في مواصلة التصدي للفرس والروم معا. وكان يتمتع بحس حربي مرهف سواء علي الجبهة الفارسية أو الرومية ، خاصة عندما نقل خالد بن الوليد من الحيرة إلي الشام ، في وقت كانت القوات الإسلامية تخوض معركة مصرية. لقد كان أبوبكر علي معرفة دقيقة بقدرات كل قائد من قادته.

وكانت الإستراتيجية التي اعتمدها أبي بكر الصديق في فتح بلاد الشام هي الاستيلاء علي أكبر جزء ممكن منها ، ولأنه كان يجهل حجم قوات الروم فإنه عندما أرسل الجيوش الأربعة أولا وقبل أن يلحق بهم خالد بن الوليد عمل علي عدم دعم جيش علي حساب الآخر. فهو يعلم أن جيوش الروم ستكون غفيرة كثيرة العدد ، لذا أمر قادته أن يحرسوا علي التماس فيما بينهم حتى إذا تعرض أحدهم لخطر يمكن للآخر مساعدته. كما أمر أن يتولي القيادة أبو عبيدة الجراح في حالة حشد جميع الأولوية^(٣٠).

أما الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد كان عالي الهمة ويتمتع بمهارة حربية فائقة وإذا كانت الفتوحات قد بدأت في عهد سلفه فإنه قاد حركة التوسع الكبرى والفتوحات. وتمتع بشخصية حازمة تجاه قادته مما حقق الانضباط في جيوشه. قام كذلك بإنشاء ديوان للجند حيث تسجل فيه أسماءهم ، وأعطيتهم (رواتبهم) ، كذلك أقام جيوش الأمصار. كما عمل علي توفير الخيول للقوات المحاربة حيث كان العجز واضحا في تلك الخيول في البدايات الأولى للدولة الإسلامية ، غير إن فتح الشام وهو منطقة توجد فيها تربية الخيول ، وفر متطلبات الجيش بهذا الخصوص.

ولدينا خالد بن الوليد ويصفه المؤرخ ديفيد نيكول بأنه أحد العظماء في مجال التكتيك العسكري عبر التاريخ^(٣١) وإن كان يستحق ذلك الوصف فإن ما جاء علي لسان الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بأنه سيف الله المسلول لا يعدله وصف أو لقب فالقتال هنا في سبيل الحق لأجل الحق. وإلي جانب أولئك القادة كان هناك أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من أصحاب المهارات الحربية.

التكتيك البيزنطي

تمتعت القيادة البيزنطية بعقلانية كبيرة مع انضباط أقل ، وقد أولت القيادة التدريبات اهتماما أكبر ، ولدينا كتاب باسم *Strategikon* عن التدريبات التي علي الضباط معرفتها ، قد تعود كتابته إلي الفترة المبكرة من عهد الإمبراطور هرقل. لقد اعتمد الجيش الرومي علي قوات مدربة تدريبيا عاليا خفيفة الحركة ومجهزة بشكل جيد . وكان الجانب الأكبر من تلك القوات هم الفرسان والمشاة الراكبة

المسلحة بالحرب والسهم والسيوف والدروع . غير أن ما يعيب مثل تلك القوات عندما تخرج للحرب هو حاجتها أن تعسكر علي مساحات واسعة كبيرة . إلي جانب شهور عدة تحتاجها قوات النخبة المتواجدة في العاصمة القسطنطينية للتحرك إلي فلسطين . أما القوات المحلية فإنها تفرض في تحركها أعباء علي السكان المحليين من ميرة ومأوي . وبعد زحف طويل فإن القوات والدواب تكون بلا شك في حاجة إلي راحة طويلة . ويلاحظ أن الجيش الرومي لم يكن مكتفيا ذاتيا ، وإنما اعتمد علي خطوط إمداد مكشوفة ، وكان الجيش يعتمد علي الخيالة الخفيفة في المناطق الخطرة وفي الليل فإن الاستحكاكات الميدانية تقام باستخدام عربات التموين ، وتأوي الخيول إلي مكان يعد لها . ووفقا للكتاب المشار إليه *Strategikon* فإن العربات التي تحيط بالمعسكر يقوم الرماة بحمايتها طوال الليل ، ومن خلفهم فراغ بعمق ما بين عشرة إلي خمسة عشر متراً ، يليه خيام المشاة الثقيلة ، ثم الفرسان يلي ذلك فراغ كبير في الوسط.

ولقد أمدتهم حروبهم مع الفرس بخبرة توقع مواجهات واسعة. وأن عليهم قدر الإمكان تجنب المعارك الكبرى. معتمدون في ذلك علي حرص القيادة واستبدال الأمر بالكمان ، وتكتيك حرب العصابات. واعتمد الروم في سوريا وفلسطين علي الدفاع في العمق المدعوم بقوات صغيرة سريعة الحركة لإضعاف العدو.

التكتيك الحربي الإسلامي

عكس التكتيك الإسلامي في الفترة المبكرة . إلي حد ما . مؤثرات رومية وفارسية مع الاعتماد علي الإبل لنقص في الخيول . وكان رماة السهام من المشاة الفرس يتقدمون في نظام متدرج لإطلاق وابل من السهام وفقا للأوامر يتلوها فوضي ومن المحتمل أن المسلمين اتبعوا نفس الطريقة وعرف رماة السهام الفرس بالسرعة التي يطلقون بها سهامهم بينما العرب استخدموا مثل البيزنطيين سهاما ثقيلة وأقل سرعة.

وكانت جيوش المسلمين في تلك الفترة صغيرة العدد تقوم علي الاكتفاء الذاتي لذا لم تكن تعتمد علي طرق إمدادات طويلة وتميزت علي أعدائها بحركتها السريعة. كما كانت لا تتورع عن العمل داخل عمق مناطق العدو ، واشتهر العرب بمقدرتهم علي الانسحاب السريع إلي الصحراء لخبرتهم السابقة بها من عمل بالرعي ومعرفة بموارد المياه. استخدمت المشاة الراكبة الإبل للتمتع بالحركة السريعة. بينما كان الخيالة يحملون خيول الحرب علي ظهور الجمال حتى أرض المعركة. وكانت سرعة المسلمين إستراتيجية أكثر منها تكتيكية. كما كان بإمكانهم التلاؤم مع المعوقات الطبيعية مثل الجبال والمستنقعات والأنهار ورمال الصحراء. وفيما يتعلق بالدعم اللوجستي فإنهم استخدموا الدواب المختلفة في النقل ، وعلي الرغم من مقدرة الجمال علي حمل المؤن فإن البغال كانت مناسبة في مناطق الجبال.

عناصر الجيش البيزنطي

تشكل الجيش الرومي إبان القرن السادس من عناصر ثلاث: الجند المحليون ، إلي جانب البرابرة ، والسيماخوس *symmachoi* وهي وحدات من أعراق مختلفة . وكان الإمبراطور موريث مهتما بالتسليح الجيد للقوات ، كما كانت تلك القوات تختبر في استعداد سنوي للتأكد من قدراتها القتالية ، وقد تزايدت أعداد الجند المحليون أثناء محاربته للفرس^(٣٢) . لقد عمل الإمبراطور موريث علي إعادة تنظيم الجيش

ومنطقية محسوبة. والهدف الرئيسي هو تأمين بقاء الإمبراطورية وفق إستراتيجية تتيح استغلالاً أمثل للموارد المتاحة والمحدودة نسبياً. لقد كانت الضرورة إذن وراء توجهات بيزنطة الدفاعية^(٣٥).

الإستراتيجية الإسلامية

وضع الخليفة عمر بن الخطاب قواعد السلوك الحربي لقواته والتي ترجع في أصولها إلي القرآن الكريم وهي تعادل ما نسميه الإستراتيجية. وكان يتم التخطيط جيداً للأعمال العسكرية. ويتجمع المتطوعون من القبائل المختلفة، وهم هنا يعملون في جيش منظم وليس في معارك قبلية، وكانت القوات تتجمع في منطقة بعينها. غالباً ما تكون المدينة المنورة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية. قبل أن ترسل تلك القوات إلي حيثما قرر الخليفة. وقد جبل الجند المسلمون علي الطاعة لولي الأمر وفق تعاليم القرآن الكريم.

أثر الفتوحات الإسلامية علي الجيوش الرومية:

الإستراتيجية والنكبة

لا شك أن المواجهات والمعارك علي الجانب الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية، كان لها الأثر الأكبر في تغير الفكر الحربي سواء الإستراتيجي أو التكتيكي للروم. لقد تطور الفكر الإستراتيجي ليوافق احتياجات اللحظة. فقد كانت الوحدات الحربية منذ القرن السادس وحتى الفتح العربي تعسكر في حاميات بطول الحدود وخلفها وتعرف باسم Limitanei "جند الجبهة" frontiers soldier. وكانت تتشكل عادة من الألوية القديمة والتشكيلات المساعدة. بينها كانت جيوش الميدان تضم وحدات مشكلة حديثاً، وتقيم في الأقاليم وفي الغالب فيما وراء الحدود، وفق أسس إستراتيجية حيث يمكنهم من تلك المناطق مواجهة أي عدوان علي الأراضي الرومانية. لذا اهتمت بيزنطة بمناطق الحدود وما عرف باسم الثغور أو الثيمات أو البنود، وهي مناطق تتواجد فيها ألوية عرفت باسم المكان المتواجدة فيه.

كما يلاحظ أن المواجهة الشاملة أو المعارك الكبرى لم تعد مناسبة في التعامل مع جيوش المسلمين، لقد أفرز الفتح العربي الإسلامي للمناطق الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية تغيرات يعتد بها. بعد فشل محاولات البيزنطيين في طردهم من خلال معارك مفتوحة وكان التحول الكبير في إستراتيجية الروم هو تحاشي أيه مواجهة مفتوحة. فبعد هزيمة الروم في اليرموك عام ٦٣٦م كان عليهم الانسحاب أولاً إلي شمال سورية وأرض الجزيرة. وبعد فقدان الأخيرة، وبعد أن صعب عليهم الاتصال بحلفائهم من القبائل العربية غير المسلمة والفرس والذين كان التحالف معهم له شأن تراجعت القوات الرومية إلي خط طوروس وطوروس الداخلية^(٣٦). وكان جعل جبال طوروس علي الدوام الحد الفاصل للتصدي للمسلمين والحد من توسعهم يستدعي تجميع طاقات الإمبراطورية كلها. وعلي الرغم من الجهود المبذولة في هذا الصدد فإن جيوش المسلمين ما انفكت علي الدوام تعبر تلك الجبال إلي آسيا الصغرى^(٣٧). إن النتيجة الملموسة هي انسحاب القوات الميدانية من المناطق التي كانت تعمل بها في سوريا، وفلسطين وأرض الجزيرة إلي الأناضول للاحتماء بها، وفق إستراتيجية جديدة.

لقد تراجعت كل الجيوش الميدانية إلي المناطق الداخلية خلف خطوط مواقعها الجغرافية الأولى، ويلاحظ أن المناطق الجديدة التي تراجعت إليها تلك الجيوش متخذة منها قواعد لها كانت تختار وفق

وهناك وصف لذلك النظام الجديد حيث كانت الوحدة هي السرية التي يعبرون عنها بأسماء منها Numerus، arithmos، tagma. وكانت السرية مكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندي يقودهم رائد Comes أو تريبون Tribune. فإذا اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمانية تكون منها كتيبة Moira بقيادة قائد كتيبة Moerarch أو دوق Dux. وكان الروم يحتفظون بسر الأعداد قصداً حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش. وكان تجميع السرايا من اختصاص القائد العام عندما تدور رحى الحرب ولم تكن هناك فرق مستديمة، إلا فرق مرتزقة الجرايات والجند المحالفين والجند المختارين وهم بقايا المرتزقة الأجانب الذين كانوا يشكلون جانباً من الحرس الإمبراطوري. وكان الجيش الذي أعاد موريس بناءه هو الذي اقتاده هرقل إلي ساحات المعركة بعد إعادة تشكيله^(٣٨).

وقد أعاد هرقل نظام توريث الخدمة العسكرية علي الرغم من أن ذلك استلزم وقتاً ومالاً وتعطيلاً للاقتصاد المحلي حتى يمكن تشكيل القوات الجديدة. لذلك وجدت بيزنطة من الأسهل تجنيد العرب المتحالفين حيث هنالك شك متوارث حول إخلاص الأرمن.

مع نهاية القرن السادس لم يكن الفرق كبير في المكانة بين وحدات الجيش البيزنطي، غير أن التاجما شكلت ما يمكن تسميته فرقة النخبة. وكان فرسان تلك الوحدة منحدرين من أصول قوطية شرقية وهم القوط الذين طردهم الغزاة اللبارد من إيطاليا، واستقروا داخل الإمبراطورية. وقد تركزت عناصر تلك القوة في بيثينا شمال غرب الأناضول. وهم يشكلون عصب الخيالة الثقيلة، وقد سلحوا علي النمط الجرمانى. وكان التسليح مع بدايات القرن السابع بالنسبة للخيالة سيف طويل spathion مماثل لسيف الأفار أو الفرس، ورمح خشبي خفيف وقوس في حاملة سهام تتمكن من حمل أربعون سهماً. معلقة في سرج الجواد علي النمط الفارسي، وكان أفراد المشاة الثقيلة يحملون سيوفاً أقصر، ومزاريق قصيرة^(٣٩).

عناصر الجيش الإسلامي

كانت الفتوحات الإسلامية الأولى تشن بواسطة محاربون متميزون، ومعروف أن كل الرجال المسلمون مطالبون بالتزام حربي. كما تشير كلمة جيش إلي ما يشبه القوة الشعبية. ويعني ذلك أن كل الرجال المسلمون قادرين علي الالتحاق بالجيش.

الإستراتيجية البيزنطية

قامت إستراتيجية الإمبراطورية البيزنطية علي أساس من إدراكها لوضعها الصعب تجاه أعداء، أو من يحتمل عداوتهم، موجودون بالفعل علي أكثر من جبهة في وقت واحد. ولقد أدرك القادة والحكام البيزنطيون تماماً العلاقة بين نشر وإعادة نشر الموارد: جند، مؤن، معدات، دواب وما إلي ذلك وبين قدرة الدولة في صد أي عمل عدواني والانقضاء علي المعتدين.

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات العسكرية التي تمت فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين أوضحت أن هناك عدم توازن في الموارد بين بيزنطة وأعدائها. وقد نصح القادة بعدم خوض حرب في ظل ظروف غير مواتية لأن ذلك ربما قاد إلي خسارة في الأرواح والموارد. وكانت النغمة السائدة في تلك الكتابات أن تلجأ بيزنطة إلي المناورة واستخدام تكتيكات معرقله والكمائن وحيل إستراتيجية من هذا القبيل. كانت الأمور الحربية البيزنطية تدار وفق أسس راسخة،

قدرة تلك المناطق علي توفير الدعم اللوجستي والمتطلبات الأخرى.^(٣٨) كما اتبعت بيزنطة تكتيكاً جديداً وهو محاولة استنزاف قوات العدو حتى لا يبقوا طويلاً في الميدان. وضرب خطوط إمداداته وتسريب معلومات مضللة عن نوايا الجيش البيزنطي، واعتمدت علي الخيالة المدرعة الخفيفة في المواجهات من أجل التحرك السريع علي أرض الميدان.

الخلاصة

لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية دوماً في حالة حرب، علي واحدة من جبهاتها إن لم تكن أكثر، وكانت تعمل دوماً من أجل البقاء. واعتمدت في الجانب الأكبر من جيوشها علي الجند المرتزقة. وقامت استراتيجية الدولة علي أساس تجنب القتال قدر الإمكان. وقد أرغمت علي حرب ضروس مع الفرس في وقت كانت فيه الأوضاع علي جميع الأصعدة غاية في السوء والتدهور. بيد أن أخطر ما واجهته بيزنطة كان عدو غير محتمل، فهي لم تكن علي عدا مع أبناء الجزيرة العربية ولا تتوقع منهم خطراً كبيراً، إلا أن حلفاءها الغساسنة جلبوا عليها تلك العداوة والتي أدت إلي حدوث مواجهة بدأت في العام التاسع للهجرة ولم تنتهي إلا في العام ثمانمائة وثمانية وخمسون للهجرة عندما سقطت العاصمة البيزنطية القسطنطينية.

الهوامش

- 1 - Haldon, John: Warfare, State and Society in the Byzantine World, 565-1204. London. Publication Year: 1999. Page Number: 34.
- 2 - Haldon, John : Byzantium at War, p.13
- 3 - David Nicole , Romano — Byzantine Army (4th - 9th century) p.13
- ٤ - يبدو أن أسرة هرقل انحدرت من أصل أرمني، وتولي هرقل الكبير أبو الإمبراطور هرقل ولاية شمال أفريقيا في عام ٦٠٧، واشترك هرقل الكبير في مؤامرة ضد الإمبراطور البيزنطي فocas (٦٠٢-٦١٠) الذي كان عصره من عصور الانهيار العسكري والاقتصادي، وتمكن هرقل بفضل ما فعل أبيه من اعتلاء عرش بيزنطة في ١٥ أكتوبر ٦١٠، للمزيد أنظر: حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٦٠.
- ٥ - كارين أرمسترونج: القدس، مدينة واحدة وثلاث عقائد، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣٦٤.
- 6 - Warren Treadgold, Byzantium and its Army 284-1081, U.S.A. 1995, 19,
- ٧ - حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٦١.
- 8 - Clifford R. Backman, The Worlds of Medieval Europe, New York 2003, p.73.
- أنظر أيضاً: حسنين ربيع، المرجع السابق، ص ٦١.
- 9 - Edward D. Enhlsh, ed., Encyclopedia of the Medieval world. U S A 2005, p.341.
- 10 - Warren Treadgold, Op. cit, p.20.
- ١١ - محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، ط ١، دار عين القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٨٧.
- ١٢ - كانت رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم إلي هرقل عندما دعاه إلي الإسلام: "من محمد رسول الله إلي هرقل عظيم الروم، سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك

- مرتين، فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين، يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون" والأريسيون ليست كلمة عربية ويبدو أنها تعني الرعايا العاديين. انظر: حسنين محمد ربيع، المرجع السابق، ص ٦٥.
- ١٣ - للمزيد أنظر: عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم، القاهرة ١٩٩٧ ص ٦.
- ١٤ - عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون، ص ٧٩.
- 15 - David Nicolle, Yarmok 363 AD the Conquest of Syria, London 1994, p.16
- ١٦ - علي محمد المراشدة: اليرموك الإستراتيجية والحسم، الأردن ١٩٩٧، ص ٤٥.
- عبد الرحمن أحمد سالم: المسلمون، ص ٩٦.
- 18 - Ismael Abul — Feda, De Vita Mohammedis, A.D MDCCXXIII (1723), p.124.
- 19 - Ismael Abul-Feda, Op.Cit. p. 123.
- ٢٠ - محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ط ٦، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٤٠١.
- ٢١ - محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص ٤٠٧.
- ٢٢ - الجنرال أ. أكرم: سيف الله خالد بن الوليد، دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته، ترجمة: العميد الركن صبحي الجاني ط ٧، بيروت ١٩٩٤، ص ٣٤١.
- ٢٣ - لدينا نص الرسالة التي بعث بها أبي بكر الصديق إلي خالد بن الوليد: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن قحافة، إلي خالد بن الوليد، السلام عليكم، أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي علي نبيه صلي الله عليه وسلم، سر حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام، فهم في حالة كبيرة من القلق، وإنني أعينك قائداً علي جيوش المسلمين وأمر أن تقاتل الروم، وأنت القائد علي أبي عبيدة ومن معه. وأذهب أبي سليمان، وأتمم عملك بمعونة الله جل شأنه، واقسم جيشك قسمين، ودع النصف مع المثنى الذي سيخلفك في العراق. فإذا فتح الله عليكم الشام فارجع إلي عملك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ولا تتباطأ بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء". المراشدة المرجع السابق ص ١٥٥.
- ٢٤ - المراشدة: اليرموك، ص ٢٠٥.
- ٢٥ - محمد مؤنس عوض: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٣.
- 26 - A.A.Vasiliev, Byzantine and Islam (pp. 308-326). p.309 in BYZANTIUM eds. Norman Baner & L. B. Moss, Oxford 1948.
- 27 - Nicolle, Rome s enemies 5, p.3
- ٢٨ - ستيفن رنسيهان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٩.
- 29 - David Nicolle, Yarmok. p.18.
- ٣٠ - جنرال أكرم: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٣٤٥.
- 31 - David Nicolle, p.19.
- 32 - Nicolle, Yarmok. p.24.
- ٣٣ - ستيفن رنسيهان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٦٢.
- 34 - Nicolle, Yarmok. , p. 34
- 35 - Haldon, Byzantine at war, p.36
- 36 - Haldon, John, Warfare, State and Society in Byzantine World 565-1204, London 1990, p.71.
- ٣٧ - ستيفن رنسيهان: المرجع السابق، ص ٣٩.
- 38 - Haldon, warfare., p.31

الأبعاد النفسية للحنة الموريسكية

لعل

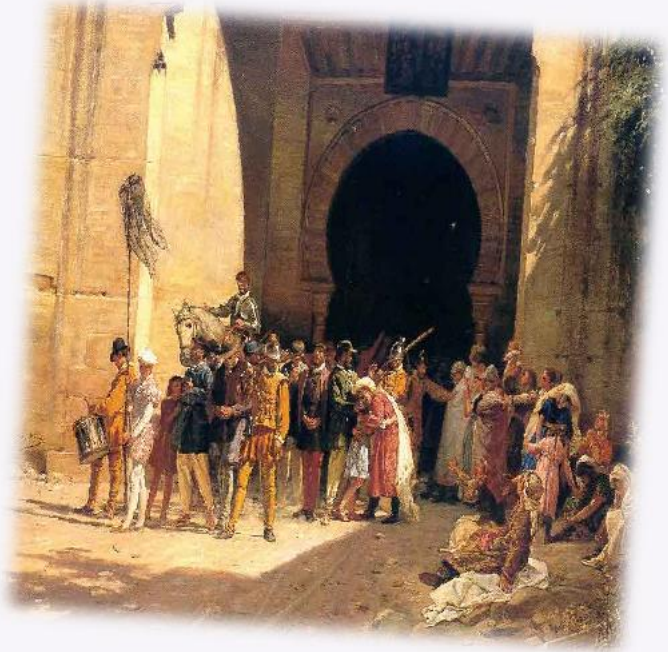
كثيراً من قضايا التاريخ لا يمكن أن تكون مجرد أوراق تسطرها أقلام ، وكتب تحوى هذه الأوراق لمجرد القراءة والاطلاع ، بل هناك من قضايا التاريخ ما تستحق أن تأخذ حيزاً من الوجود والدراسة وهدفاً للوصول إلى الحقيقة التاريخية بجميع صورها ، ومن هذه القضايا التاريخية المهمة "القضية الموريسكية" التي أصبحت مجال جدال واهتمام في وقت واحد ، وفي هذه الأوراق التالية سوف يتعرض المقال لجانب من جوانب هذه القضية ألا وهو الجانب السيكولوجي "النفسى" ، في معنى يتبلور حول نقطة محددة وهى هل كان الموريسكيون عنصراً مقبولاً لدى الأسبان ، أم كانوا أشخاصاً يتبلور فيهم نظرية عدم قبول الآخر بكل معطياتها؟

"لا تبكى يا أمه .. إنا ذاهبون إلى الجنة ... ، إن أرضي غرناطة لن تضيق عن لحد طفل مات في سبيل الله ... ، إن ازهار غرناطة لن تمنع عطرها قبراً لم يتمتع صاحبها بعطر الحياة .."^(١) هذا آخر ما أنشده أطفال غرناطة عند سقوطها في عام ١٤٩٢م وهى درة الوجود العربي في الأندلس ، وللتوضيح عن ماهية الدراسة يجب التعريف بالموريسكيين .

الموريسكيون: لفظ يرادف المسلمين الذين أُجبروا على التنصر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في ممالك اسبانيا "قشتالة" ، واراغون ، ونابارا" وتعنى "المسلمين الصغار" وهو ما أطلقه الأسبان عليهم تحقيراً لهم^(٢) .

بعد سقوط غرناطة دخل المسلمون في حقبة تاريخية جديدة تحت زعامة الملكين الكاثوليكين إيزابيلا (ت ١٥٠٤م) ، وفرناندو الخامس (ت ١٥١٦م) ، وفى إشارة منها في بداية الحكم أوصيا إلى الحاكم الجديد بحسن معاملة المسلمين الذين أحسوا بالاطمئنان لهذه التوصية ولكن هيهات ذلك ، فقد كان الملكان يتصنعان ذلك إلى حين إبداء الرأي النهائي في أمر المسلمين ، فلم يمر الوقت كثيراً حتى قرر الملكان قرارهم الأبدى ألا وهو تنصير المسلمين وذلك تحت إلحاح من الأحرار إلى الملكين بذلك في خطوة لمحو آثار التاريخ الإسلامي في ظل الدولة الأسبانية الجديدة^(٣) ، وبدأت محنة المسلمين ضد العنف الأسباني الذي يهدف إلى تحقيق أهدافه بجميع الوسائل حتى أدى ذلك في النهاية إلى قيام المسلمين بثورتهم الأولى في عام ١٤٩٩م التي استمرت إلى عام ١٥٠١م بسبب استمرار كل من إيزابيلا وفرناندو في سياستهما التعصبية وبدأت محنة المسلمين تأخذ في التبلور^(٤) .

قامت الثورة الأندلسية "الموريسكية" الأولى بسبب السياسة التي أدخلها الكاردينال الجديد لغرناطة "خمنيس" الذي أخرج من جعبته كافة السبل لتنصير المسلمين بعدما أعطت له الملكة جميع الصلاحيات الكاملة لذلك ، ويمكن القول: إن محنة المسلمين بدأت في التعقل للخطر الجديد وقامت بثورتها للحفاظ على وجودها القديم في البلاد ، تلك الثورة التي خرجت من حي البيازين أحد أحياء غرناطة في ١٤٩٩م والتصدي لأفعال الكاردينال العنصرية^(٥) . وقد أكد المقرري هذه الأحداث عندما قال: "ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر"^(٦) وانتشرت الثورة في كل أنحاء غرناطة ، فأرسلت الملكة إيزابيلا أول جيش لإخضاع الثورة فلم يفلح في إخضاعها حيث أخذت الثورة شكل الموجه التي تتوالى في الأحياء المجاورة لحي البيازين ، مما دفع الملك فرناندو إلى إسناد المهمة إلى القائد الأسباني الشهير "الونزو دى



عمر بكر محمد قطب

معيد بقسم التاريخ "شعبة التاريخ الإسلامي"

كلية الآداب — جامعة المنيا

محافظة المنيا — جمهورية مصر العربية

omar.bakr10@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

عمر بكر محمد قطب ، الأبعاد النفسية للحنة الموريسكية - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ ص ١٦ - ١٨ .

(www.historicalkan.co.nr)



سار الحزب الأسباني في سياسته العنصرية يهاجم الثوار المورييسكيين في كل أرجاء الثورة وبقاعها حيث كان الشغل الأكبر للدون خوان المتزعم للحزب هو ضرورة التخلص من زعماء الثورة بشتى الطرق ، سواء باللين أم بالعنف ، ولم يكتب له الفشل حيث استطاع عن طريق الدس والخديعة أن يتخلص من القائد المورييسكى "محمد ابن أمية " ، وأكمل المورييسكيون ثورتهم مدافعين عن وجودهم ، وعقيدتهم ، وتاريخهم ، وحياتهم في الأندلس ، وبالرغم من نجاحهم الكبير في أحداث الثورة إلا أن هذه النجاحات قوبلت بجانب كبير من الشدة والحزم من جانب الحزب الاسباني الذي استطاع القضاء على الثورة مع مطلع عام ١٥٧١م ، وما يدل على قوة هذه الثورة وشدتها هي النتائج التي أدت إليها هذه الثورة ، وتجلّى أعظم هذه النتائج في قرار الملك فيليب الثالث الذي خلف أباه في الحكم في عام ١٥٩٨م بنفي المورييسكيين من البلاد بشكل تام وجذري وضرورة طرد العنصر المورييسكى من البلاد واستئصال شافته ، ذلك القرار الذي نفذ بحذافيره منذ صدوره في عام ١٦١٠م.^(١٤)

هذه هي سطور المحنة المورييسكية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي / التاسع الهجري ، وفي تحليل أسباب هذه المحنة من الناحية النفسية وماهيتها يمكن الخروج بالتالي:

(١) إن الناحية النفسية التي دفعت المورييسكيين إلى القيام بثوراتهم ضد الأسبان تكمن في أساليب الأسبان تجاه العنصر المورييسكى بدافع اسباني يتمحور في الحقد النفسي على المورييسكيين الذين اشتهروا بالتفوق في جميع مجالات الحياة الأسبانية ، بجانب كثرة نسلهم ، وزواج بعض الأسبان أنفسهم من مورييسكيات ، وذلك كله أثار حفيظة الأسبان وجعل إحساسهم بقيمة العنصر المورييسكى وقدرته يعلو ، ويدفعهم إلى ضرورة التخلص من هذا العنصر بأية وسيلة كانت .

(٢) إن الصدام والتعارض بين الاعتبارين كان أساس الصراع بين الطرفين ، فقد أعتبر النصارى عنصر مؤمن ولكن يفتقد إلى قيمة العمل من وجهة النظر الأسبانية ، وقد اعتبرت وجهة النظر هذه المورييسكيين عنصراً شيطانياً متفاعلاً متكاملًا ولكنه يفتقد إلى ثوب الإيمان الذي أراد الأسبان إلحاقه بهم ، لذلك فشل التنسيق بين الطرفين وأصبح التصادم والعنف بينهما شيئاً حتمياً لا شك فيه .

(٣) أما من وجهة النظر الإسلامية فقد اعتبر المورييسكيون أنفسهم مسيحيين في الظاهر ، ومسلمين في الباطن ، وأن ما دفعهم إلى التظاهر بالمسيحية هو محاولة الحياة في أرضهم التي ولدوا فيها ، ولا يستطيعون التفریط في هذا التاريخ بالشئ اليسير ، هذا التباين في الاعتبار عند كل من الأسبان والمورييسكيين كان سبب هذا الصراع الكبير الذي استمر فيها يزيد عن القرن من الزمان .

اغويلار " في محاولة لصد الثورة والقضاء عليها ، ولكن لقي هذا القائد مصيره حتفًا على يد أحد الفرسان المسلمين وهو "الفهري الاصطبار" بعد مبارزة بين الطرفين انتهت لصالح الأخير ، الأمر الذي أزعج الملك وجعله يقود حملة القضاء على الثورة بنفسه متخذاً كل الإجراءات التي تساعد في تحقيق هدفه المنشود.^(٧) وقد كان مقتل القائد اغويلار من أكثر الدوافع التي حركت الملك حيث كان يعتبره فارس اسبانيا الأول واعتبره الأسبان عامة من النصارى شهيد المسيحية في اسبانيا^(٨) ، وقد جاءت نهاية الثورة على يد الملك فرنا ندو الذي صحبه حوالي ٨٠ ألف من الرجال للقضاء على الثورة ، وبرغم الخسارة التي تعرض لها الملك إلا أنه استطاع محاصرة الثوار في أماكن ثوراتهم مثل "اندرش ، ولاخارون ، وحدود المرية" ولم يدخل عام ١٥٠١م إلا وكانت الثورة منتهية وعاد الملك ليجد الملكة قد جهزت قراراً آخرأ يخير المسلمين بين التنصر والخروج من البلاد.^(٩) ومع هذا المرسوم من الملكة هاجر من الأندلس من المسلمين حوالي ٣٠٠ ألف انتشروا في المغرب وبلاد الشام ومصر ، وتقبل الآخرون التنصر ولكن كان ذلك في الظاهر من جانبهم بهدف البقاء في موطنهم الذي استقروا فيه من زمن بعيد ، أي أن المسلمين أظهروا التنصر وأبطنوا الإسلام ، ومن تلك الفترة أطلق عليهم اسم "المورييسكيين" ذلك اللفظ الذي أطلقه الأسبان عليهم بعد إحساسهم بأنهم ليسوا نصارى خلص ، ولكنهم نصارى بموجب مرسوم الملكة إيزابيلا.^(١٠)

ومضت فترة بعد الثورة الأولى أجبر فيها المورييسكيون على التظاهر بالنصرانية وهم يبطنون الإسلام بداخلهم مروراً بعهد خليفة فرنا ندو وهو الملك كارلوس الخامس أو شار لكان "١٥١٧ - ١٥٥٥م" ، حيث كانوا ظاهرياً يعمدوا أبناءهم على يد القسيس ثم يُتبعوا ذلك بإزالة ماء التعميد النصرانية وتربية الطفل تربية إسلامية ، حتى في الزواج كان يتم عقد الإكليل ظاهرياً ثم يعودوا إلى بيوتهم ويحتفلوا بالعرس طبقاً للشريعة الإسلامية.^(١١) وقد تردد كارلوس الخامس في سياسته تجاه المورييسكيين بين الشدة واللين ، وذلك بخلاف ابنه فيليب الثاني "١٥٥٦ - ١٥٩٨م" الذي خلفه ونشبت في عهده الثورة المورييسكية الكبرى في عام ١٥٦٨م واستمرت حتى أوائل عام ١٥٧١م والتي كانت أسبابها هي أسباب الثورة الأولى ذاتها من حيث سياسة التنصير التي اتبعها الحكام الأسبان في شكل متوال ، ولكن يضاف إلى هذه الأسباب سبب قوى جداً وهو "محاكم التفتيش" التي ظهرت في اسبانيا ، وتولت منذ ظهورها في اسبانيا في عام ١٤٨٣م محاربة جميع المذاهب ، والأديان المتناقضة مع المسيحية الكاثوليكية بدءاً من اليهود الذين لقوا منها أنواعاً كثيرة من العذاب حتى كان مصير المورييسكيين على يديها ، وقد ذاق المورييسكيون من جراء هذه المحاكم صنوف الألوان من التعذيب التي تتنافى مع تعاليم الإنسانية كلها ، مما أدى إلى حتمية نشوب الثورة الكبرى التي اشتعلت بقوة مع بدايات عام ١٥٦٨م.^(١٢) وقد تزعمها عدد من المورييسكيين الأقوياء الشجعان بداية من الصباغ "فرج بن فرج" مروراً بـ "محمد بن أمية" وانتهاء بـ "مولاي عبد الله" ، وكان لكل منهم دور بارز في التصدي للحزب الاسباني الذي تمثل في رجاله ومنهم "المركز موتخار" الحاكم العسكري العام لغرناطة و"الدون خوان" اخو الملك فيليب الثاني غير الشرعي ، وقد كانت هذه الثورة ذات أثر كبير في مستقبل المورييسكيين بعد ذلك في اسبانيا.^(١٣)



إن ما يمكن قوله هنا: إن المحنة الموريسكية كانت خطراً على الأسبان من ناحيتين، أحدهما في الأشخاص ألا وهم المسلمون ذاتهم ومعارضتهم للسياسة الأسبانية، ولذا فقد قاوم الأسبان هذه الناحية من خلال الاضطهاد المستمر لهذا العنصر المتمزمت ضد سياستهم في واحدة من أكبر أمثلة نظرية عدم قبول الآخر، ومن الناحية الأخرى، رأى الأسبان في الإسلام ذاته وما يحمله من مفاهيم وتعاليم خطراً على الكاثوليكية الأسبانية بشكل كبير يجب أن يواجه بعملية تطهير عرقي كامل لمن يحمل هذا الدين داخل اسبانيا، فتجلت المحنة الموريسكية في نظريتين توالتا تاريخياً، أولهما نظرية عدم قبول الآخر والأخرى نظرية ضرورة التطهير العرقي لهذا الآخر.

الهوامش

- (١) على الطنطاوي: "قصص من التاريخ"، دار المنارة للنشر، ط ٦، ١٤١٧-١٩٩٦، ص ٢٦١.
- (٢) ميكيل دي إيبالنا: "الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى"، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ص ٢٤٤.
- (٣) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين"، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠١، ص ٣٠٨.
- (٤) عادل سعيد بشتاوي: "الأندلسيون المواركة"، ص ١٢٤.
- (٥) نفس المرجع، ص ١١٤.
- (٦) المقري: "شهاب الدين أحمد المقري التلمساني ت ١٠٤١هـ"، "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، تحقيق: إحسان عباس، ج ٤، دار صادر للطبع والنشر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٢٧.
- (٧) اسعد حومد "محنة العرب في الأندلس"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ص ٢٧٠.
- (٨) واشنطن ايرفنج: "أخبار سقوط غرناطة"، ترجمة: هاني يحيى نصري، دار الانتشار العربي للنشر، ص ٣٥٨.
- (٩) اسعد حومد: المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- (١٠) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١١٨.
- (١١) شكيب ارسلان: "خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة"، مطبعة المنار، مصر، ١٩٢٥ م - ١٣٤٣ هـ، ص ٣٥٢.
- (١٢) محمد علي قطب: "مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس"، ص ٧٨.
- (١٣) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١٥٣.
- (١٤) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس"، ص ٣٩٥.

(٤) وإذا ما تطرق المقال إلى الناحية النفسية الأسبانية فإنها تتجلى في أفعال الحكام الأسبان ومواقفهم ضد الموريسكيين، فقد وقع الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرنا ندو تحت سيطرة الأبحار، وخضعوا لرغبتهم في نفس الوقت الذي اشعر الأبحار الملكين بأنهما حماة المسيحية والكاثوليكية في اسبانيا، بل في أوروبا من الإسلام، وأن على حامى المسيحية الدفاع عن مسيحيتهم، والقضاء على العناصر المعادية إلى هذا المعتقد وإلى هذه الديانة بجميع أشكال العنف، مما دفع الملكين في توجيه سياستهم إلى القضاء على الوجود الإسلامي ليشعرا بقيمتهم بعدهما ملكي اسبانيا الجدد، حتى إن الأبحار وضعوا لهما نظرية تقول "إذا أردت أن تكون ملكاً صالحاً يجب أن تكون كاثوليكياً صالحاً"، وهكذا ربط الملكان وجودهما - باعتبارهما ملكي اسبانيا - بعدم وجود المسلمين.

(٥) أما بالنسبة للملك كارلوس الخامس، فتردده في السياسة التي يتبعها تجاه الموريسكيين بين الشدة واللين يشرح - بالدرجة الأولى - الدوافع النفسية والشخصية لهذا الملك، ففي الوقت الذي يصدر فيه قراراً بمنع التخاطب باللغة العربية من جانب الموريسكيين... يسمح لهم بالتخاطب مقابل ضريبة من المال يدفعونها له، ومن ثم فإن تحليل هذه الأفعال الكارلوسية تفسر مدى تناقض هذه الشخصية من جانب، ومدى عدم اقتناع الملك في قرارة نفسه بأن الموريسكيين عدو يجب التخلص منه من جانب آخر، بل أنه تقبلهم كثيراً وأصدر قرارات لم يستعمل الشدة والقسوة في تنفيذها ضدهم.

(٦) أما حكم كل من الملكين فيليب الثاني وابنه فيليب الثالث، فقد تجلى الجانب النفسي بشكل كبير في أفعالهما ضد الموريسكيين، ففي نفس الوقت التي اشتعلت فيه الثورة الموريسكية الكبرى في اسبانيا كانت الحركة البروتستانتية تظهر وبقوة في أوروبا، وتهدد الوجود الكاثوليكي في اسبانيا وأوروبا، ومع فشل الملكين في تقويض هذه الحركة الجديدة، وعدم التصدي لها في حركتها السريعة، استعاضا هذا الفشل تجاه الموريسكيين، أي أنهما اتخذتا أفعالهما تجاه الموريسكيين شفاءً لغليل فشلهما في أوروبا والحركة البروتستانتية.

ونهاية بطرح التساؤل نفسه هل كان الصراع بين الأسبان والموريسكيين صراعاً دينياً بحتاً، أم توجهته أوجه صراع اجتماعي، ونفسي، وعقدي، وبشرى آخر؟ وهل كانت العلاقة بين الأسبان والموريسكيين علاقة تضاد بين جنسين بشريين أم تضاد بين فكريين وثقافتين؟



من أبحاث الأسناذ عمر بك:

- "فتنة خلق القرآن بين الخلافة والمعارضة".
- الاشتراك في بحث بعنوان "الثورة الجزائرية".
- "الثورات الموريسكية بعد سقوط غرناطة".

ملخص

يتناول هذا البحث فن حكاية الحيوان عند أمير الشعراء أحمد شوقي ، التي وردت في الجزء الثالث من ديوانه (الشوقيات). وقد وصلت إلى ثلاث وخمسين حكاية استخدم فيها الحيوان قناعاً ، ورمزاً للتعبير عن الواقع بكل ما فيه من قضايا لا يستطيع الشاعر التعبير عنها صراحة لسبب ما . وقد حاولت هذه الدراسة سبر كنه هذه الحكايات ودراستها دراسة فنية من حيث اللغة ، والوزن ، والصورة ، والرمز .



حكاية الحيوان عند أحمد شوقي

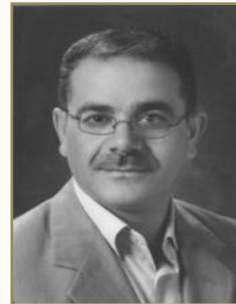
"دراسة تاريخية وفنية"

Tales on the tongue of Animals In Ahmad Shawgis Poetry

Abstract

This paper discusses the Art of Animal Tales in Ahmad Shawgis Poetry Collection (third volume). The number of tales tackled in this paper amounts up to 53 tales.

These tales used animals as a disguise and symbol to express the poets attitude towards certain problems in the real life which he could not talk about, for some reason, in a direct manner. This paper tries to discuss these tales in depth focusing on their linguistic structure, metrics, symbols and images.



د. علي الشروش

دكتوراه في اللغة العربية والتدو
محاضر في الجامعة العربية المفتوحة

المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة فن حكاية الحيوان باعتباره نوعاً من أنواع الفنون الأدبية المتعددة التي تعرف إليها الإنسان منذ القدم ، واستخدمها في التعبير عما يعتور حياته أو ما يتعرض إليه خلال عيشه في واقعه الخاص أو العام .

ولعل من أهم الدوافع التي حثت بالإنسان استخدام فن حكاية الحيوان التكني بهذا الفن لمهاجمة واقعه ونقده نقداً يبين الاضطرابات ويكشف الأخطاء السائدة فيه ، آملاً النهوض به ومعالجته وتخليصه من كل ما يشوبه من تلك العيوب ، خاصة إذا كانت تلك العيوب سببها أفراد ذوو سلطة في المجتمع يملكون بها حريات الآخرين ويوجهونها الوجهة التي يريدونها .

محمد العواودة

استاذ وباحث في اللغة العربية وآدابها
عمان - المملكة الأردنية الهاشمية



ashrosh2006@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علي الشروش ، محمد العواودة.- حكاية الحيوان عند أحمد شوقي.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع سبتمبر ٢٠١٠. ص ١٩ - ٢٨ .

(www.historicalkan.co.nr)



يملك جناحين؟ أو لماذا لا يملك الجمل أذنين كبيرتين قياساً مع حجمه الضخم؟.

وهناك من الدارسين من يطلق على هذا النوع من الحكايات اسم الخرافة ، أو القابولا ، وهذه الصيغة مأخوذة من الكلمة الإنجليزية Fable وتعني الخرافة أيضاً. ومن أمثلة الحكاية الشارحة تساؤل الإنسان الأول عن عدم وجود ذنب للدب ومنها تساؤله عن سبب صغر أذني الجمل؟ فالإغريق تقول: إن الجمل لم يكن قنوعاً ، وتوسل إلى الإله ((زيوس)) أن يمنحه قرناً ، فعاقبه بأذنين صغيرتين^(٤).

ومثل ذلك الحكاية الشارحة التي يشير إليها الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابه الحيوان^(٥) ، وهذه الحكاية تفسر عجز الديك عن الطيران وتمكن الغراب من ذلك ، كما تفسر سبب صياح الديك صباحاً ، تقول هذه الحكاية: ((إن العرب كانت تزعم أن الديك كان ذا جناح يطير به في الجو ، وأن الغراب كان ذا جناح كجناح الديك لا يطير به ، وأنهما تنادما في حانة يشربان ، فنفذ شرابيهما ، فقال الغراب للديك: لو أعرتني جناحك لأتيتك بشراب فأعاره جناحه ، فطار ولم يرجع إليه ، فزعموا أن الديك إنما يصيح عند الفجر استدعاءً لجناحه من الغراب)).

ونخلص إلى القول: إن حكاية الحيوان الشارحة حكاية قصيرة ، قديمة يؤدي بطولتها الحيوان أو النبات ، وقد يشتركان معا في بطولة شارحة واحدة ، لتقديم تفسير يتعلق بعالم الحيوان ، أو بعالم النبات يمكن أن تحقق فضلاً عن ذلك تفسيراً لظواهر طبيعية من خلال الحيوان وقد كانت هذه الحكاية على بساطتها المنطلق لنشوء نوعين أدبيين من حكايات الحيوان هما: خرافة الحيوان ، وملحمة الحيوان .

الخرافة / خرافة الحيوان:

هي قصة قصيرة تظهر فيها شخصية الحيوانات وهي تحدث وتقوم بأفعال مثل آدميين ، ولو أنها عادة تحتفظ بقسماتها الحيوانية ، وهي لا تستخدم الحكاية الحيوانية لإظهار خصائص الحيوان في الواقع أو سلوكه ، ولكنها تهدف إلى تأكيد الدرس الأخلاقي للناس أو بقصد النقد اللاذع أو الهجاء لتصرفاتهم .

وتكشف خرافة الحيوان عن قدرة الإنسان على التحايل في تقديم الواقع ونقده ، ومعالجة الأمراض التي تسود المجتمع ، وهي فضلاً عما تحمله من قيمة أدبية ، فإنها ذات هوية إنسانية غير خاضعة لاعتبارات الزمان والمكان واللغة والمعتقد ، وذات طابع رمزي يتخذه فيه البشر _غالباً_ أقنعة لها صور الحيوانات أو النباتات أو الجمادات ، ويمثلون أدوارهم الإنسانية من ورائها ، بطريقة ممتعة ومثيرة ، تحقيقاً لأغراض تعليمية ونقدية ، وتجنباً في الوقت نفسه للأسلوب المباشر والخطابي ، أو الاصطدام بالسلطة أياً كان نوعها^(٦).

وقد كثرت الدراسات الحديثة التي تناولت حكاية الخرافة بالدرس والتعليل ، وقد أطلق بعض الدارسين عليها مصطلح حكاية الحيوان الرمزية ، أو حكاية الرامزة أو حكاية القناع^(٧) ، بينما أثار آخرون تسميتها حكاية الحيوان التهذيبية ، أو حكاية الحيوان التعليمية ، أو الخرافية الأخلاقية^(٨).

وقد حفل التراث العربي بهذا النوع من الحكايات شعراً أو نثراً ، ومن هذه الخرافات ما جاء على لسان الحشرات ، كالخرافة التي يروونها الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) في ((التمثيل والمحاضرة)) تقول: ((قالت الخنفساء لأمها: ما أمر بأحد إلا بزق عليّ فقالت: يا بنية ، لحسنك تعوذني)) (ت ٤٠٠هـ)^(٩).

علاوة على أن فن حكاية الحيوان يعد أسلوباً تعليمياً يتناقل الناس به بعضاً من المعارف والثقافات ، أو ألواناً من الحكمة والوعظ والإرشاد. فتكون فائدتها قريبة يطالها الكثير في المجتمع الإنساني . وهي تكشف أيضاً ما يشوب علاقة المبدع (المثقف عموماً) بالسلطة وكيف يتحايل المبدع ، إن جاز التعبير ، ليعري هذه السلطة التي يقف معها على النقيض.

وقد عرضت لمفهوم حكاية الحيوان عند الدارسين وأنواعها التي تحددت خلال استخدام الأدباء لها ضمن الأزمات المتعددة ، وعرضت كذلك إلى دراسة رواية الحيوان النثرية مع إعطاء أمثلة عليها . كما تناولت فن حكاية الحيوان عند الشاعر أحمد شوقي من خلال استقراء نماذج شعرية تمثلت فيها حكاية الحيوان على أكمل وجه ، وبيّنت أنواعها كما وردت عند شوقي والدوافع التي حدثت إلى التمثيل بهذا النوع الفني ، كما درست البناء الفني لهذه الحكايات كالوزن والقافية والصورة الفنية واللغة.

حكاية الحيوان

مفهومها:

يذهب أغلب الدارسين في تعريفهم لحكاية الحيوان ، إلى أنها شكل من أقدم أشكال الأدب الشعبي ، وهي حكاية تتردد على ألسنة الحيوانات والطيور التي تسلك سلوك الإنسان محتفظة فضلاً عن ذلك بسماتها الحيوانية ، وقد تجيء هذه الحكايات على لسان النبات أو الجماد ، وتقدم في أبسط صورها تفسيراً أو تعليلاً أو ربما رؤية للإنسان الأول إزاء الظواهر الطبيعية ، وقد ترتقي ليصبح الحيوان فيها قناعاً لمنطق إنساني ، تطرح من خلاله قضايا أخلاقية أو تعليمية أو نقدية أو فكرية فلسفية^(١٠).

وإن كان هذا التحديد ينطبق على حكاية الحيوان نثراً ، فهو بالضرورة ينطبق عليها في ميدان الشعر مع فارق بسيط بين الأمرين. فلا يخفى لأي ناظر حجم المساحة التي يتركها الجانب النثري أمام الحاكي ، وهذا أمر يضيق الشعر عن احتماله بما هو محكوم به من وزن وقافية. مع ذلك يستطيع الشاعر الحاكي أن يُكثف هذا النص الشعري الحكائي حتى تضيق الفروق بينه وبين النثر.

أنواعها:

اتخذت حكاية الحيوان عبر السنوات الطولية أشكالاً مختلفة ، أقدمها "الحكاية الشارحة" وهي أبسط صور حكاية الحيوان ، يقول الكساندر كراب: ((حكاية الحيوان في أبسط صورها حكاية شارحة أو مفسرة من حيث جوهرها ، أو قل إنها حكاية ترمي إلى شرح علة))^(١١). ويعرفها عبد الحميد يونس بأنها: ((محاولة لتفسير أشكال الحيوانات على اختلاف فصائلها ، وشرح ما استطاع الإنسان البدائي القديم تصوره من عاداتها ، وظواهر سلوكها))^(١٢).

وبعد ، فيمكن القول: إن حكاية الحيوان الشارحة هي تلك النوع من الحكايات التي تعني بإيجاد تفسيرات أو علل لظواهر تتعلق بالحيوان ، وعلى هذا فهي تخلو من أية تعاليم أخلاقية وقد أطلق عليها الدارسون تسميات عدة منها: حكاية الحيوان الشارحة أو التعليلية أو المفسرة. وكأن الوظيفة من هذا النوع من الحكايات أنها تحجب عن أسئلة من الممكن أن نسألها جميعاً مثل: لماذا لا يطير الدجاج مع أنه

رواية الحيوان النثرية:

حكاية نثرية طويلة ، متعددة الشخصيات الحيوانية ، ومتفرعة الأحداث ، لكنها تطرح موضوعاً قصصياً واحداً متكاملًا مترابطًا^(١٧) ، وتعد محاكاة لكتاب كليله ودمنة ومن روايات الحيوان النثرية في الأدب العربي:

(١) رواية النمر والتعلب لسهل بن هارون ، فهي رواية ذات طابع سياسي وتعليمي وقد أودعها سهل تصويراً لحكم الملوك المتجبرين وصراع السلطات المتنافسة على الحكم ، وحيل الوزراء الدهاء .

(٢) رواية تداعي الحيوان على الإنسان: وهي رواية لجماعة إخوان الصفا ، تقدم نقداً لاذعاً للأوضاع السياسية والدينية والمذهبية والعقلية السائدة آنذاك .

(٣) رواية الأسد والغوص: وهي رواية مجهولة المؤلف ترجع إلى القرن الخامس الهجري ، وقد حيك موضوعها على أساس خيبة الأمل والإخفاق والسياسي .

(٤) رواية الصاهل والشاحج: وهي رواية لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) ، يدور فيها حوار نقدي بين الصاهل والشاحج ، أو الفرس والبغل ، حول المشكلات والأحداث التي يمور بها عصر أبي العلاء ويكشف عن مضمون الرسالة التي حملها الشاحج للصاهل ، أو الشعب للسلطة في أسلوب تهكمي لاذع وروح ساخرة^(١٨) .

نشأة حكاية الحيوان:

أ_ في الأدب الإنساني القديم:

إن خرافة الحيوان هي النوع الأول لهذا الجنس الأدبي (حكاية الحيوان) ، وقد تطورت لينشأ عنها الأنواع الأدبية الأخرى من حكايات الحيوان. وقد أشرنا سابقاً إلى تباين آراء الباحثين حول أصل الخرافة ومنشأها .

ب_ في الأدب العربي:

إن الناظر في التراث العربي يرى أن العرب يملكون أضخم نتاج أدبي يتعلق بحكايات الحيوان ، ويستوي في ذلك الأدب الذي نقله الكتاب والمؤلفون عن الجاهليين أو الذي وضعه أدباء الحضارة في بغداد والأمصار الأخرى ، أو ما ترجمه العرب إلى لغتهم ، فاستوعبته اللغة العربية وصار جزءاً منها^(١٩) .

عرف الجاهلي حكاية الحيوان الشارحة التي تدور حول تفسير شكل الحيوان أو طباعه ، وتفسير بعض الظواهر الطبيعية ، وقد استوعبت دواوين الشعر الجاهلي عدداً منها: كديوان أمية بن أبي الصلت الذي وردت فيه حكاية الديك والغراب كما ذكرنا سابقاً .

وقد عقد العرب منافرات ومفاخرات بين الحيوان كالتجري بينهم ، متصورين أنها تجري مجرى الإنسان ، وتذهب مذهبه في التفاخر^(٢٠) ، وهذه المنافرات والمفاخرات تعكس شيئاً من سمات المجتمع الجاهلي وعاداته كالتفاخر القبلي والتنازع العصبي^(٢١) .

وفي العصر الإسلامي استوعب القرآن عدداً من حكايات الحيوان ووظفها لغايات دينية ووعظية كحكايتي ((سليمان والنمل)) و((سليمان والهدد)) .

ومنها ما اشترك فيه الحيوان والجهد ، ومثال ذلك الخرافة التي رواها أبو حيان التوحيدي في كتابه ((البصائر والذخائر)) ، تقول تلك الخرافة: ((رأى كلباً رغيفاً يتدحرج ، فتبعه ، فقال له: إلى أين ؟ قال: إلى النهروان ، قال الكلب: قل إلى غلمان إن تركتك))^(٢٢) .

أما أصل هذه الخرافات ومنشأها فقد اختلف الباحثون^(٢٣) في ذلك ، فمنهم من ردها إلى اليونان فجعل حكايات الشاعر هيريوس (ت ١٨ ق م) ثم حكايات إيسوب (ت ١٦ ق م) ، هي أقدم خرافات اليونان. ومنهم من رأى أن الموطن الأصلي للخرافة هو الهند مستدلين على ذلك بأن الأساطير وجدت في الشرق ، وأن الحيوانات التي تلعب أدواراً مهمة في الخرافات هندية في الأغلب كالأسد ، والفيل ، والطاووس ، وأن كثيراً من خرافات إيسوب مصدرها الجاتاكا .

وهناك فريق آخر رد الخرافة إلى أصول مصرية فرعونية ، فبعض الحكايات المصرية القديمة على لسان الحيوان ، وجدت مدونة على ورق البردي ، مثل قصة ((السبع والفأر)) ، وهذه الحكايات تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وربما تكون قد أثرت في الأدبيين الهندي واليوناني .

وعلى الرغم من الاختلاف حول المنشأ الأصلي لهذه الخرافات ، إلا أنها نالت اهتماماً كبيراً من الدارسين سواء أكان ذلك بالتأليف أم بالمحاكاة أم بالترجمة ، ومن ذلك خرافات كليله ودمنة التي حظيت باهتمام الدارسين القدماء والمحدثين .

ملحمة الحيوان / ملحمة الوحوش:

((وصف يطلق على هذه الحلقة من القصص التي تدور حول شخصية رئيسية مخدعة تظهر عادة في شكل حيوان ، لكنه مع ذلك ذو ذهن أريب منطقي))^(٢٤) .

وهذا النوع من الحكايات هو تطور لخرافة الحيوان ، يقول عبد الحميد يونس: ((أما ملحمة الوحوش فتعد تالية في التطور للخرافة ، وليس من شك في أنها جاءت محاكاة لذلك النوع الشائع المعروف بالملحمة))^(٢٥) .

نستنتج من النص السابق أن الخرافة والملحمة قد سبقتا وجود ملحمة الوحوش ، وأن ملحمة الوحوش قد استمدت سماتها الفنية من الملحمة والخرافة معاً ، فمن الملحمة استعارت الأسلوب الشعري القصصي والبطولة المحورية والحجم الطويل ومن الخرافة استمدت الشخصيات الحيوانية ، وبالتالي خرج لنا هذا النوع من الحكايات .

وقد أطلق على هذا النوع من الحكايات تسميات عدة ، منها الملحمة الساخرة أو المعارضة البطولية الهزلية ، لأنه يحاكي الملاحم العظيمة بأسلوب ساخر هزلي ووصف بأنه ضرب من الأدب الرمزي لها يحمله من تعرض نقدي للإنسان للأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية^(٢٦) .

ومن أشهر ملاحم الحيوان ما يعرف باسم ((حلقة الثعلب رينار)) أو ((ملحمة الثعلب رينار)) وهي مجموعة من الحكايات والمنظومات التي ظهرت في أوروبا حوالي القرن الحادي عشر الميلادي ، وبلغت أوج شهرتها في غضون القرنين الرابع عشر والخامس عشر^(٢٧) .

وتدور هذه الحكايات حول هجاء الأساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، وتزمت رجال الكنيسة ونفاقهم ، وهجاء سلوك الفرسان ، ورجال القانون^(٢٨) ، وهي بذلك تهدف إلى نقد الأنظمة السياسية والاجتماعية آنذاك .

فلم يرعني غير
فقمْتُ القِي السَّمْعَ
حتى ظفرتُ بالتي
فاضطجعت تحت ظلال
وقراتُ أورادها
أنت وأولادك حتى
صوت كمّوء الهرة
في السُّنُور ، والأيسرة
على قد تجرّت
الأمي واستبطرت
وما دَرْتُ ما قَرَّتْ
يكبروا في حُفرتي^(٢٧)

٢_ الثعلب والديك: هي في الرياء الديني ، فالثعلب نهض واعطا ويوما
في الناس فلبس لباس النساء والواعظين ، وأخذ يسب الماكين ،
ويدعو إلى التوبة _ كأحسن رجال الدين _ والزهد في الطير ، كل ذلك
من أجل خداع الديك حتى يفترسته ، لكن الديك أدرك خدعة الثعلب
ونجا منه .

يا عبلله توبوا
وازهوا في الطير إن
واطلبوا الديك يؤذن
فأجاب الديك عذرا
إلى أن قال:
مخطيء من ظن يوما
فهو كهف التائبينا
العيش في الزاهدين
لصلاة الصبح فينا
يا أضل المهتدينا

٣_ النملة الزاهدة: في العمل واستحقاق الحياة ، فالنملة الزاهدة
ادعت التقشف والزهد والتصوف ، وراحت تلتهمس القوت والعيش من
جيرانها ، وعندما علمت جماعة النمل أمر هذه النملة أنكرت ذلك
ومنعتها من طلب الصدقة ، وحكمت عليها بالصوم وعدم سؤال الناس
إذا أصرت على كسلها ، وهذه دعوة صريحة إلى العمل .

سعى الفتى في عيشه عباده
لأن بالسعي يقوم الكون
فأن تشأ فهذه حكاية
كانت بارضي نملة تنبأه
واشتهرت في النمل بالتقشف
فخرجت إلى التماس القوت
فصاحت الجارات: يا للعار
متى رضىنا مثل هذي الحال
وقائد بهديه للسعادة
والله للساعين نعم العون
تعد في هذا المقام غايه
لم تسلم يوما لذة البطالة
واتصفت بالزهد والتصوف
وجعلت تطوف بالبيوت
لم تترك النملة للصرار
متى مددنا الكف للسؤال^(٢٨)

٤_ القرد في السفينة: في الصدق ونبد الكذب ولو هازلا ، فالقرد في
سفينة نوح منصرف إلى عبثه ولهوه ، صاح مرة مستنجدا بالطير
والأسماك من موجة تجد في هلاكه ، وهرعت النسور لإنقاذه فوجدته
مقهقها .

وصاح يا للطير والأسماك
فبعث النبي له النسورا
ومرة أخرى استغاث لثقب ادعاه في السفينة ، فأرسل نوح كل من
حضر فوجدوه كاذبا ، ولكن القرد كان صادقا في ادعائه الثالث ، ولكنه
لقي حتفه آنذاك بسبب ما ادعاه من قبل .

وبينما السفينه يوما يلعب جادت به على المياه المركب
فسمعوه في الدجى ينوح يقول: إني هالك يا نوح
سقطت من حماقتي في الماء وصرت بين الأرض والسماء
فلم يصدق أحد صياحه وقيل حقا هذه وقاحه
قد قال في هذا المقام من سبق اكذب ما يلقي الكذوب إن صدق^(٢٩)

وقد حظيت حكايات الحيوان في العصرين الأموي والعباسي
باهتمام بالغ ، فكانت القناع الموائم للتعبير عن أنواع الظلم
والاستبداد والقهر السياسي والاجتماعي فقيس بن الملوخ (ت ٦٨هـ)
يوظف خرافتي (الحمل والذئب) و (الشيخ والعصافير) للتعبير عما
يناله من ظلم اجتماعي قاهر لا يملك إزاءه سوى الاستسلام والرضوخ.
يقول في الخرافة الأولى:

وكنيت كذّيب السوء إذ قال مرة
السبت التي من غير شيء شتمتني ؟
فقلت متى ذا؟ قال ذا عام أول
فقلت: ولدت العام ، بل رمت كذبة
فهاك فكلني لا يهنيك مأكُل^(٢٢)

ويقول في الثانية:

وكنيت كذّباح العصافير دأبا
فلا تنظري ليلى إلى العين ، وانظري
وعيناه من وجد عليهن تهُلُ
إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل^(٢٣)

ومن الخرافات في العصر العباسي خرافة البوم والخراب ، التي
قصها على المأمون أحد حاشيته ، ويروى أن المأمون ، استيقظ للمعنى
الذي حمله القاص لها فجلس للمظالم وأنصف الناس وتفقد أمور
الولاية^(٢٤).

وقد بلغت حكاية الحيوان العربية أوجها من الظرف والبلاغة بنقل
ابن المقفع كتاب كليله ودمنة من البهلونة إلى العربية في النصف
الأول من القرن الثاني الهجري. وقد توالى تأليف الكتب التي حاكت
كتاب كليله ودمنة وتأثرت به منها: كتاب نتائج الفطنة في نظم كليله
ودمنة لابن الهبارية (ت ٥٠٤هـ) ، وكتاب سلوان المطاع في عدوان
الأتباع لابن ظفر الصقلي (ت ٥٦٥هـ) وكتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة
الظرفاء) لابن عريشاه (ت ٨٥٤هـ)^(٢٥).

وفي العصر الحديث ترجم الشاعر المصري محمد عثمان جلال
(ت ١٨٩٨) كثيرا من حكايات لافونتين* (ت ١٦٩٥) في كتابه
المعروف (العيون اليواظ في الحكم والأمثال والمواعظ) وقد لاقى هذا
العمل إقبالا من القراء وأعيد طبعه مرات عدة .

وجاء بعده إسماعيل صبري (ت ١٩٢٣م) ، وقد وضع كتاب
الثعلب والغراب ومن ثم جاء إبراهيم العرب فنظم كتاب خرافات
أسماء آداب العرب احتذى فيه لافونتين ، ثم جاء أمير الشعراء أحمد
شوقي الذي يعد خير من حاكي لافونتين في العربية في خصائصه
الفنية جميعها ، فقد نسر مجموعة من الحكايات في ديوانه الأول ثم
أعيد نشرها بعد وفاته في الجزء الرابع من الشوقيات^(٢٦).

(١) مضمون الحكايات:

تنقسم الحكايات التي جاءت على لسان الحيوان والطير في الجزء
الرابع من الديوان إلى قسمين:

أ_ في الأخلاق والقيم:

وهي ثمان وثلاثون حكاية نختار منها هذه النماذج:

١_ ضيافة قطرة: حكاية تمثل دور الخير في اجتثاث الشر ، وفيها دعوة
للرحمة. فقد سمع ليلا مواء ، فبحث في أرجاء البيت فوجه بعينين
تقدحان شررا ، وتهيأت قطرة للانتقاض عليه ، ولكنه لم يقابلها شررا
بشر ، بل رأى فيها أما تحاول أن تحمي صغارها ، فراح مهذبا من روعها
حتى أطمأنت ، ودعاها في النهاية إلى أن تبقى في ضيافته وحمايته
لأنها جارتها فلا ينال صغارها سوء حتى يكبروا.

أليث ملك القفار
سعت إليه الرعايا
قالت: تعيش وتبقى
مات الوزير فمن ذا
قال: الحمار وزير
فاستضحكت ثم قالت
وخلفته وطارت
حتى أذا الشهر ولي
لم يشعر الليث إلا
القرد عند اليمين
والقط بين يديه
فقال: من في جدودي
أين اقتداري وبطشي
فجاءه القرد سرا
يا عالي الجاه فينا
رأي الرعية فيكم

وما تضم الصحاري
يوما بكل انكسار
يا دامي الأظفار
يسوس أمر الضواري؟
قضى بهذا اختياري
ماذا رأي في الحمار؟
بمضحك الأخبار
كليلة أو نهار
وملكه في دمار
والكلب عند اليسار
يلهو بعظمة فأر!
مثلي عديم الوقار
وهييتي واعتباري
وقال بعد اعتذار
كن عالي الانظار
من رأيكم في الحمار^(١٢٥)

وخاتمة الحكاية تما ترى إنذار بقوله قرد(إنسان) فتهدد به مستقبل كل سلطة لا تصغي في تدبير شؤونها إلا إلى صوت الأثرة في سيدها، وتنتقاد بعمى الفردية، فالرعية، وهي صورة الراعي بعامه، أبصرت في هذا ما أبصره هو في الحمار والنتيجة حكم حمير يقضي إلى الكوارث. (٢) الديك الهندي والدجاج البلدي^(٤٦): تمثل إحدى صور الغش والخداع في أساليبه القوية الباردة، فالديك ذهب إلى بيت الدجاج، وقام في الباب مقام الضيف، خدع الدجاج في أنه يريد التصريح بلبلة واحدة يقضيها حتى الصباح، واستعمل في ذلك وسائل عدة للوصول إلى غرضه، وهو الإقامة الدائمة، والاحتلال المستمر^(٤٧).

بيننا ضعاف من دجاج الريف
إذا جاءها هندي كبير العرف
يقول حيا الله ذي الوجوها
أتيتكم أنشر فيكم فضلي
وكل ما عندكم حرام

تخطر في بيت لها طريف
فقام في الباب قيام الضيف
ولا أراها أبدا مكروها
يوما وأقضي بينكم بالعدل
عليّ إلا الماء والمنام

وقد نجح الديك في خداع الدجاج، ففتحت له الباب، فدخل وبات متمتعاً بداره الجديدة والدجاج قد أمن الذلة والهوان، وعندما طلع الصباح صاح الديك، دام منزلي المريح ولم ينفع معه اعتراض الدجاج بأنه قد خدعها وغرر بها. وضحك الهندي ناسبا إليها الحمق، متعجبا من أين أتاه لسان الأسياذ؟ لقد كان هذا ممكنا عنده قبل فتح الباب.

فعاود الدجاج داء الطيش
وبات تلك الليلة السعيدة
وباتت الدجاج في أمان
حتى إذا تهلل الصباح
صاح بها صاحبها الفصيح
فانتبهت من نومها المشؤوم
تقول ما تلك الشروط بيننا
فضحك الهندي حتى استلقى
متى ملكتم ألسن الأرباب

وفتحت للعلاج باب العش
متمتعاً بداره الجديدة
تحلم بالذل والهوان
واقبست من نوره الأشباح
يقول دام منزلي المريح
مدعورة من صيحة الغشوم
غدرتنا والله غدرا بينا
وقال ما هذا العمى يا حمقى
قد كان هذا قبل فتح الباب

وهناك كثير من الحكايات التي دارت أحداثها في سفينة نوح عليه السلام منها (الثعلب والأرنب في السفينة)^(٣١)، حكاية الرباء والدجل، و(الحمار في السفينة)^(٣٢) حكاية في الغفلة والغباء، و(السفينة والحيوانات)^(٣٣)، وهي حكاية في حتمية الصراع بين البشر ولو تألفوا، و(الدب في السفينة)^(٣٤)، وهي حكاية في التسليط، وعدم استعجال حلول الدنيا.

٥- سليمان والطاووس، في الغرور والكبر والطمع: جاء الطاووس يوما إلى سليمان الحكيم يزهو بين جماعة الطيور، مختالا بريشه وحسن منظره، ليعرض شكواه.

فقال لدي مسألة
وها قد جئت أعرضها

اظن أوأنا أنا
على أعتاب مولانا

وأخذ يقول لسليمان: ألم أستكمل كل آيات الظرف، وأصبح سلطان للطيور مع ذلك فأنا محروم من الصوت وجماله، ما أن أحقر الطيور بتمتع بهذه الموهبة الإلهية، فيزيد الصب أشجانا.

فقال له سليمان
لقد صغرت يا مغرو
وملك الطير لم تحفل
فلو أصبحت ذا صوت

لقد كان الذي كانا
ر نعمى الله كفرانا
به كبرا وطغيانا
لما كلمت إنسانا^(٣٥)

ولسليمان قصة أخرى مع الهدد^(٣٦)، وهي في إخفاء إثم والتعلة بسبب صرفا للأنظار ثم مع الحمامة^(٣٧)، وهي حكاية في الخيانة وسوء التقدير للأمانة.

ونذكر من الحكايات التي حفل بها الجزء الرابع ودارت أحداثها على ألسنة الحيوان والطيور ودعت إلى التمسك بالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، ونبد الرذائل. حكاية (الكلب والبغاء)^(٣٨)، وهي حكاية في الغرور المقرن بغفلة، وحكاية (الثعلب الذي أنخدع)^(٣٩)، في الزهو بالمخالفة والاعتدال بالنفس لو كانت آثمة، وحكاية (السلوقي والجواد)^(٤٠)، وهي في الأخلاق ومعرفة خفايا النفس، وحكاية (البغل والجواد)^(٤١)، وهي في تحويل المثالب إلى فضائل، اعتدادا غيبيا بالنقص، وحكاية (الهرة والنظافة)^(٤٢)، وهي تزيين النظافة والاعتناء بالهندام، وحكاية (الغزال والخروف والتيس والذئب)^(٤٣)، وهي في سذاجة من يضع الثقة في غير محلها، ومنجذبا بغرور وإغواء. وحكاية (الشاة والغراب)^(٤٤)، وهي في انتقاد من يعزي الآخرين بكلام أشد قسوة من المصيبة.

ب- في السياسة والأوطان:

إحدى وعشرون قصيدة، نختار منها بعض هذه النماذج.

(١) الأسد ووزيره الحمار: وهي حكاية صالحة للنقد السياسي، والسخرية من الوزراء والمستوزرين. فالملك استأثر بالسلطة عندما رفعت إليه الرعية شكواها، فاختار وزيره اختبارا مزاجيا، ولم يستشير الشعب فجاءه الاختيار وبالا على مملكته وضاع ملكه، فالأسد(الملك) أته رعيته تشكو إليه شغور مركز الوزير بموته. فأشار بأن يكون الحمار وزيره، فاستضحكت ومضت، وبعد شهر، شعر الملك أن ملكه إلى دمار، وقد ضاعت هيئته واقتداره، فقرد عن يمينه، وكلب عن يساره، وهر يلهو بين يديه بعظمة فأر، فاستثطا غضبا وسأل عن السبب. فهمس القرد في إذنه بعد اعتذار: (رأي الرعية فيكم من رأيكم في الحمار).

كما نرى ، ((فهذه الحكاية هي حكاية مصر مع الاحتلال البريطاني ، فتحت له أبوابها لتحسين الدولة ضد أعدائها ، وبنائها على أسس جديدة بعد الإسراف الكبير أيام إسماعيل لدرجة إغراقها بالديون ، لكنه سرعان ما سيطر على مرافقها وأتبعها بمصالحه. وانتبهت مصر ، لكن كان قد فات الأوان .

ونلمح في الآيات دعوة إلى الوعي القومي في كل أمة إذ تحدد بها الأخطار وكذلك حث الفرد على الفطنة ، فلا يؤخذ في غفلة من عينه ولحظة حق سوداء))^(٤٨).

(٣) ولي عهد الأسد وخطبة الحمار: حكاية في انتقاد البطانة وحاشية الملوك ، ولا توقر صغاراً من مدعي المعرفة بالفن. فالملك رزق بولي للعهد ، فاجتمعت سباع الحيوان وذبوله للاحتفال ، ونادى منادي الليث داعياً الخطاب إلى الإشارة بهذا الحديث ، فأنبى الفيل المشير وقال ما يليق بالمقام ، وأنشد الثعلب السفير ما يلائم المناسبة ، واستطاع القرد أن يوهب الجميع بأنه أبو نواس ، أما الحمار فقام وأقسم بخالق الشعر ، وباعث العصا إلى الحمير ، فبعث الرعب في قلب ولي العهد وأزعجه. وهجمت جوع الحيوان فأنشبت أظفارها في جسد الحمار. وعندما أبته الثعلب قال فيه: لا جعل الله له قراراً ، فلقد عاش حماراً ومضى حماراً .

حتى إذا استكملت الجمعيه	نادى منادي الليث في المعيه
هل من خطيب محسن خبير	يدعو بطول العمر للأمير
فنهض الفيل المشير السامي	وقال ما يليق بالمقام
ثم تلاه الثعلب السفير	ينشد ، حتى قيل: ذا جرير
واندفع القرد مدير الكاس	فقيل: أحسنت أبا نواس
وأوما الحمار بالعقيره	يريد أن يشرف العشيره
فقال: باسم خالق الشعر	وباعث العصا إلى الحمير!
فأزعج الصوت ولي العهد	فمات من رعدته في المهد
فحمل القوم على الحمار	بجملة الأنبياء والأظفار
وانتدب الثعلب للتأيين	فقال في التعريض بالمسكين
لا جعل الله له قراراً	عاش حماراً ومضى حماراً ^(٤٩)

يتبين من الحكاية غاية شوقي في انتقاد أهل البطانة بطريقة مضحكة ، فمن هؤلاء من لا يستحق أن يجلس الملوك ولا أن يكون من أتباعهم ، لذلك جعلهم في الموضوع الذي يظهر فيه ضلالهم واختلالهم. وكذلك غايته في تطفل صغار نكرة على عالم الفن والأدب ، وإقحامهم ذواتهم كمبرزين فيها ، والنتيجة أن سقوطهم يكون عظيماً . وقد امتاز هذا النص بروعته الأسلوبية ، فقد اختار الشاعر لكل من شخوص الحيوان ، وهي رموز إنسانية ف النهاية ، ما يناسب وضعه وطبيعة عمله: فالفيل مشير لحكمته ، والثعلب المحتال سفير لما يتطلبه من إخفاء الهوى وتلبس داعي الدبلوماسية ، والقرد مدير للكأس ، لأنه موزع الفرحة على الجلاس المتنادمين ، باستثناء الحمار ، لذلك حصل التعارض بين حقيقة شخصه وما نوى ، فعوقب عقابه الأدهى^(٥٠).

(٤) النعجة وأولادها: حكاية في الرعية والراعي وضرورة الاتحاد بينهما ي السراء والضراء. فغفم في أرض بغداد ترعى جمعها راع ، غفلت عينه فنام ، وبقيت شاة مستيقظة وبدا لها الذئب فصاحت منبهة جماعتها ، فقام الراعي مستصرخاً كلابه ، سائلاً عن مقلعه فهرب الذئب فرقا ، واقتحرت الأم بما ورثته عن أبيها من الحكمة .

فبينما هي تحت الليل ساهره
بدا لها الذئب يسعى في الظلام على
بقام راعي الحمى المرعي منذراً
وضاق بالذئب وجه الأرض من فرق
فقاتل الأم: يا للفخر كان أبي
إذا الرعاة على أغنامها سهرت
تحييه ما بين أوجال وأوجاع
بعو ، فصاحت: ألا قوموا إلى الساعي
يقول: أين كلاي أين مقلعي؟
فانساب فيه انسياب الطلي في القاع
حرا ، وكان وفيًا طائل الباع
سهرت من حب أطفاله على الراعي^(٥١)

يتبين مما سبق: أن مغزى الحكاية في بيتها الأخير: فالملك رعية وراع ، واتحاد متجرد نزيه لنصرة الأمة ولا يكون التمزق ويحدث اختراق الجمع المصطنع بحربة الخطر المحدق .

(٥) ملك الغربان وتُدور الخادم: حكاية في الإصلاح السياسي والاستئثار بالسلطة ، وغفلة الحكام عن الأخطار إذ تحدد ببلدانهم وحاضرهم. فقد كان للغربان ملك كان عرشه فوق نخلة كبرى وجاء خادمه ندور ذات يوم ، وأخبره أن سوسة بقصره جازته ودبت في الجذور فابعث الغربان في إهلاكها ، فضحك من كلامه وقال: أنا ذو المنقار غلاب الرياح:

أنا لا أنظر في هذي الأمور	أنا لا أبصر تحتي با ندور
وبعد زمن اصطدم الريح بالنخلة ، فهوت وهوى معها عرش ملك الغربان ، وهنا قال الملك:	
يا ندور الخير ، أسعف بالصياح	ما ترى ما فعلت فينا الرياح ؟
فرد ندور بمثل ما قال الملك:	
قال يا مولاي لا تسال ندور	أنا لا أنظر في هذي الأمور ^(٥٢)

يدعو شوقي في هذه الحكاية إلى الابتعاد عن الاستئثار بالسلطة ، السلطات __ كما نرى __ لأمان الحاضر ، غير مبصر أن في غدٍ ما يغير الأحوال ، وذلك لم يعبأ بكلام خادمه ، حتى دهم عرشه خطب الأخطار المحدقة وأنهار .

وبعد: فإن هذه بعض من الحكايات التي حفل بها الجزء الرابع من الشوقيات ، والتي جاءت على لسان الحيوان والطيور ، منتقداً من خلالها شوقي الأوضاع الساسية السائدة في زمنه ، وهناك غيرها من الحكايات كحكاية: (الأفعى النيلية والعقربة الهندية)^(٥٣) ، وهي في واجب الحذر والتنبيه لخطر مداهم من الأعداء ، وحكاية (فأر الغيظ وفأر البت)^(٥٤) ، وهي في نقد حياة القصور والمجتمعات المدنية بصورة عامة وحكاية (الوطن)^(٥٥) ، وهي في التغني بالوطن وإيثاره فقيراً على كل أرض ولو ثرية. وحكاية (الأسد والثعلب والعجل)^(٥٦) ، وهي في النقد الاجتماعي والخلقي وانتصار الرأس الصغير على كل ذي رأس كبير غير مناسب لجسده ، وغيرها من الحكايات.

(٢) البناء الفني في الحكايات:

أ- الوزن والقافية.

لما كانت القصيدة التي يأتي بها الشاعر تتلاءم مع غرضه من القصيدة ، لذلك تخضع هذه القصة لهجوى القصيدة من حيث الوزن والقافية واللغة مع مراعاة الشاعر للموروث الثقافي والهياكل الفنية التقليدية التي تشكل مادة شعره فضلاً عن تجربته الخاصة وبواعثه . وقد نظم شوقي أكثر من نصف الحكايات على بحر الرجز ، وهي مصرعة الأبيات متنوعة القوافي ، أما البقية فقصائد عادية موحدة القوافي ، لكن الغالب فيها الكامل المجزوء ، والرمل المجزوء ، والمجثت والسريع ، وقليل منها كانت على بحر الرجز غير أنها ليست مصرعة الأبيات ولا متنوعة القوافي ، أو كانت شبه أراجيز ، بحرهما

الرمز ، ولكنها مع ذلك مصرعة الأبيات متنوعة القوافي . وهذا الإطار يميز حكايات شوقي بالخصائص الآتية :

- قصر النفس من حيث قصر المدعى .
- الخفة والحيوية من حيث تنوع القوافي .

● سهولة التقصيد (الإنشاد) وكذلك سهولة الحفظ إذ جلتها على الرجز . فهي بذلك أهل لتقوم بوظيفة التعليم في صفوف المبتدئين^(٥٧) . ومن الحكايات التي نظمت على بحر الرجز وذات القوافي المتنوعة ، حكاية الكلب والبغاء ، يقول :

كان لبعض الناس بغاء ما مل يوماً نظقها الإصغاء
رفيعة القدر لدى مولاهما وكل من في بيته يهواها
وكان في المنزل كلب عالٍ أرخصه وجود هذا الغالي^(٥٨)

ولا يحفى ما يقدمه التصريح هنا في البيت الأول من جذب الانتباه وإعطاء كثافة موسيقية مؤثرة . وحكاية ، (الطبي والعقد والخنزير)^(٥٩) ، وحكاية (الثعلب والأرنب والديك)^(٦٠) ، وحكاية (القرود السفينة)^(٦١) ، وحكاية (نديم الباذنجان)^(٦٢) ، وغيرها من الحكايات .

ب _ الصورة الفنية واللغة :

إن كلمة الصورة تستعمل للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي ، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات . والصورة الشعرية ليست شيئاً جديداً ، فإن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد . ولكن استخدام الصورة يختلف من شاعر إلى آخر . وقد أشار كثير من النقاد المحدثين إلى أن الصورة لا تعتبر في النقد الحديث ناجحة إلا إذا حملت شحنة عاطفية في كل جزء من أجزائها^(٦٣) . وهي بالإضافة إلى هذه الشحنة العاطفية تحمل أيضاً فكرة ورؤية للواقع بكل أبعاده . فهي تصدر من صناع يعرف كيف يضم الخط إلى الخط واللون إلى اللون ، والضوء إلى الضوء والظل إلى الظل ، فلا تحس نشازاً ، بل تحس استواء واتسافاً^(٦٤) .

وهذا الأمر يبدو واضحاً عند شوقي ، فقد قدم شوقي بذوقه الحساس لمحات من التصوير الفني الرائع في حكاياته ، فمن الصور الجميلة عنده في حكاية (العصفور والغدير المهجور)^(٦٥) . وهما يتحدث عن نفسها دون حاجة لتوضيحها أو حتى التعليق عليها .

ألم عصفور بمجرى صاف قد غاب تحت الغاب في الألفاف
يسقي الثرى حيث لا يدري الثرى خشبه أن يسمع عنه أو يرى

وقوله في حكاية (سليمان والطاووس)^(٦٦) .

سمعت بأن طاووساً أتى يوماً سليماناً
يجر دون وفد الطير أذياً لا وأرداناً
ويظهر ريشه طورا ويخفي الريش أحياناً

فنلمس هنا أداء جميلاً يدل على التمكن من ناحية اللغة ، ويظهر جليلاً بعده عن الصنعة ، وهذا يظهر في حكاية (السفينة والحيوانات)^(٦٧) . يقول :

وجلس الهر بجنب الكلب وقبل الخروف ناب الذئب
وعطف الباز على الغزل واجتمع النمل على الأكال
ولو أردنا أن نتبع صور شوقي في كل حكاياته لوجدنا أنفسنا أمام صناع ماهر في رسم صوره ، رسام قادر على أن يحول اللا يمكن

واللامعقول إلى مقبول مستساغ ينتشي معه المتلقي طرباً وهو يجمع أحياناً كل المتناقضات في قالب واحد ، وأحياناً يجعل الوحشي واللامألوف مألوفاً من خلال براعته في التصوير .

أما اللغة فمهما لا شك فيه أن اللغة وسيلة من وسائل التعبير عن كل ما يختلج الإنسان ، وهي إلى جانب ذلك تتضمن خصائص جمالية تستروحها النفوس وتطمئن إليها الأذن فترتقي باللغة إلى مستوى الفنون الجميلة لتصبح مظهراً من مظاهر الجمال مثلها ، فتغدو شبيهة بالرسم والنقش والتصوير والموسيقى .

والألفاظ هي المادة الأولى في بناء القصيدة الشعرية فهي بما تثيره من أشكال تمنحها الصورة . وبما فيها من جرس يهبها الإيقاع وليس جلبها بالأمر الميسور ، وإنما يأتي لأن دوافع التجربة في داخل المشاعر هي التي تختارها وتعتمدها وتطمئن إليها بعد أن تكون قد غاصت في أكوام هائلة من الألفاظ .

وهذا تماماً ما فعله شوقي في حكاياته ، فقد كان انتقائياً حريصاً على إيصال الفكرة المنشودة من وراء كل حكاية من حكاياته بصورة لغوية تشد الكمال على المستويين معاً ، مستوى الألفاظ ومستوى التركيب .

على أن هذه العناية من شوقي باللغة أداءً وألفاظاً لا تنفي عنه التأثير غير القليل بالأداء النثري ، بسبب ما تعرضه عليه طبيعة هذا النوع من الشعر ، من حيث كونه نظماً شعرياً من جهة ، تشرب بالنفس القصصي أو الحكائي الذي يتحكم في تأليفه الأسلوب النثري أصالة من جهة أخرى . ((فلغة الحكاية عند شوقي تفوق من سبقه من الشعراء ، فقد استطاع فيها أن يكون كما هو في سائر أشعاره ، صاحب الروعة في الأداء والدقة في التركيب ، والأناقة في اختيار الألفاظ^(٦٨) .

ف نجد عند شوقي في حكاياته تنوعاً مدهشاً يشي بوعي عميق لأركان الحكاية ولغتها فهو يستخدم الفعل الماضي إشارة منه إلى مضي هذه الحكاية وحدثها في الزمن الماضي فعلى سبيل المثال لو أعدنا النظر في حكاية (النملة الزاهدة) لوجدنا فيها من الأفعال الماضية أو المضارعة التي تخرج للدلالة على الماضي : (سعى ، كانت ، اشتهرت ، انصفت ، خرجت ، جعلت ، صاحت ، رضينا ، مددنا ، لم تسلم ، لم تترك) .

أما الفعل المضارع الدال على الحال أو الاستقبال فيلجأ إليه شوقي عندما يحتاج إلى الوصف الدال على هيئة هذا الحيوان أو دالك فنجدته مثلاً في حكاية (النملة وأولادها) قد استخدم : (تحييه ، يسعى ، يقول) وهذه الأفعال أوردها شوقي من باب الوصف الآتي لأفعال وتصرفات هذه الحيوانات أو فلنقل شخصيات حكاياته .

وفعل الأمر أو ما يقوم مقامه كالنهي مثلاً ، غالباً ما نجده عند شوقي في مقام الحوار بين شخصيات حكاياته ، أو فيما يقدمه الحاكي (الشخصية) للمتلقى ، والمتلقي هنا ليس طرفاً في هذا الحوار . فمثلاً في حكاية (الثعلب والديك) استخدم شوقي : (توبوا ، اهذوا ، اطلبوا ،) (أسعف ، لا تسأل ، لا أنظر) في حكاية (ملك الغريبان) . وهذه الأفعال وإن كانت مقدمة في سياق حوارها إلا أنها تتجاوز شخوص الحكاية ؛ لتقدم نصحاً للمتلقى المستهدف أساساً من هذه الحكايات .

وكثرة مجيء الجملة الفعلية في النصوص السابقة ، حيث إن الجملة الفعلية كما بدا واضحاً تنم عن ديناميكية تُشعر بنمو تلك الأحداث ، وخاصة ما ورد في سياق الفعل الماضي . على حين أن الجمل

لما أتم نوح السفينة وحركتها القدرة المعينه
جرى بها ما لا جرى ببال فما تعالى الموج كالجبال
حتى مشى الليث مع الحمار وأخذ القط بأيدي الفأر
واستمع الفيل إلى الخنزير ومؤتسا بصوته النكير
وجلس الهر بجانب الكلب وقبل الخروف ناب الذئب
فذهبت سوابق الأحقاد وظهر الأحباب في الأعادي^(٧٣)

أما هدوء الطبيعة وانقضاء الطوفان فهو رمز إلى السلامة من
الأخطار ، وأما خروج الكائنات من السفينة إلى الأرض فهو رمز إلى
عودتهم إلى ما كانوا عليه وعودة طباعهم كما كانت من قبل .

حتى إذا حطوا بسفح الجودي فأيقنوا بعودة الوجود

عادوا إلى ما تقتضيه الشيمه ورجعوا للحالة القديمه

فقس على ذلك أحوال البشر إن شمل المحذور وعم الخطر

بيننا ترى العالم في جهاد إذ كلهم على الزمان العادي^(٧٤)

وهكذا يتضح أن في حكايات شوقي علمين من أعلام التاريخ
الديني هما سيدنا نوح وسيدنا سليمان — عليهما السلام — هذان النبيان
كان لهما سلطان كبير على الحيوان كما يتضح في القرآن الكريم: فكان
القرآن مصدرا لشوقي استغل روح أحداثه كثيرا دون أن يتقيد بوقائعها .
فقد كان لسيدنا سليمان — عليه السلام — أثر في أربع حكايات هي:
البلابل التي رباها اليوم^(٧٥) ، وسليمان والهدهد^(٧٦) ، وسليمان
والطاووس^(٧٧) ، وسليمان عليه السلام والحمامة^(٧٨) .

أما سيدنا نوح — عليه السلام — وسفينته فكان لهما أثر في تسع
حكايات ، هي: السفينة والحيوانات^(٧٩) ، والقرد في السفينة^(٨٠) ، ونوح
عليه السلام والنملة في السفينة^(٨١) ، والدب في السفينة^(٨٢) ، والثعلب
في السفينة^(٨٣) ، والليث والذئب في السفينة^(٨٤) ، والثعلب والأرنب
في السفينة^(٨٥) ، والأرنب وبنت عرس في السفينة^(٨٦) ، والحمار في
السفينة^(٨٧) .

يتضح من دراسة حكايات شوقي ، أن الثعلب هو أكثر الحيوانات
مساهمة في بنائها ، يليه الحمار ، ثم مجموعة تضم الأرنب والذئب
والقرد ، ناهيك عن اعتماد شوقي على فصيلة الطيور كالبلبل والبوم
والببغاء والطاووس والعصفور والغراب والهدهد .

خرج الثعلب^(٨٨) في الحكايات بصورة الكائن الذكي الداهية الذي
يعتمد إلى الانتفاع دون تورط ، وهو محتال خبيث لا دين له يفتنم
الفرص ، ويسعد بشقاء غيره يناصر القوي مهما كان مصدر قوته. تلك
صورة الثعلب في حكايات شوقي ، وتلك هي صورته في آداب المشرق
والمغرب ، وهي الصورة نفسها التي احتفظت بها الخرافات والأساطير ،
فالثعلب رمز للإنسان على هذه الصفات .

أما الحمار^(٨٩) ، فأبرز الصفات التي ظهر بها في حكايات شوقي
تصوره متنكبا العز موطناً على الذل ، وهو أبداً غبي مسكين ، مجمع
على حقارته لا أمل في إصلاحه .

وتلك هي صورته في التراث الإنساني ، وفي القرآن الكريم في آيتين
هما: قوله تعالى ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَمَارِ
يَحْمَلُ أَشْقَارًا يَنْسَخُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))^(٩٠) ، وقوله تعالى: ((وَأَفْضِدُ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضُ مِنْ
صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ))^(٩١) ، وكذلك في أمثال
العرب .

الفعلية ذوات الأفعال المضارعة تأتي كما رأينا في كثير من الأحيان في
معرض الوصف ، أو التفسير لسلوك شخصية ما .

وإذا تصفحنا الحكايات بحثا عن دور الجملة الاسمية فإننا نجد أن
شوقي يأتي بالجملة الاسمية — التي غالبا ما ترد في الأوصاف ورسم
الحالات النفسية ، لذلك نجدها توحى بالثبات والجمود على العكس
تماما من الجمل الفعلية — عندما يريد أن يقف عند حد ما في حكايته ،
وكان الجملة الاسمية هنا تأتي لتعكس مقدار الجمود الذي وصلت إليه
الحكاية. ففي حكاية (الثعلب والديك) مثلاً تقف الحكاية عند قول
شوقي: (مخطئ من ظن يوماً أن للثعلب ديناً). وكذلك قوله: (أكذب ما
يلقى الكذوب إن صدق).

جـ- الرمز:

غلف الشاعر مشاعره القومية في ثياب الرمزية ، وعرض لأرائه بطرق
غير مباشرة ، قاصداً من وراء ذلك المداواة في معالجة أمور السياسة ،
والتعريض بشخصيات بعض الساسة في وقته .

رمز الشاعر للعدو المستعمر الذي يتبع أساليب النفاق والخداع
والعش للسيطرة على الشعب (الثعلب) كما في حكاية (الثعلب
والديك) والديك الهندي كما في حكاية (الديك الهندي والدجاج)
والعقربة الهندية كما في حكاية (الأفعى النيلية والعقربة الهندية) .

واستخدم لفظ الدجاج ، الأفعى ، الأرنب ، يرمز بها إلى الشعب
الغافل عن الخطر المحدق به وهو العدو ، وقد انتقد شوقي غفلة
الشعب وانخداعه بالطامع المحتل وارتهانه للأجنبي ، ففي آياته تنبيه
للوعي القومي لدى المصريين إلى خطر الغفلة في علاقتهم بالأجنبي
الدخيل ، يقول في حكاية: الديك الهندي والدجاج البلدي^(٩٢) .

بيننا ضعاف من دجاج الريف تخطر في بيت لها طريف
إذ جاءها هندي كبير العرف فقام في الباب قيام الضيف

وفي حكاية الثعلب والديك ، يقول^(٩٣):

برز الثعلب يوماً في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا

وفي حكاية (الأفعى النيلية والعقربة الهندية)^(٩٤) ، يقول:

من ملك الخصم ونام عنه يصبح يلقي ما لقيت منه
لولا الذي أبصر أهل التجربة منى لها سمو الخبيث عقربه

وقد رمز للحاكم المستبد المستأثر بالسلطة كالأسد كما في حكاية
(الأسد ووزيره الحمار) ، وحكاية (ولي عهد الأسد وخطبة الحمار) .

يقول في الأولى:

الليث ملك القفار وما تضم الصحاري
سعت إليه الرعايا يوما بكل انكسار
قالت: تعيش وتبقى يا دامي الأظفار
مات الوزير فمن ذا يسوس أمر الضواري ؟
قال: الحمار وزيرى قضى بهذا اختياري

وقد رمز الشاعر بظاهرة الطوفان إلى الكارثة التي تحل بالإنسان فتحمله
على السعي إلى العيش مع غيره القوي والضعيف على حد سواء ، في
كنف الحب والسلام ، ورمز بالسفينة إلى الملجأ الآمن وإلى العالم
المثالي ولكنه وقتي ، فيه يمنحن الناس ويختبرون^(٩٥) .

خلاصة القول:

إن حكايات الحيوان على اختلاف أنواعها توفر أقتعة ورموزاً أدبية قادرة على التعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية دون اصطدام بالسلطة أو المجتمع ، فكانت رافضة للظلم ، وثورة على النظم السياسية القاهرة ، ولها مقاصد تهذيبية تعليمية تهدف إلى نقد المجتمع والسخرية من أفعال الناس ، تقدم ذلك كله بقلب قصصي يمتاز ببساطة اللغة ، والأسلوب الممتع ، وروح الفكاهة التي تغلب عليه ، وخفة الوزن ورشاقة الموسيقى مما يجعلها شائعة بين الناس ؛ لسهولة حفظها وعذوبة إيقاعها .

الهوامش

- (١) انظر: عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، ص ٢٩-٣٠ ، ومحمد عبد السلام كفاقي ، في الأدب المقارن ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، فوزي العنتيل ، عالم الحكاية الشعبية ، ص ٥٦ ، سوزان الحلو ، حكاية الحيوان في النثر العربي في القرنية (١٤١٣هـ) ، رسالة ماجستير ، ص ٤٠ .
- (٢) الكساندر كراب ، علم الفلكلور ، ترجمة رشدي صالح ، ص ١١٤ .
- (٣) ليلى سعد الدين ، كلبلة ودمنة ، ص ١٤٩ .
- (٤) انظر: الكساندر كراب ، علم الفلكلور ، ص ١١٥ ، وفردريش فوه ديرلاين ، الحكاية الخرافية ، ترجمة ، د.نبيلة إبراهيم ، ص ٩١ .
- * قد تفسر الحكاية ظواهر متعلقة بالنبات ، ومنها الحكاية التي تفسر سبب نمو زهرة النرجس قرب الشيطان .
- (٥) تحقيق: فوزي عطوي ج ٢ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ وقد روى هذه الحكاية النويري (٧٣٢) في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب ، السفر العاشر ، ص ٢٢٢ مع ما فيها من أشعار تنسب إلى أمية بن أبي الصلت (ت ٥هـ) ، انظر الديوان ، تحقيق: د. سجع جميل الجبيلي ، ص ١٥٣-١٥٤ .
- (٦) محمد رجب النجار ، حكايات الحيوان في التراث العربي ، ص ١٩١ ، وانظر: محمد غنيمي جلال ، الأدب المقارن ، ص ١٧٩-١٨٠ . * _ انظر هذه الدراسات: عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، ص ٣٣ الكساندر كراب ، علم الفلكلور ، ص ١٢١ ، محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٧٩-١٨٠ ، ليلى سعد الدين ، كلبلة ودمنة ، ص ١٤٩ ، جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ١٠١ ، محمد رجب النجار ، حكايات الحيوان ، ص ١٩٠ .
- (٧) انظر: محمد رجب النجار ، حكايات الحيوان ، ص ١٩٠ ، وليلى سعد الدين ، كلبلة ودمنة ، ص ١٤٩ .
- (٨) فوزي العنتيل ، عالم الحكايات الشعبية ، ص ٥٨ ، وانظر: فريال جبوري ، قصص الحيوان بين موروثة الشعبي وتراثنا الفلسطيني ، مجلة فصول ، مجلد ١٣ عدد ٣/٢ ص ٣٧٩ .
- (٩) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ، ص ٣٧٩ .
- (١٠) تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني ، المجلد الثاني ، ص ٧١٩ .
- (١١) انظر: محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٨٠-١٨٥ ، فوزي العنتيل ، العنتيل ، عالم الحكاية الشعبية ، ص ٥٨-٦٠ ، داود سلوم ، دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ، ص ١٦٨ ، جاتاكا: كتاب يحكي تاريخ تناسخ بودا في أنواع من الموجودات .
- (١٢) فوزي العنتيل ، عالم الحكايات الشعبية ، ص ٥٨ .
- (١٣) الحكاية الشعبية ، ص ٣٥ .
- (١٤) محمد رجب النجار ، حكايات الحيوان في التراث العربي ، ص ٢٠٥ .
- (١٥) عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، ص ٣٦ ، وانظر فوزي العنتيل ، عالم الحكايات الشعبية ، ص ٦٢ .
- (١٦) فوزي العنتيل ، عالم الحكايات الشعبية ، ص ٦٣ .

أما الذئب^(٩٢) فخرج بصورة المفترس الظالم المسلط على الضعيف ، والمتحين للفرص ، والطماع ، والمحب للتظاهر. وتتفق صورته هذه مع صورته في أمثال العرب. أما القرد^(٩٣) فاتصف بالخلاعة والطيش والغباوة والنهمية والكذب .

د_ الحكمة:

((تمثل الحكمة جانباً مهماً من التراث الثقافي في كل أمة ، فهي تنطق بتجارب الإنسان وتعكس قيم المجتمع في أوجز لفظ وأبلغ معنى)).^(٩٤) وقد تطورت الحكمة عند شوقي (واكتست ثوباً فلسفياً ذا مغزى خلقي هادف ، وقد تأثر في ذلك بنزعة الدينية ، فلم يكن فيلسوفاً صاحب مذهب خاص ، ولكنه كان مطلعاً على الثقافة الإسلامية ، فكانت له آراء في الحياة والاجتماع)^(٩٥) .

والملاحظ عند شوقي في حكاياته أنه حريص في جلها أن يقدم في نهاية كل حكاية حكمة يتراءى لنا أنها تصلح أن تسمى (بيت القصيد) أو الهدف الأساسي الذي ساق من أجله شوقي هذه الحكايات ، فهي تلخص الهدف المنشود من حكايات شوقي .

وقد أورد الشاعر الحكمة في نهاية كل حكاية . فالعصفورة المتهورة تعتبر بعد الوقوع في شرك الصياد .

وهتفت تقول للأغراب مقالة العارف بالأسرار
إياك أن تغتر بالزهاد كم تحت ثوب الزهد من صياد^(٩٦)

والديك الحذر تمثل بعد أن أمن نفسه من الثعلب .

قالوا وخير القول قول العار فينا
مخطئ من ظن يوماً أن للثعلب ديناً^(٩٧)

والنبي سليمان "عليه السلام" يدين الهدهد المتشكي من حبة ابتلعها .

ما أرى الحبة إلا سرقت من بيت نملة
أن الظالم صدرا يشكي من غير علمه^(٩٨)

وهكذا يتضح ، أن حكايات شوقي ((تستمد روحها ورموزها من ثلاثة مصادر الحكمة المشرقية والأمثال العربية والقرآن الكريم ، فعليها مسحة إسلامية مباشرة واضحة ومسحة عربية وأخرى مشرقية عامة ، ولا صلة بحكايات لافونتين الغربية إلا من حيث إعدادها إعداداً تعليمياً)).^(٩٩)

ه_ الزمن:

استعمل شوقي في حكاياته الماضي المطلق ، هذا الماضي الروائي لا ينزل الحكايات في أزمنة معينة بقدر ما يساعد على الإخبار بالوقائع كقوله:

كان للغربان في العصر وله في النخلة الكبرى أريك^(١٠٠)

وقوله:

كانت النملة تمشي مرة تحت المقطم^(١٠١)
حتى في الحالات التي استعمل فيها صيغة المضارع في أفعال أخرى فإنه لم يخرج عن الماضي المطلق^(١٠٢) .

يقال: كانت فارة الغيطان تتبه بابنيها على الفيران^(١٠٣)

- (١٧) عزة الغنام ، الفن القصصي العربي القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع ، ص ٢٤١ .
- (١٨) سوزان الحلور ، حكاية الحيوان في النثر العربي ، رسالة ماجستير ، ص ٥٣ .
- (١٩) داود سلوم ، قصص الحيوان في الأدب العربي القديم ، ص ٩ .
- (٢٠) إحسان عباس ، ملامح يونانية في الأدب العربي ، ص ٨٢ .
- (٢١) سوزان الحلور ، حكاية الحيوان ، ص ٦١ .
- (٢٢) مجنون ليلي ، الديوان شرح وتحقيق: رحاب عكاوي ، ص ١٦٧ .
- (٢٣) الديوان ، ص ١٦٧ .
- (٢٤) الطرطوشي: سراج الملوك ، حققه وطبعه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد فتحي أبو بكر ، تقديم: شوقي ضيف المجلد الثاني ، ص ٤٩٧_٤٩٨ .
- (٢٥) فوزي العنتيل ، عالم الحكايات الشعبية ، ص ٦٧_٦٨ .
- * __ هو صاحب القصص المشهورة التي تدور حول الحيوان وترمز إلى معاني أخرى تتعلق بالمجتمع الإنساني وما يسوده من طبائع وأخلاق وعلى يديه قدر لهذا الفن أن ينبعث من جديد في القرن ١٧ ، انظر: لافونتين ، أمثال لافونتين ، عربها نظما الأدب نقولا أبو حنا تحقيق: حسن عاصي المقدمة ، ص ٦ .
- (٢٦) الشوقيات ج ٣
- (٢٧) الشوقيات ج ٤ ، ص ١١٤_١١٥ ، ١١٦ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٠_١٥١ .
- (٢٩) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١١٨_١١٩ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (٣١) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (٣٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
- (٣٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .
- (٣٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٩ .
- (٣٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .
- (٣٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
- (٣٨) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .
- (٣٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١١ .
- (٤٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٩ .
- (٤١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢١ .
- (٤٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .
- (٤٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .
- (٤٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .
- (٤٥) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٦٢_١٦٣ ، وانظر الحاشية .
- (٤٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٩_١٧٠ .
- (٤٧) حسن محسن ، الشعر القصصي ، ص ٤٥ .
- (٤٨) الشوقيات ، ج ٤ ، الحاشية ، ص ١٧٠ .
- (٤٩) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٧٨_١٧٩ .
- (٥٠) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٧٩ الحاشية .
- (٥١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٨_١٦٩ .
- (٥٢) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٧٥_١٧٦ .
- (٥٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .
- (٥٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .
- (٥٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٢_١٨٣ .
- (٥٦) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .
- (٥٧) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص ٢٦٤ .
- (٥٨) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .
- انظر: دراسات في النص الشعري العباسي ، د. عبده بدوي ، مكتبة الشباب — مصر ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠٥ .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .
- (٦٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٠ .
- (٦١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (٦٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧١ .
- (٦٣) التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، دار العودة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨١ ، ص ٧٦ .
- (٦٤) دراسات في الشعر العربي المعاصر ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ٦ ، ص ٢٣٦ .
- (٦٥) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .
- (٦٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .
- (٦٨) حسن محسن ، الشعر القصصي ، ص ٧٥ .
- (٦٩) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .
- (٧١) المصدر نفسه ، ص ١٥٧_١٥٨ .
- (٧٢) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص ٢٦٩_٢٧٠ .
- (٧٣) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .
- (٧٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .
- (٧٥) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .
- (٧٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .
- (٧٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .
- (٧٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
- (٧٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .
- (٨٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٣ .
- (٨١) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٧ .
- (٨٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٩ .
- (٨٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .
- (٨٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٠ .
- (٨٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٢ .
- (٨٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٩ .
- (٨٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
- (٨٨) انظر الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .
- (٨٩) انظر الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٣٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .
- (٩٠) سورة الجمعة ، آية ٥ .
- (٩١) سورة لقمان ، آية ١٩ .
- (٩٢) انظر الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٦١ .
- (٩٣) انظر الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١١٣ ، ١٤٥ ، ١٧٢ .
- (٩٤) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص ٣٣١ .
- (٩٥) حسن محسن ، الشعر القصصي ، ص ٨٦ .
- (٩٦) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .
- (٩٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥١ .
- (٩٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .
- (٩٩) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص ٢٧٠_٢٧١ .
- (١٠٠) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .
- (١٠١) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .
- (١٠٢) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص ٢٦٨ .
- (١٠٣) الشوقيات ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .

مقدمة

بدأت بعض الأصوات داخل المجتمع العربي الإسلامي تطرح جملة من التساؤلات: كيف يمكن رفع التحدي؟ كيف السبيل إلى تحقيق التطور دون التنكر للذات؟ وقد اندرج الجدل حول تحرير المرأة في سياق المساعي الهادفة إلى تحقيق النهضة السياسية والثقافية والدينية لمجمل المجتمع الإسلامي.

وكانت مظاهر الحداثة التي رافقت انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قد أدخلت البلبلة والحيرة في المجتمع التونسي. وانطلاقاً من وعي النخب التونسية بتأخر هذا المجتمع، الذي غدا غرضة للعدوان الاقتصادي والحضاري الذي كانت تمارسه أوروبا المتطلعة إلى التوسع والهيمنة، بدأت هذه النخب تطرح قضية تحرير المرأة. وشعوراً منها بخطورة الوضع، أجمعت كل التيارات الفكرية الرائجة آنئذ، على اعتبار تعليم المرأة شرطاً جوهرياً من شروط تحرر المجتمع، على أساس أن المرأة هي مربية الأطفال وبالتالي المجتمع.

كانت المرأة التونسية في فجر الأزمنة الحديثة -على غرار معاصراتها في العالم الإسلامي- تعيش منكفئة على نفسها، مُستبعدة من الحياة العامة، التي كانت حكراً على الرجال ويبدو أن ثقافة متناحية في القدم مدعومة بأحكام عرفية وتقليدية كبلتها في مصير لا تحسد عليه، إلا أن مكائنها كزوجة وأم غالباً ما منحتها احتراماً وتقديراً ولكنها لم تكن في المرأة حسب الوسط الذي كانت تعيش فيه. وكانت المرأة الريفية تعتني بالزراعة وتربية الماشية وتضطر إلى الترحال من أجل الانتجاع رفقة الرجال والأطفال، لم تكن متحجبة؛ وكانت تتمتع بحرية التنقل، إلا أنها كانت تحيي حياة ملؤها التقشف والعناء المستمر.

غير أنه تجدر الملاحظة هنا، أن الانزواء لم يكن يعني بالضرورة التغيب التام من الحياة العامة حيث سجلت تونس، في ظل عهد البايات الحسينيين، بعض الأسماء المنتهية إلى الطبقة الأرستقراطية والتي لعبت أدواراً تجاوزت النطاق العائلي والمباشر وشملت المجتمع برمته. ومن بين هذه الوجوه الأميرة عزيزة عثمانة، التي لا تزال أعمالها الخيرية راسخة في الذاكرة الجماعية إلى اليوم. وقد أطلق اسمها، بداية من سنة ١٩٧٨، علي مؤسسة صحية هامة تقع بمدينة تونس العتيقة، ونعني بذلك "مستشفى عزيزة عثمانة"، الذي يسود الاعتقاد في الأوساط الشعبية أن تشييده تم بفضل ريع "الأحباس" التي حبستها هذه المرأة الخيرة.

كانت كل التيارات الفكرية قد أجمعت على اعتبار تعليم المرأة مفتاح تحريرها بل تحرير المجتمع برمته، فقد كان البعض يطرح عدداً من التساؤلات طرحاً لا يخلو أحياناً من التحمس ومن بين هذه التساؤلات: هل البنات مُطالبات بالالتحاق بالمدرسة؟ ما هو محتوى تعليم البنت؟ ما هي أهداف التعليم الذي تتلقاه البنت؟

دور زعماء الإصلاح

تمتع أقطار المغرب العربي بموقع استراتيجي متميز فهي تطل على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلنطي غرباً، وكان لاقتربها من إيطاليا وفرنسا أهمية إستراتيجية خاصة تسمح لها بالتحكم في خطوط الملاحة التي تسير في البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي، وساعد هذا الموقع على أن تصبح أقطار المغرب العربي محط أنظار الدول الأوروبية التي حاولت زيادة نفوذها في البحر المتوسط والتحكم فيه.⁽¹⁾

دور زعماء الإصلاح تجاه تحرير المرأة التونسية

في القرن التاسع عشر



د. إيمان محمد علي نونو

دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إدارة ضمان الجودة للتعليم

الجيزة - جمهورية مصر العربية

mnnounou@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

إيمان محمد علي نونو، دور زعماء الإصلاح تجاه تحرير المرأة التونسية في القرن التاسع عشر - دورية كان التاريخية - العدد التاسع: سبتمبر ٢٠١٠. ص ٢٩ - ٣٣.
(www.historicalkan.co.nr)



في كل المجتمعات العربية وخاصة مصر وأقطار المغرب العربي هو الذي أبرز بدعواته الملحة للتحرر والخلاص وفك القيود، ومنها أصبحت قضية المرأة من أهم المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها تلك الدول في هذه المرحلة. ودخل مفهوم "تحرير المرأة" في جميع الدول المستعمرة، والتي عانت طويلاً من الجهل والانحلال والركود، وبدأ رواد الفكر والإصلاح يتناولون موضوع المرأة باستحسان بالغ الأهمية لإبعادها عن التخلف والجهل التي كثيراً ما عانت منه، وساهمت المواقف والكتابات الإصلاحية في بلورة مفاهيم تنويرية تهم الإنسان وخاصة المرأة باعتبارها تمثل المجتمع وعنصر فعال لاستمرار الوجود فيه.

ونادي المثقفون المغاربة بالدعوات الإصلاحية والكتابات النظرية والفكرية مطالبين بإصلاحات قضائية وتربوية وإدارية تستهدف تغيير المجتمع على كل الأصعدة والمستويات، وتنوير المجتمع وتوعيته دينياً وثقافياً وتربوياً وسياسياً عن طريق إصدار الجرائد وبناء المدارس العصرية للبنين والبنات⁽⁶⁾. وتداعت صيحات المصلحين للخروج من النفق المظلم والتطلع إلى بشائر الصباح، وكانت تركيا ومصر وتونس ملتقى تلك الصيحات التي تصارع الفناء والضياع، وتدعو إلى اليقظة وإصلاح التعليم ومقاومة الاستبداد.



خير الدين التونسي

وشعر بعض المصلحين في تونس بالخطر المحدق، وأمنوا بضرورة إصلاح ما فسد من الداخل حتى تتسنى مقاومة الغزو من الخارج. وكان خير الدين باشا التونسي⁽⁷⁾ في مقدمة المنتصبين للدفاع عن الهوية التونسية ومقومات الدين الإسلامي، والهادين بإصلاح المجتمع والتعليم، وإبعاد البلاد عن نيران الاستعمار من جهة، ومقاومة العقليات المتحجرة التي تركز المفاهيم الخاطئة وتنسبها إلى الدين الإسلامي من جهة أخرى⁽⁸⁾، وترك خير الدين التونسي⁽⁹⁾ وكل المثقفين الذين تطبعوا بأرائه أو كانوا دونها أو تجاوزوها إرثاً عن القضايا التي كانت تواجه المجتمع التونسي، إذ راحوا يتحسسون بجرأة ويبحثون عن صياغة مجتمع جديد يواكب التطور، وفق منهج تنويري يولي الاجتهاد وإعمال العقل ويراعي الموروث الحضاري، ويخلص قيم العدل والحرية من الشوائب والمفاهيم الخاطئة بما ينصف المرأة في المجتمع.

ونشر محمد السنوسي⁽¹⁰⁾ رسالة تحت عنوان "تفتق الأكمام عن حقوق المرأة في الإسلام" وهكذا ظهر مصطلح جديد يؤكد على حقوق المرأة التونسية، ويرى بعض المثقفين أن آراء محمد السنوسي في

واتجهت أنظار الفرنسيين إلى المغرب العربي بعد أن وقفت انجلترا حائلاً دون تحقيق أطماعهم في مصر والشام، وبعد أن فقدوا مستعمراتهم في الهند وكندا، وأصبحت الدولة العثمانية بالضعف والاضمحلال وانشغلت بالدفاع عن كيانها، وضعفت سلطاتها في بلاد المغرب العربي وأصبحت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء رجال البحر والقوات غير النظامية في كل من الجزائر وتونس⁽²⁾ وأدى الحكم العثماني إلى الضعف الاقتصادي في الزراعة والحرف، حيث ترك الفلاحون أراضيهم هرباً من الضرائب، وكانت القوى المنتجة بعناصرها المختلفة على غاية من التدني والتخلف، وانعكس هذا الواقع الاجتماعي على الحياة الفكرية العربية، وأصبحت مراكز العلم من مدرسة سيدي يوسف في مراكش إلى القرويين في فاس، والزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة وغيرها، تكتفي بأن تحتفظ بجذوة تحت الرماد، لا لهيب لها يحرق، ولا وهج يلفح، واكتفى المشتغلون بالعلم أن يقرؤوا علوم الدين واللغة⁽³⁾.

فانطلقت التيارات السلفية لتقوية الخلافة الإسلامية، وعملت كل الاجتهاد في مسائل الدين والدنيا وضرورة أن يعتمد تقدم الأمة على جناحي البرهان والعرفان معاً. ثم انتقلت الدول العربية إلى مرحلة التنوير والتجديد وترجمها رواد الإصلاح والعلماء على أن يلتزموا بالمرجعية الإسلامية لوضع الحلول الإسلامية لكل حادث وطارئ، وتنقية الدين من البدع والخرافات التي سادت في تلك الفترة⁽⁴⁾ وحاول الفكر السلفي الإصلاحي تحقيق النهضة، فبدأ بعقلنة الدين، فاكشف فيه الملكية الفردية، واحترم الحرية الفردية، وتأكيد حقوق المرأة وتقديس العلم. فانطلق الفكر الإصلاحي في أقطار المغرب العربي من نفس الأسئلة التي حركت الفكر الإصلاحي بالمشرق. لكن ثمة خصوصيات وطنية طبعت الفكر الإصلاحي بالمغرب العربي وجعلته فكراً له مميزاته في طرح إشكالياته وصياغة حلولها الملائمة.

لقد كان الهاجس الأساسي للنخبة المثقفة المغربية هو إصلاح البنيات الإدارية والعسكرية والتعليمية القديمة، ومقاومة التدخل الأجنبي. وكان هدف المثقفين الإصلاحيين محدداً في ثلاثة شروط للرفق والتقدم هي: العلم، والثقة بين السكان، والأخلاق الحميدة⁽⁵⁾.



وقد عرف النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض المفكرين الإسلاميين الذين رفعوا راية الإصلاح والتجديد، واتسعت حركتهم الثقافية والسياسية وعمت أجزاء كبيرة من البلاد العربية والعالم الإسلامي ككل، ليبدأ عصر التنوير والتجديد. ويعتبر خطاب التحرير

إن الجدل كان حاداً في عشرينيات القرن العشرين حول خروج المرأة إلى الحياة العامة أو السفور والحجاب بين أنصار السفور وخاصة من الاشتراكيين الفرنسيين ، ورجال الحزب الإصلاحي والنخبة الثقافية في تونس ، وأثارت الجدل أكثر السيدة "منوية" (18) الورتاني "المرأة التونسية المسلمة في ذلك الموضوع يوم ١٥ يناير ١٩٢٤ على منبر الجمعية الثقافية "التقدمي" التي ينشطها الاشتراكيون وكان عنوان الندوة "مع أو ضد الحركة النسوية" وقد تدخلت السيدة الورتاني مكشوفة الوجه وطالبت بتحرير المرأة من الحجاب وأنهت كلمتها ناقدة المثقفين: "عندما يحقق الأتراك نصراً اجتماعياً تسعدون هنا في تونس وتقيمون الأفراح فمن الأجدر أن تقتدوا بهم في ذلك" ومن هذه الحادثة اندلعت معركة السفور التي تواصلت إلى أواخر عام ١٩٣٠ ، ثم تجرأت السيدة حبيبة المنشاري (19) التابعة للحزب الاشتراكي الفرنسي في تونس بالحديث سافرة الوجه على منبر جمعية "التقدمي" وتحدثت عن حالة الفتاة التونسية التي تدعو إلى الرثاء وتعيش حياة تتناقض مع مقتضيات الحضارة العصرية. (20)

ووصلت أصداء مشاركة هدى شعراوي (21) إلى كثير من الدول العربية وخاصة تونس ، وأرسلت لها بشيرة بن مراد (22) تهنئتها بالحركة النسائية في مصر وما أنجزته من مشاركات في المؤتمرات الدولية ، وما وصلت إليه من جهود في قضية تعليم المرأة والمطالبة بحقوقها. (23)

والجدير بالذكر أن تونس كانت من أوائل الدول التي تنامي فيها الإصلاح بشكل دائم بسبب موقعها الوسطي بين الشرق والغرب ، وكذلك بعد أن تم إعلان "عهد الأمان" في أوائل ١٨٥٧ والذي يتضمن حقوق المواطنة والحريات الأساسية وظهر عدد من الإصلاحيين الذين دافعوا عن حقوق المرأة في التعليم والعمل. إلا أن مصر كانت الأسبق في تكوين الجمعيات النسائية وتأسيس الاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣ بهدف رفع مستوى المرأة الأدبي والاجتماعي لمشاركة الرجل في جميع الحقوق والواجبات. (24)

ويوجد قاسم مشترك بين رواد الإصلاح التونسيين ومنهم خير الدين التونسي وابن ضياف وبين رواد الإصلاح في مصر ومنهم قاسم (25) أمين ورفاعة الطهطاوي (26) ، ويظهر جلياً أن قاسم أمين كان تماماً مثل المثقفين التونسيين علي قناعة بأن ما ينادون به لفائدة المرأة كان صعب التحقيق في عصرهم أو في الهدى القريب ، وأن آرائهم كانت مجرد آمال إلي الأفضل وإنارة الطريق للأجيال اللاحقة لعلها تضيف جزء من الطموحات ، وهذا القاسم المشترك يتمثل في وحدة النظرة إلي الجانب المشرق في الحضارة الغربية وفي فرنسا بالخصوص وهي البلد الذي زاره قاسم أمين وغيره وعابنوا نقاط الضعف والتفوق في مجتمعه التونسيين والمصريين.

وبعد صدور كتاب قاسم أمين في مصر "تحرير المرأة" حفلت الصحف التونسية منذ مطلع القرن العشرين بجدل واسع بين مؤيد ومعارض لقضايا المرأة ، ونشر المثقفون التونسيون آرائهم في جرائد ومجلات تونسية مثل "الصواب" ، "والحاضرة" ، "والعالم الأدبي" ، وبرز من الكتاب التونسيين حول المرأة في ذلك العصر حسين بن الخوجة ورشيد بن مصطفى ، وعلي رأس هؤلاء الطاهر الحداد (27) ورفيق دربة في النضال من أجل الحرية أبو القاسم الشابي ، (28) وحاول مثقفون وكتاب آخرون أن يكونوا حلقة الوصل بين هذين العلمين الحداد والشابي (29) ويدافعون عن أفكارهم.

المرأة جاءت متحررة ومتطورة أكثر من غيره ، كما عالج في رسالته خصائص المرأة وحقوقها كما وردت في القرآن والأحاديث وكتب الفقه (11).

ولعل خير من وصف حالة المجتمع التونسي قبل الاحتلال الفرنسي هو أحد أعلام ورواد الفكر فيها الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، (12) الذي قرأ تداعيات صدمة الحداثة الغربية في البلاد التونسية ، ورفض شيئية المرأة وعدميتها ، قناعة منه بأن المرأة هي المربية للأجيال والحافظة لتراث شعبه وبأن المجتمع الذي لا يحترم المرأة إنما يحقر نفسه. وقد امتد نشاط محمد السنوسي إلى خارج تونس لنشر أفكاره الإصلاحية ، مدافعاً عن الحضارة الإسلامية ، مبرزاً عطاءها في خدمة الإنسانية ، وبذل جهوداً مشكورة في الدعوة إلى الإصلاح والتجديد في تونس. (13)



الشيخ عبد العزيز الثعالبي

وطيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر برز قادة ومصلحون ومثقفون أرادوا النهوض بالمجتمع ، وخص الشيخ عبد العزيز الثعالبي (14) قضية المرأة في الإسلام في كتابه "روح التحرر في القرآن" بفصل كامل وقد تضمن كثيراً من الأفكار الإصلاحية التي كانت رائجة وقتها ، لاسيما منها المتعلقة بتحرير المرأة المسلمة ، ومحاربة البدع والتمسك بالكتاب والسنة. ووقف وقفة رائعة فيما يتصل بالحجاب والتعليم والعمل للمرأة ، وبرؤية تقدمية تجاه المشاكل والضغوط التي كانت تكبل المجتمعات العربية الإسلامية. وقدمت أفكاره وكتاباته حلولاً للمسألة الاجتماعية الأكثر إلحاحاً في الفكر والتراث العربي الإسلامي وهي قضية المرأة ، وشن ثورة حقيقية ضد غلاة التعصب الديني ، وحملهم القسط الوافر من المسؤولية في عملية انكماش وتوقف الاجتهاد وبروز التعصب الديني والتجحر الفكري. (15)

وانبرت النخبة المثقفة تعبر عن آرائها بالكتابة والخطابة في العديد من المنابر ، ويعتبر الشيخ ابن ضياف من أبرز المصلحين الذين دافعوا عن المرأة وحقوقها ، فقد كتب كتاباً عن المرأة بعنوان "رسالة في المرأة" رد فيه عما نشر من مغالطات في شأن المرأة والدين ، وتولي الدفاع عن المرأة وحقوقها ، من خلال كتاباته ومحاضراته ويقول "من يجهل الكتابة والقراءة والمعلوم أن الجهل يدفعهم نحو الرذيلة والعلم يبعدهم عنها". كما نادي الشيخ سالم بوحاجب (16) بضرورة تعليم المرأة وتحريرها ، ولقيت هذه الإسهامات من شبوخ جامع الزيتونة المعمر بعض التأييد حيناً ، والكثير من المعارضة أحياناً أخرى. (17)

لقد ناضل الحداد علي أكثر من جبهة ، وذلك لأنه الأديب والشاعر والنقابي والسياسي ورجل الإصلاح ، وأهم من كل ذلك فهو نصير المرأة وسندها ، كما أنه العدو للدود والأكبر للرجعية التي تحذق وفاقية نفسها بالأطروحات الدينية ، بما يجعلها دائماً في منأى عن أي انتقاد لآرائها وتصرفاتها ، وذلك لأن الحوار حول المقدس ليس دائماً مسموحاً به.⁽³⁴⁾

إن الدارس للمرحلة السياسية والاجتماعية والثقافية في تونس خلال النصف الأول من القرن العشرين يستشف أن الطاهر الحداد فجر بحق قبلة عندما أصدر كتابه "امراتنا في الشريعة والمجتمع" التي حركت شظاياها مختلف التيارات اعتباراً من سنة ١٩٣٠ ، وطرحت توترا في الأوساط الفكرية ، وغدت قضية المرأة حاضرة في الأذهان لكنها كانت تتأرجح بين المناصرة والرفض وكانت أصوات جبهة الرفض تبدو الأعلى لان دعاة الإصلاح من السياسيين والمثقفين كانت أمامهم أولويات أخرى ضاغطة تتمثل في مقاومة الاستعمار قبل مواجهة الخصوم الرافضين لإصلاح أوضاع المرأة أو الإصلاحات الأخرى.

وكان أمام الحزب الحر الدستوري الذي برز في تونس عام ١٩٣٤ قضايا أخرى مصيرية وأولها تحرير تونس من الاستعمار. لقد كان المجتمع التونسي في تلك الفترة التاريخية الحاسمة في مفترق الطرق يلتمس طريق الخلاص من الاستعمار ، وكانت أيضاً الحركة النسائية تبحث عن منافذ تبرز بها وجودها وتتسلل عبرها إلى المطالبة بحقوقها ، ويبدو أن المطالبة بالحقوق في الحرية الوطنية فرضت نفسها عليها قناعة منها بأن المستعمر يريد أن تظل تعيش علي الأسطورة.⁽³⁵⁾

في الحقيقة إن غاية الحداد في المجلد هي النهوض بقومه وتحريرهم من الخرافات ورفع مستوى حياتهم إلى درجة الإنسانية والحضارية اللائقة بالعصر الذي يعيشون فيه وفي إطار هذه الغاية. وبالنسبة للمرأة أكد الحداد في كتابه علي عدم وجود فوارق بين الجنسين إذ ليس من المعقول أن تسقط المرأة ويرتفع الرجل ، والحداد يجد ما يسوغ هذا التأكيد في القرآن الكريم ظاهرة في خطاب الرجل والمرأة سواء في أحكامها وعامة في مقررته ، وهي تقرر لهما هذه الحقوق المدنية كما تفرض عليهما الواجبات وتسوي بينهما في العقوبات.

وعالج الحداد وضعية المرأة في المجتمع الإسلامي واهتم بتثقيف المرأة وتحريرها لتؤدي دورها في بناء المجتمع والنهوض به ، كما كشف عن الوهم الذي أصاب المجتمع حين قضي علي المرأة بالجهالة لتكون معزولة عن العالم وعضو غير نافع في المجتمع. ونادي بتحرير المرأة من الأغلال التي شاء لها المجتمع أن ترسف فيها كي تكون عوناً للرجل في معركته ، لا حملاً عليه ، ودافعاً للتقدم لا للتدهور التي نشأت عليه وانغمست فيه.

وهكذا فقد اكتشفت الفتاة التونسية ، سُبلاً جديدة لتأكيد حضورها واحتلال مكان لها في الحيز العمومي. وبدأت التنظيمات النسائية شيئاً فشيئاً تحتل مكانها على الساحة حول الأحزاب السياسية ، التي ما فتئت تثبت حضورها وتزداد تجذراً. ف لأول مرة في تاريخ تونس المعاصر ، انتظمت النساء في صلب تنظيمات خاصة بهن ، وبذلك يكون الإطار الجمعياتي قد أسهم في نحت شخصية الفتاة التونسية.



الطاهر حداد

ولعل كتاب الطاهر الحداد "امراتنا في الشريعة والمجتمع" الصادر سنة ١٩٣٠ كان تنويجاً للجدال الجديد بين المحافظين والمجددين ، ويمثل التطور الفكري الإصلاحي في تونس ، ووعيه بقضية المرأة ، وإن إصلاحها سيؤدي إلي إصلاح كامل للمجتمع.⁽³⁰⁾ لقد أدرك الحداد أن تقدم المجتمع مرتبط بتقدم المرأة وتحررها من القيود ولذلك دعا إلي تحررها من القيود ، ودعا إلي ضرورة تعليمها معبراً "إن نهضة المرأة هي نهضتنا جميعاً". وأثارت أفكار الحداد حفيظة تيار من الفقهاء والمشايخ الذين كانوا يرون مصلحة في استمرار البني التقليدية الموروثة واستقرارها ، وشن هذا التيار المحافظ الحرب علي الطاهر الحداد وجرده من شهادته العلمية واتهم بالكفر والإلحاد والزندقة ، وتم تأليف العديد من الكتب للرد عليه ولعل أبرزها هو كتاب (الحداد علي امرأة الحداد)⁽³¹⁾ وكتاب "سيف الحق علي من لا يري الحق" لعمر بري المدني وكتاب "روح الإسلام ونقد آراء الملحدين للمحمد الشافعي".⁽³²⁾

وقد اهتم الطاهر الحداد في كتابه بتعليم المرأة وتثقيفها ثقافة شاملة ومتعددة ، حتى تكون أماً قادرةً علي أن تربي أبناء صالحين للحياة والوطن ، ويضيف منتقداً التربية التي تتلقاها المرأة في عصره ، والبهادئ التي كانت تقوم عليها ، ومنها تعويدها علي الحياء المفرط الذي يجعل الفتاة قاصرة قصوراً يراه الحداد سبباً عظيماً من أسباب خيبة المرأة وسقوطها ضحية الضعف والفساد ، كما يدعو إلي أن تتصل الفتاة بالحياة مباشرة مثل الرجل وألا تكون عالة عليه ، فتكون تربيته سلبية فتقضي حياتها منزوية في البيت جامدة الفكر والحركة. ويشير الحداد إلي أن ما عليه الرجل من تخلف يكمن سببه في وضعية المرأة لذلك ينبغي تبصير الرجل والمرأة بواجباتهما وحقوقهما ليشفي جسم المجتمع العليل ، ويبعث فيه الشعور بالعزة والكرامة والمسؤولية.⁽³³⁾

لقد قسم الحداد كتابه إلي قسمين رئيسيين: القسم الأول سماه التشريعي وتحدث فيها عن المرأة في الشريعة الإسلامية ، بينما خصص القسم الثاني لوصف الأوضاع التي كانت تعيشها المرأة التونسية في عصره. لقد أدرك الحداد أن تغيير وضع المرأة والمجتمع يقتضي من بين ما يقتضيه تغيير العقلية حتى ينشأ لديها الاستعداد للعمل علي ذلك التغيير ولقبوله. وهذا ما يدفع في نظره إلي إعادة صياغة رؤية جديدة لما يجب أن يكون عليه وضع المرأة ليكون أكثر وفاء للقيم الإسلامية الثابتة وانسجاماً مع مقاصد الشريعة.

الهوامش

- (1) جلال يحيى: المغرب العربي الحديث والمعاصر في الحرب العالمية الأولى ، الإسكندرية ١٩٨٢ ، صص ١٣-١٥ .
- (2) شوقي الجم: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٢٨٢ .
- (3) نقولا زيادة: الفكر العربي في مائة سنة ببيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١ .
- (4) محمد الكتاني: السلفية إشكالية المفهوم والممارسة ، المغرب ١٩٨٩ ، صص ٨٥-٨٨ .
- (5) عثمان اشقرا: في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث ، الدار البيضاء ١٩٩٠ ، صص ١٤٦-١٤٨ .
- (6) عبد القادر الشاوي: السلفية والوطنية ، بيروت ، ط ١ ١٩٨٦ صص ١٢٠-١٣١ .
- (7) خير الدين باشا التونسي: أحد رموز الإصلاح بالبلاد التونسية ، ولد عام ١٨٢٠م قام بالعديد من الإصلاحات ، وقاوم الحكم الاستبدادي ، ومن أهم كتبه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) وبه حصيلته تأملاته وأفكاره الإصلاحية والتي شملت إصلاحات في مجال التعليم والإدارة والاقتصاد وإنشاء المدرسة الصادقية ، وتطوير التعليم ، ويعتبر من أكبر رواد الإصلاح في الحركة الإصلاحية التونسية.
- (8) الدور القايدي: منارات علي أرض قرطاج ، منارات الفجر ، تونسيات علي درب النضال ، تونس ، ٢٠٠٧ ، ص ١٨ .
- (9) للمزيد من المعلومات عن خير الدين باشا التونسي أنظر المرجع التالي: خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة الممالك .دراسة تحقيق منصف الشتوني ، تونس ، ١٩٧٢ .
- (10) محمد السنوسي: ولد عام ١٨٥١ - ١٩٠٠ ويعتبر من أهم المثقفين التونسيين وزعماء الإصلاح في تونس ، وكان تياره من أبرز التيارات الداعية إلى اليقظة والبعث في تونس ، للمزيد من المعلومات عن محمد السنوسي أنظر المرجع التالي: محمد الصادق بسيس ، محمد السنوسي حياته وأثاره ، تونس ، ١٩٧٦ .
- (11) ماري ناصيف الدبس: المرأة التونسية نصف قرن من الريادة ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص ٤١ .
- (12) محمد الفاضل بن عاشور: ولد عام ١٩٠٩ وتعهده والده بالرعاية والتعليم وكان عالماً كبيراً من رواد الإصلاح والتعليم في تونس ، وشارك محمد الفاضل في حركة الإصلاح التونسية ، وتولي رئاسة الجمعية الخلدونية في تونس ، وأنشأ لها حلقات من التعليم ، كما أنشأ معهدين بالجمعية الخلدونية ، وكانت له محاضرات متصلة بها ، وتوفي عام ١٩٧٠ .
- (13) محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، دار العلم دمشق ، ١٩٩٩ ، صص ٥٦-٦٦ .
- (14) عبد العزيز الثعالبي: ولد عام ١٨٧٦ بتونس وتلقى تعليمه بجامع الزيتون ، أسس جريدة سبيل الرشاد وسافر إلى مصر والتحق بالشيخ محمد عبده ورشيد رضا ، وتأثر بدعوتها في الإصلاح الديني والاجتماعي وكانت له مواقف رائدة في قضية المرأة التي أخذت حيزاً مهماً في حياته سجلها له التاريخ ، وأسس مع رفاقه الحزب الحر الدستوري ودافع عن القضية التونسية إلى أن توفي عام ١٩٤٤ .
- للمزيد من المعلومات عن عبد العزيز الثعالبي أنظر المرجع التالي أنور الجندي: عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية ، ببيروت ، ١٩٨٤ .
- (15) حمادي الساحلي: عبد العزيز الثعالبي (محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة ، الطبعة رقم ١ ، دار النشر الغربي الإسلامي ، ببيروت ، ١٩٩٩ ، صص ٣٤-٨٤ .
- (16) سالم بن عمر بحاجب: ولد عام ١٨٢٨ بقرية بنبله بتونس ، ويعتبر شيخ الإسلام المالكي ، تخرج من جامع الزيتونة وقام بالتدريس فيه ، وتخرج على يديه علماء الدين ، وكان مساعد الوزير خير الدين التونسي في تحرير كتاب "أقوم المسالك" ، وساهم في جميع الحركات ، الإصلاحية التي ظهرت في تونس ونادي بالتطوير والتجديد وأهمية تعليم المرأة والنهوض بها.
- للمزيد من المعلومات عن سالم بن عمر بو حاجب من خلال انترنت www.almoajam.org
- (17) الدو القايدي: منارات علي أرض قرطاج ، منارات الفجر ، مرجع سابق ، صص ١٨-١٩ .
- (18) منوبية الورثاني: موظفه تونسية مسلمة ، نزعته الحجاب عن وجهها وكانت تونس تعتبر من أكثر بلاد العالم الإسلامي يلتزم نساؤها بحجاب الوجه الشرعي ، ليسترن وجوههن عن الأجانب .

- (19) حبيبة المنشاري: تعتبر ثاني امرأة تونسية مثقفة نددت بالحجاب مما أحدث رجح بين الرجال ، وتحدث بعدها المحامي الحبيب بوقريه رئيس تونس سابقاً " إن الوقت لم يحل لرفع الحجاب " .
- (20) عبد الرزاق الحماقي: المرأة في مشروع الحداثة التونسية ، تونس ، موقع أفكار ، مجلة فكرية الكترونية : www.afkaronline.org
- (21) هدى شعراوي: ولدت في ٢٣ يونيو ١٨٧٩ وهي ابنة محمد سلطان باشا رئيس أول مجلس نيابي في مصر وحاكم الصعيد العام وقائمقام الخديوي سعيد في الثورة العربية ، وتعلمت هدى شعراوي اللغة العربية والتركية والفرنسية ، وبعد وفاة والدها اتجهت إلى العمل الاجتماعي ، وعملت على إحياء الجمعيات النسائية وكان دفعها هو إحساسها العميق بعدم الرضا عن الأوضاع السائدة في المجتمع المصري بصفة عامة والمرأة المصرية بصفة خاصة وأسست جمعية الاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣ وتوفيت عام ١٩٤٧ للمزيد من المعلومات عن هدى شعراوي أنظر المرجع التالي: عصام السيد عبد الحميد: رافت غنيمي الشيخ ، كتاب تذكاري ، القاهرة ، ٢٠٠٦ صص ٢٠٣-٢١٧ .
- (22) بشيرة بين مراد: ولدت في تونس عام ١٩١٣ ونشأت وسط عائلة عريقة ، وعرفت بحبها للعلم والثقافة والتربية ، والدها الشيخ محمد الصالح بن مراد شيخ الإسلام في تونس ، والذي حرص على تعليمها في البيت على أيدي شيوخ جامع الزيتونة ، وحصلت على شهادة التحصيل ، وبرزت إلى جانب أختها نجية وعدد من نساء تونس في الأعمال الخيرية وكانت من النساء اللاتي أسسن أول جمعية نسائية تونسية عام ١٩٣٦ .
- (23) ليلى العبيدي: جذور الحركة النسائية بتونس ، تونس ، ١٩٨٧ ، ص ٢٩ .
- (24) سمير سرحان ، أنيس منصور: المرأة عبر العصور ، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المجلد الثالث ، ص ٧٥ .
- (25) قاسم أمين: ولد عام ١٨٦٣ ببلدة طرة جنوبي القاهرة وهو من أصل كردي ، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة رأس التين بالإسكندرية ثم سافر إلى مصر وحصل علي الليسانس عام ١٨٨١ من القاهرة وعمل بالمحاماة ثم سافر في بعثة إلى فرنسا بمدينة مونبيلييه ، وكان المترجم الخاص للإمام محمد عبده في باريس ، وهو رائد حركة تحرير المرأة ، منادياً بأن تربية النساء هو أساس كل شيء وتؤدي لإقامة المجتمع المصري الصالح ، ويعتبر من أشهر رجال الإصلاح في عصر النهضة العربية ومن أهم كتبه المصريون ، وتحرير المرأة ، والمرأة الجديدة.
- (26) رفاعة الطهطاوي: (١٨٠١-١٨٧٣) تولى التدريس في الأزهر ثم سافر إلى فرنسا في بعثة تعليمية لدراسة العلوم الحديثة ، واشتهر بمعالجة قضايا مجتمعه وهو كاتب وأديب وداعية للإصلاح الاجتماعي واشتهر بدفاعه عن المرأة وحقوقها وتحريرها من الظلم الاجتماعي ، ويعتبر من أشهر رجال الإصلاح في عصر النهضة العربية وكتب ثلاثة كتب كانت بذور الدعوة الأولى لها يسمي بتحرير المرأة وهي (١) تلخيص الإبريز في تلخيص باريز (٢) مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية (٣) المرشد الأمين للبنات والبنين .
- (27) الطاهر الحداد: ولد عام ١٨٩٩ في تونس العاصمة، وتلقى تعليمه دينياً في الكتاتيب ثم التحق بجامع الزيتونة وحصل علي شهادة التطويب ، وانخرط في الحزب الدستوري ، ثم التحق بمدرسة الحقوق التونسية ومن أهم أعماله الأدبية إصدار كتاب " العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية" وإصدار كتاب " امرأتنا في الشريعة والمجتمع"
- (28) أبو القاسم الشابي: ولد عام ١٩٠٩-١٩٣٤ ، في بلدة الشابية في جنوب تونس ، ودخل مدرسة دينية ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ونال إجازتها عام ١٩٣٠ ، ومن أهم أثاره ديوان " أغاني الحياة" ، وقصيدة "إرادة الحياة" وتوفي عام ١٩٣٤ متأثراً بالمرض الذي لاحقه في شبابه .
- (29) معلومات من شبكة المعلومات والإنترنت: ar.wikipedia.org/wiki/
- (30) الطاهر الحداد: امرأتنا في الشريعة والمجتمع ، تقديم محمد حافظ دياب ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٥
- (31) طاهر الحداد: مرجع السابق ، صص ٢٢ ، ٢٣ .
- (32) المرجع نفسه ، ص ٥
- (33) المرجع نفسه ، صص ٣٠-٣١
- (34) الطاهر الحداد ، مرجع سابق ، صص ٥-٩ .
- (35) ماري ناصيف الدبس: مرجع سابق ، صص ٧٣-٧٤ .

تقديم إشكالي

تعتبر كتب الرحلات والجغرافيا من المصادر التاريخية التي تشكل إطاراً مرجعياً مهماً، ومادة أساسية يستقي منها الباحث، في الدراسات الإفريقية خاصة، الكثير من المعطيات المفيدة التي يمكن أن يؤسس عليها فرضياته النظرية وبناءه التاريخي، لرسم صورة عن تاريخ العلاقات التجارية بين بلاد المغرب عامة وبلاد السودان الغربي ولاسيما في بداية العصر الحديث. ويعتبر كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان^(١) من بين أهم هذه الأصناف من الكتب التي تقي بالغرض في هذا المجال. إنها ما هي الأهمية التي تكتسيها هذه المصادر عموماً؟ وما هي الإشكاليات التي تطرحها على المستويين المعرفي والمنهجي؟ وما هي القيمة العلمية والمعرفية لكتاب "وصف إفريقيا" خصوصاً، وما مدى استفادتنا منه؟

أهمية المصادر التاريخية المغربية - لاسيما منها كتب الرحلات والجغرافيا- والإشكاليات التي تطرحها معرفياً ومنهجياً

جواباً عن التساؤلات التي طرحناها من قبل، يمكن القول إنه رغم أن المصادر المغربية عموماً وكتب الرحلات خصوصاً كتبت بذهنية مغربية، فهي مع ذلك مصادر لا غنى عنها لأنها تكمل في الغالب المعلومات الواردة في التواريخ السودانية^(٢)، وتكمّل أهميتها كذلك في دحضها لبعض الأطروحات أو الأفكار التي دافع عنها بشدة بعض الباحثين الأجانب، كظاهرة جلب الرقيق السود من بلاد السودان التي دافع عنها أبطول^(٣) وغيره، وهي تكتسي أهمية بالغة بحكم ما تزخر به من معطيات قيمة، وما تقدمه من عناصر على شكل إشارات وأوصاف وروايات يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في بنائه لتاريخ المجتمعات^(٤)، كما أنها تكشف عن كثير من المعطيات المتعلقة بموضوع هذه الدراسة بالذات، حيث تمكّننا من التعرف على معلومات مهمة حول عبور الصحراء، والطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل وما طرأ عليها من تحول ترتبت عنه عواقب وخيمة بالنسبة للمغرب^(٥).

لكن رغم الأهمية التي تحظى بها هذه المصادر بالنسبة لتاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان خلال الفترة موضوع دراستنا، فإن استغلالها يطرح إشكاليات معرفية ومنهجية، فما هي إذن هذه الإشكاليات؟ من بين الإشكاليات التي تطرحها بعض المصادر المغربية والتي وقع حولها خلاف بين الباحثين، هناك:

- مدى تحري مؤلفيها -أي الرحالة- الصدق والحقيقة في كتاباتهم التاريخية؟ فالحسن الوزان الذي نعلم أن له إلهاماً بالمعطيات الجغرافية بحكم ما خلفه من أوصاف غنية ومحددة، وقع مع ذلك في هفوات جغرافية وتاريخية صارخة^(٦)، إذ يقدم معطيات غير دقيقة حول النيجر وجني ومالي وحول بعض التواريخ، بالإضافة إلى مؤشرات أخرى جعلت بعض الباحثين المتخصصين في غرب إفريقيا -رايمون موني مثلاً- يبدي شكوكه بخصوص الرحلتين اللتين قام بهما الوزان إلى السودان الغربي في مطلع القرن ١٦م، مبرراً ذلك بأن المعلومات التي أوردها حول المنطقة غامضة ولا تقدم الانطباع بأنه زارها فعلاً^(٧).



العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف إفريقيا



د.الحسين عماري

أستاذ باحث في التاريخ الحديث
عضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي
بني ملال - المملكة المغربية



aamari93@msn.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحسين عماري، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب "وصف إفريقيا" - دورية كان التاريخية - العدد التاسع سبتمبر ٢٠١٠. ص ٣٤ - ٤٠.

(www.historicalkan.co.nr)



المستويات التنظيمية والأمنية وبعض الجوانب الأخرى، ومن ذلك مثلا:

أ - مشكل الماء

كانت ندرة نقط الماء وبعد المسافات بينها من أخطر المشاكل التي كانت تواجهها القوافل التجارية أثناء عبورها الطويل والشاق للصحراء، لذلك كان مصير القوافل واستمرارها على قيد الحياة ومدى نجاحها أو فشلها في رحلاتها يتوقف على هذه المادة الحيوية^(١٥). وقد ذكر الوزان، في هذا الإطار، أن الماء بصحراء صنهاجة لا يوجد إلا على مسافة سفر ستة أيام أو سبعة، وفوق ذلك فهو مالح أحيانا، مما يفسر هلاك الناس عطشا في هذه الصحراء^(١٦). ولهذا وللتغلب على هذه العقبات فإنه، علاوة على الجهود والخدمات التي كانت تبذل من أجل تجاوز الأخطار التي كانت تواجهها القوافل التجارية وتذليل الصعاب تسهيلات لعملية العبور وتشجيعا للنشاط التجاري، كانت تتخذ كذلك بعض الإجراءات الأخرى من لدن التجار المتوجهين نحو بلاد السودان، ومنها إعداد الماء الذي يكفي تلك الرحلات المحفوفة بالعديد من الصعاب والمخاطر^(١٧). وأشار الوزان إلى أن بعض الإبل كان خاصا بحمل الماء، وأن مرافقي الرحلات والقوافل كانوا يقومون أيضا، أثناء رحلاتهم، بتسوير الآبار المعرضة لخطر الزوابع الرملية وترميمها من الداخل بواسطة عظام الإبل الهالكة، ثم يغطونها بجلودها للمحافظة عليها. لكن مع ذلك فإن تلك الآبار كانت تتعرض أحيانا لعملية الردم مما كان يجعل حداة الإبل يضطرون إلى قتل إحداها بقر بطنها للاعتراف مما تختزنه من ماء^(١٨).

ب - إعداد القافلة وتنظيمها

كانت الإبل أهم وسيلة نقل متاحة لعبور الصحراء، ولهذا كان لابد من اقتناء الأعداد المطلوبة منها أثناء الإعداد للقيام بتلك الرحلات التجارية أو غيرها. ويسجل الوزان أن توفير هذه الوسيلة من النقل كانت منوطة بالتجار، وقدم لنا بهذه المناسبة فكرة عن بعض أئمة الإبل التي كانت تعرض للبيع، وكانت تختلف تبعا لمجموعة من المقاييس، مثل اللياقة البدنية، ومجال استغلالها، وما إلى ذلك. وفي هذا الباب قدر ثمن الجمل الصحراوي بعشر دوكات، في حين بيع ببضعة دنانير فقط أثناء رحلته إلى بلاد السودان^(١٩). وكانت تيگورارين من بين أهم نقط تجمع القوافل، "لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعا"^(٢٠). أما الفترة الزمنية التي كانت القوافل التجارية تقطع خلالها الصحراء من المغرب في اتجاه بلاد السودان فتقاربا للزوابع الرملية والحرارة المفرطة فكان الفصل المناسب لها هو فصل الشتاء، وذلك لانخفاض درجة الحرارة فيه، وتجنب الهلاك من العطش^(٢١).

ج - الهاجس الأمني

تطرق الوزان كذلك للهاجس الأمني الذي كان يمثل إحدى المشاكل الأساسية التي كانت تواجهها القوافل التجارية أثناء عبورها للصحراء، لاسيما منها التي لم تكن تتوفر على "جوازات المرور" أو "تصاريح الأمان". ويشير في هذا الصدد إلى أن أحد قصور مضغرة، على وادي زيز، كان يقيم فيه "أمير الدائرة، وهو عربي، وله فخذ من قبيلته (...). لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوا فوراً وجردوا التجار والرائدين"^(٢٢). ويضيف أن سكان إقليم الخنك -على وادي زيز نفسه-

● مشكل الحصول على معطيات إحصائية بحكم أن المصادر المغربية على غرار المصادر التقليدية بشكل عام لم تهتم بالرقم إلا بكيفية عرضية، ويرتبط هذا الإشكال أساسا بطبيعة الكتابات التاريخية التقليدية والطرح المنهجي الذي تتبناه، حيث تهتم بالأحداث السياسية والعسكرية أكثر ما تهتم بالأرقام المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية أو ما يعرف "بالتاريخ الكمي"^(٢٣). وإذا كانت هذه هي الأهمية التي تكتسبها المصادر المغربية - لاسيما منها كتب الرحلات - والإشكاليات التي تطرحها بالنسبة لموضوع هذه الدراسة على المستويين المعرفي والمنهجي، فما هي القيمة العلمية والمعرفية لكتاب "وصف إفريقيا"؟ وما مدى استفادتنا منه هنا؟

القيمة العلمية والمعرفية لكتاب "وصف إفريقيا" ومدى الاستفادة منه في هذه الدراسة

إذا نحن تجاهلنا مثل هذه الشكوك التي أثّرت حول كتاب "وصف إفريقيا"، فإنه يمكن القول إنه "يحتل مكانة خاصة بين كتب الرحلات والجغرافيين"، ليس فقط لأن صاحبه - كما هو شائع - شاهد عيان للأحداث التي أوردتها، بل وأيضاً "لشمولية معلوماته التي جمعت بين التاريخ للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية"^(٢٤)، وكذلك "الذهنية المفتوحة التي كتب بها"، مما جعل بعض النقاد الأوروبيين يعتبرونه "كتأليف عربي كتب بتفكير أوروبي"^(٢٥).

لكل هذا ولغيره فإن كتاب "وصف إفريقيا" يشكل، بالنسبة لموضوعنا، مصدراً أساسياً؛ فهو يجيب عن مجموعة من تساؤلاتنا حول عبور الصحراء توضيحاً وتقسيماً. ويتحدث عن الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية. ويرسم لنا صورة كاملة عن تحول المسالك القفلية نحو المغرب الأوسط وإفريقية وما ترتب عن ذلك من عواقب وخيمة على الواقع التجاري والاقتصادي للمغرب^(٢٦). كما أنه يقدم لنا فكرة عن ارتباط بعض الأنشطة الاقتصادية المغربية بالتجارة الصحراوية، وكيف أن هذه الأخيرة شكلت خلال القرن ١٦م المورد الرئيس لمداخل شيوخ القصور بالجنوب المغربي، ليس فقط بسبب ما كانوا يحققونه من أرباح تجارية، وإنما أيضاً بفضل "ضرائب المرور" التي كانوا يفرضونها على التجار مقابل حمايتهم عند المرور بمواطنهم أو عند التوقف بها، أو تلك التي كانوا يفرضونها على ضرب السكة وعلى اليهود^(٢٧)، هذا بالإضافة إلى كون هذا النشاط -أي التجارة الصحراوية- شكل الميكانيزم المتحكم في العلاقات بين مختلف فئات ساكنة الجنوب الشرقي المغربي^(٢٨).

وأفادنا كتاب "وصف إفريقيا" كذلك في تحديد بعض المفاهيم التي تهم موضوع هذه الدراسة لأن الحسن الوزان يوضح بعضها، كمفهوم "بلاد السودان" الذي يعطينا فكرة عن تحديده الجغرافي والبشري الذي يكتنفه نوع من الغموض والاضطراب وانعدام الدقة، حيث يرى أن هذه البلاد تقع على ضفتي النيجر وروافده، إذ يقول: "تمتد على ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر يمتد إلى البحر المحيط"^(٢٩).

وعلى العموم فإنه من خلال كتاب "وصف إفريقيا" نستطيع أن نقف على جملة من الأمور المرتبطة بالرحلات التجارية بين المغرب وبلاد السودان الغربي، سواء على المستويات اللوجستية أم على

زوسفانة ، ثم وادي الساورة المؤدي إلى بستان النخيل تسابيت ، وهي ملحقة غربية لتغورارين أو غورارة^(٣٢). وكان لتوات ، كنقطة انطلاق للقوافل التجارية بالنسبة لهذا المحور ، امتياز كبير عن تافيلالت بحكم موقعها المتقدم جنوبا. وقد أكد الوزان هذه الأهمية حيث أشار إلى أنها شكلت "مجمع القوافل لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان ، ثم يذهبون جميعا".^(٣٣) كما سجل أن سكان واحات توات وغورارة "أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان".^(٣٤)

هـ - المراكز التجارية

لعبت المراكز التجارية ، التي امتدت على طول وأطراف المحاور التجارية العابرة للصحراء ، أدوارا مختلفة في العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان ، كأسواق تجارية استقطبت تجار شمال الصحراء وجنوبها وأبرمت فيها صفقات تجارية مهمة^(٣٥) ، ومكحطات سمحت للقوافل التجارية بالتوقف من أجل الاستراحة^(٣٦) ، والخضوع لتنظيم معين استعدادا لعبور الصحراء^(٣٧) ، ولأنها كانت بمثابة صلات وصل بإمكان القوافل التجارية أن تزود فيها بالمؤن والمواد التجارية المختلفة وتعمل على إعادة توزيعها وترويجها^(٣٨) ، كما شكلت سوقا استهلاكية للمواد التي يصدرها السودان الغربي^(٣٩) ، ومن بين هذه المراكز:

* **سجلماسة**: التي كانت حسب الوزان "عبارة عن إقليم يمتد على طول واد زيز ابتداء من الخنك (...) ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا".^(٤٠) أسسها بنو مدرار في أواسط القرن الثاني للهجرة ، غير أن ابن أبي محلي السجلماسي-على حد قول محمد حجي^(٤١) - ذكر في تقييده أنها من تأسيس العرب الفاتحين سنة ٤٤٠هـ ، ثم وسعها بنو مدرار ، واستولى عليها بعد ذلك الفاطميون الذين أدت عليهم أموالا طائلة لكونها شكلت مركزا تجاريا مهما في طريق القوافل التجارية المؤدي إلى بلاد السودان ، وبعد قيام دولة المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري خضعت من جديد لنفوذ الحكم المغربي "وظلت عامرة أيام الموحدين والمرينيين" إلى أن تم تدميرها قبيل ظهور السعديين "فانتقلت أهميتها إلى القصور المجاورة"^(٤٢) ، لأن الوزان عندما زارها في بداية القرن ١٦م وجدها خربة تماما^(٤٣).

ومن أهم القواعد القفلية التي كان لها حضور فاعل وبالغ الأهمية في العلاقات التجارية بين سوس وبلاد السودان^(٤٤):

* **تكاوست**: عرفت ازدهارا كبيرا ، حيث أصبحت خلال القرن ١٦م أكبر مركز للمبادلات التجارية بين السودان وأوروبا ، كانت تنطلق منه القوافل التجارية وهي محملة بالحيك وأقمشة صوفية من صنع محلي ، كانت تجد إقبالا في الأسواق النيجرية^(٤٥) ، لأن هذه المدينة كانت مركزا لصناعة النسيج ، حيث كانت تصنع فيها منسوجات صوفية تصدر إلى ولايته وتنبكت ، ويقول الوزان في هذا الصدد: "بياع الصوف فيها بأبخس الأثمان ، ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تنبكتو وولاتة من بلاد السودان".^(٤٦) وشكلت تكاوست أيضا أكبر خزان تجاري وسوقا مهما للذهب والرقيق في المنطقة بكاملها ، ويشير الوزان إلى أنه أقام بها "لمدة ثلاثة عشر يوما مع نائب الشريف ، لشراء إماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير".^(٤٧)

كانوا يخضعون للأعراب الذين "يسيطرون على الطريق المؤدية من فاس إلى سجلماسة ، ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مرتفع".^(٣٣)

د - طرق التجارة العابرة للصحراء

بحكم الأهمية التي كانت تكتسيها طرق التجارة العابرة للصحراء في العلاقات التجارية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ، وكذا التفاعل الحضاري الذي كان بينهما ، فإن المصادر المغربية -ومنها كتاب "وصف إفريقيا"- تقدم مادة وافرة ، إذا ما عززت ببحوث حديثة مبنية على التنقيبات والأعمال الأركيولوجية ، فإنها ستسمح بالكشف عن حقائق مهمة تساعد على رسم الحالة العامة التي كانت عليها تلك الطرق والتحويلات التي عرفتها في المكان والزمان^(٣٤).

وفي هذا السياق ، ومع نهاية القرن ١٥م ، وعلى إثر سقوط سجلماسة في قبضة عرب معقل ، ووجود التجار الأوربيين بوادي نون من أجل ممارسة النشاط التجاري على ساحل المغرب الجنوبي ، تحولت التجارة العابرة للصحراء من طريق سجلماسة ، الذي فقد أهميته ، إلى طريق درعة الشرقية^(٣٥) ، إذ يشير الوزان ، في هذا الإطار ، إلى توافد تجار بلاد السودان على هذه المنطقة من أجل استبدال منتجاتهم وتعاطي سكان المنطقة للتجارة مع تلك البلاد^(٣٦) . ويضيف بأن أهمية وادي نون (تكاوست) قد زادت بفضل العلاقات التجارية مع أوروبا. وربط الازدهار الذي عرفته تكاوست بالعلاقات التجارية مع بلاد السودان^(٣٧) . ويؤكد الوزان أن تكاوست (وادي نون) أصبحت أكبر مركز للمبادلات التجارية بين السودان وأوروبا ، و سوقا تجاريا مهما لأنها شكلت نقطة التوقف الأولى بعد ودان خلال مرحلة العودة من بلاد السودان. ويشير إلى أن تجارها كانوا يحملون قطعاً من الثياب "مرة في السنة لبيعها إلى تنبكت وولاتة من بلاد السودان" ، وأنها شكلت سوقا مهما للرقيق إذ أقام بها ثلاثة عشر يوما صعبة "نائب الشريف ، لشراء إماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير".^(٣٨)

ورغم أهمية المحور الغربي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان ، والتي استمدها من توفره على ظروف طبيعية وبشرية ملائمة ، فإنه لم يخل من صعوبات ومشاكل تمثل أهمها أساسا في تراجع تجارة القوافل الناجم عن انعدام الأمن بفعل الخطر الذي شكله تحرك البرتغاليين على السواحل الأطلسية -بين سنتاكروز ونهر السنغال- وكذا تحركات عرب معقل بين سجلماسة والساحل الأطلسي ، إذ يشير الوزان إلى أن سكان المنطقة كانوا منقسمين إلى ثلاث فرق يكاد القتال لا ينقطع بينها ، ويستعين كل فريق على الآخر بالأعراب الذين يناصرون هؤلاء تارة وأولئك أخرى بحسب ما يتلقون منهم من أموال^(٣٩).

وبخصوص المحور الأوسط المباشر: درعة-تغازي-تنبكت ، يرى الوزان أنه أصبح يمر عبر منطقة درعة التي أصبحت تكتسي أهمية بالغة في العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان ، حيث وجدت بها قصور محصنة ومستقلة أبرزها قصر بني صبيح. ويسجل الوزان أن هذه القصور كان يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد^(٤٠) . وليس من المستبعد أنه وجد من بينهم تجار سودانيون مما يؤكد هذه الأهمية التي أصبحت درعة تحتلها في العلاقات التجارية مع السودان الغربي^(٤١).

وفيما يتعلق بالمحور الشرقي: توات-غورارة-غاو ، يرى المصدر نفسه أن قوافل فاس وتلمسان كانت ، مع بداية القرن ١٦م ، تلتحق ، وهي في طريقها نحو بلاد السودان ، بفكيك ، وتنحدر مع وادي

ولعب اليهود أدوارا مهمة ومختلفة في العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي ، حيث أصبحوا هم الوسطاء المفضلون بين تجار السودان وسماسرة أوربا ، مما جعلهم يحصلون على أرباح مهمة ، وفي هذا الإطار ، يشير الوزان إلى وجود جاليات يهودية في حواضر منطقة تادلة ، ويؤكد أهميتها العددية والتنوع من خلال تراكم ثروات هائلة بين أيديها ، فافت ما هو متوفر في صندوق خزينة ملك فاس الوطاسي ، وذلك بفضل حيوية أنشطتها التجارية المستمدة من أهمية الطريق العابر للمنطقة^(٦٤).

وبخصوص تقنيات التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان ، يشير الوزان إلى أن القبائل الصحراوية ، كانت تعرض الخيول البربرية لبيعها ببلاد الزنوج -تحديدا في تنبكت وبلاد بورنو- للأمرأ الذين كانوا يدفعون مقابل كل حصان خمسة عشر إلى عشرين عبدا^(٦٥). كما استعمل التبر -أي الذهب غير المسكوك أو الخالص- في المعاملات التجارية لاسيما منها الكبرى^(٦٦). أما النقود الصدفية فشكلت بدورها عملة في غاية الجودة بالسودان الغربي ، وقد استعملت في العمليات التجارية الصغرى أو العادية^(٦٧).

ي - المواد والسلع التجارية

تنوعت صادرات المغرب نحو بلاد السودان وشملت مواد محلية وأخرى صحراوية في مقدمتها الملح الذي شكل المادة الأساس في هذه المبادلات^(٦٨) لندرته وأهميته ، ولأنه مادة صحراوية لم تتوفر لا بالمغرب ولا ببلاد السودان^(٦٩) ، ولأن التحكم في هذه المادة كان يعني بكل سهولة احتكار الذهب الآتي من الجنوب. ويبرر الوزان هذه الأهمية التي اكتسبها الملح بإفريقيا السوداء -منذ أزمنة غابرة- وهذه الحاجة الماسة التي جعلت شعوب المنطقة الغابوية تقوم بمقايضته بمعدن نفيس هو الذهب ، بقوله: "عندما يأكلون الخبز فإنهم يمسكون بقطعة ملح في يدهم فيلحسونها مع كل مضغ حتى لا يستهلكوه بكثرة"^(٧٠).

وبخصوص الملاحظات تحدث الوزان عن ملاحاة تغازي الشهيرة وذكر أن بها مناجم للملح تشبه مقالع الرخام تستخرج منها هذه المادة من "حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح (...) يأتون مع القوافل ويقيمون هناك كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتره منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيرا"^(٧١).

وشكلت التمور غذاء أساسيا لسكان الملاحات المعروفة ، ولاسيما منهم أهالي تغازي الذين "لم يكن لهم من قوت إلا ما يحمل إليهم من تمر من سجلماسة ودرة"^(٧٢) كما أن جزءا من السكر المغربي كان يصدر إلى السودان ، فمدينة تيوت مثلا كان يقصدها "عدد من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر"^(٧٣).

كما أن جزءا كبيرا من الإنتاج الحرفي المغربي -لاسيما منه الفاسي- كان يصدر إلى بلاد السودان التي اعتبرت سوقا تقليديا لتلك الصادرات^(٧٤) ، وكانت الأقمشة في مقدمة هذه المنتجات رغم أن صناعتها كانت منتشرة في بلاد السودان ، إذ يشير الوزان ، في معرض حديثه عن مدينة تنبكت ، إلى وجود "دكاكين كثيرة للصناع والتجار" بها ولاسيما منها "دكاكين نساجي أقمشة القطن"^(٧٥) لكن إنتاجها لم يكن يفي بالحاجيات المحلية^(٧٦) ، الأمر الذي استدعى استيراد مختلف أنواع المنسوجات من الشمال الإفريقي ، حيث كان تجار سوس

وتقاسمت مع تكاوست هذه الأهمية بالجنوب المغربي ، محطات وقواعد تجارية أخرى لم تقل عنها مكانة وأهمية ، نذكر منها:

* **تدسي**: ارتبط بها وجود عدد مهم من تجار بلاد البربر وبلاد السودان ، وكانت بها مزارع ومعاصر للسكر ، إذ يقول عنها الوزان: "تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة وفيها أناس يتجرون مع بلاد السودان"^(٧٨).

* **تيوت**: شكلت ، إلى جانب تدسي ، مدينة رئيسة بسهل سوس^(٧٩) ، كانت تستقبل التجار من مختلف الجهات ، كفاس ومراكش وبلاد النيجر. وذكر الوزان أن تجار بلاد السودان كانوا يشترون منها مادة السكر^(٨٠).

* **إفرن**: تعتبر من المراكز التجارية المهمة التي اشتهرت بها أيضا منطقة سوس. وتحدث الوزان عن غنى سكانها بفضل شرائهم منسوجات كنانية من البرتغاليين باغادير ، وأقمشة غير متقنة الصنع لبيعها في ولايته وتنبكت مضيفين إليها منتجات نحاسية من صنعهم المحلي^(٨١).

* **توات**: أصبحت توات منذ القرن ١٤م -بسبب تحول الطرق التجارية العابرة للصحراء نحو الشرق وتدهور سجلماسة- نقطة انطلاق القوافل التجارية نحو بلاد السودان^(٨٢) ، وذكر الوزان أن سكان هذه المنطقة "أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان"^(٨٣). وشكلت تيگورارين "مجمع القوافل ، لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان ، ثم يذهبون جميعا"^(٨٤).

* **ودان** : تعتبر من المحطات الصحراوية المهمة التي كان لها حضور وازن وفاعل في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان. ويرى الوزان أن ثروتها ارتكزت على مخزونها من مادة الملح لاسيما منها المستخرجة من إجيل^(٨٥) . وإلى جانبها تشييت التي ربطتها علاقات تجارية مع بلاد السودان بفضل الرحلات التجارية التي كان سكانها يقومون بها نحوها^(٨٦).

ومن المراكز التجارية السودانية التي لعبت دورا مهما في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان ، نذكر أيضا:

* **تنبكت**: يرى الوزان أنها أسست من قبل ملك عرف بمنسى سليمان في القرن ١٣هـ/١٣م^(٨٧) ، وأصبحت محطة نهائية للقوافل القادمة من الشمال أو الجنوب عن طريق النيجر ، فغدت بفضل ذلك مركزا تجاريا ذاعت شهرته^(٨٨) . وقد لاحظ الوزان أن سكانها أغنياء مترفين لاسيما منهم الأجانب المقيمين في البلاد ، حتى إن الملك زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما^(٨٩).

* **كاغو/كاو**: شكلت مع تنبكت محطة لتوقف القوافل التجارية وهمزة وصل بين المغرب وبلاد السودان^(٩٠) ، كان سكانها -حسب الوزان- من التجار الأغنياء ، يتجولون دائما بسلعهم في المدينة ، والتجار السود منهم يبادلون الذهب بالمواد المستوردة من بلاد البربر وأوربا^(٩١).

و - الإطار المنظم للتجارة مع بلاد السودان

فيما يخص الإطار المنظم للتجارة مع بلاد السودان ، فقد لعب التجار دورا بالغ الأهمية ، إذ كانت القوافل الخاصة تلتحق إما بقافلة المخزن لعبور الصحراء^(٩٢) ، أو تنتظر تجار بلاد الزنوج الذين كانوا يتوافدون من مختلف جهات بلاد السودان على كل من تيوت وتدسي وتكاوست لشراء سكر سوس والأقمشة الصوفية ، من أجل العبور بشكل جماعي^(٩٣).

ويترك التجار ينتظرون إلى عودته فإن كان عدد الأسرى يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، أخذوا الثمن وذهبوا، وإلا اضطروا هؤلاء الانتظار حتى السنة الموالية إذا لم يكن للملك من العبيد ما يفي بالثمن، "ذلك أن هذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة".^(٨٨)

وفيما يتعلق بظاهرة الاسترقاق، يزودنا الوزن ببعض المؤشرات الإحصائية التي تبين استغلال العبيد كهدايا، إذ يشير إلى أن شيخ منطقة تانسيتا بدرعة قدم هدية إلى ملك فاس خمسين عبداً وعشرة خصيان وخمسين أمة^(٨٩). كما يعطينا فكرة عن اختلاف أسعار الرقيق حسب المكان والجنس أو النوع والسن. ففي بداية القرن ١٦م، تم بيع عبد بفاس بعشرين مثقالاً، وبيعت أمة بخمسة عشر مثقالاً^(٩٠)، وبيعت فتاة بكافو عمرها خمسة عشر سنة بست مثاقيل، وفتى بنفس المبلغ، وعلام بثلاثة مثاقيل، وعبد مسن بنفس الثمن^(٩١).

ويقدم الوزن كذلك، معطيات في غاية الأهمية حول دور المعادن النفيسة في الحياة الاقتصادية بالمغرب خلال القرن ١٦، إذ يشير إلى أن صناعة هذه المواد كانت من بين الأنشطة الأساسية التي مارسها اليهود في المغرب، واستخدموا يدا عاملة مهمة في صناعة المجوهرات^(٩٢) وصناعة خيوط الذهب^(٩٣). وسجل في هذا الصدد وجود عدد مهم من الصناع اليهود الذين مارسوا هذا النشاط في كل من تدسي ودرة على الطريق الرابط بين فاس وتنبكت^(٩٤)، وبرر تعاطي اليهود لهذا النشاط بكون المسلم لم يكن بإمكانه ممارسة مهنة صائغ على اعتبار أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساوي وزنها كان بمثابة ربا^(٩٥).

واحترك اليهود عملية سك النقود بدور السكة، وأكد الوزن وجودهم بكثرة داخل القصور الفلالية كما في قصري "تبصامت" و"الهامون"^(٩٦). وقد وجدت دور أخرى لسك النقود والعملات بكل من فاس ومراكش وإفرن^(٩٧).

خلاصة

يتضح من خلال ما سبق أن كتاب "وصف إفريقيا" يشكل حقيقة مصدراً نفيساً، وسنداً مرجعياً لا غنى عنه لدراسة جوانب مختلفة من تاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان في بداية العصر الحديث خاصة، نظراً لما يتركز به من معطيات قيمة في غاية الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلت بشكل جيد، أن تساعد على إعادة بناء ورسم صورة واضحة عن الروابط والوشائج العميقة التي جمعت بين الطرفين المغربي والسوداني، والتي كان لها الفضل في ظهور تراث مغربي- إفريقي مشترك سيطر شاهدها على تلك الروابط والصلات.

يحملون المنتجات النسيجية مرة في السنة إلى تنبكت وولاته من بلاد السودان^(٧٧).

واكتست الخيول المغربية ببلاد السودان خلال القرنين ١٥م و١٦م، طابعا خاصا بفضل الإقبال الكبير الذي لقيته من الملوك السودانيين الأسكيين منهم والبرنويين، إذ يشير الوزن إلى أن "الجياد تأتي من بلاد البربر مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوما على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمنا مناسباً".^(٧٨) ويضيف "أن فرسا واحدا كان يساوي خمسة عشر أو عشرين عبداً"، و"أن الحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بأوروبا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالاً".^(٧٩) لكن هذه العملية لم تكن تخلو من صعوبات ومشاكل، لأن الوزن يؤكد أن ملك بورنو كان يشن الغارة على العدو بالخيول التي قدمها له تجار بلاد البربر ويتركهم ينتظرون إلى عودته، وعلى حد قوله: "ربما مكثوا في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن، وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحيانا يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة. ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبدا لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة".^(٨٠)

ولم تقتصر صادرات المغرب نحو بلاد السودان على المواد المحلية وحدها، بل شملت كذلك سلعا أخرى غير مغربية كان التجار في المغرب يستوردونها من جهات أخرى، لاسيما من أوروبا، ويصدرونها إلى بلاد السودان الغربي، فكان هؤلاء يقومون بذلك بدور الوسيط التجاري بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء. ويشير الوزن في هذا الباب مثلاً إلى أن سكان إفرن وتجارها كانوا أغنياء بفضل شرائهم منسوجات كتانية من البرتغاليين في أكادير وكذا أقمشة أقل جودة وبيعها بالسودان^(٨١). ونظراً لارتفاع أثمان هذه الملابس، فإنه ليس من المستبعد أن تكون قد خصصت للملوك وحاشيتهم وكذا لكبار التجار، ذلك أن "أبسط قماش أوروبا" كان "يباع بأربعة مثاقيل للكتنة".^(٨٢) والقماش الرفيع مثل "المنتشينو" و"المينمو" يباع بخمسة عشر مثقال، "أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي، والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً".^(٨٣)

واحتلت مواد أخرى، مثل الأواني الخزفية والرخامية والزجاجية، والأسلحة النارية والبيضاء... أهمية كبيرة ضمن لائحة صادرات المغرب نحو السودان الغربي^(٨٤). ويشير الوزن في هذا الإطار إلى أن "أقبح سيف أوربي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل".^(٨٥)

وبخصوص دور السودانيين في تقاقم ظاهرة الاسترقاق، لاحظ الوزن أثناء زيارته لمملكة صونفاي، الأعداد الكبيرة من الرقيق بأسواق تنبكت وكافو والتي كانت تباع بأثمان معقولة، وفسر ذلك بالغارات التي كان يقوم بها الملك ضد جيرانه. يقول الوزن في هذا الإطار إن ملك تنبكت "كان يحارب الأعداء من جيرانه ومن يمتنعون عن أداء الخراج إليه، وإذا انتصر باع في تونبوكتو كل ما أسره من القتال حتى الأطفال".^(٨٦) كما ذكر أن صاحب مملكة بورنو كان يستقبل تجاراً من بلاد البربر أتوه بالخيول ليستبدلوا بالعبيد^(٨٧)، ويقول في ذلك أن هذا الملك كان يشن الغارة على أعدائه بتلك الخيل

٢٣ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، صص. ١٢٢-١٢٣.

٢٤ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، صص. ١٠٧-١٠٨. في هذا الإطار نشير إلى الجهود التي بذلها جون دوفيس الذي تمكن من الكشف عن بعض المواقع الأثرية التي كان لها حضور قوي وفاعل في تاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان والقيام بقراءة نقدية لمصادر الإخباريين ، حيث انتبه إلى الهفوات التي ارتكبها الجغرافيون العرب فيما يخص قياس المسافات بالطول. راجع: م. ن. ج. ١ ، ص. ١٠٧ ، هامش ١٣٤. وأيضاً:

ZAKARI.DRAMANI, ISSIFOU ; *L'Afrique Noire dans les relations internationales au XVI^es, Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhay*. éditions Karthala, Paris 1981, p. 101.

25 - J. Meunier; *Le Maroc Saharien des origines au 17^{ème} s (1670)*. Vol. I, librairie Kline Kiek, 1982, pp.393-395.

٢٦ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، صص. ١١٩-١٣٢-١٣٣.

٢٧ - نفسه ، ج. ٢ ، صص. ١٠٨-١٢٠.

٢٨ - نفسه ، ج. ١ ، ص. ١٢٠.

٢٩ - نفسه ، ج. ٢ ، ص. ١٢٠. وأيضاً:

ZAKARI.DRAMANI, ISSIFOU; *op. cit.*, p. 103

٣٠ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١١٩.

٣١ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١٢٠ ، هامش ١٨٢.

٣٢ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٣٣. وأيضاً:

J. Denise MEUNIER; *op. cit.*, marge 82, p. 875.

٣٣ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٣٣.

٣٤ - المكان نفسه.

35 - Henri LABOURET; *L'Afrique précoloniale*, Que sais-je? n° 241, P.U.F., Paris 1959, p. 242.

Ibidem - ٣٦

37 - Fatima Zahra TAMOUH; *Le Maroc et le Soudan au XIX^es (1830-1894). Contribution à une histoire interrégionale de l'Afrique*. Thèse en vue du doctorat de 3^{ème} cycle, Sorbonne, Paris I, 1982, p.201.

ومحمود حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا. دار الفكر العربي، القاهرة، ط. ٣، ١٩٨٦، ص. ١٩٠.

38 - *Ibid.* et Jean-Louis MIEGE; *Le commerce transsaharien au XIX^es, Essai de quantification*. R.O.M.M.32, 1981, 2^{ème} semestre.C.N.R.S.U.A.M. Aix en Provence, p. 96.

٣٩ - عبد العزيز العلوي، "فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي (فرضيات ووقائع)". أعمال الندوة الدولية حول: فاس وإفريقيا - العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية- الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات ٣، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس ٢٨-٣٠ أكتوبر ١٩٩٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٦، صص. ٨١-٩٦.

٤٠ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٢٠.

٤١ - المكان نفسه، ص. ١٢١، هامش ١٠.

٤٢ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٢١، هامش ١٠.

٤٣ - نفسه ، ج. ٢ ، ص. ١٢٠.

٤٤ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١٤٢.

٤٥ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٢٠.

٤٦ - المكان نفسه.

٤٧ - المكان نفسه.

٤٨ - نفسه ، ج. ١ ، ص. ١١٩.

٤٩ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١٤٥.

٥٠ - الوزان ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١١٥.

١ - اعتمدنا في هذا العمل ط. ٢ ، بيروت ١٩٨٣. (الحسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا، جزآن، تعريب: محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناسرين المتحدين).

2 - Michel ABITBOL; *Tombouctou et les Arma de la conquête marocaine du Soudan Nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'empire Peulh de Macina en 1833*. éditions Maison Neuve, Paris 1979, p.13.

٣ - الحسين عماري ، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن ١٥م إلى القرن ١٨م. إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي في العصر الحديث. جزآن، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، نوقشت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بتاريخ ١٩/٠٧/٢٠٠٣، إشراف: مصطفى ناعمي وزهرة طموح، ج. ١، ص. ٣٧.

٤ - عبد اللطيف كمال، "بين كتابين صور المغرب وأوروبا في أدب الرحلات". العلم الثقافي، ١٤ شوال ١٤١٧هـ/٢٢ فبراير ١٩٩٧، عدد ١٧١٠٢، ص. ٣. 5 - Abdelaziz EL ALAOUI; *Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI^e Milieu du XIV^e s.) Contribution à l'histoire économique sociale et politique du Maroc Médiéval*. Thèse en vue du doctorat de 3^{ème} cycle, BORDEAUX, 1983, p.17.

٦ - أنظر التقديم الذي قام به مترجما كتاب "وصف إفريقيا"، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١٩.

7 - R. MAUNY; «Notes sur les grands voyages de Léon l'Africain», Hespéris, Tome XLI, Année 1954, 3^{ème} et 4^{ème} trim., pp. 386-389.

والحقيقة أن الوزان اعتمد في كتابته "وصف إفريقيا" على الذاكرة فقط ، وهو ما يبرر الوقوع في تلك الهفوات والأخطاء. (الباحث).

٨ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ٣٩.

٩ - أحمد بوكاري، "ملاحظات حول كتابة تاريخ منطقة تادلة"، أعمال ندوة: تادلا-التاريخ-المجال-الثقافة، الملتقى العلمي لمنطقة تادلا، أبريل ١٩٩٢، جامعة القاضي عياض، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٣، ص. ١٠٢.

١٠ - الوزان ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ١٨.

١١ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، صص. ١١٠-١١١.

١٢ - نفس المرجع والصفحة.

13- Larbi MEZZINE; *Le Tafilalt, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e s*. Publ. F.L.S.H, Rabat, séries thèses 13, 1995, p. 81.

١٤ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٦١.

١٥ - فاطمة الزهراء طموح، "أكبار"، معلمة المغرب، ج. ٢، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا ١٩٨٩، ص. ٦٠٠.

١٦ - الوزان ، م. س. ، ج. ١ ، صص. ٧٥-٧٦.

١٧ - الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ٨٥.

١٨ - الوزان ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ٧٦.

19 - J. DEVISSE; *Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec La Méditerranée, un essai sur le commerce africain médiéval du XI^e au XVI^e s*, R.H.E.S, 1972, p. 424.

وأيضاً: الحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، ص. ٨٧، هامش ٣٨.

٢٠ - الوزان ، م. س. ، ج. ٢ ، ص. ١٣٣.

٢١ - نفسه ، ج. ١ ، ص. ٧٦.

٢٢ - نفسه ، ج. ٢ ، صص. ١٢٢-١٢٣. والحسين عماري ، م. س. ، ج. ١ ، صص. ٩٧-٩٦.



أول كلية للطب في تاريخ مصر الحديث

بين حنين بن اسحاق الطبيب الإسلامي الفذ في عهد الحضارة الإسلامية العريقة، وكلوت بك رائد الطب الحديث في مصر، شهدت مصر فترة انقطاع عن العلم دامت ثلاثة قرون هي مدة حكم آل عثمان الأتراك، انقطعت فيها مصر عن العالم، وانقطع العلم الحديث عنها.

عندما جاء محمد علي باشا إلى سدة الحكم في مصر، لم يكن في مصر مدارس للصغار أو الكبار، وكان مظهر التعليم الوحيد هو الكتاتيب حيث يتعلم الأطفال القرآن. ولم يكن هناك كليات أو جامعات لدراسة العلوم المختلفة، إلا جامعة الأزهر للتعليم الديني.

ولكن عهد جديد من الحداثة بدأ مع بداية حكم محمد علي، فقد أنشئت أول مدرسة (كلية) للطب الحديث في مصر عندما عرض أحد العلماء الفرنسيين الذين كانوا يخدمون الحكومة المصرية واسمه كلوت بك، علي محمد علي فكرة مشروع إقامة مدرسة (كلية) للطب يدرس فيها المصريون الطب الحديث، وكتب في ذلك لمحمد علي يقول له "يجب أن يكون بمصر مدرسة للطب تكون تلاميذها من المصريين المخلصين، الذين يغارون علي بلادهم ويحبون تقدم وطنهم". فسر محمد علي من فكرة المشروع وعهد إلي كلوت بك إنشاء المدرسة وإدارتها.

وبالفعل تأسست أول مدرسة للطب الحديث في مصر عام ١٨٢٧م بأبي زعبل. وانتظم في الدراسة مائة وخمسون شاباً يتعلمون كل فروع الطب والجراحة لمدة أربع سنوات. فكانت هذه المدرسة نواة المدارس العليا (كليات) في عهد محمد علي، وتبعتها مدرسة للطب البيطري، وأخرى للهندسة، وأخرى للفنون والصنائع، ومدرسة الألسن الشهيرة، وغيرها. وفي عام ١٨٣٧م انتقلت المدرسة والمستشفى الملحقة بها إلي قصر العيني بالقاهرة.

ولكن عباس الأول الذي خلف إبراهيم باشا، لم يكن لديه أدنى توجه نحو التحديث، فكان عهده بمثابة انتكاسة لمشروع التحديث لمحمد علي. فاضمحلّت مدرسة الطب في عهده، فترك كلوت بك مصر وعاد إلي فرنسا. ولكن مع تولي سعيد باشا حكم مصر سنة ١٨٥٤م عاد واهتم بمشروعات جده محمد علي، فأعاد فتح مدرسة الطب واستدعي كلوت بك من فرنسا الذي جاء مسرعاً.

ولكن ما لبث أبو الطب الحديث في مصر أن تدهورت صحته، فعاد إلي فرنسا وقضى بها آخر سنوات عمره، وتوفي سنة ١٨٦٨م. واعترافاً بفضل كلوت بك في إدخال تعليم الطب الحديث إلي مصر، سمي أحد الشوارع الشهيرة في وسط البلد بالقاهرة باسمه، ولا يزال يحمل هذا الاسم حتى الآن.

- ٥١ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١١٧.
- ٥٢ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٣٣. والحسين عماري، م. س.، ص. ١٤٦-١٤٧.
- ٥٣ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٣٣.
- ٥٤ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٣٣.
- ٥٥ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١١٦.
- ٥٦ - المكان نفسه.
- ٥٧ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٦٥.
- ٥٨ - الحسين عماري، م. س.، ج. ١، ص. ١٦٣.
- ٥٩ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٦٦.
- ٦٠ - الحسين عماري، م. س.، ج. ١، ص. ١٧٠.
- ٦١ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٧٠-١٦٩.
- ٦٢ - الحسين عماري، م. س.، ج. ١، ص. ١٧٧.
- ٦٣ - الوزان، م. س.، ج. ١، ص. ١١٥-١١٧-١١٩-١٣٣.
- ٦٤ - الحسين عماري، م. س.، ج. ١، ص. ١٨١. والوزان، م. س.، ج. ١، ص. ١٨٢-١٨٣.
- ٦٥ - الوزان، م. ن.، ج. ٢، ص. ١٦٦-١٦٧.
- ٦٦ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٦٧.
- ٦٧ - المكان نفسه.
- ٦٨ - الحسين عماري، م. س.، ج. ٢، ص. ٢٠٩.
- ٦٩ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٦٦.
- ٧٠ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ٢٨٠.
- ٧١ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٠٨.
- ٧٢ - المكان نفسه.
- ٧٣ - م. نفسه، ج. ١، ص. ١١١.
- ٧٤ - الحسين عماري، م. س.، ج. ٢، ص. ٢٢٦.
- ٧٥ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٦٥-١٦٦.
- ٧٦ - الحسين عماري، م. س.، ج. ٢، ص. ٢٢٦.
- ٧٧ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ٩٥-٩٦.
- ٧٨ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٦٦-١٦٧.
- ٧٩ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٧٠-١٧٦.
- ٨٠ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٧٦-١٧٧.
- ٨١ - نفسه، ج. ٢، ص. ١١٧.
- ٨٢ - الكتبة مقياس إيطالي قدره نحو مترين. راجع: م. ن.، ج. ٢، ص. ١٧٠، هامش ٢٣.
- ٨٣ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٧٠.
- ٨٤ - الحسين عماري، م. س.، ج. ٢، ص. ٢٣٣.
- ٨٥ - الوزان، م. س.، ج. ٢، ص. ١٧٠.
- ٨٦ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٦٦.
- ٨٧ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٧٦-١٧٧.
- ٨٨ - المكان نفسه.
- ٨٩ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٧٤.
- ٩٠ - المكان نفسه.
- ٩١ - نفسه، ج. ٢، ص. ١٦٩.
- ٩٢ - م. نفسه، ج. ١، ص. ١١٩.
- ٩٣ - م. نفسه، ج. ١، ص. ٢٨٣.
- ٩٤ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١١٩.
- ٩٥ - م. نفسه، ج. ١، ص. ٢٨٣.
- ٩٦ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٢٥-١٢٦.
- ٩٧ - م. نفسه، ج. ٢، ص. ١٢٦.

التاريخ

للمكتبات هو تاريخ للفكر الإنساني في مسيره ومصيره ، ذلك أن المكتبات كانت وما تزال وستظل معقلا لهذا الفكر تحافظ عليه وتقدمه من جيل إلى جيل على مر الأزمنة والعصور. وكان للمخطوط العربي مكانة كبرى يوم لم يكن هناك آلات طباعة تسخ الكتب ، وحفظ القلم العربي علوم الدين الإسلامي والفلك والأدب والطب والتاريخ وغيرها. يوم كان الجهل يخيم على معظم أجزاء العالم. والمخطوط العربي ثروة عظيمة لا تقدر بثمن ، ولا يجهل قيمتها العظيمة إلا من كان حظه من العلم والثقافة قليلا.

ولما كان لنا مثل هذا التراث التاريخي العريق فانه ينبغي أن نعرف أمجادنا ونلقي الضوء على فكر أجدادنا ، ونفخر بحضارتهم ، الأمر الذي يوجب الاهتمام بهذه المخطوطات ، وصيانتها ، والحفاظ عليها. وقد تميزت توات بكثرة خزائنها ، الأمر الذي جعل العلماء ينمونها ، ويبحثون دائما عن الجديد ، مما أعطى دفعا قويا لحركة التعليم وشجع الاهتمام بالعلم والتفقه في الدين الإسلامي ، وكثر الموردون والطلاب والتأليف والاستساخ ، حتى غدت منطقة توات كالشعلة التي يستضاء بها^٣.

وتعد المكتبة أو "خزائن الكتب" أداة هامة من الأدوات التعليمية التي ساعدت الطالب في التحصيل على مر العصور والأزمنة التاريخية للدولة الإسلامية ، حيث توجد في أغلب المدارس والزوايا خزائن الكتب والمخطوطات لتكون عوناً للطالب على فهم الكم العلمي الذي يتلقاه خاصة وأن اقتناء الكتب كانت تكلف مبالغ باهضة ، حالت دون امتلاكها من قبل الأغلبية. كما أنها تعتبر في الوقت ذاته مؤسسة علمية وثقافية مكتملة لدرس الأستاذ (الشيخ) ، فتيسر للطالب نهل العلوم من مصادرها ، والاحتكاك بالعلماء والشيخوخة القائمين عليها لفك الالتباسات وتعميق المعارف بغية الاستزادة في طلب العلم.

أما من حيث عمومية المكتبات وخصوصيتها فانه يمكن للباحث أن يصنفها إلى ثلاثة أصناف وهي:

- **مكتبات خاصة:** وهي الخزانات الشخصية ، ولا تستخدم في العادة إلا من قبل أصحابها وأصدقائهم وأعرز طلابهم.

- **مكتبات عامة:** وكانت تعبر الكتب للطلاب ، وبإمكان أي شخص أن يأتي إليها ، ويطلع على ما فيها من كتب و مخطوطات. وهي في العادة تكون ملحقة بالمدارس أو المساجد أو الزوايا.

- **مكتبات بين العامة والخاصة:** وكان استعمالها مقتصرًا على طبقة معينة من العلماء والمشايخ والطلاب. وواقعها- اليوم - أن أصحابها يسمحون لبعض الفئات من الناس بالدخول إليها ولا يسمحون للبعض الآخر ، فالذين يعطى لهم أمر استخدامها والاستفادة من ذخائرها هم فئات محددة مثل أكابر العلماء ، ومشاهير الأدباء ، وفطاحل الشعراء ، أو مثل الأشخاص الذين لهم مراكز اجتماعية معينة ، أو من كانت تربطهم بأصحاب هذه المكتبات بعض العلاقات الودية ، ولذا كان من المستحيل على عامة الناس أن يدخلوها وأن يستفيدوا بها فيها. ولكن سواء كانت هذه المكتبات عامة أو خاصة ، وسواء كانت كبيرة أو صغيرة فان دورها في مجال نشر العلم كان بارزا وفوائدها كانت عامة. والمكتبات في حقيقتها ما هي إلا وسيلة لنشر التعليم وشحذ أذهان العلماء والمدرسين.

وهكذا تعتبر المخطوطات^٤ رصيذا علميا هاما يظهر مراحل تطور المجتمع القصورى (الواحي) خلال مراحل نشأته إذا ما استغل

لمحة عن مراكز المكتبات والخزائن^(١)

الشعبية للمخطوطات في توات جنوب غرب الجزائر

خلال القرنين 12 - 13 للهجرة



د. صالح بوسليم

رئيس قسم التاريخ

المركز الجامعي بقرطاج

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

salahistoire@maktoob.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

صالح بوسليم ، لمحة عن مراكز المكتبات والخزائن الشعبية للمخطوطات في توات جنوب غرب الجزائر خلال القرنين ١٢ - ١٣ للهجرة. - دورية كان التاريخية. - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ٤١ - ٤٧.

(www.historicalkan.co.nr)



(١) خزائن منطقة قورارة:

ومن خزائنها المشهورة على سبيل الذكر لا الحصر:
خزانة المطارفة^{١٠}: ويوجد في هذه الخزانة حوالي (٨٠٠) مخطوطة، في كل فنون العلم والمعرفة، وكثير منها لعلماء المنطقة، ومما تحتفظ به:

- شرح الرسومي على لامية المجرادي: للرسموكي.
- شرح التاودي على التحفة: للتاودي.
- نوازل السجلناسي: لابن هلال الفولاني.
- نوازل القباب: لعبد القادر الفاسي.
- شجرة الأصول في نسب وأبناء الرسول(ص): لعلي حشلاف الجلفاوي.
- كتب البشرى والمرقاة الكبرى: للسيد عبد القادر.
- شرح البرنوس على منظومة القرطبي: للبرنوسي.
- شرح الملوي على ألفية ابن مالك: للملوي.
- تفسير القرآن: لابن عطية.
- قصص الأنبياء: لعبد الرحمن الثعالبي.
- نوازل المغارسة لعبد الرحمن الفاسي.
- نوازل الخطاب على مختصر خليل.
- شرح الخرشي على خليل.
- الميارة الكبرى على ابن عاشر.
- الميارة الصغرى على ابن عاشر.

خزانة سيدي بلقاسم^{١١}: وتوجد هذه الخزانة بزواية سيدي بلقاسم بتيميمون، وتضم هذه الخزانة أكثر من مائة مخطوط، وتشمل مواضيع مختلفة وهي القرآن وعلومه، التفسير، القراءات، الحديث وعلومه، التوحيد، العقائد، النحو والصرف وعلم المنطق، علم الفلك، وتراجم لعدد من العلماء والفقهاء والمشايخ.
ومن الخزائن الأخرى بمنطقة قورارة: خزانة زاوية الدباغ^{١٢}، وخزانة بادريان^{١٣}، وخزانة أولاد سعيد^{١٤}، وخزانة فاتيس^{١٥}، وخزانة تتركوك، وأغلب المخطوطات الموجودة بهذه الخزائن تشمل علوم الدين، وبعض تراجم لعلماء المنطقة المشهود لهم بالعلم والصلاح.

(٢) خزائن منطقة توات الوسطى:

الخزانة البكرية بتمنيط: تعد من أقدم وأغنى المكتبات الموجودة بالمنطقة، ومؤسسها الأول هو الشيخ سيدي ميمون بن عمرو (ت ٨٩٠هـ)، وذلك في أواخر القرن التاسع الهجري^{١٦}. وقد بلغ عدد مخطوطاتها ما يربو عن الألف مخطوط في شتى فنون المعرفة، وذلك في عهد مؤسسها الثاني الشيخ سيدي البكري (ت ١٣٣٣هـ). وظلت المكتبة البكرية لمدة ثلاثة قرون مجموعة ومؤدة، يشرف عليها عالم من أبناء العائلة، ممن يشهد له عدول عصره بالتميز في العلم والتفرد بالنجاة والتقوى، يحيطها برعاية فائقة مدققة، حيث لا يمنع منها منتفعا، ولا يملك منها مبتدعا^{١٧}.
خزانة ملوكة^{١٨}: وتضم هذه الخزانة ما يزيد عن ثلاثمائة مخطوطة، لكن الكثير منها تعرض للتلف والنهب، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

بطرق عصرية ذات أبعاد حضرية تستمد مقوماتها من خلال التفكير في خلق مفكرة تربط مقومات المجتمع الماضية بأسسه الحاضرة^{١٩}.

وتجدر الإشارة إلى أن جل الإنتاج الفكري والأدبي والديني قد ضاع من خزائن مناطق الإقليم الثلاث، وذلك بفعل عوامل الطبيعة القاسية، وإلى عملية النهب أثناء دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة، فقد أحصى (مارتن) كل الخزائن وحمل الكثير منها وألف كتابه الموسوم بـ "أربعة قرون من تاريخ المغرب: في الصحراء ابتداء من سنة ١٥٠٤م إلى سنة ١٩٠٢ م، وفي المغرب من سنة ١٨٩٤م إلى سنة ١٩١٢م"^{٢٠}.

إن الحركة الثقافية التي صاحبت نشاط التجارة وانتقال الحجيج عبر منافذ عديدة زادت في عزيمه سكان المنطقة - ولا سيما طلبة العلم - على التحصيل المعرفي، فتنقل هؤلاء عبر الحواضر المختلفة، كورقلة، وتوقرت، وتونس، وغدامس، وطرابلس، ومصر، والحجاز، وسجلناس، ومراكش، وفاس، وشنقيط، وأروان، وتمبكتو، وتلمسان، وقد صاحب هذه الرغبة التعليمية حب استنساخ المخطوطات وقراءتها^{٢١}.

وقد شهدت توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة حركة علمية واسعة، غذتها ظاهرة الاستنساخ والتأليف، فنمت الخزائن وزاد عدد المخطوطات فيها^{٢٢}، وصارت حالة الاستنساخ أشبه بالطباعة العصرية في يومنا هذا، يضاف إلى ذلك إيقاف بعض المؤلفين كتبهم لصالح المدارس والزوايا والمساجد لينتفع بها طلبة العلم.

أهم المكتبات وخزائن المخطوطات

تزرخ واحات توات بثروة ثقافية عالية منذ أقدم العصور من جوانب مختلفة، ومن أهمها ما وجد مسطورا من مخطوطات ووثائق تاريخية متنوعة في مكتبات المساجد ولدى الأسر والأفراد، وهي تتعلق بمختلف المواضيع كالبيوع والميراث والحبس والمراسلات، وتعود إلى مختلف الفترات، وكذلك حركة النسخ التي قد يستغرق الكاتب فيها شهورا وسنوات في كتابة المخطوطات ونسخها وبيعها، ونقل الثقافة العامة من جهة إلى جهة ومن جيل إلى جيل حسب التجارة القديمة، وازدهارها عبر العصور عن طريق القوافل الصحراوية. ويمكن للباحث أن يصنف خزائن الإقليم على النحو التالي:

١. خزائن منطقة قورارة
٢. خزائن منطقة توات الوسطى
٣. خزائن منطقة تيديكلت



- مقدمة ابن أجيروم: لابن أب.
- الزرقاني في الفقه.
- تحرير الكلام في مسائل الإلزام لمجهول (؟).
- أخبار الزمان: للشيخ الأكبر سعيد.
- منهج العمال في السنين والأقوال للشيخ علي بن حسن.
- الأنس فيما ورد عن العرش والكرسي في الحديث الشريف: للشيخ محمد بن عبد الله العياشي.

وعلى العموم فإن هذه المخطوطات تتناول مواضيع مختلفة كالقراءات ، التوحيد ، الحديث وعلومه ، العقائد وأصول الدين ، التصوف ، الفقه وأصوله ، التاريخ ، وأغلب هذه المخطوطات في حالة يرثى لها وأوراقها تأثرت بعوامل الطبيعة وتقلبات الجو^{٢٤} .
خزانة زاوية كنتة^{٢٥} : ومن أهم مخطوطاتها:

- الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد ، للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير ، ويشتمل على تاريخ سيد المختار الكبير وشيوخه ، وقد تضمن مقدمة وسبعة أبواب .
- فتح الودود في المقصور والممدود للشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي ، ويقع في (٤٦٢) صفحة .
- النوازل: للشيخ باي الكنتي .

والغالب أن موضوعات هذه المخطوطات الموجودة بهذه الخزانة تدور حول علوم الشريعة الإسلامية واللغة والنحو وتاريخ وتراجم للأعلام الكنتيين . وحسب الحديث الذي دار بيننا وبين القائم على هذه الخزانة^{٢٦} ، وهو شيخ مدرسة سيدي أحمد الرقادي فإن أغلب المخطوطات قد ضاع بسبب قساوة الطبيعة وعوامل التعرية ، كما أن بعضها الآخر تعرض لعملية النهب عقب الاحتلال الفرنسي للمنطقة .
خزانة زاوية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي^{٢٧} : يعود تاريخ تأسيس هذه الخزانة إلى القرن العاشر الهجري (١٦ م) ، وذلك بعد عودة المغيلي من السودان الغربي ، وكانت تضم كل مؤلفاته^{٢٨} ، وهي توجد قرب ضريح الشيخ ، وتحتوي على الكثير من المخطوطات ، ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:

- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي^{٢٩} .
- البدر المنير في علوم التفسير ، يدور حول علم التفسير .
- شرح مختصر خليل وحاشية عليه ، سماها الإكليل لمغني النبيل على مختصر خليل .
- منظومة سماها منح الوهاب في المنطق المبلغ للصواب ، وعليها ثلاثة شراح له .
- فصل الخطاب في رد الفكر إلى الصواب ، وتدور حول المنطق وهو شرح لأرجوزة منح الوهاب .
- كتاب الفتح المبين ، وله رسائل عدة طوال وقصار ذوات فصول في مواضيع شتى .
- ومن الخزانات الأخرى خزانة قصر زاجلو (أحد القصور التابعة حاليا لبلدية زاوية كنتة) ، وتحتوي على أكثر من سبعين مخطوطة في شتى العلوم الدينية والمعارف .

- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج .
- الدرر الفائقة في ذكر سيد الخالقة: للسيد مسعود بن محمد .
- منهج البادية في الإنسانية العالية لعبد الله بن محمد بن عبد القادر الفاسي .
- تحفة اللبيب في جمع الطرر المعلقة على شرح ابن النجيب ، تحقيق الحاج ابن عبد الرحمان البلالي .
- الغنية البلبالية^{٣٠} : للحاج عبد الرحمان الملوكي البلالي .
- نوازل المعيار في فتاوى علماء إفريقيا والأندلس: للونشريسي .
- تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام: لابن أب^{٣١} .
- عيون المذاهب المجهول (؟) .
- لباب الأبواب في بيان ما تضمنته أبواب الكتاب: لعبد الله محمد بن عبد الله بن راشد .
- مسائل الأحباس: لأحمد بابا التمكنكي الهالي .

خزانة كوسام^{٣٢} : سطع نجم كوسام مع نهاية القرن الثالث عشر للهجرة (١٩ م) ، وأضحت مركز إشعاع علمي وحضاري يؤمه طلاب العلم ، ويرجع الفضل في هذه المكانة التي تبوأها كوسام في تلك الفترة إلى أحد الأعلام البلباليين البارزين وهو العلامة سيدي عبد الله بن أحمد حبيب البلبالي (ت ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م) ، ويتولى شؤونها حاليا الشيخ سيدي محمد الطيب شاري ، وتضم في رفوفها ما يزيد عن (٢٥٠) مخطوطة ، في شتى فروع المعرفة الإنسانية ، وقد ضاع منها الكثير ، ومما تحتفظ به على سبيل المثال:

- تفسير القرآن لابن عطية .
- أنوار التنزيل "تفسير القرآن" .
- شرح رسالة أبي زيد القيرواني ، لشمس الدين الثاني .
- كمال فتح المقيت في شرح المواقيت ، لأحمد بن محمد بن عومر .
- الخزرجية في العروض والقوافي .
- العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، لمحمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي الدمايمي .
- وسم المعاصي في شرح تحفة ابن عاصي على الأرجوزة ، لمجهول (؟) .

خزانة بني تامر^{٣٣} : ومن مخطوطاتها:

- تفسير القرآن: للبغوي .
- التحفة العلية في آداب الدين والدنيا: لأبي الحسن علي بن حبيب .
- شرح المرفوق في المنطق: لمجهول (؟) .
- تاريخ الدول والقبائل الإسلامية: لمجهول (؟) .
- القاموس المحيط: للفيروز أبادي .
- النور الوهاج في الإسراء والمعراج: لمجهول (؟) .

خزانة زاوية سيدي حيدة^{٣٤} : وبوودة: وتوجد هذه الخزانة بقصر بوودة السفلاية ، ومن مخطوطات هذه الخزانة:

(٣) خزائن منطقة تيديكلت:

تحتوي منطقة تيديكلت على العديد من المخطوطات ، وتعد خزائنها من أغنى وأخصب الخزانات الشعبية ثراءً بالمخطوطات ، وكثير منها من إنتاج علماء المنطقة ، ومن هذه الخزائن على سبيل المثال لا الحصر:

خزانة المخطوطات للفلايين بأقبلي: وتوجد بقصر ساهل وتشتمل على مئات المخطوطات ، منها ما هو بخط الجد الأعلى للفلايين محمد بن مالك بن أبي بكر بن أيوب بن حماد بن جلول بن طلحة^{٣٠} ، ومنها ما هو بخط الشيخ محمد بن محمد العالم^{٣١} . وتشتمل الخزانة على كثير من المخطوطات في فنون متنوعة ، ويعود الفضل في ذلك إلى الشيخ محمد بن مالك في سنة ١٣٠١هـ/١٣٠١م ، إذ عمل على جمع المخطوطات واستنساخها ، ليتمكن من تبليغ رسالة العلم ، وقد سخر لها نفسه طوال حياته^{٣٢} . وحسب التقايد التي إطلعنا عليها في حواشي بعض المخطوطات تبين لنا أن العديد منها قد جلب للخزانة من طرف السيد عبد الرحمان بن الحاج أحمد حفيد الشيخ المؤسس ، وبعض المخطوطات هي بخط الشيخ حمزة بن الحاج أحمد ، كما جلب لها الشيخ محمد الحسن (ت ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) عدة مجلدات ، ويوجد بالمكتبة شروح للحديث وتفسير للقرآن ومؤلفات في الفقه والنحو ، وبقي الآن ما يقارب ٢٥٠ كتاب مخطوط في الخزانة بعد أن ضاع منها الكثير وتبعثر بسبب الكوارث الطبيعية^{٣٣} . ومن مخطوطات هذه الخزانة:

- منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب: لمحمد بن عبد الكريم المغيلي.
- شرح الميابة: للفاسي ومعه ألفية في غريب القرآن.
- شرح الولائي على نظم المكودي: بخط بن مالك سنة (١٨٩١هـ/١٣٠٩م).
- بغية السالك في أشرف المسالك: لمحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمان.
- شرح ابن مهيبي المسمى بالطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى: لمحمد النجيب بن محمد شمس الدين بن محمد النجيب بن محمد بن عبد الصمد (?).
- الجامع الصغير من حديث البشير: فرغ من تأليفه في ٩٠٧هـ/١٥٠١م ، ونسخ في ١٢٠١هـ/١٧٨٦م.

خزانة زاوية الشيخ سيدي أبي نعامه الكنتي بأقبلي: أسسها الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الملقب بأبي نعامه ، المولود سنة (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) المتوفي سنة (١١٦٣هـ/١٧٤٩م). وتشتمل خزانة الشيخ على قرابة ثلاثمائة مخطوط في فنون شتى نذكر منها:

- كشف الشبهات بالبراهين والبيانات: للشيخ المختار الكبير.
- نصائح للشيخ المختار وولده محمد في التصوف.
- نسيم الرياض في شرح الشفاء للفاضي عياض.
- الديباج المرقوم في أصول علم النجوم.
- الرسالة الغلاوية: للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار ولها (١٦) صفحة.

• الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وحقائق الأوراد: للشيخ سيدي المختار الكبير.

• قصائد في الشعر الشعبي الديني تخص ركب الحجيج ومدح المصطفى: للشيخ ولد سيد الحاج الكنتي.

• كتاب الطرائف والتلائد ، يتضمن أخبار الوالد والوالدة ومعه أخبار الأولياء والعلماء والأتقياء وبعض من أخبارهم للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير وتقديراً للتطوير أذكر أن الخزانة تحتفظ بعدد كبير من المخطوطات في الحديث والعبادات والمعاملات ، ولا سيما مخطوطات فقه مالك.

خزانة قصر المنصور^{٣٤} بأقبلي: وقد أسسها الحاج محمد بن الحاج أعلي ، أحد تلاميذ الشيخ المختار الكبير الكنتي ، وفي الخزانة مخطوطات كثيرة مجهولة المؤلفين في علوم شتى. وتضم الخزانة ما يزيد عن عشرين مخطوطاً في فنون مختلفة منها على سبيل المثال:

- الكوكب الوقاد على شرح الأوراد: للشيخ المختار الكبير الكنتي.
- الجرعة الصافية والنفحة الكافية: للشيخ المختار الكبير.
- المقصور والممدود: للشيخ المختار الكبير الكنتي.
- المهجة من تلخيص البهجة في مناقب سيدي عبد القادر الجيلاني: للإمام نور الدين أبي الحسن علي ابن يوسف النحوي المقرئ اللّخمي.
- قصائد في أغراض مختلفة للشيخ أحمد البكاي ، ومعها قصيدة للمختار الكبير.
- رسالة لسيدي أحمد البكاي بعثها إلى ابن عمه سيدي أمحمد بن بابا أحمد. وتقع في ١٢ صفحة.

خزانة قصر أركشاش^{٣٥}: تأسست هذه الخزانة على يد السيد محمد التهامي ، الذي يمتلك أبناؤه مقتنياتها ، تضم عدداً من المخطوطات الأنا أهمها مصحف يعرف بـ "تينغ بوي" بمعنى قتل بوي ، وهو عبارة عن كتاب قرآن [كذا كتب عنه] ، وهو يقع في (٤٨٠) صفحة ، نسخه إسماعيل بن أحمد بن حسن الأزهرى سنة ١٢٧٢هـ/١٣٦٧م.

كتب في آخر: "ليعلم الواقف عليه أنّ هذا المصحف ملكه الله للحاج محمد بن الحاج علي المايخاني أصلاً ، عبيد ربه تعالى محمد الأمين بن علي ابن محمد بن محمد بن الحاج محمد". ويوجد عليه ختم ملك غير واضح الإسم هو الملك "الطام أبو سعيد تمرنفا" ، وقصة تسميته بهذا الإسم أنّ متخاصمين لزمهما القسم فاتفقا أن يحلفا عليه ، وكان الكاذب اسمه بوي فمات بعد الحادث فسموا الكتاب "تينغ بوي" ، وهو محفوظ بطريقة جيدة بمسجد أركشاش^{٣٦} ويوجد بالخزانة أيضاً:

- نضار الذهب في كل فن منتخب: لشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي ، فرغ منه في ١٢٧٨هـ/١٨٦١م.

مكتبة الشيخ محمد باي بلعالم بأولف^{٣٧} : وهي مكتبة حديثة ، أقامها الشيخ محمد بن عبد القادر بلعالم الملقب بـ "باي" ، وحاول الشيخ رحمه الله جمع أكبر قدر من المخطوطات ، قصد تجميعها في مكان واحد في محاولة منه للحفاظ عليها وصيانتها ، ومن ثم تمكين الباحثين من الاستفادة منها. وتتناول تلك المخطوطات مواضيع مختلفة وهي

وعوامل الزمن...، في الوقت الذي اهتمت فيه الدول الغربية بما في حوزتها من مخطوطات وأن كانت من غير تراث أسلافنا، فأولتها كل العناية، وحفظتها في أنسب درجات الحرارة والرطوبة، وعملت على نشرها وتحقيقها والاستفادة من علومها، بأذلة في ذلك المال الوفير والجهد الكبير.

ثم إن المتصفح - اليوم - للمخطوطات المتبقية في الكثير من الخزائن التوتائية، يجد أن الزمن قد فعل فعله بصفحاتها الأولى، إلى درجة التمزق لمجرد لمسها، لكن الغائب الأكبر أمام هذا الوضع هي العناية بما فلت من أنياب الدهر، وإخراجها من محبسها الذي لازمته لقرون، وإعادة ترميمها وفقا للمقاييس العلمية وإعادة نسخها، كي يتسنى للباحثين الإطلاع عليها وتحقيق ما يمكن تحقيقه منه.

ولعل في الاقتراحين التاليين ما يحقق الأمنية وينفض الغبار عن تراثنا:

- العمل على إجراء مسح ثقافي شامل يهدف إلى حصر المخطوطات والوثائق في توات تسهيلا لتحقيقها ودرسها ونشرها وفقاً للأسس العلمية.
- دعم الخزائن العلمية الخاصة والعامة، وذلك بتوفير الإمكانيات اللازمة لتظهر بالمظهر اللائق وتتمكن من أداء رسالتها الثقافية.



الهوامش والإحالات:

- ١- المراد بكلمة (خزانة) في لسان سكان مناطق الجنوب الجزائري، وكذا في المغرب الأقصى: المكتبة الشعبية التي تحتوي على عدد من الكتب المخطوطة سواء أكانت هذه الخزانة داخل القصر أو في المسجد أو في بيت من البيوت.
- 2 يشتمل إقليم توات على ثلاث مناطق رئيسية وهي: تيديكلت وقاعدتها مدينة عين صالح، ومنطقة قورارة (تيكورارين)، وقاعدتها مدينة تيميمون، ومنطقة توات التي أعطت إسمها لكل الإقليم وكانت قاعدتها مدينة تمنطيط، قبل أن تنتزع مدينة أدرار زعامة الإقليم في القرن السابع عشر الميلادي. و يذكر أحد الباحثين أن إسم توات إذا أطلق أريد به العموم فدخل في مفهومه تيديكلت وتيكورارين، فتصبح بذلك توات من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل، ينظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية في منطقة توات: عصره وآثاره، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، كلية الحضارة الإسلامية والعلوم الإنسانية، جامعة وهران، ١٩٩٩/٢٠٠٠م، ص٠٧.

- 3 عبد الكريم عوفي، "مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري، إقليم توات نموذجا"، مجلة أفاق للثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد والتراث، الامارات العربية المتحدة، ع٣٤، دبي، ٢٠٠١م، ص١١٥. ويذكر الدكتور مختار حساني "أن أغلب الواحات الصحراوية كانت تزخر بخزائن الكتب، وقد تحولت مقرات الزوايا بها إلى مدن مثل عين ماضي وتماسين وطولقة وأولاد جلال وتيميمون وأدرار ووادي الساور". ينظر: مختار حساني، "تاريخ المخطوطات"، (أعمال الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، أدرار: ٢٩ ماي - ٠٢ جوان ١٩٩٤م، وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر)، ص ص ٦٥-٦٦.

الحديث وعلومه، التوحيد والعقائد، التفسير والقراءات، التصوف، الفقه المالكي على مذهب سيدي خليل، وقد نسخ أغلبها ما بين القرن العاشر والرابع عشر الهجري (السادس عشر والتاسع عشر الميلادي) ومن مخطوطاتها:

- بلوغ الغاية على الوقاية، للشيخ محمد بن بادى الكنتي وهو في اللغة العربية يقع في (٢٩٠) صفحة وأوراقه من الحجم المتوسط.
- روضة النسرين في مسائل التمرين (اللغة)
- النفة الرندية على شرح التحفة الوردية (اللغة)
- الجرعة الصافية والنفة الكافية: للشيخ المختار الكبير الكنتي وهو في الإخلاص، ناسخه علي بن محمد بن عبد القادر بن حسان بن الشيخ.
- البرد الموشى في قطع المطاعم والرشا: للشيخ المختار الكبير الكنتي، وهو في السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء، وفنون أخرى.
- كفاية المحتاج بمعرفة ما ليس في الديباج للشيخ أحمد بابا التيبوكتي، وهو في التراجم، ألفه سنة ١١١٢هـ، ونسخ في ١١٤١هـ.

- الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب لمحمد بن الشيخ المختار الكبير الكنتي، إنتهى منه في ١٢١٩هـ، يقع في ٦٩٠ صفحة.

كما توجد في قصور أولف خزائن أخرى، وهي ممتلكات أسرية منها: خزانة أولاد بولحية في زاوية حينون، والتي أسسها الشيخ محمد بولحية، وخزانة الشيخ بختي أحمد العالم^{٣٨}، وخزانة الطالب دادة سيدي أحمد (ت ١٣٧٢هـ)، وخزانة باشيخ بتاقراف. وقد خلف الشيخ أبو الأنوار بن عبد الكريم التتلائي خزانة كتب، إلا أنها ليست متاحة للباحثين ويجهل مكانها.^{٣٩}

وللإشارة فإن أغلب هذه المخطوطات الموجودة داخل الخزانات الشعبية والمؤسسات الدينية قد تنامت مقتنياتها وتطورت بفضل جهود وإسهامات العلماء الذين تعاقبوا على مناطق توات على مر الأزمنة والعصور، ولم تتوقف عملية جلب المخطوط بل تخصصت بعض المراكز في عملية النسخ^{٤٠}. وكانت تلك الخزانات مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود الزوايا التي انتشرت في كل مناطق الإقليم.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "الغالب أن الزوايا هي التي كانت ترعى المكتبات؛ لارتباطها بالدين والعلم، وقد عرفت منذ القدم بأنها سوق رائجة للكتب، وأن بعض عائلاتها الدينية قد كوّنت مكتبات معتبرة، وكانت صلة أهل توات بجامع القرويين وعلماء المغرب وعلماء إفريقيا وتلمسان قد جعلتهم في مكانة يغبطون عليها، إضافة إلى علماء توات الذين كانوا يؤلفون الكتب ويستسخونها من بعضهم أو من علماء آخرين."^{٤١}

والكتاب بما يحتويه من علم يُعد من أهم الأسس التي يقوم عليها رقي الأمم والشعوب، لهذا اهتم التواتيون بمكتباتهم وحرصوا على تزويدها بكل ما يقع تحت أيديهم من الكتب، وظاهرة جمع الكتب عندهم تكاد تكون هوائية؛ ويعاب الذي لا يملك خزانة كتب في بيته. وبرغم ما حل بتوات من كوارث طبيعية وصراعات قبلية وسيطرة المستعمر عليه، إلا أن معظم الخزائن المحلية لازالت تزخر بمجموعة قيمة من هذه الثروة التي عانت، حتى الفترة الأخيرة من قلة الاهتمام، إذ لم يوفر لها جيلنا الحاضر ما يليق بها من حفظ ونشر، وتداول،

ج ١، ص ٢٩٧.

17 حسب ما أخبرني به الأخ عبد الحميد بكري — أحد القائمين على مدرسة سيدي أحمد ديدني بتمنيط — أنه في سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٤م قد تم تقسيم محتويات المكتبة بين أفراد العائلة قسمة تراضاها الجميع، فكانت في تمنيط خزنة الشيخ سيد احمد ديدني، وخزنة الشيخ سيدي الحاج محمد القاضي، وخزنة الشيخ سيدي محمد الصالح.

18 توجد هذه الخزنة بقصر ملوكة التابع حاليا لبلدية تيم، يبعد عن مدينة أدرار بـ ٥ كيلومتر، وكانت ملوكة مقراً للعلماء، وقد برزت كمركز إشعاع علمي وحضاري مع منتصف القرن الثاني عشر الهجري (١٨م)، ويرجع الفضل في ذلك إلى الشيخ سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان البلالي (ت ١٢٤٤هـ). ينظر: محمد بن عبد الكريم التمنيطي البكراوي، جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط، الخزنة البكرية بتمنيط، ورقة ٧ وجه ١. محمد باي بلعالم، الرحلة العلمية إلى منطقة توات، ج ١، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٥م، ص ٤٨.

19 تضمن هذا المؤلف مجموعة من النوازل وهي عبارة عن مجموعة من القضايا والفتاوى والمسائل المعقولة من سجلات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم الذي شكل مجلس شوري من أربع فقهاء لمشاورتهم في القضايا التي تستشكل عليه. وكان يبدل واحد منهم سجل يقيّد فيه أحكامه وفتاويه وقام الشيخ عبد العزيز بجمع أحكام السجل التي قيّد والده وقام بترتيبها على حسب أبواب خليل (المرجع الفقهي المعتمد)، وتوجد نسخة من نوازل الغنية البلالية في خزنة ملوكة وكوسام وأطلعنا الأخ عبد الحميد بكري على نسخة خاصة بخزنة جده سيدي أحمد ديدني بتمنيط.

20 نسب هذا الكتاب إلى الشيخ ابن أب المرقري، وحسب إطلاعنا على مؤلفات الشيخ لم نعثر على عنوان هذا الكتاب ضمن مؤلفاته المخطوطة بخزنة الشيخ محمد باي بلعالم ونرجّح أنه قد يكون خطأ في النسخ.

21 كوسام حاليا تابعة لبلدية تيم، وتبعد عن مقر الولاية أدرار بـ ٣ كيلومتر.

22 تقع بني تامر شرق بلدة تيم، وهي تابعة لبلدية تيم وتوجد هذه الخزنة بيد حفيده السيد مبدوي امحمد، وقد أصاب هذه الخزنة التلف والضياح بسبب العوامل الطبيعية والبشرية ولم يبق منها إلا الشيء القليل.

23 يرجع تاريخ تأسيس الزاوية إلى القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) وقد أسسها الشيخ سيدي احمد الملقب بأبي سبع حجات وكان من العلماء الذين نبغوا في العلم، التف حوله طلاب كثيرون، وكان يحضر مجلسه أكثر من مائة طالب، أسس سبع زوايا، أشهرها بقصره الذي سمي باسمه زاوية سيدي حيدة، تصغير أحمد، كان يقود الركب، وسي بشيخ الركب، خلف مكتبة أوقفها على ابنه الأفقه فكانت من نصيب ابن ابنه الشيخ سيدي محمد بن مبروك. ينظر: أحمد جعفري، محمد بن أب المزرمي، ١١٦٠ هـ، حياته وآثاره، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٤م، ص ٥٠. سلسلة النواة، ج ١، مرجع سابق، ص ١٠٧. عبد الكريم عوفي، مرجع سابق، ص ١٢٧.

24 عابن أحد الباحثين هذه الخزنة ولاحظ الحالة التي وصلت إليها فقال: أنها في حلة يرثي لها وهي من بين الخزائن التي تحتاج إلى تدخل إنقاذ ما تبقى منها بعد ترتيب أوراقها المبعثرة في الخزائن. ينظر: مختار حساني، " تاريخ المخطوطات"، مرجع سابق، ص ٧٠. وتوجد مقتنيات هذه الخزنة حاليا بيد السيد محمد جعفري.

25 توجد هذه الخزنة بمقر زاوية كتنة التي تقع جنوب أدرار، وتبعد عن مقر الولاية بـ ٧٧ كلم.

26 خزنة زاوية كتنة حاليا هي بيد الشيخ الحاج امحمد الكنتي كما سبقت الإشارة إليه.

27 هو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالقرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمه على يد شيوخها، ثم تحول إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحي بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي عالم الجزائر وولها (ت ١٢٧٥هـ/١٤٧٠م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكسب ثقافة دينية وأدبية ألهته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالإحترام من العديد من العلماء وهذا ما عبّر عنه أبو عبد الله محمد صاحب الدوحة بقوله: "أنه كان من

٤ أنظر: محمد عطا زبيدة، مكتبات المدارس "خزنة الكتب في العصرين الأيوبي والمملوكي"، في أبحاث ندوة: (تاريخ المدارس في مصر الإسلامية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م من ص ٢٢١.

5 بلغ الاهتمام بالوثائق والمخطوطات أن خصصت الجامعات في العالم مجالا في كلياتها لنيل درجة دكتوراه في ترميم وصيانة المخطوطات، كما خصصت دول العالم المتقدم وبعض الدول العربية مراكز تكنولوجية خاصة بصيانة وترميم المقتنيات الثقافية (مخطوطات، واثائق، مطبوعات، تسجيلات)، للمزيد من التفاصيل الوافية حول ترميم المخطوطات يراجع: د. حسام الدين عبد الحميد محمود، تكنولوجيا صيانة وترميم المقتنيات الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩م.

6 مبروك مقدم، "المخطوطات داخل الخزانات الشعبية بتوات وتيديكلت"، (أعمال الملتقى الثاني للبحث الأثري ودراسات التاريخية)، وزارة الثقافة والاتصال الجزائر، ص ٧٥-٧٦.

7 صاحب التأليف كان عسكريا برتبة رائد، وكان مترجما في الصحراء الجزائرية أثر الاحتلال الفرنسي، وقد جمع كل ما عثر عليه من الوثائق العربية في الخزائن العامة والخاصة وترجمها حوالي سنة ١٩٠٤م، وتأخر طبعها لأسباب ذكرها في مقدمة تاريخه. للتأكد والتحقق راجع كتابه:

A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, d'après archives et documentations indigènes, Paris 1923, 591p.

8 عبد الكريم عوفي، مرجع سابق، ص ١٢٨. ونود أن نشير في هذا المقام إلى أن أغلب المخطوطات التي اطلعنا عليها بالخزائن التواتية قد كتبت كلها بخط مغربي فالقاف فيها معجمة بواحدة من فوق، والفاء معجمة بواحدة من تحت، إلى غير ذلك من خصائص الخط المغربي. وهي تشترك جميعا في الرسم الإملائي القديم، كإسقاط الهزة ورسم الألف الممدودة مقصورة، والعكس أيضا، وكتابة الناء مربوطة.

9 يذكر فرج محمود فرح أن الأدباء التواتيين سلكوا في إنتاجهم الفكري العام مسلكين الأول الإسهام في إثراء التراث القديم بمعالجته معالجة مستندة من المعايير الأدبية السائدة في الوطن العربي، والثاني اهتمامهم بالتأليف. فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٧٧م، ص ٩٢. وأثناء وقوف الباحث على عدد لا بأس به من هذه الخزائن لاحظ بعض الخصوصيات التي تميزت بها تلك المخطوطات منها: اهتمامها بالعلوم الدينية غالبا وقلة المهتمين بالعلوم الأخرى، ولم نعثر على كتب الفلسفة إلا ما كان في المنطق ولعل السبب في ذلك يعود إلى المرجعية الفكرية والاتجاه المذهبي لدى غالبية علماء توات، وبالرغم من ذلك ظهر علماء نوابغ ألفوا ودوّنوا في علم الفلك وعلم المنطق كالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ عبد الرحمن السكوتي الفلاني القبلاوي.

10 تبعد المطارفة - حاليا - عن مقر ولاية أدرار بـ ٩٩ كلم وتوجد هذه الخزنة بيد أبناء عبد الكريم بن عبد الكبير.

11 يعد الشيخ سيدي الحاج بلقاسم من أعلام القرن العاشر الهجري، عرف بشيخ ركب الحجيج تخصص له زياة (وعدة) للإحتفال بأسبوع المولد النبوي الشريف، وهو احتفال منصوص عليه في أجاس الزاوية، يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد كوعد سنوي لا يجب تجاوزه، وفيها ترفع جميع ألوية الأولياء الصالحين الذين شاركوه في الحفل التأسيسي لهذه الزيارة، وما يعرف عن الشيخ أنه علم طريق الحجيج ومنازلهم لأبنائه (المتوفين). ولهوسم زيارة سيدي بلقاسم شهرة عالمية. ينظر: مولاي التهامي غيتاوي، سلسلة النواة في ابراز شخصيات من علماء وصالحى إقليم توات، ج ٢، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ٢٠٠٥م، ص ١٢-١٧.

12 توجد هذه الخزنة - حاليا - بيد السيد الدباغ أحمد بن محمد.

13 توجد هذه الخزنة - حاليا - بيد السيد الصوفي محمد السالم.

14 توجد هذه الخزنة - حاليا - بيد السيد الجوزي عبد الرحمن وبها أكثر من (٢٠٠) مخطوطة.

15 توجد هذه الخزنة - حاليا - بيد السيد أحمد بن العربي.

16 عبد الحميد بكري، مرجع سابق، ص ٤٩. وانظر أيضا: تاريخ الجزائر الثقافي،

نظم وشرح وتأليف، وكان يشرف على مدرسة مصعب بن عمير القرآنية الفقهية بهقر دائرة أولف ولاية أدرار. توفي رحمه الله أواخر شهر أبريل ٢٠٠٩م. أنظر ترجمته كاملة للشيخ محمد علي الأمين الشنيطي وقد نشرت في كتابه: الرحلة العلية، ج ٢، ص ص ٣٧٦-٣٨٦.

38 حسب ما أفادنا به أحفاده القائمين حالياً على الخزنة فإن السيد أحمد بن مبارك يكون قد ولد بأولف خلال عام ١٨٦٠م وأمه مباركة بنت أحمد الشعير. تعلم على يد والده الطالب مبارك وأخذ عن بعض علماء نوات، وقد عرف عند عامة الناس في أولف باسم سيدي أحمد العالم لما عرف عنه من العلم والتقوى وقد نشأ في أسرة عرفت بالعلم والصالح.

39 بالرغم من إشاعة الثقافة التراثية في المنطقة إلا أننا لم نتمكن من معرفة محتويات تلك الخزنة ونتمنى أن تبذل الجهود وتتكاثف جميعها من أجل بعث ونشر محتويات تلك الخزنة التي كان لها دوراً رائداً في الحركة الثقافية وتنشيط التعليم على يد الشيخ وتلاميذه في المنطقة وما جاورها.

40 اشتهرت المدرسة القرآنية والفقهية ساهل أقبلي ببعض النساخ والخطاطين، وخاصة كتابة المصحف الشريف، وقد اعتنى علماؤها وطلبتها بنسخ القرآن الكريم وكتابته بواسطة الوسائل البسيطة الموجودة في ذلك الوقت (الدواة والقلم والكاغد)، ونذكر من هؤلاء النساخ المقرئ العلامة محمد عمار بن محمد بن الحاج أحمد بن محمد بن مالك (ت ١٣٦٤هـ) الذي كان حافظاً للقرآن الكريم وكان يمتاز بهمة نسخ الكتب والمصاحف، وقد وجد في مذكراته التي يسجل فيها مخطوطاته أنه نسخ بقلبه خمسة وأربعين (٤٥) مصفحة كاملاً ونسخ الكثير من الأجزاء والأرباع. ينظر: قبيلة فلان، مرجع سابق، ص ٥٤. أحمد بن مالك، "مدرسة ساهل أقبلي وجهودها في خدمة القرآن الكريم مابين القرنين ١٣-١٤ الهجريين"، ملتقى مدرسة الاقراء في الجزائر بدار المحمدية، الجزائر من ٢٤-٢٦ رمضان ١٤٢٤م الموافق ل ١٩-٢١ نوفمبر ٢٠٠٣م، ص ٨٠. (مروونة تحت يد الباحث)

وقد شاعت حركة النسخ والاستنساخ في العديد من المراكز العلمية والثقافية بتوات حتى أنه كان لها اختصاصيون مشهورون، ومن شروطها جودة الخط و حسن اختيار الورق وإتقان صناعة الوراقة والسرعة والمهارة في التوثيق والدقة في العمل وصحة النظر. ينظر: مبروك مقدم، المخطوطات داخل الخزانات الشعبية، مرجع سابق، ص ٧٨.

41 ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج ٥، دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٧١.

حقوق الصور الواردة بالمقال محفوظة للسيد محمد بن عبد الكريم، اليوم المخطوطات، موقع تراث نوات (يناير ٢٠٠٧).



الدكتور صالح بوسليم في سطور:

- باكالوريا في شعبة الآداب والعلوم الإسلامية ١٩٩٥م.
- ليسانس في التاريخ - جامعة الجزائر جوان ١٩٩٩م.
- ماجستير في الثقافة الشعبية - جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان جوان ٢٠٠٢م.
- دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة الجيلالي لباسي سيدي بلعباس - جوان ٢٠٠٨م
- عضو في اتحاد المؤرخين الجزائريين منذ سنة ٢٠٠١م.
- عضو في المجلس العلمي لمعهد العلوم الإنسانية والاجتماعية.

أكابر العلماء وأفاضل الأقباء شديد الشكبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وأثبتته ابن مريم في البستان بقوله: "خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر أحد أذكيا العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم". جاء محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى تمنطيط عام ٨٨٢هـ/٤٧٧م، وكان المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتمنطيط مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام ثم اتصل بحكام الهوسنة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له محاورات مع الحاج محمد الاسيقا حاكم سغاي، كما كان للمغيلي مواقف الحادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام باليهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية، يقول عنه بابا حيدة صاحب (القول البسيط في أخبار تمنطيط)، يقول: "...وهو مشهور بالعلوم الظاهرة والولاية الباطنة، فهو آية الله في أرضه وحجته في شريعته..."، وقد مدحه العلامة جلال الدين السيوطي بسجع نذكر منه "رأيت شيخاً في الزمان هو المغيلي التلمساني، ليس له شبهة في البلدان فيعلم التفسير والقرآن وعلم النحو والمعان، وعلم البديع والبيان، وعلم المنطق والبرهان".

ينظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م، ص ٢٦٦.

محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق وتقديم راجع بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٦٨م، ص ١٦ وما بعدها. وراجع أيضاً:

Bargés (L'abbé), complément de l'histoire des Beni zeïyan, rois de Tlemcen, Paris, 1887, p.389.

28 مختار حساني، مرجع سابق، ص ٦٨..

29 هذا المخطوط قام بدراسته وتحقيقه الدكتور عبد القادر زبادية في كتابه الموسوم ب: دراسة حول أسئلة الأساقيا وأجوبة المغيلي الجزائر ١٩٧٤م. وانظر أيضاً: مبروك مقدم، أجوبة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للأمير الحاج محمد بن أبي بكر أسقيا الكبير، ج ٢، دار الغرب وهران الجزائر، ٢٠٠٢م.

30 محمد باي بلعالم، قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمأثر، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٤م، ص ٣٣٨.

31 المرجع نفسه والصفحة نفسها.

32 عبد الكريم عوفي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

33 حسب الحوار الذي دار بيننا وبين القائم على هذه الخزنة السيد بن مالك عبد الكريم فقد ذكر أن الخزنة قد تضررت بالأمطار الغزيرة سنة ١٩٦٥م لأن أغلب البنائات طوبية مبنية من (الطين) لا تقاوم شدة سقوط الأمطار الغزيرة. وكذا الأرضة التي أتت على الكثير من أوراق تلك الكتب الموجودة بالخزنة.

34 يعتبر قصر المنصور من القصور العتيقة بأقبلي، ويرجع تاريخ تأسيسه حسب تقييد زاوية سيدي أبي نعامة إلى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م.

٣٥ أسس قصر أركشاش سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وذلك حسب التقييد السالف الذكر.

36 أثناء زيارتنا لقصر أركشاش بأقبلي بتاريخ: ١١ يناير ٢٠٠٦م الموافق ل ٦ شوال ١٤٢٦هـ أطلعنا إمام المسجد السيد الطالب لمين منصوري على هذا المصحف المحفوظ بطريقة جيدة رغم قدم تاريخ نسخه. والآن قد مضى على نسخه خمسمائة وإثنان وخمسون (٥٥٢) سنة وتراه كأنه كتب في هذا الوقت، ويرتد الكثير من الباحثين والفضوليين للاطلاع عليه من كل مكان، ورغم أنه بقي هذه المدة الطويلة إلا أنه لم يتغير ولم يتلاشى ولم تؤثر فيه حرارة المنطقة فهو معجزة خالدة، وكان القضاء في فترة سابقة يجلبون له الخصماء لها ثبت عندهم من الإعتقاد أن الناس يعظمونه أكثر من أي مكان في هذه الجهات وسمي (تغابوية) بلغة العجم بمعنى قتل بوبا، وسبب ذلك أن رجلاً وجبت عليه اليمين الشرعية وبهجرد الحلف فيه سقط ميتاً.

37 هو الشيخ محمد باي بلعالم من مواليد بلدة (ساهل) بأقبلي سنة ١٩٣٠م، درس على يد والده محمد بن عبد القادر بن محمد وشيوخ كثيرين منهم الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي (ت ١٣٩٩هـ)، وله ما يزيد عن ثلاثين مؤلفاً بين

نظرية جواب يعقوب:

يتردد في الأدب ثلاثة مصطلحات تكاد تستخدم استخدام المترادفات هي: الغزل، والتشبيب، والنسب، جاء في لسان العرب: ^(١) "شِبب بالمرأة، قال فيها الغزل والنسب"، وجاء فيه أيضاً: ^(٢) "نسب بالنساء... شِبب بهن في الشعر وتغزل"، وأما الغزل فعرفه لسان العرب بقوله ^(٣): "الغزل: حديث الفتیان واللّهو مع النساء".

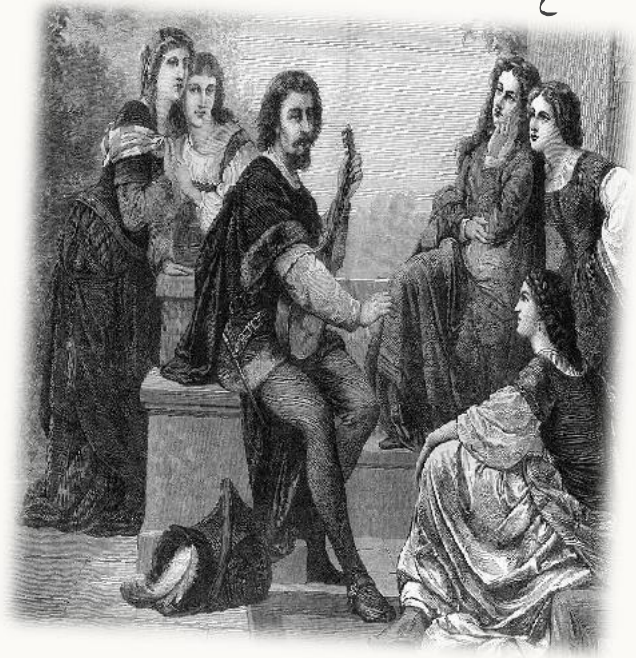
ولكن، هل هذه المصطلحات من المترادفات حقاً؟ وإذا كانت من المترادفات فَلِمَ لجأ الشاعر أو الناقد العربي إلى ابتكار هذه المصطلحات الثلاثة التي كان يستطيع أن يكتفي بواحد منها؟ الحق إن هذه المصطلحات ليست من المترادفات عند الشاعر العربي بل إن كلا منها يدل على معنى مختلف، وإن كان الجامع بينهما هو ذكر النساء، فمصطلح الغزل في أصله اللغوي مشتق من الغزال الذي يقرن قوائمه عند العدو، وأما في حقيقته الاصطلاحية فهو: "ذكر النساء بحديث يتغزلن منه أي يتفتلن منه تقتل أقدام الغزال من أجل تنشيط نفس المتغزل بها حتى يتمكن الشاعر من قضاء حاجته منها ولذلك قيل في المثل: "هو أغزل من امرئ القيس"، وحسبك معلقة امرئ القيس دليلاً على تمكنه من إتقان ذلك الضرب من الحديث الذي يجعل المرأة تغزل أي تتفتل تقتل أقدام الغزال" ^(٤).

أما مصطلح التشبيب فمستعار من (تشبيب النار) وهو إيقادها، وفي الاصطلاح: "هو ذكر النساء بحديث الشوق تشبيهاً لصدور المحارم (أي إشعالها) كما تشب النار، وذلك من أجل تنشيط نفس المشبيب لأجله بالغبط، والمشبب لأجله هم المحارم، أما المرأة فهي المشبيب بها" ^(٥). إذاً، فالغاية "من التشبيب... إغاطة محارم المرأة التي تذكر في أول الشعر، كما كان يفعل وضاح اليمن مع أم البنين إغاطة للوليد بن عبد الملك" ^(٦).

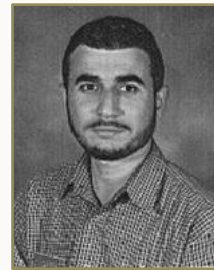
وأما مصطلح النسب، فمشتق من النسب، وهو القرابة، وفي الاصطلاح: "هو ذكر بعض أخبار أنساب الشاعر من النساء (أي أقاربه) من غير مطمع في قضاء حاجته منهن وذلك من أجل التنفيس عن تحزن النفس، والتحزن: "هو انقباض النفس كما تنقبض الأرض الحزن أي الغليظة" ^(٧)، إذاً فالنسب "ضد الغزل" ^(٨)، ومثال ذلك مقدمة النسب في معلقة زهير بن أبي سلمى.

فإذا جئنا إلى شعر العذريين ثم أردنا أن ندرجه في أحد الأصناف الثلاثة السابقة استحال علينا ذلك، فمجنون ليلي لم يكن يذكر ليلي حتى يشب (يشعل) صدور محارم ليلي، وإن كان قد غاظهم أن يذكر قيس ليلي، لكن قيساً لم يكن يقصد إلى ذلك كما كان يقصد وضاح اليمن عند ذكره لأم البنين إغاطة لزوجها الوليد بن عبد الملك.

ولم يكن المجنون أيضاً يقصد ذكر ليلي لكونها إحدى أنسابه (أي أقاربه) من أجل أن ينفس عن تحزن نفسه كما فعل زهير عند ذكر زوجته أم أوفى. ولم يكن المجنون كذلك يذكر ليلي حتى تغزل (أي تتفتل تقتل أقدام الغزال عند غدوه) فتتنشط نفسها فيتمكن من قضاء حاجته منها، ولذا نجد عند التحقيق أن تسمية شعر العذريين بالغزل العذري تسمية فيها تجاوز، وأدق من ذلك أن يسمى بالشعر العذري، وكذلك نجد أن تقسيم الغزل إلى قسمين حسي وعذري قسمة غير دقيقة، فالغزل مصطلح دال بنفسه على الوصف الحسي الذي يدفع المُتَغَزِّلُ بها إلى أن تتفتل في جلستها وحركاتها.



جواب يعقوب والعذراء المزيفة نظرية في المنسأ



أصيل الصيف الأصولي

ماجستير في الأدب العربي ونقد
أربد - المملكة الأردنية الهاشمية



ahmad1haza@gmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أصيل الصيف الأصولي، جواب يعقوب والعذراء المزيفة: نظريتان في المنشأ - دورية كان التاريخية - العدد التاسع؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ٤٨ - ٥٢.

(www.historicalkan.co.nr)



"الحب البلاطي" أو "حب القصور"، وعند مريم البغدادي "أدب المجاملة" (١٣)، وأما عمر شخاشيرو مترجم كتاب "الحب والغرب"، فآثر استخدام اللفظ الفرنسي الدال على الصفة فسماه "الحب الكورتوازي" (١٤).

إن الترجمة اللفظية لكلمة (كورتلي) هي (البلاطي) والمقصود بلاط القصر، وهو استخدام مجازي علاقته المحلية حيث ذكر المحل وأراد الحال وهو الحاكم الذي يكون في القصر، أما الترجمة اللفظية لكلمة (لف) فهي (حب) فتصير الترجمة اللفظية للمصطلح هي (الحب البلاطي) وهذا المصطلح بهذه الصياغة وإن كان صحيحاً في الترجمة اللفظية إلا أنه غير صحيح في الترجمة السياقية، وهذا هو السبب في كون المصطلح غير مفهوم فهماً دقيقاً عند القارئ العربي، لكن هذا الفهم سيزداد وضوحاً عند القارئ العربي عندما يترجم المصطلح ترجمة تراعي السياق اللغوي الحضاري العربي، ذلك أن اللغة العربية استخدمت كلمة (الحب) للدلالة على تلك المودة التي تكون بين رجل وامرأة، أو بين رجلين من غير ربية أو امرأتين كذلك، لكن العرب عندما أرادوا أن يعبروا عن التبعة السياسية من رجل لآخر استخدموا كلمة أخرى بعيدة عن كلمة (الحب) لقد استخدموا كلمة (الموالة) فقالوا "فلان مولى فلان"، أي تابع له سياسياً أو قلبياً أو خدماً (أي أن يكون خادماً له)، ومن ثم نجد أننا عندما نترجم مصطلح (كورتلي لف) ترجمة تراعي السياق اللغوي الحضاري العربي فإننا سنترجمه بمصطلح (موالة البلاط).

ومن ثم يأتي السؤال المهم، وهو ماذا يقابل شعر (موالة البلاط) من أغراض الشعر العربي؟ هل يقابل الغزل العذري؟ يقينا لا، فالغزل العذري لا يحمل أي دلالة من دلالات الموالة السياسية، إذ، فما هو الغرض الشعري الذي يحمل دلالة الموالة السياسية؟ إنه شعر المديح، وهو ما يتجلى بصورة واضحة في العصر الأموي حيث ظهرت الأحزاب السياسية، وظهر معها شعر الموالة السياسية لهذه الأحزاب. وبعد، فإننا نأتي إلى السؤال الأهم، وهو لماذا لجأ الشعراء العرب إلى الثناء على شخص الأمير نفسه في شعر المديح، بينما لجأ الشعراء المطربون (التروبادور) في جنوب فرنسا إلى الثناء على زوجات الأمراء بدلاً من الثناء على الأمراء أنفسهم؟ هل كان هذا تغنياً بالعفة، أم هل كان الأمير الزوج ديوئاً لا يبار على زوجته؟

الحق إن الأمر لم يكن تغنياً بالعفة؟ ولا قلة غيرة من الزوج، وإنما كان مكيدة صاغها الأمير الزوج ليخدع بها الناس مستغلاً في ذلك زوجته (العفيفة)، ومستأجراً في سبيل ذلك شعراء متكسبين، فإذا تجاوز الشاعر حده، وأتى بما يستجلب الريبة عوقب إذ "تؤكد بعض الدلائل أن مبالغة الشاعر في تصوير عواطفه تجاه السيدة قد تدفع بالفارس (الزوج) إلى الريبة، ومن ثم إلى الانتقام بالتروبادوري برنارد الذي أحب زوجة كونت فانتادورن نفي إلى نورمانديا من جراء الريبة بأن الحب يقتصر على الشعر فحسب، وقطع لسان أحد الشعراء التروبادور من جراء الريبة في عفة العلاقة بين الزوجة والشاعر أيضاً" (١٥).

ونرجع إلى سؤالنا، لم كان ثناء الشعراء المطربين (التروبادور) على زوجات الأمراء، لا على الأمراء أنفسهم؟ الجواب على ذلك يكمن في الوعي الفكري للشعوب، إذ كلما زاد الوعي الفكري للشعوب توجه الشعر وهو أحد أدوات الإعلام بل هو أقوى أدوات الإعلام القديمة توجه إلى التركيز على شخص الأمير من أجل إعلاء صورته عند الناس

إذاً، فالغرض من ذكر المرأة في الشعر متعدد فهو: إما للغزل وإما للتشبيب وإما للنسيب، وإما لغرض آخر، وهو ما قصد إليه الشعراء العذريون، فما الغرض الذي قصد إليه هؤلاء الشعراء؟ إنهم كانوا يشكون بثهم وحزنهم بصوت مسموع، وهي شكاة لم ينج بسبها من عدل الناس، وما أشبه حالهم في شكواهم المسموعة مع العاذلين بحال يعقوب عليه السلام الذي لامه أهله لكثرة ذكره يوسف عليه السلام فأجابهم: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" (١٦).

وكذلك كانت غاية الشعر العذري لقد كان أصحابه يشكون بثهم وحزنهم، وما أجمل ذلك النظم إذا ما رتل بصوت ندي، ذلك النظم الذي قصه علينا رب العالمين لذلك المشهد المؤثر بين يعقوب عليه السلام مع أهله في شأن بكائه على يوسف عليه السلام، قال تعالى: "وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما تعلمون" (١٧).

لقد كان الوصول إلى المحبوبة هو الغاية الكبرى التي سعى إليها الشعراء العذريون تلك الغاية التي إذا ما أدركوها فقد تحققت أمنياتهم، وهذا أمر جلي في سبر هؤلاء العشاق، فما كانت معاناة قيس بن الملوح إلا أنه منع الزواج من ليلى، ولو تزوجها لكانت تلك هي غايته الكبرى. وما كان جميل وكثير ليمتنعاً أيضاً عن الزواج بمن أحبا لو تمكنا من ذلك، وما كانت معاناة قيس بن ذريح إلا أنه طلق لبنى على إلحاح من أمه عليه.

نظرية العذراء المزيفة:

ظهر في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شعر وصف بأنه يمجد المرأة تمجيداً عفيفاً، وقد كان ظهوره في ذلك الحين حدثاً غريباً إذ إن الرقة التي ظهرت في ذلك الشعر تخالف واقع الحال الذي كانت الغلظة والقسوة هما شعاره. وقد عرف هذا الشعر بشعر "التروبادور"، وأطلق عليه بالفرنسية "أمور كورتوا" وترجم إلى الإنجليزية بـ "كورتلي لف".

وممكن فهم حقيقة هذا الشعر هو في فهم المصطلحين، فكلمة "تروبادور" مشتقة من الكلمة العربية "طرب" مع بعض التحريف وأضيف إليها المقطع اللاتيني "دور" الدال على اسم الفاعل (١٨)، إذا فمصطلح "شعر التروبادور" معناه في العربية هو "شعر المطربين"، وإنما سمي بذلك لأن منشديه كانوا يغنون هذا الشعر مصاحباً للموسيقى والحركات الراقصة، ومثل هذه الاستعارة اللغوية ما استعاره الأوروبيون من أسماء عدد من الآلات الموسيقية مثل "العود" الذي صار يلفظ "لوت"، و"القيثارة" التي صارت تلفظ "جيتار" (١٩).

أما المصطلح الآخر، وهو بالفرنسية "أمور كورتوا" وبالإنجليزية "كورتلي لف" فقد تعددت ترجماته إلى العربية فهو "عند يوسف خليف" "أدب الفرسان" وعند سهرير القلماوي ومحمود مكي "الحب الفروسي" وعند محمد غنيمي هلال "فن الحب العف" وعند عبد الواحد لؤلؤة

توالي العامة هذه العذراء المزيفة ؛ العذراء المزيفة (أي الزوجة) في قبضة زوجها الفارس ؛ إذاً ولاء العامة سيؤول إلى الزوج).
والحق إن اختيار الزوج (الفارس) زوجته لتكون هي العذراء المزيفة -مع رفضنا الأدبي لهذا- كان اختياراً ذكياً ، فالزوجة لا تستطيع أن تقلت من قبضة زوجها لأن الزواج في النصرانية قائم على التأييد ، فلا مجال للهروب من سيطرة الزوج ، بينما لو اختار الزوج الفارس امرأة أخرى لتقوم بهذا الدور ، لم يضمن الفارس أن تغري تلك السلطة التي اكتسبتها عذراؤه المزيفة على الناس بعد أن عمد الشعراء إلى تريبط العلاقة بينها وبينهم تريبطاً عاطفياً دينياً ، لم يضمن أن تغري تلك السلطة العذراء المزيفة فتدفعها إلى التمرد كما حدث مع (جان دارك) ^(١٨) مثلاً.

فالدراسة المتأنية لسيرة "جان دارك" وهي التي لقيت بعذراء أورليانز (اسم المدينة التي حررتها) ، والتي لم يزد عمرها عن ثلاثة عشر عاماً عندما بدأت تنشر أوهاهما الدينية على الناس ، وهو العمر الذي يوافق عمر مريم العذراء عندما حملت بالمسيح عليه السلام تؤكد أنها لم تكن إلا إحدى العذراوات المزيفة ، بل كانت أشهرهن على الإطلاق حتى لقد انطلت هذه الخدعة على الكنيسة الكاثوليكية ، فمحت جان دارك بعد أكثر من ٤٥٠ عاماً لقب "قديسة" ، ثم إن الزعم بأن شارل السابع قد صدقها وأرسل اثنا عشر ألف جندي بقيادة هذه الفتاة الصغيرة أشبه بالحق ولكن الحق أن شارل السابع لم يكن أحق ، بل كان ذكياً عندما نسج عذراء مزيفة ليسيّطر بها على الناس وليوجههم كما يريد ، غير أنها -أي جان دارك- لها أغراها الانتصار الأول حاولت التمرد على سيدها فتخلّى عنها لتقتل بيد أعدائه.

إن خدعة "العذراء المزيفة" ليست بعيدة عن التصديق ، فنحن نعرف خدعاً أخرى ارتكبتها الأمراء والبابا فمن ذلك خدعة "صكوك الغفران" ، التي شكلت فضيحة كبرى في تاريخ الكنيسة البابوية ، حتى كانت من أكبر المنكرات التي أنكرها البروتستانت على الكاثوليك ، ونعرف كذلك خدعة "صورة القبر المقدس" ، إذ قامت الكنيسة برسم صورة للقبر المقدس (قبر المسيح) وقد دنسه المسلمون وذلك لتحريض العوام على القتال ، والطريف في الأمر أنه بحسب العقيدة النصرانية فإن المصلوب قد قام من مغارته التي دُفن فيها بعد ثلاثة أيام ودخل الجحيم ليُعذّب عن خطايا الناس ثم قعد إلى يمين أبيه في السماء منتظراً الناس حتى يحاسبهم يوم الدينونة ، وبقيت المغارة التي دُفن فيها المصلوب فارغة ، أي إنه لا وجود لها سمي بالقبر المقدس في الأرض ، ولا أعنى أرض فلسطين بل كوكب الأرض ، ومع ذلك فقد انطلت هذه الخدعة على العوام ، وذلك لقلّة الوعي الفكري القادر على مناقشة هذه المسألة.

وبعد ، فإن تسمية هذا الشعر بشعر (الحب البلاطي) كما في ترجمته اللفظية لدليل واضح على النزعة السياسية فيه فهو شعر صدر بقرار من بلاط الأمير بحث العامة على الموالة.

وعليه فإننا إذا أردنا تسمية هذا الشعر من جهة علاقة الزوج مع زوجته لسميناه شعر استغلال الزوجة ، وإذا أردنا تسميته من جهة علاقة الشاعر مع الأمير لسميناه شعر التكسب فالولاء السياسي الذي كان يسعى إليه الأمراء كان يقابله رفاه معيشي يحظى به الشعراء في قصور من يعملون لأجلهم ، ولو أردنا تسمية هذا الشعر من جهة علاقة العامة بالأمير لسميناه شعر الموالين للبلاط ، أما إذا أردنا تسميته من جهة علاقة الزوجة العامة لسميناه شعر العذراء المزيفة.

حتى يروونه أنه هو الأمير المثالي الذي يستحق أن يوالى سياسياً ، فهذا هو هدف المديح السياسي الحقيقي ، ولم يكن قط لإرضاء نرجسية الحاكم ، بل كان الأمر دعابة سياسية له .

أما إذا قل الوعي الفكري عند الشعوب فعندئذ يُلجأ إلى التزوير على الشعوب بأن يثنى على مُتعلّق بهذا الأمير بدلا من الثناء على الأمير نفسه ، وهذا ما حدث في بروفنس (جنوب فرنسا) فقد أخذ التزوير على الشعوب منحىً غريباً من نوعه ، إذ لجأ الشعراء المطربون إلى الثناء على زوجات الأمراء من أجل إعلاء صورة الأمير حتى يراه الناس أنه هو الأمير المثالي الذي يستحق أن يوالى سياسياً ، ولكن لماذا الثناء على الزوجات؟ هذا هو السؤال المهم .

لقد استغل الأمراء سلطة الإعجاب التي كانت تحظى بها مريم العذراء عليها السلام عند الناس ، ذلك الإعجاب الذي وصل حد العبادة ، فعمد الأمراء إلى خدعة ماهرة ، إذ قاموا فقربوا إليهم الشعراء وهو أدوات الإعلام القوي في ذلك العصر ، من أجل أن يُثنوا في أشعارهم على زوجات الأمراء ، ثم يخرجون إلى الأسواق فيغنون ذلك الشعر للعامة ليجلب إعجابهم إلى هذه السيدة المُثَنَّى عليها بصفات تشبه صفات مريم العذراء عليها السلام .

إن الشعراء في الحقيقة كانوا ينسجون عذراء مزيفة للعامة لجلب انتباههم وحبهم لها ، ومن ثم الولاء لزوجها ، لأن امرأة تحظى بصفات العذراء المثالية لا شك أن زوجها يحظى بصفات مثالية أيضاً ، فهو لذلك أحق من غيره بأن يوالى سياسياً ، ولما كانت الكنيسة تحرم الطلاق فقد كانت الزوجة بذلك في قبضة زوجها المحكمة .

يذكر إبراهيم ملحم أن "تبعية السيدة لزوجها الفارس ، (كانت) تضفي عليها قدراً من الإجلال ، فقد كان رعايا الزوج يدينون للسيدة بالخضوع ، ويسعون إلى نيل رضاها ، مما مكن المرأة /السيدة من الإفادة في تحسين أوضاعها في المجتمع" ^(١٩) . ويقول أيضاً: "لقد فتح الالتزام الذي يتعهد به الفارس أمام الكنيسة باباً لأخلاق الفروسية التي تضمن حماية المرأة واحترامها ، هكذا ساهمت الكنيسة -دون أن تروم ذلك- في فرض احترام المرأة ، هذا الجانب المشوق استغلته زوجات الفرسان والنبلاء ، فقربن إلى البلاط الشعراء التروبادور... الذين كانوا يطوفون من مكان لآخر... من أجل الموسيقى والغناء ، أو عرض الألعاب المضحكة ويحظون بانجذاب شعبي كبير" ^(٢٠) .

إننا عند تحليل النصين السابقين نجد أن هنالك عدداً من الأطراف فهناك الفارس الزوج والزوجة ، والشعراء ، والعامة ، ونجد أن العلاقة بين هذه الأطراف الأربعة تسير على النحو الآتي: (العامة توالي الفارس الزوج ؛ ومن ثم فالعامة تُجلّ الزوجة احتراماً لزوجها ؛ ثم استغلت الزوجة هذا الإجلال فقربت الشعراء إليها). ولكن من أجل أي شيء؟ هل من أجل تحسين صورة المرأة في المجتمع كما تعمد إلى ذلك جمعيات النساء في زماننا؟ إن هذه النظرة المثالية لعصر الظلام ذلك أكثر مثالية من المدينة الفاضلة .

إن الحقيقة الواضحة - عند التحقيق - أن ما عرف بشعر "موالة البلاط" لم يكن لتحسين صورة المرأة ، ولم تكن المرأة وهي زوج الأمير هي المستغلة (بصيغة اسم الفاعل) بل كانت هي المستغلة (بصيغة اسم المفعول) ، وكان زوجها هو المستغل ، ومن ثم نستطيع أن نعيد ترتيب العلاقة بين الأطراف السابقة على النحو الآتي: (العامة تحترم مريم العذراء ؛ الزوج الفارس يقرب الشعراء من أجل نسج عذراء مزيف ؛ زوجة الفارس هي المرأة النموذج لتمثيل هذا الدور ؛ يُتوقع أن

ثم جاء أندريه لوشايلان (الكاهن) في القرن الرابع عشر فاستعار مصطلح (مجالس الحب) من مصطلح سياسي إلى مصطلح وعظي مستفيداً من الدلالة الصريحة لكلمة الحب التي هي جزء من المصطلح والتي كانت تستخدم استخداماً مجازياً للدلالة على الولاء السياسي فنسخ على السنة نساء ترجع إلى القرن الثاني عشر أحكاماً خلقية فيما ينبغي أن يتصف به المحبون من أخلاق وهي أحكام كُنْ يصدرنها في صورة محاكمات تجمع بين السيدة القاضية والمدعي والمدعى عليه سواء أكانوا رجالاً أو نساءً. وكانت الغاية من جعل هذه المحاكمات على السنة النساء هي إضفاء الطرافة على هذه الأحكام لجذب الناس.

وأندريه لوشايلان مؤلف "لا نعرف عنه الشيء الكثير" (٢٦)، إلا أن الجزء الثاني من الاسم وهو "لوشايلان" اسم يحمل إحدى دالتين فهو إما "كاهن"، وإما "أمير" (٢٧)، وهذا اللقب يشبه في العربية لقب "الشيخ" الذي يحمل دلالة دينية بمعنى "عالم الدين" ويحمل دلالة سياسية بمعنى "رئيس دولة، أو رئيس قبيلة"، وهو لقب يدل في أصل معناه على معنى "الرجل كبير السن" واعتقد أن اللقب "لوشايلان" لا يختلف في دلالته اللغوية والمجازية عن الكلمة العربية التي هي "الشيخ".

وقد أهدى المؤلف الكتاب إلى شخصية تدعى "جوتيه" وهي شخصية غير معروفة أيضاً، إذ يمكن أن يكون هذا المرسل إليه "نبيلاً شاباً" (٢٨). ويمكن "ألا يكون سوى مرسل إليه وهمي" (٢٩)، وهذا هو الراجح لأن الكتاب في حقيقته كتاب تعليمي وعظي، ذلك أن من يطالع فصل "قانون الحب" يشعر أن أندريه لوشايلان لم يكن سوى كاهن أراد أن يصنع كتاباً تعليمياً للناس يعظهم فيه، يقول لوشايلان أي (الكاهن): "عليه ألا يكفر في كلامه بالله أو القديسين، كما عليه أن يبدو متواضعاً مع الجميع، ومستعداً لخدمة كل الناس، وعليه ألا يحتقر إنساناً في كلامه... وعليه ألا يطري الأشرار الخيلاء... وعليه ألا يتفوه ضد رجال الكليرك أو رهبان الله أو ضد أي شخص ذي بيت ديني..." (٣٠).

أما أحكام الحب وقواعده فهي لا تخرج في حقيقتها عن قواعد تعليمية وعظمية تشتهر على السنة كثير من الوعاظ، لم يزد عمل لوشايلان (الكاهن) فيها عن جمعها فهو يقول في هذه القواعد: "تجنب البخل ومارس الكرم، تحاشى الكذب دائماً، لا تكن ناماً، لا شقة أسرار الأصدقاء، لا تبحث عن الحب عند امرأة ستشعر بالعار إن تزوجتها..." الخ (٣١).

وبعد فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أنه لا علاقة بين شعر المطربين (التروبادور) الذي قام على أساس نظرية العذراء المزيفة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبين مجالس الحب التي نسجها لوشايلان (الكاهن) في القرن الرابع عشر لغرض وعظي بعد أن كان قد استعار المصطلح من دلالته السياسية التي كانت تعني مجلس المحبين للملك، أي المواليين له.

إن الخاسر الكبير في هذه الخدعة هم الناس ذلك أن الأمير ربح ولاء الناس السياسي، والشاعر كسب المال والحظوة في القصر، والسيدة وإن كانت هي الطرف الضعيف إلا إنها كسبت الشهرة، أما الناس فقد خدعوا فهم الخاسر الكبير.

كتاب "فن الحب":

يرجع كتاب "فن الحب" إلى القرن الرابع عشر... يحتوي بين (صفحاته) بعض "محاكمات حب" صادرة من سيدات عظيمات في نهاية القرن الثاني عشر (١٩)، ويعد هذا المصدر "المصدر الوحيد لأخبار العصر المتعلقة" (٢٠)، بهذه المسألة أعني مسألة محاكمات الحب أو مجالس الحب.

أما "محاكمات الحب" فهي محاكمات نسائية حيث كانت السيدة الرئيسة تدعو عدداً كبيراً من النساء، قد يصل إلى ستين سيدة للاجتماع للنظر في مسائل الخلاف بين المحبين، وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (٢١).

غير أن هذه المحاكمات كانت موضع رفض عند كثير من النقاد، فقد أكد فرديريك ديز وهو أديب ألماني ومؤسس علم اللغات الروماني منذ عام ١٨٢٥م في كتابه "محاولة عن مجالس الحب"، أنه "لا شيء يثبت أنه كانت هناك محاكم نسائية حقيقية" (٢٢)، وذهب فاليه دي فيريفل الذي كان قديماً للمحفوظات في الأوب، ثم أستاذاً في مدرسة دي شارل سنة ١٨٥٣م في باريس إلى أنه "ليس هنالك نص تاريخي يدعم النتائج التي تقدمت على هذه المحاكمات المزعومة" (٢٣) أما لويس باسي وهو سياسي كان قد درس هذه المسألة سنة ١٨٥٨ فقد "نفى الأنظمة المزعومة للمحاكمات العاطفية في العصور الوسطى، شأنها شأن الأساطير" (٢٤).

وبعد، فما منشأ "مجالس الحب" هذه؟ وما حقيقتها؟ الحق إن منشأها كان سياسياً لا غرامياً، إذ نجد أن "تعبير (مجلس الحب) نفسه لا يوجد - في الحقيقة - في أي نص من نصوص العصر الوسيط... بمفهوم العدالة أو القضاء الذي كانت النساء تجعله أحكاماً حقيقية على الخصومات التي تحدث بين المحبين، وعندما يصادف الهرء اصطلاح "مجلس الحب" في معرض الكلام على الملك آرثر (في القرن السادس الميلادي) على سبيل المثال يجد أنه يشير فقط إلى مجالس السيدات اللامعات والفرسان الذين كانوا يعيشون في قصر "ملك الحب"، وفي كل مركز مشابه (كتلك المجالس التي كانت) في بلاط الملك لويس الرابع عشر في قصر فرساي (٢٥).

إن مصطلح "ملك الحب" لا يختلف عند التحقيق عن قولنا "ملك القلوب" وهو من الألقاب التي يطلقها المتزلفون للملوك طمعاً في المال والمكانة، وكذلك لا يختلف مصطلح "مجلس الحب" عن قولنا "مجلس الولاء"، وهو مجلس لا يحظى (بشرف) الدخول إليه إلا من ثبت ولاؤه لملك الحب (ملك القلوب) وهو مجلس كانت تجتمع فيه السيدات والفرسان. وأقدم مجلس حب أي ولاء وصلنا يرجع إلى القرن السادس الميلادي حيث كان يُعقد في بلاط الملك آرثر، ثم بقيت هذه المجالس تُعقد في أوروبا إلى زمن متأخر يصل إلى القرن الثامن عشر، وفي مجالس الحب هذه التي تعني مجالس الولاء للملك كانت تُعقد محاكمات حب للفرسان أي محاكمات إثبات الولاء للملك أو نفي ذلك الولاء، فهي محاكمات ذات صبغة سياسية صرفة.

حديث اللطائف عن الكنافة والقطائف



بقلم

محمد ممدوح فايق

يتغير الزمان ويتبدل المكان وتتوالى شهور رمضان ولا يختلف كنفاني شوارعنا القديمة عن الصورة التي أبدعها الرسام كونتية إبان الحملة الفرنسية على مصر صحيح أن الميكنة صارت لها الغلبة وأن الطابع الآلي أصبح ضروريا لتلبية الطلب الشعبي المتزايد على الكنافة في رمضان إلا أن الكنفاني الموسمي مازال محتفظاً بأدائه الراقص أمام صينيته النحاسية الدائرية وموقفه الغسطنائي المبني من الطوب.

الثابت تاريخياً أن العرب عرفوا الكنافة مع بدايات الدولة الإسلامية وقيل أن معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية وأول خليفة أموي هو أول من اتخذها طعاماً بين العرب وذلك إبان ولايته على الشام في ظل حكم الخليفة الراشد الرابع على بن أبي طالب، حيث شكى معاوية لطبيبه من إحساسه الدائم بالجوع أثناء الصيام فنصحته الطبيب بأكل الكنافة قبل السحور ومنذ ذلك الوقت برع سكان دمشق في صنع الكنافة والتفنن في حشوها حتى انتشرت في سائر الأقطار الإسلامية وفي مقدمتها مصر المحروسة.

الطريف أن ديوان الشعر العربي مازال يحتفظ بمئات الأبيات لشعراء تغزلوا في الكنافة، ومن هؤلاء الشعراء (صدق أو لا تصدق) الإمام البوصيري صاحب قصيدة البردة والذي ألف كتاباً كاملاً بعنوان منهل اللطائف في ذكر الكنافة والقطائف.

ومن بين الشعراء الذين شذوا بالكنافة "أبو الحسن الجزار" الشاعر الشعبي المصري الذي قال: سقى الله أكناف الكنافة بالقطر، وجاد عليها سكر دائم الدر، وتبا لأوقات المخلل إنها، تمر بلا نفع و تحسب من عمري. وقال أحد الشعراء عن القطائف: هات القطائف لي هنا، فالصوم حبيبنا لنا، قد كان يأكلها أبي و أخي وأكرهها أنا، لكنني مذ ذقتها، ذقت السعادة والمنى.

الهوامش:

- ١ - ابن منظور: لسان العرب ، مادة (شيب).
- ٢ - المرجع نفسه ، مادة (نسب).
- ٣ - المرجع نفسه ، مادة (غزل).
- ٤ - أصيل الصيف الأصولي: علم أصول معاني الألفاظ ومجازها: سبيل متعة المعرفة الموصل إلى إدراك المجازات المنسية ، دار الراتب - عمان ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م ، ص ١٣٧.
- ٥ - المرجع نفسه ، ص ١٣٨.
- ٦ - نفسه.
- ٧ - المرجع نفسه ، ص ١٣٩.
- ٨ - نفسه.
- ٩ - سورة يوسف ، آية ٨٦.
- ١٠ - سورة يوسف ، الآيات ٨٤-٨٦.
- ١١ - مريم البغدادي: شعراء التروبادور ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م ، ص ١٨.
- ١٢ - المرجع نفسه ، ص ١٨.
- ١٣ - إبراهيم احمد ملحم: نظرية الحب عند الشعراء التروبادور ، وأثرها في دراسة شعر الغزل الأموي ، مجلة عالم الفكر م ٢٩/١٤ ، يوليو/ سبتمبر ٢٠٠٠ ، ص ٢١٢. وانظر كتاب "شعرنا القديم والنقد الأجنبي..." د. إبراهيم احمد ملحم ، دار الكندي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م.
- ١٤ - المرجع نفسه ، ص ٢١٢.
- ١٥ - المرجع نفسه ، ص ٢١٦.
- ١٦ - المرجع نفسه ، ص ٢١٥.
- ١٧ - نفسه.
- ١٨ - جان دارك: (كما في السيرة الشعبية) ولدت عام ١٤١٢م شمال شرق فرنسا ، وتوفيت في التاسعة عشرة من عمرها ، بعد أن أحرقت قوات الاحتلال الإنجليزي جسدها حية ، واتهموها بالإلحاد ، ترجع شهرتها إلى نجاحها في رفع حصار الإنجليز عن مدينة "أورليانز" الفرنسية عام ١٤٢٩م ، حيث كان رجال الدين قد اختبروها مدة ثلاثة أسابيع حتى تيقنوا من صدقها ، فوهبها الملك اثنا عشر ألف جندي قادتهم إلى "أورليانز" وتمكنت من الانتصار ، وطرد الإنجليز وعرفت منذ ذلك الحين باسم "عذراء أورليانز" ثم قامت بتتويج الابن البكر للملك على العرش ومنحته لقب شارل السابع لكن "دارك" أخفقت في معركتها التالية قبل أن تصل إلى باريس ، وسقطت عام ١٤٣٠م في أيدي جنود دوق "بورجوني" الخائن ثم باعها إلى الإنجليز بعد أن ألصقوا بها تهمة السحر ، وقدمت إلى محكمة كنسية وحكم عليها بالإلحاد ، وعليه فقد أحرقت عام ١٤٣١م ، وفي عام ١٩٠٩م أي بعد أكثر من (٤٥٠) عاما أعيدت لها نصرانيتها ، ثم لقيت بالقدسية عام (١٩٢٠م) ، (راجع شبكة المعلومات "الانترنت").
- ١٩ - مريم البغدادي: شعراء التروبادور ، ص ٦٤.
- ٢٠ - المرجع نفسه ، ص ٦٦.
- ٢١ - المرجع نفسه ، ص ٦٤-٦٦.
- ٢٢ - المرجع نفسه ، ص ٩٢.
- ٢٣ - نفسه.
- ٢٤ - نفسه.
- ٢٥ - المرجع نفسه ، ص ٥٩.
- ٢٦ - المرجع نفسه ، ص ٦٨.
- ٢٧ - نفسه ، هامش (١).
- ٢٨ - المرجع نفسه ، ص ٦٩.
- ٢٩ - نفسه.
- ٣٠ - المرجع نفسه ، ص ٧٣-٧٤.
- ٣١ - المرجع نفسه ، ص ٧٥-٧٦.

دور ثقافي متميز

قبل أن نتكلم عن المدرسة النورية الكبرى كنموذج لاهتمام نور الدين بالتعليم بوجه عام وإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية بوجه خاص ، نحب أن نقول: إن الدور السياسي الضخم الذي قام به نور الدين محمود لخدمة العالم الإسلامي ولتجميع كلمة الإسلام أمام الزحف الصليبي الاستعماري أمر على درجة كبيرة من الأهمية لا يمكن تجاهله في دراسة تاريخ الحضارة الإسلامية ، وهذا الدور المهم يراه كل من يدرس الحروب الصليبية ، ويدرس تاريخ آل زنكي (٥٢١ هـ - ٥٧٧ هـ) ، وبالذات فترة عماد الدين زنكي (٥٢١ هـ - ٥٤١ هـ) ، وفترة نور الدين محمود زنكي (٥٤١ هـ - ٥٦٩ هـ) ، وأيضاً تاريخ الدولة الأيوبية. وفي واقع الأمر أن نور الدين لم يكن رجلاً عسكرياً فقط ، بل إنه لعب دوراً ثقافياً مهماً للغاية يجب التنبيه إليه عند دراسة الحضارة الإسلامية.

في أواخر القرن الثالث الهجري بدأ الفاطميون يكونون دولة في الشمال الأفريقي ، ثم زحفوا إلى مصر سنة ٣٥٩ هـ ، وهنا وهناك بدءوا ينشرون مذهب الشيعة ، ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفي نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصاراً على بقايا الأتراك المماليك وبدءوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة ٣٣٤ هـ ، وبالتالي عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السني ، وهكذا حقق الشيعة نجاحاً في الشرق والغرب ، وتقهر أمام سلطانهم النفوذ السني.

وجاء حكم السلاجقة ٤٤٧ هـ فبدءوا يعيدون الأمور إلى نصابها ، وقام الوزير السلجوقي الشهير / نظام الملك بدور كبير في إحياء الدراسات السنية ، والقضاء على بقايا التشيع ، وإلى هذا الوزير تنسب المدارس النظامية التي جلس الإمام / أبو حامد الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) يعلم فيه إحداها ، وكان لها نصيب كبير في تنشيط المذهب السني ومقاومة التشيع.

لقد اقتبس نور الدين محمود زنكي هذا الاتجاه من نظام الملك فنشر في مملكته بحلب ودمشق مدارس كتلك التي أنشأها الوزير السلجوقي / نظام الملك ، فكانت بذلك امتداد له ، كما كان امتداداً لأبيه البطل / عماد الدين زنكي في الانتصارات العسكرية التي حققها. ثم جاء صلاح الدين الأيوبي فورث مملكة نور الدين زنكي في الأمرين جميعاً ، وبمعنى آخر حل محله في مقاومة أذعيا حماية الصليب ، كما نقل اتجاهاته الثقافية إلى مصر فأنشأ بها مدارس لخدمة المذهب السني ، امتداداً لمدارس نظام الملك السلجوقية في العراق ، ومدارس نور الدين محمود زنكي في الشام.

ولذلك: فإن الباحث يجد أن نور الدين زنكي فصلاح الدين الأيوبي يمثلان الحلقتين الثانية والثالثة في كل من الصراع العسكري ضد الصليبيين وإحياء الدراسات السنية ، أما الحلقة الأولى في الصراع العسكري فيمثلها عماد الدين زنكي ، وفي إحياء الدراسات السنية يمثلها الوزير / نظام الملك.^(١)

وعليه فإننا نجد أن أي دراسة عن المدارس الإسلامية كإحدى أماكن التربية والتعلم في الحضارة الإسلامية ، يجب أن تعطى اهتماماً كبيراً للدور الذي لعبه كل من: الوزير / نظام الملك ، والبطل / نور الدين محمود زنكي ، والدولة الأيوبية بوجه عام في إنشاء المدارس والاهتمام بها ورعايتها كأهم مؤسسة للتربية ونشر العلم ، وسوف نكتفي في هذه السطور المتواضعة بالكلام عن المدرسة النورية الكبرى

التعليم في عصر نور الدين زنكي

المدرسة النورية الكبرى نموذجاً



قبة المدرسة النورية الكبرى بدمشق

يسري عبد الفني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية والإسلامية
القاهرة - جمهورية مصر العربية

ayusri_a@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

يسري عبد الفني عبد الله ، التعليم في عصر نور الدين زنكي: المدرسة النورية الكبرى كنموذجاً - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠.

ص ٥٣ - ٥٦ . (www.historicalkan.co.nr)



كتبت في حياة نور الدين الذي توفي بعد ذلك بسنتين فقط ، وقد ورد في هذه الكتابة أن نور الدين هو منشؤها ، ويبدو أن النعيمي لم ير هذه الكتابة.^(٩)

الموقع والمساحة

وتقع هذه المدرسة بخط (حي) الخواصين ، وهو الحي الذي يسميه أهل دمشق السورية في الوقت الحاضر (الخياطين) ، وهي في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي ، وتبعد عنه قرابة نصف ميل تقريباً. وقد أسست المدرسة النورية الكبرى على مساحة مقدارها ١٥٠٠ متر مربع تقريباً ، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالي ١٥٠ متراً سلبها جيرانها من الجهة الغربية ، وقد هدم البناء الأصلي ، وتجدد بناؤه ، ولم يبق من البناء القديم إلا الباب والبهو والقبة ومخطط الصحن.^(١٠)

ولكن يلاحظ في البناء الحالي للمدرسة أنه كان إلى حد كبير على أساس البناء القديم. وتقوم مباني المدرسة في جوانب المساحة ، أما الوسط فصحن مربع مساحته ٣٤٠ متراً تقريباً ، نمت به بعض الأشجار ، ويقع في وسطه بحيرة طولها ٧.٨ من الأمتار ، وعرضها ٦.٨ من الأمتار ، يملؤها بالماء مجرى صغير ينساب فيه الماء من صناير (حنفيات) ، ونافورة في الجانب المقابل للباب ، وقد بني هذا المجرى موضع قناة صغيرة كانت تجلب الماء لهذه البحيرة من نهر قنوات أحد أنهار دمشق السبعة.^(١١)

الباب والهمر

وباب المدرسة الحالي هو نفس بابها القديم ، وهو باب ضخمة دقيق الصنع ، وعتبته العليا عبارة عن حجر كبير كتب عليه بطريقة الحفر وبخط الثلث اسم منشئ المدرسة (نور الدين محمود زنكي) ، وتاريخ إنشائها (٥٦٣ هـ) ويؤدي الباب إلى ممر مستطيل ، وفي منتصف الممر مدخل آخر لا باب له ، وهذا الممر يقود إلى صحن المدرسة. والسائر في الممر يجد إلى يمينه ضريح الشيخ / محمد بن دقيق العيد ، المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ، وباب الضريح في الشارع الذي به المدرسة النورية ، وعلى يسار الداخل يقع ضريح نور الدين محمود منشئ المدرسة ، ولهذا الضريح قبة ضخمة عجيبة الصنع ، وهي من نفس طراز القبة الموجودة بالمراستان النوري (المستشفى) الذي أسسه نور الدين لعلاج الناس بالمجان بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الديانة ، وليس في العاصمة السورية دمشق قباب أخرى من ذلك الطراز.

مسكن مدرّس المدرسة

وبعد أن يتجاوز السائر في الممر بمحاذاة ضريح الشيخ / دقيق العيد ، يجد باباً يؤدي إلى حجرة السلم ، ويقوده السلم إلى المسكن الخاص بمدرّس المدرسة ، أو بمعنى آخر كبير مدرّسي المدرسة أو عميدها أو مديرها أو ناظرها ، ولهذا السلم فرع آخر يبدأ من منتصفه ، ويتجه اتجاهاً آخر فيدور حول قاعدة ارتفاعها ٦ أمتار ، ويبدو أنها قاعدة لمئذنة أو منارة (لم نعثر على مادة عنها) ، وينتهي هذا الفرع بالصاعد به إلى سطح المدرسة.

مرافق المدرسة النورية

الإيوان (قاعة المحاضرات):

وهو أهم مكان في المدرسة ، لأنه يرادف التعبير الحديث (قاعة المحاضرات) ، وإيوان المدرسة النورية الكبرى يتسع لحلقة كبيرة للدرس ، فطوله ٨ أمتار ، وليس لهذا الإيوان باب ، وإنما هو مفتوح على

التي أنشأها نور الدين زنكي ، كنموذج أو كمثال لاهتمام نور الدين بالتعليم وإنشاء المعاهد التعليمية.

مدارس نور الدين

نور الدين محمود زنكي هو أول من أنشأ مدرسة في دمشق السورية ، أضف إلى ذلك مدارسه الكثيرة التي كانت منتشرة في مدن سورية وقراها. وقد سجلت كتب التاريخ بعضاً من هذه المدارس ، ففي دمشق أنشأ دار الحديث النورية ، والمدرسة الصلاحية ، ومدرسة الكلاسية ، والمدرسة النورية الصغرى ، ولكن أشهر هذه المدارس المدرسة النورية الكبرى ، وسوف نتحدث عنها كنموذج للمدارس التي أنشأها نور الدين محمود ، وذلك بشيء من التفصيل.^(١٢)

وفي حلب أنشأ المدرسة الحلوية ، والمدرسة العسرونية ، والمدرسة النورية ، والمدرسة الشيببية.^(١٣) وفي حماة أنشأ نور الدين مدرستين ، وفي حمص أنشأ مدرستين أيضاً ، وفي بعلبك اللبنانية أنشأ مدرسة واحدة.^(١٤)

مكانة سامية

أما المدرسة النورية الكبرى فقد زارها الرحالة ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ ، بعد افتتاحها بسنوات قليلة ، وقد وصفها في رحلته وصفاً يدل على مكانتها السامية في تلك الأزمان. فهي من أحسن مدارس الدنيا مظهراً ، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء في حوض وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتجار الأبصار في حسن ذلك المنظر.^(١٥) وقد طافت الأحداث والسنون بهذا المعهد العلمي العظيم ، فغيرت منه وقللت من بهائه ، ولكنه لا يزال يحتفظ بطابع الجلال ، ولا يزال يوحي بأنه كان في عهده قريباً إلى الكمال ، شاملاً كل ما يحتاجه معهد علمي للدراسة العليا ، مزوداً بقسم داخلي مكتمل المرافق والالتزامات.^(١٦)

نور الدين هو المنشئ الحقيقي

وقد ذكر المؤرخ / أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، وابن شداد (محمد بن علي) المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ، أن الذي أنشأ هذا المعهد العلمي (المدرسة النورية الكبرى) هو نور الدين محمود زنكي سنة ٥٦٣ هـ.^(١٧) ولكن النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ ، والذي يعتمد في أغلب ما كتب على ابن شداد ويقتبس منه أكثر مادته ، يختلف معه ، ويقرر أن الذي أنشأ هذه المدرسة هو الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود زنكي.^(١٨)

ولم يذكر النعيمي لنا سبباً واضحاً حدا به إلى هذا الادعاء ، وكل ما يشير إليه هو أن جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته مباشرة في ضريحه بالمدرسة ، وإنما دفن في مكان آخر ، ثم تم نقل الجثمان في عهد ابنه إسماعيل إلى مكانه الحالي بالمدرسة النورية. وفي الواقع أن هذا لا يستدعي أن تكون المدرسة قد أنشأت في عهد إسماعيل ، إذ من اليسير أن تكون المدرسة قد تمت وافتتحت في عهد نور الدين ، ولكن الضريح لم يكن قد أعد بعد ، إذ أنه شيء يلحق بها ، وليس من مرافقها اللازمة لها. ومن أجل هذا كان الضريح دائماً آخر ما يشيد بالمدرسة ، فلما توفي نور الدين في هذه الأثناء دفن في مكان مؤقت حتى أعد الضريح ، ثم نقل إليه الجثمان.

ومما يؤكد لنا أن نور الدين هو الذي بنى هذه المدرسة ، تلك الكتابة التي نقشت على الحجر الضخم الذي يكون العتبة العليا لمدخل المدرسة ، وهذه الكتابة قديمة تاريخها سنة ٥٦٧ هـ ، أي

البابين ، وقد فعل ذلك ليكون البابان دليلاً على أن المساحة الواقعة خلفهما جزء لا يتجزأ من المدرسة النورية الكبرى.^(١٢)

محاضرون في النورية الكبرى

كانت المدرسة النورية الكبرى بدمشق مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام / أبي حنيفة النعمان (رضي الله عنه) ، وعلى هذا خصص للتدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الأحناف ، بالإضافة إلى مشاهير أهل الأدب والعلم ، ونذكر من الذين درسوا في النورية ، ما يلي:

بهاء الدين بن العقادة ، وقد درس بها إلى أن توفي سنة ٥٦٦ هـ. وبرهان الدين مسعود ، وقد درس بها إلى أن توفي سنة ٥٩٩ هـ. والشرف داود ، وقد عمل بها حتى سنة ٦٢٣ هـ ، ثم اعتزل العمل ليتولاه عالم مشهور بالدين والعلم ، وحب أهل العلم واحترامهم له ، ونقصد به: جمال الدين محمود ابن أحمد الحضيبي ، وقد ظل بها إلى أن توفي سنة ٦٣٦ هـ.

ونذكر: صدر الدين إبراهيم الذي درس بالنورية نيابة عن قوام الدين محمد ابن جمال الدين الحضيبي ، وقد ظل صدر الدين يعلم فيها حتى شب قوام الدين ، وأصبحت ثقافته تساعده على تأدية هذا العمل فتولاه ، وظل يؤديه حتى توفي سنة ٦٦٥ هـ. ونذكر: نظام الدين الحضيبي ، وقد تولى بعد أخيه قوام الدين ، وظل يعمل بالنورية ، حتى توفي سنة ٦٩٨ هـ. ونذكر: صدر الدين البصراوي ، وقد درس بالنورية حتى توفي ، سنة ٧٣٧ هـ. وكذلك: عماد الدين بن الطرسوسي ، وقد درس بها حتى توفي سنة ٧٤٨ هـ.^(١٣)

النواقف على النورية الكبرى

كان نور الدين محمود مؤمناً كل الإيمان بأن العلم هو أهم الوسائل للنهوض والتقدم ، لذلك أكثر من بناء المدارس والمعاهد العلمية ، ولكي يضمن لها الاستمرار والاستقلال من أجل أن تؤدي وظيفتها كمؤسسات تربوية تعليمية ، أوقف لها الأوقاف السخية ، كما أنه شجع أهل الثراء على أن يقتدوا به ، ومن أمثلة ذلك الأوقاف التي أوقفها نور الدين محمود على المدرسة النورية الكبرى بدمشق.

سجلت هذه الأوقاف على الحجر الذي يكون العتبة العليا لباب المدرسة النورية ، والكتابة الموجودة على الباب واضحة تماماً. وتقول هذه الوقفية بعد البسملة ، أن الذي أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد / نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر (ضاعف الله ثوابه). وأنه أوقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة / أبي حنيفة النعمان (رضي الله عنه) ، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها ، جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين المستجدين بالورقة خارج باب السلامة ، وكذلك الدار المجاورة لهما.

وكذلك الورقة بعونية الحمى ، وجنية الوزير ، والنصف والرابع من بستان الجوزة بالأرزة ، والأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية ، والمساحة الملاصقة من الشرق ، وكذلك التسعة حقول بداريا. وتختتم الوقفية قائلة: على ما نص وشرط في كتب الوقف رغبة في الأجر والثواب ، ونقدمه بين يديه يوم الحساب ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، وذلك في مدة آخرها شعبان سنة ٥٦٧ هـ. ومعنى الفقرة الأخيرة من وقفية نور الدين على المدرسة النورية ، هو أن هذه الأوقاف تسلم تامة كاملة إلى المدرسة في خلال مدة آخرها شهر شعبان ، سنة ٥٦٧ هـ.

امتداد طوله ، مع سلمين في نهايتي الامتداد يصعد عليهما طلاب المدرسة ، إذ أن الإيوان يرتفع عن الصحن بمرتبة واحدة تقريباً.

المسجد:

يقع الإيوان يمين الصحن بالنسبة للداخل إلى المدرسة ، ويقابله على اليسار المسجد ، والمسجد هو المكان التالي للإيوان في الأهمية ، ولم يكن المسجد خاصاً بالطلاب فقط ، وإنما كان مفتوحاً لكل الناس ، ومن أجل ذلك وضع في أقصى مكان من الإيوان ، حتى لا يتأثر المصلون والعابدون بما قد يثار في حلقة العلم من ضجيج المناقشات والمحاورات ، وللمسجد النورية محراب قديم ، ويتصل هذا المسجد بالصحن بواسطة فتحات ثلاث ذات عقود ولا أبواب لها ، والفتحة الوسطى هي أكبر هذه الفتحات.

استراحة المدرس:

يتصل الجانب الشرقي للمسجد بحجرتين صغيرتين ، لكل منهما باب يوصل إلى المسجد ، وهناك باب داخلي يصل كلا الحجرتين بالأخرى ، وهاتان الحجرتان أعدتا كاستراحة لكبير المعلمين بالمدرسة ، أو يمكن اعتبارها بمثابة مكتب خاص له يستريح فيه بين أوقات المحاضرات ، أو يستقبل فيه أهل العلم والأدب من الذين يترددون على المدرسة أو الذين يحاضرون فيها ، ولا تزالان تستعملان حتى الوقت الحاضر لنفس الغرض ، وذلك بخلاف مسكن كبير المعلمين الذي أعد ليعيش فيه.

مساكن الطلاب:

هذه المساكن مخصصة لطلاب القسم الداخلي ، وهي تنقسم إلى وحدات ، كل وحدة عبارة عن حجرتين ، أحدهما فوق الأخرى ، ويصلهما سلم داخلي ، ولا تزال هذه المساكن تستعمل في نفس الغرض الذي بنيت من أجله ، ويعيش الآن بها طلاب جاءوا من شتى أنحاء سورية من أجل أن يلتحقوا بالمعاهد العلمية المختلفة في العاصمة دمشق.

مسكن خادم المسجد:

يشمل هذا المسكن عدة حجرات ، كما يشمل المرافق الضرورية التي تلزم المسكن ، ومازال هذا المسكن يستخدم لنفس الغرض.

دورات المياه (المراحيض):

وهي لا تزال حتى الوقت الحاضر تستعمل لنفس الغرض الذي بنيت من أجله ، والمياه الجارية ممتدة إليها ، وهي مراحيض وحمامات نظيفة جهزت لاستخدام الطلاب ، والعاملين بالمدرسة.

مساحات مغطاة:

المساحة الأولى: ليست تابعة للمدرسة النورية في الوقت الراهن ، إذ اغتصبها الجيران ، ويعتقد أن هذه المساحة كانت مطبخاً ، وقاعة لتناول الطعام. المساحة الثانية: اغتصبت في نفس الوقت الذي تم فيه اغتصاب المساحة الأولى ، ويعتقد أنها كانت مخزناً للبقول ، ومواد الطعام (كراراً). المساحة الثالثة: وكانت مخصصة لتكون مخزناً عاماً للمدرسة النورية ، تحفظ فيها أدوات التنظيف ، والمصابيح الزائدة عن الحاجة ، والفرش ، وما شابه ذلك ، وهذه المساحة نالها شيء من الإهمال ، مما دفع جيرانها إلى اقتطاعها من المدرسة ، ولكن كبير المعلمين بالنورية تصدى لهم في ذلك الحين ، وحاول منعهم بكل الطرق ، ولكنه فشل في ذلك ، غير أن الرجل لم يفقد الأمل في استرداد هذه المساحة في وقت من الأوقات ، فترك بابي هذا المخزن مكانهما ، على الرغم من الحائط الذي شيد من المغتصبين خلف

حكاية مه التاريخ



يُحكى أن تاجراً تعرض له قطاع الطريق وأخذوا ماله فلجأ إلى المأمون العباسي ليشتكو إليه، وأقام ببابه سنة فلم يؤذن له فارتكب حيلة وصل بها إليه، وهي أنه حضر يوم الجمعة ونادي يا أهل بغداد اشهدوا علي بما أقول، وهو أن لي ما ليس لله، وعندي ما ليس عند الله، ومعني ما لم يخلقه الله، وأحب الفتنة وأكره الحق، وأشهد بما لم أر، وأصلي بغير وضوء.

فلما سمعه الناس حملوه إلى المأمون فقال له: "ما الذي بلغني عنك؟" فقال: صحيح، قال: "فما حملك على هذا؟" قال: قُطع علي وأخذ مالي ولي ببابك سنة لم يؤذن لي، ففعلت ما سمعت لأراك وأبلغك لترد علي مالي، قال: لك ذلك إن فسرت ما قلت، قال: نعم، أما قلولي: إن لي ما ليس لله، فلي زوجة وولد، وليس ذلك لله، وقولي عندي ما ليس عند الله، فعندي الكذب والخديعة، والله بريء من ذلك، وقولي: معي مالم يخلقه الله، فأنا أحفظ القرآن، وهو غير مخلوق، وقولي: أحب الفتنة، فإني أحب المال والولد لقوله تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)، وقولي: أكره الحق، فأنا أكره الموت وهو حق، وقولي: أشهد بما لم أر، فأنا أشهد أن محمداً رسول الله ولم أره، وقولي أصلي بغير وضوء، فإني أصلي على النبي بغير وضوء، فاستحسن المأمون ذلك وعوّضه عن ماله.

- ١ - أحمد شلبي، موسوعة الحضارة الإسلامية، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤ م، ١٤٣/٥، ١٤٥، بتصرف من عندنا.
- ٢ - نراجع: النعمي الدارس فيما في دمشق من المدارس، دمشق، ١٩٤٨ م، ١ / ٩٩، ٣٣١، ٤٠٧، ٤٤٧، ٦٠٦، ٦٤٨.
- ٣ - شمس الدين الذهبي، أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢ م، ٢ / ٧١، ٧٥، وكذلك: ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ حلب، بيروت، ١٣٠٩ هـ، الصفحات على التوالي: ١١٥، ١١٠، ١١١.
- ٤ - ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، مخطوطة محفوظة بجامعة كمبريدج، تحت رقم ١٠١٠٦، ومنها صورة بدار الكتب المصرية، ص ١٦٥، وكذلك: النعمي، الدارس فيما في دمشق من المدارس، دمشق، ١٩٤٨ م، ص ٤٠١.
- ٥ - ابن جبير، رحلة ابن جبير، ليدن، هولندا، ١٩٠٧ م، ص ٢٨٤.
- ٦ - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ١٢٩، بتصرف.
- ٧ - أبو شامة، الروضتين، القاهرة، ١٢٨٧ هـ، ١ / ٢٢٩، وكذلك: ابن شداد، الأعلاني الخطيرة، مخطوطة بمكتبة لاهاي، هولندا، تحت رقم ١٤٦٦، ومنها صورة محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية بالقاهرة، ص ٤٤.
- ٨ - النعمي، الدارس فيما في دمشق من المدارس، دمشق، ١٩٤٨ م، ١ / ٦٠٧.
- ٩ - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ١٣٠، بتصرف بسيط من عندنا.
- ١٠ - أسعد طلس، ذيل ثمار المقاصد، الطبعة الأولى، دمشق، بدون تاريخ، ص ١٥٨.
- ١١ - صلاح الدين المنجد، خطط دمشق، بيروت، ١٩٤٦ م، ص ٣٣ وما بعدها.
- ١٢ - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧ م، ص ١٣٢، ١٣٧، بتصرف من عندنا.
- ١٣ - نراجع لمعرفة أهم مدرسي المدرسة النورية الكبرى: محمد بن علي بن شداد، الأعلاني الخطيرة، مخطوطة محفوظة بمكتبة لاهاي، هولندا، ومنها صورة موجودة بقسم المخطوطات، بدار الكتب المصرية، القاهرة، ص ٤٤، ٤٥، وكذلك: النعمي، الدارس فيما في دمشق من المدارس، دمشق، ١٩٤٨ م، ١ / ٦١٨، ٦١٩.

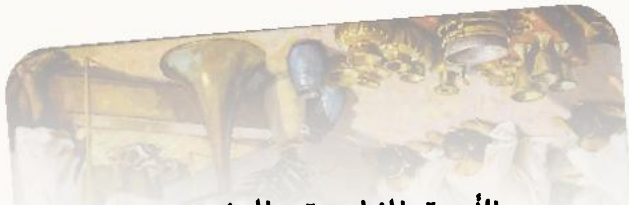
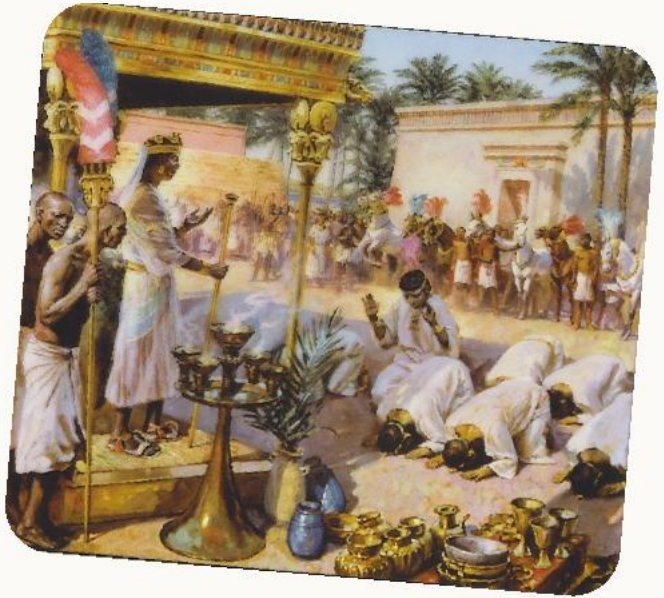
مقدمة

تتناول هذه الدراسة في عجلة نبذة مما عرض له في مجال الحضارة في مصر القديمة وشكل الدولة المصرية في العصر المتأخر ، وخاصة في عصر الأسرة الخامسة والعشرين ، وعرض بعض العلاقات والأنشطة الحضارية التي قامت بين مصر وتلك الأراضي التي تقع إلى الجنوب منها. وتناقش هذه الصفحات مفهوم الدولة عند الأسر الحاكمة المصرية القديمة والفكرة السياسية لدى ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، كما تعرض لجغرافية تلك المناطق وأسماؤها في النصوص المصرية القديمة مع محاولة لرصد النشاط السياسي وغيره للحكومة المصرية القديمة في تلك البقاع عبر العصور بالإضافة إلى محاولة رسم الحدود المصرية كما ذكرتها النصوص الأثرية المصرية ، والإشارة إلى سمات البشر هناك وفي المناطق الإفريقية المجاورة والفرق بينهم وبين المصريين مع التعرض لمفهوم الهوية المصرية لدى المصري القديم.

ثم الانتقال إلى إرساء مصطلح ومفهوم الدولة المصرية وما هي مهمات الحكومة والملك (الفرعون) التي تأخذها على عاتقها تجاه هذه الدولة وشعبها والأرض التي يعيشون عليها. وقام الباحث في ذلك بتتبع مفهوم الدولة عند الأسر الحاكمة المصرية القديمة والأفكار السياسية لدى ملوك الأسرة الخامسة والعشرين. ثم تعرض الباحث للواجبات والمهمات الأساسية التي تلقى على عاتق الفرعون المصري وختاما كيف أن الملوك في الأسرة الخامسة والعشرين أثناء أخذهم بمقاليد السلطة أن كانوا مدركين لأعباء الحكم في ضوء تلك المهمات ، وهي: **أولاً:** تأسيس الدولة على نظام قانوني يسمح باستمرار الدولة سياسيا دون انفصال. **ثانياً:** أن يقوم على استمرار وحدة الدولة السياسية ، وذلك من خلال: (١ - مركزية العاصمة ٢ - صهر قوة أمراء المقاطعات وتسخيرها في تنفيذ إرادة الدولة وسير سياستها داخليا وخارجيا). **ثالثاً:** دور الملك المصري في إقامة العدالة في الشعب وفي النظام الكوني (الماعت).

ويعقب ذلك الحديث عن الأسرة الخامسة والعشرين وأصول تكوينها في بلاد كوش حيث أصل الباحث لفكرة اختلاط المصريين ببلاد الجنوب وتبادل التأثيرات الحضارية والثقافية من خلال عرضه لنشاطات المصريين هناك اقتصاديا: حيث التجارة وطرق المواصلات ، وسياسيا: من خلال وظيفة "حاكم الجنوب" وعسكريا من خلال بعض الألقاب والنشاطات العسكرية لأهل النوبة مع مصر القديمة ، كما تعرض لمجال الديانة في بلاد النوبة من خلال مناقشة تطور وظيفة العابدة الإلهية ، وكيف أثر كل ذلك في النهاية إلى صبح الحضارة والفكر في تلك البقاع بالصبغة المصرية أو على الأقل غلبتها على أية تأثيرات أخرى كان يمكن أن تظهر إلى جانب تلك الصبغة.

ثم تحدثت الدراسة عن الأسرة الخامسة والعشرين ومشروعها الحضاري وكيف أن النشاطات الحضارية والثقافية التي اتخذها ملوكها في سبيل نهضة مصر تحمل في حد ذاتها دلائل على مصريتهم وأصول هويتهم الفكرية والعقائدية بل واتخاذهم نفس مناهج الإصلاح الإداري والديني التي انتهجها ملوك الأسرات المصرية في عصورها السابقة. وعرضنا كنماذج على ذلك: (١) الديانة وإعادة إحياء المذهب المنفي ، (٢) الفن وأمثلة لفنون العصر ، (٣) عقائد الدفن والمعمار الجنائزي والديني. ورأينا في النهاية أن منتجهم الحضاري فيما تعرضنا له من مجالات - أكثرها تميزا الفن - قد جمع ركني المعادلة الصعبة: الهوية في الأصالة والإبداع في المعاصرة.



الأسرة الخامسة والعشرون أصول نشأتها في كوش ودورها في نهضة الدولة المصرية القديمة

أحمد علي توفيق

تمهيدى ماجستير - قسم الآثار والحضارة

شعبة الآثار المصرية - كلية الآداب

جامعة حلوان - جمهورية مصر العربية



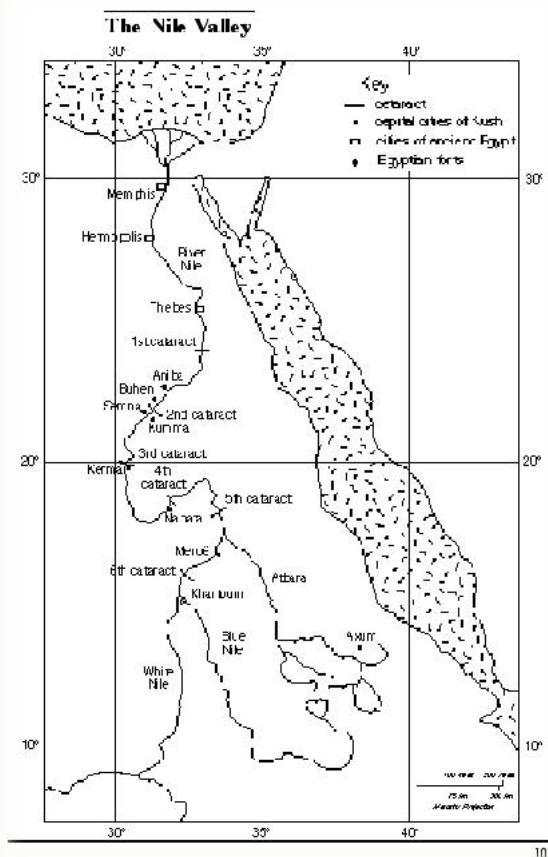
nftr111a@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد علي توفيق ، الأسرة الخامسة والعشرون: أصول نشأتها في كوش ودورها في نهضة الدولة المصرية القديمة - دورية كان التاريخية - العدد التاسع : سبتمبر ٢٠١٠. ص ٥٧ - ٦٤. (www.historicalkan.co.nr)

قدم البحث تحت إشراف الاستاذة الدكتورة عائشة محمود عبد العال ، أستاذ مساعد حضارة وآثار مصر القديمة ، جامعة عين شمس (مارس ٢٠١٠)

- فقر تلك المناطق وارتفاع كلفة احتلالها بالنسبة لما يخرج منها.
- الصعوبة في الانتقال والتواصل معها.^(٦)



أرض الجنوب مسمياتها وأسمائها:

ونورد هنا ما يهمننا في هذا البحث من الأسماء التي أطلقت على تلك البقاع: ف "النوبة العليا": وهي المنطقة التي تمتد من الشلال الثاني إلى ما بعد دنقلة وربما إلى الجنوب. و "النوبة السفلى": هي المنطقة التي تقع إلى الجنوب مباشرة من جمهورية مصر العربية وحتى منطقة الشلال الثاني^(١). إلا أن المنطقة كلها تم إطلاق لفظ (و/وات $W3w3t$)^(١٠) على شمالها ، ولفظ (كوش $K3s$)^(١١) على جنوبها ،

البحث الموضوعي للقضية ، فقد اختلف هذا الشعب في مكوناته الحضارية والثقافية في نواحي عديدة أهمها اللغة والديانة والعادات والتقاليد الاجتماعية عن باقي الشعوب في البقاع الجنوبية الممتدة على ضفاف النيل وحتى الصحراء الإفريقية ، وهو ما سيتضح لنا فيما بعد من تمييز الأسرة الخامسة والعشرين في أصولها العرقية وتقاليدها وحضارتها وثقافتها عن الشعوب الإفريقية التي عرضنا لها فيما سبق .

ثالثاً: الحكومة ودورها في مصر القديمة

الملك المصري وواجباته:

- ١- تأسيس الدولة على نظام قانوني يسمح باستمرار الدولة سياسياً دون انفصال.
- ٢- أن يقوم على استمرار وحدة الدولة السياسية ، وذلك من خلال:
 - مركزية العاصمة.
 - صهر قوة أمراء المقاطعات وتسخيرها في تنفيذ إرادة الدولة وسير سياستها داخليا وخارجيا.
- ٣- إقامة العدالة في الشعب وفي النظام الكوني (الماعت).
لذلك نرى أن من أهم المؤسسات في الحكومة هي "القصر الملكي": حيث أن بلاط الفرعون هو الحكومة بجميع عناصرها^(١٨). وإن كان ذلك الشكل الإداري قد تطور جدا في عصر الدولة الحديثة ، غلا أنه عانى كثيرا حتى دخلت مصر عصر الانتقال الثالث ، ونشبت الصراعات مرة أخرى على أرض مصر بين أمراء الإقطاع والعناصر المهجنة التي اعتلت سدة الحكم. وإذا كان الفرعون هو المسؤول الشرعي والرسمي الذي يعتلي الجهاز التنفيذي للدولة ، فهو رب وحدة القطرين ، وصاحب التاجين ، وهو المسؤول عن إدارة الأمور بما فيه شعبه وبما يحقق الصالح العام. والملك هو حورس ممثل الإله على الأرض ، وهو المسؤول عن نظم عبادة الآلهة وه القائم على تشييد تلك المعابد الكبيرة العظيمة^(١٩).
- وحيثما تتبع ألقاب الملك في عصر الأسرة الخامسة والعشرين نراه قد اتخذ جميع الألقاب المصرية الملكية ، فلا يفتقر عن أي ملك شرعي سبق ملوك هذه الأسرة ، إلا أن الوجهة الدينية لدى حكام هذه الأسرة قد زاد عمقها وثقلها ، إذ أنهم الملوك الكهنة أبناء الكهنة ، أحفاد كهنة الإله (آمون-رع) في طيبة ، وكانوا في نباتا يتخذون من البرقل جبلا مقدساً لهم قام عند سفحه معبد الإله آمون-رع ، بينما اتخذوا من "نباتا" نقطة لانطلاقهم في جهادهم المقدس تجاه الحدود المصرية^(٢٠).

دور الملك المصري

في إقامة العدالة في الشعب وفي النظام الكوني (الماعت):

للأمن مفهوم يعكس الشعور الداخلي بالطمأنينة ، فإدراك الأفراد لأن هناك سلطة أعلى وأقوى تستطيع أن تحافظ على أرواحهم وأموالهم ، وتردع أعداء المجتمع وتقتص منهم ، فهذا يوفر لهم السكينة ويضمن لهم الأمان. أما المجتمع المضطرب أمنه فهو الذي يخفت صوت القانون فيه ، ويهتز فيه النظام وتضعف سلطة الدولة ، فلا تستطيع أن توفر الحماية ولا أن تفرض السلام^(٢١). ولا شك فإن هذه الصورة هي تلخيص جيد لحال الدولة المصرية حينما تنزعز فيها صورة الفرعون المصري ، القائم يارساء قواعد الأمن للبلاد ، ولم تتخلف تلك السُّنة الحضارية في دولة مصر القديمة ، فكلها دخلت البلاد في منحى اللامركزية الحكومية وفقد الفرعون

وهكذا ظهر اسم كوش Cush في وثائق العالم القديم المصرية ، والآشورية والآشورية^(٢٢).

ومنذ أقدم العصور الملكية المصرية كان المصريون يستكشفون ويتصلون بتلك البقاع الجنوبية ، ففي عهد الملك "خع سخم" أطلق المصريون اسم (t3 sty) على البقعة إلى جنوب أسوان وهي التي اتخذت نفس اشتقاق الاسم في التسمية (t3 styw) وهي تسمية حربية تعني في العربية: (أرض الأقواس) ، نسبة إلى الأقواس المستعملة في رمي الشباب والسهم في الحرب ، حيث تميز أهل تلك المناطق بتلك المهارة^(٢٣). في حين تسماوا في عهد سنفر - كما ورد على قائمة بالرمو - باسم Nhsyw^(٢٤).

ويرى الدكتور بكر أن هذا الخلط والاضطراب في التسمية وتحديد المواقع الجغرافية تحديداً ، إنما يعود إلى أن المنطقة كغيرها من مناطق الحضارات القديمة عامة لم تسلم من الهجرات العديدة التي تسببت بدرجة أو بأخرى في تغير عناصر سكانها وذلك مما يدخل في تخصص الدارسين للناحية البشرية^(٢٥).

وختاماً لتلك النقطة نرى أن المصادر المصرية القديمة بشكل عام وفي هذا المبحث بشكل خاص قد تمتعت بالدقة في وضع الأسماء بإزاء المسميات سواء الجغرافية أو الأجناس والشعوب البشرية ، وذلك لما تمتعت به اللغة المصرية من ثبات نسبي ودلالة لغوية منطقية على موضوعات أسمائها ، كذلك لما تمتع به الذين قاموا بتسجيل النقوش والنصوص المصرية من الكهنة والكتبة والعلماء بالدقة والتحري لما ينقلونه ويعبرون عنه في لغتهم ، وهو ما لا نجده إلا في قليل من المصادر التاريخية والأثرية من الحضارات الأخرى التي تناولت تلك المناطق موضوع بحثنا.

ثانياً: التقسيم البشري للشعوب التي سكنت

جنوب حدود الأراضي المصرية

أقامت في الأراضي إلى الجنوب من مصر شعوب وقبائل نيلية صحراوية ، استوطنت منطقة واسعة تمتد جغرافياً إلى الغرب عبر الساحل العشبي حتى بحيرة تشاد. وقد خرج من الكوشيين أقوام تسمى الشعوب التشادية Chadic وهي قبائل سكنت المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد حتى وسط النيجر ، وكانت قد انفصلت عن أصلها الكوشي منذ زمن طويل واکتسبت كذلك سمات مستقلة من خلال انتمائها إلى المجموعات الناطقة باللغات الحامية Hamitic Language Group. أما الزوج فقد عاشوا إلى الجنوب الغربي من موطن الشعوب التشادية^(٢٦).

والأمر كان بالنسبة للحراك الدولي لحضارات البحر المتوسط اتسم في تلك العصور بحركة تغير وانقلاب خلال فترة نهايات القرون قبل ميلاد السيد المسيح وحتى القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان أن تكونت صورة متجزئة للحضارات الإقليمية regional والعرقية في ذلك الحين. وقد ساهم التضعف والانحيار التدريجي الذي أصاب إمبراطوريات وإمارات ذلك العصر وما تلي ذلك من تقطع أوصال هذا النظام العالمي أن نتج عنه صعود أقوام وشعوب ميزتها الملامح الإقليمية في حكمها ودولها التي ظهرت بها على مسرح الأحداث العالمي^(٢٧).

نستخلص مما سبق ومن خلال مرورنا بتلك الرؤية العامة أننا نستطيع الآن تمييز وإدراك الفوارق المميزة للعنصر البشري للشعب المصري ليس فقط في رؤيته لذاته بين الشعوب بل أيضاً من حيث

على كاهله القيام بعدد من الواجبات الأساسية التي لا يتسنى لأحد ما وهو يطمح إلى اعتلاء العرش أن يتصل من القيام بها ، وهي :

١- تأسيس الدولة على نظام قانوني يسمح باستمرار الدولة سياسيا دون انفصال.

٢- أن يقوم على استمرار وحدة الدولة السياسية ، وذلك من خلال :

■ مركزية العاصمة.

■ صهر قوة أمراء المقاطعات وتسخيرها في تنفيذ إرادة الدولة وسير سياستها داخليا وخارجيا.

٣- إقامة العدالة في الشعب وفي النظام الكوني (الماعت).

الأسرة الخامسة والعشرون

وأصول تكونها في بلاد كوش

(١) اختلاط المصريين ببلاد الجنوب وتبادل

التأثيرات الحضارية والثقافية

نوجز هذه النشاطات في عرضها من خلال عدة عناصر حيث نستعرض تلك العلاقات والنشاطات منذ العصور الأولى لتلك المناطق الجنوبية ومصر. فترجع أقدم العلاقات المصرية ببلاد كوش وواوات إلى العصر الحجري الحديث ، حيث تم العثور على عدد من النقوش الصخرية هناك ، ونرى أن التناظر بين بين مظاهر تلك الحضارة واضحا بين كل من الخرطوم والفيوم ، فهي تعد أقدم حضارات مصر في العصر الحجري الحديث ^(٢٤).

التجارة وطرق المواصلات:

إن كانت العلاقات التجارية المتمثلة في طريق القوافل إلى السودان من مصر تعود إلى زمن أبعد بكثير من عصر الدولة الحديثة ، إلا أن بزوغ نباتا حاضرة وعاصمة الكوشيين — يعود إلى عصور متأخرة عن ذلك بكثير ، حيث تمت نسبتها إلى الفرعون تحتمس الثالث ، كما تم اعتبارها الحد الجنوبي لولاية نائب الملك في كوش ، في عهد توت عنخ آمون وذلك لأهميتها الاستراتيجية كذلك. ثم ذكرتها بعد ذلك بعض مصادر الرعامسة حيث اشتهرت باسم نباتا أونباتا ^(٢٥).

وظيفة "حاكم الجنوب":

وقد تعلق بهذا اللقب عدد من المهام السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وقد ظهر هذا اللقب في أواخر عصر الأسرة الخامسة ، وكانت له علاقة بوظيفة "نائب الملك في كوش" والذي من مهامه :

١- حراسة الباب الجنوبي في مصر.

ب- القضاء على الاضطرابات القادمة من تلك الجهات الجنوبية.

ج- تنظيم التبادل التجاري بين حاصلات القارة الإفريقية وحاصلات مصر ، حيث كانت نباتا تقع على طريق القوافل التجارية بين مصر والسودان.

د- التمهيد لوسائل المواصلات لبعثات التعدين والتجارة المصرية ما وراء الشلال الأول.

هـ- كذلك الإشراف على المعادن والتعدين.

وقد أقام حاكم الجنوب في "أسوان" -وهي تعني بالمصرية القديمة "السوق" -وتسميتها t3 sty يعكس لنا عمق العلاقة بين بلاد الجنوب وبين تلك المدينة التي تمثل الحد الجنوبي للدولة المصرية ^(٢٦).

سلطاته الفعلية في حكم زمام الأمور ، وغالبا ما قفز أمراء الأقاليم إلى مقاعد السلطة في أقاليمهم فانفصلوا إما ليتوحدوا في جماعات أو كانوا فرادى ، حينئذ ندرك تماما أننا بإزاء حالة من الفوضى وأنا في عصر انتقال أو اضمحلال ، واستدللنا بذلك كما استدلت الكاتب المصري القديم في تلك العصور على أننا في عصر انتشرت فيه الفوضى واختل ميزان العدالة حيث اضطربت ال "ماعت".

وبناء على ما أسسناه يكون الأمن قد ارتبط كل الارتباط بالجهاز الحكومي القائم وبشخصية الفرعون الحاكم ، وبقدرة كل منهما على الترتيب لحماية نظام الدولة ، وتوفير الأمان للأفراد. بل إن في إطار هذا المنظور وبعد أن انفتحت الإمبراطورية المصرية على العالم اتسعت فكرة "ماعت" لتتوازي مع هذا الاتساع فأصبحت تعبر عن النظام الخلقي للعالم ، واندمج هذا النظام مع حكومة فرعون حتى أصبحا يدلان على معنى واحد ، وقد اعتبر الفرعون أن ال "ماعت" هي الشيء الذي يعتبره الفرعون شخصا يشد من أزره أمام الفوضى والظلم والخداع. وعلى ذلك ، فإن ماعت في معناها الواسع هي مظهر العالم المختار بواسطة الآلهة ، وهي احترام النظام الذي وضعته الآلهة ، وأن من يمنح هذا النظام العالمي هو راعي البشر أجمعين على الأرض ال "فرعون" ^(٢٧).

وإنما جاء ملوك الأسرة الخامسة والعشرين من الجنوب في عصر كهذا معتبرين أنفسهم مقيمي ال "ماعت" المفقودة ، ونرى ذلك منعكسا في لغة خطاب الملك بيعنخي فيما دونه على لوحته بالكرنك ، كما أنهم تطلعوا كما سنرى فيما بعد إلى القيام بعدة نشاطات في سبيل إعادة إحياء البلاد من مواتها عن طريق إعادة بعث الماضي التليد الذي أنجزته في عصور رقيها ونهضتها خاصة عصر الدولة القديمة. بل إن الملك من هذه الأسرة كان يتخذ لنفسه الألقاب الخمسة الملكية للفرعون المصري ولا شك أنهم كانوا الأجدر بمعرفة بروتوكول والآداب الشرعية المصرية في أسلوب تولي الحكم للبلاد خاصة وأنهم أحفاد وأبناء كهنة آمون والذين كانوا في العصر المتأخر هم القائمين بتأليف تلك الأسماء الملكية وإعداد الفرعون لها ^(٢٨).

أما بالنسبة لإقامة عاصمة للبلاد المصرية نرى فيه أن "نباتا" لم تكن إلا نقطة انطلاق ملوك هذه الأسرة ، حيث شاع في ذلك الوقت الحروب الأهلية وتصدي ملوك الأسرة الرابعة والعشرين تحت قيادة "تاف نخت" ليمنع من تقدم ملوك هذه الأسرة. ونرى أن بيعنخي كان صريحا في إظهار نيته في تجديد محل العاصمة المصرية حينما اتجه إلى منف عاصمة البلاد في الدولة القديمة ، لكي يسيطر عليها ، وربما ليعلمها بعد ذلك -عندما يستتب له الأمر بعض الشيء -عاصمة للدولة المصرية. وإن لم يكن الأمر كذلك ، فعلى الأقل كان ملوك الأسرة الخامسة والعشرين يخططون لاتخاذ طيبة عاصمة لهم ويدل على ذلك اتصالهم المباشر بحاكم طيبة "مونتومحات". ولكن كل ذلك لم يكن ليتحقق إلا بعد أن يتم استقرار الوضع في البلاد وأن يثبت زمام الحكم في أيديهم والذي لم يمهله القدر أن يكتمل.

خلاصة القول ؛ أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين قد أثبتوا مما عرضناه من انتباههم للسياسات العامة أثناء تنافسهم على عرش البلاد المصرية ، والبروتوكول الخاص بمن يتطلع إلى حكم البلاد المصرية القديمة ، باعتباره فرعوناً للبلاد أنهم كانت لديهم نفس الدوافع التي يملكها كل من يرى في نفسه أنه الفرعون الشرعي للبلاد ، وأنه يأخذ

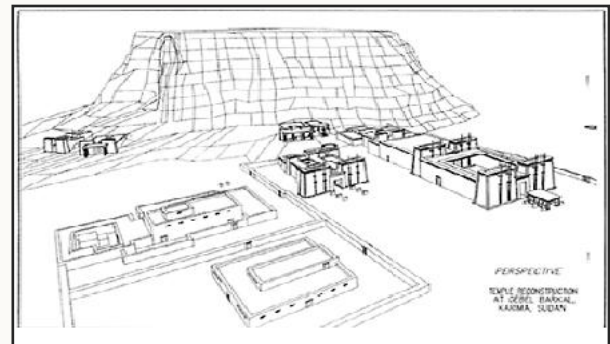
العلاقات العسكرية والحرية:

دخل النوبيون إلى الجيش المصري وامتدت نشاطاتهم فيه منذ أوائل العصور الملكية المصرية. ففي عصر الدولة القديمة اشتهرت بلاد النوبة باسم "t3 styw" أي: أرض الأقواس^(٢٧) وهي كناية عن مهارة النوبيين في استخدامهم الأقواس الحربية والنشاب في الحروب. كذلك في عصر الملك تيتي ويبيي الأول ومرنر في الأسرة السادسة، نرى أن "أوني" حاكم الجنوب قد استعان في تجهيزه لجيش مصر مصري يقوم بمحاربة الآسيويين القادمين من الشرق، بالعديد من الجنود النوبيين الذين أتى بهم من عدد من المدن النوبية: أرثت/ البجا/ أيام/ واوات. أما في عصر الانتقال الأول فنرى في مقبرة أمير أسيوط ما يدل على استعمال الرماة النوبيين في الحروب التي كانت سائدة بين حكام الأقاليم المصريين في ذلك العصر. وقد استمرت تلك الأهمية العسكرية التي تتمثل في القوى البشرية للمحاربين النوبيين تدخل في إطار اهتمام الملك المصري القديم حتى أواخر عهود الدولة الحديثة.^(٢٨)

(٢) الديانة في بلاد النوبة:

شيدت بكل مدينة نوبية معبدا مصريا عظيما، وعبدت بها المعبودات في عهد رمسيس الثاني، كما اتصلت بلاد النوبة بالكرنك مباشرة حيث كان رئيس كهنة آمون-رع حاكما مباشرا للنوبة. كما أنه في نهاية عصر الأسرة الواحد والعشرين شغل كهنة آمون بطيبة وظيفة حاكم النوبة هذه. وقد استمر إقليم الشلالات الجنوبي تحت نفوذ شاشانق الأول وكان رئيس الكهنة الآمونييين في عهد تاكيلوت الثاني قد وهب إلى آمون ذهب النوبة. لذلك نخلص إلى أن حكام طيبة المتمثلين في كهنة آمون ظلوا باسطين نفوذهم واتصالهم المباشر مع النوبة لمدة مائة عام منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم قام الملك المصري (الفرعون) بيسط سلطته على ذلك إقليم الجنوب لما لا يقل من ٢٥٠ عاما.^(٢٩)

وقد عبد أهل تلك البقاع من الكوشيين الآلهة المصرية، كما قبلوا العديد من العادات والتقاليد المصرية، وقد ظهر ذلك في نقوش جدران الكثير من مقابر الأشخاص في غرب طيبة حيث ماظر تقديم الجزية من أهل الجنوب. كذلك نرى نقوش مقبرة "حوي" حاكم الجنوب في عهد توت عنخ آمون حيث فضلوا الشكل الهرمي ف تصويرهم على الجدران، وهو تأثير ديني لاشك أنه قد أتى من مصر.^(٣٠) ونجد لذلك علاقة باتخاذ النوبيين جبلا مقدسا لهم وهو جبل البرقل، حيث أنه اتخذ الشكل لمخروطي واعتقدوا في أن الإله آمون-رع الإله العظيم قد اتخذ مسكنا له. وكانوا قد أطلقوا عليه في القديم اسم "دو-واعب" بالمصرية القديمة وهي تعني الجبل المقدس أو الطاهر.^(٣١)



وجدير بالذكر أن نشير إلى أن النازحين أسلاف الأسرة الخامسة والعشرين - ويحتمل جدا أن يكونوا هم أجداد قادة كوش حكام الأسرة الخامسة والعشرين، حيث نزحوا في عصر حكم الأسرات المهجنة المصرية ولحق بهم من نفاهم الملك شاشانق و الملك ثكرتي الثاني^(٣٢) حيث كانت تستخدم أرض النوبة لبعدها على أنها منفى للعصاة.^(٣٣) وربما يكون قد وجد هؤلاء النازحون ضالهم بالنوبة مشبعة بمظاهر الحضارة المصرية، كما يحتمل أنهم قد وجدوا السبيل إلى النفوذ فيها عن طريق رئاسة الدين وتولي وحي آمون، ثم اشتركوا في رئاستها باعتبارها عاصمة لدولة ذات نظام ثيوقراطي أظهروا فيها عبادتهم للإله آمون-رع ولعقيدة أوزير^(٣٤).

وظيفة العابدة الإلهية:

كانت العابدة الإلهية أو الزوجة الإلهية لآمون من الوظائف التي ابتدعها المصريون منذ بدايات عصور مصر القديمة، ومنذ ذلك الحين ارتبطت بالإله آمون وكهنته، إل أن تلك الوظيفة تطورت في مفهومها ودورها الديني لينسحب على الدور السياسي للحكومة المصرية الملكية في مصر القديمة.

فنحن نرى أن لقب زوجة الإله كما جاء ليبر عن تلك الوظيفة هو hmt Ntr، وقد استمر حتى اتخذته الملكة إمح حتب ومن بعدها الملكة أحمس نفرتاري من أوائل عصر الأسرة الثامنة عشر. وعلى ذلك فقد كانت الزوجة الإلهية يتم اتخاذها من الملكات، وكان لها دور كهنوتي يتمثل في كونها المقابل الملكي للإلهة موت على الأرض. ومن ناحي أخرى كان لها دور إداري في الدولة المصرية فهي القائمة على بيت المال، والحقول الزراعية، وشونات القمح، وقطعان الأغنام، وسفن نقل المحاصيل، وعلى ذلك فقد أصبح للزوجة الإلهية مملكة داخل الدولة حيث اشتركت في تأسيس وإقامة بعض معابد طيبة أيضا. وبلغ من علو شأنها أن احتوى فريق العمل من الموظفين لديها من كان لقب وظيفته "قاضي" بل تطور الأمر إلى أن حصلت على لقب haty (حاتي عا) الذي كان يحمله حاكم المقاطعة^(٣٥).

كذلك من الألقاب التي عبرت عن نفس الوظيفة لقب Drt Ntr ويعني حرفيا "يد الإله" وأول من حملت هذا اللقب هو مريت رع حتشبسوت وقد حملته بعد ذلك بعض الزوجات الإلهيات إلى جانب لقب hmt Ntr، و لقب Dw3t Ntr^(٣٦) الذي كان أهم هذه الألقاب حيث أنه يعكس علو شأن صاحبه وتدخلها في ممارسة الشؤون الملكية للبلاد. وتاريخ ظهوره يرجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشر مقترنا بلقب زوجة الإله ولكنه كان يكتب داخل خرطوش ملكي حيث أن العابدة الإلهية ليست مجرد راهبة الإله آمون وحسب بل إنها تعتلي عرش عرش تفنوت لتتوازي بذلك مع الفرعون الذي اعتلى عرش الحكم في مصر.

وبعكس كل ذلك كيف كانت تمثل ديانة آمون عمقا فكريا وسياسيا للدولة المصرية في عصر الدولة الحديثة والعصر المتأخر ونجاحه في عصور الأسرات من الثانية والعشرين وما بعدها. وكما بلغ الكهنة من علو الشأن وممارسة الأمور السياسية فقد انتقلت إلى أيديهم السلطة السياسية باعتبارهم كهنة آمون من قبل، وانتقلت تلك السلطات بتطور وازدياد دور العابدة الإلهية على يد من تعتلي هذا المنصب. ونمتلك على ذلك أمثلة كثيرة حيث احتلت شبن وبث ابنة الملك كوشتا ذلك المنصب، كما تمتعت بمزايا أكبر من الفرعون ذاته، فتراها على لوحة من مدينة هابو وعليها اسمها واسم والدها

ولكنه لم يُصَوَّر معها ، وقد مُثِّلَتْ واقفة تحرك صنّاجتين أمام ثالثٍ إلهي^(٣٧).

وإذا حاولنا رصد تطور الأحداث التاريخية وتصاعد دور كهنة طيبة على مسرح الأحداث في العصر المتأخر نجد أن الكاهن حريحور من عصر الأسرة الحادية والعشرين عندما اعتلى عرش البلاد فقد دل ذلك على اتساع النفوذ الكهنوتي في طيبة وتعديه المستوى الاقتصادي إلى المستوى السياسي بل وتقلد مسؤوليات منصب الفرعون. تلى ذلك في عهد الأسرة الثانية والعشرين أن استمر الفرعون في تعيين ابنه كبيرا لكهنة طيبة لربط التاج بآمون ، وإن كان في ذلك أيضا تبييت للنسبة من حيث الحد من نفوذ كهنة آمون الآخرين والذين كانوا يتطلعون إلى كذلك إلى السلطة ، ورغم ذلك فقد باءت سياسة اعتلاء ووريث العرش لمنصب كبير الكهنة بالفشل ، إذ أن كهنوت آمون ظل يفرز عائلات من الكهنة حاولت إقامة بعد ذلك اسرات حاكمة توازي في سلطتها الفرع الأكبر القائم في الشمال^(٣٨).

حينئذ اتجه الفرعون المصري إلى وظيفة العابدة الإلهية لآمون لاستغلالها في تحقيق ذلك الهدف ، فقام الفرعون بإعلاء شأن تلك الوظيفة ومن تتولاها ، كي تحد بطبيعة وظيفتها من نفوذ كهنة آمون وتسيطر على تشؤفهم وطموحهم للسلطة. إلا أن العابدات الإلهيات اللئي اتخذن ذلك المنصب لم يحققن للفرعون مراده منهم كما رأينا في عرضنا لتلك الوظيفة وإن كنَّ قد سيطروا بالفعل على مقاليد الأمور في مجتمع كهنة طيبة.

أما بالنسبة للأسرة الخامسة والعشرين في مصر ، فقد استهل بيعنخي حكمه بأن قام بوضع أخته "آمون رديس" في بنوة العابدة الإلهية "شبن وبث" ابنة أوسركون ، وذلك كي تصبح "آمون رديس" بعد ذلك بالتبني وارثة لمنصب العابدة الإلهية لآمون ، وفي تلك الحيلة من السياسة والدهاء ما لا يخفى على بصير ، ويشهد للملك بيعنخي ببعد النظر^(٣٩).

الأسرة الخامسة والعشرون في مصر

كان اتساع مملكة كوش في مطلع القرن الثامن قبل الميلاد يصل إلى ما بعد التقاء النيلين الأزرق والأبيض^(٤٠). وكما رأينا في الفصل السابق كيف أن النشاط المصري شهد انتشارا واسعا في منطقة الجنوب عبر عصور التاريخ المصري القديم ، وكيف ازداد النشاط البشري كذلك منذ عهد الدولة القديمة سواء كان في شكل إقامة الموظفين المصريين التابعين لنائب الملك في كوش وكيف تطور هذا النشاط البشري حتى وصل ذروته في عصر الدولة الحديثة عصر الإمبراطوية فلم يكن الاتساع في الحدود السياسية فقط ، بل إن تعميق اطابع السياسي في وظيفة دينية كهنوتية مثل وظيفة العابدة الإلهية وما ترتب عليه من زيادة العلاقات الدينية والسياسية بين إقليم طيبة وحاكمه ، وبين تلك الوظيفة الدينية وتشابكها مع كيان كهنوتي معبد كبير مثل معبد الكرنك.

كل ذلك يدفعنا إلى التساؤل: هل كان دخول الأسرة الخامسة والعشرين إلى حلبة المنافسة على العرش المصري مستساغا في الضمير السياسي والكهنوتي المصريّين؟ أم أنها مثلت احتلالا للمملكة المصرية تسلل في ظلمة وغفلة من حكام الأسرة الرابعة والعشرين الضعيفة التي استقرت في الشمال وكانت ترزح تحت ليل الشجار والصراع مع حكام الأقاليم؟

منذ بدء نشاط حكام الأسرة الخامسة والعشرين داخل مصر ويظهر لنا كيف تبلورت سياستهم وانتهاجهم لإستراتيجية تعامل مع السياسة داخل مصر مبدأها الأول والرئيسي أنهم "ملوك مصريون حتى النخاع" ولم يكن ذلك من باب الدعاية السياسية في الأساس ، بل إننا باستعراض نشاطاتهم في مشروعاتهم الحضاري سواء السياسية أو العسكرية أو الكهنوتية نجد أنهم كانوا يتصرفون في شؤون الدولة كيفما يترأى لهم ولكن على أساس من الانتماء الوطني المباشر والذي اعتبروه شرعيا يوافق العرف الملكي المصري والكهنوتي باعتبار أنهم كذلك في أصولهم سواء أجدادهم أو أسرهم حيث كانوا مقيمين في كوش أصحاب كهنوت آمون ، وكانت لا تزال تربطهم مع طيبة ومعبد الكرنك روابط وعلاقات صميّة بالوظيفة الكهنوتية هناك أيضا.

دلائل جديدة على أن الأسرة الخامسة والعشرين مصرية في حضارتها وثقافتها:

إذا ما تصفحنا كتب وموسوعات التاريخ الحديثة التي تكتب في المصريات وتاريخ مصر القديمة في العصر المتأخر نجد العديد والعديد من الدلائل الدامغة على الثقافة المصرية التي تمتع بها أصحاب العائلة الحاكمة في كوش ، فقد انتشرت هناك المعابد في منطقة نباتا وعلى سفح البرقل التي يتعبد فيها أهلها للإله آمون - رع ، وكانت الأزياء واللغة المصرية وعادات المعيشة بل وعادات الدفن أيضا - حتى عند حكام تلك المنطقة قبل دخول الأسرة الخامسة والعشرين إلى مصر - كانت مصرية تماما إن لم تكن في الأصل مصرية قد تم تطعيمها بعدد من العادات والتقاليد من الثقافات الجنوبية سواء إفريقية زنجية أو حتى بعض المؤثرات الليبية على رأي بعضهم^(٤١).

وسوف نتغاضى هنا في هذا المقام من البحث عن الاستفاضة في تلك النقطة وإن كان التبحر فيها لدى المتخصصين في تاريخ أفريقيا والسودان القديم سوف يكشف النقاب عن الكثير والكثير من النشاط الحضاري والثقافي للشعبيين الشقيقين المصري والسوداني ، وإن الدلائل الأثرية والحفائر التي خرجت من حفائر مناطق نباتا والبرقل و مروي ، وكل ما جاء فيه ذكر لآواوت أو كوش من تلك المناطق سوف يميّط الثام ويثري المعرفة الإنسانية للمهتمين بذلك الجانب.

١ - الديانة وإعادة إحياء المذهب المنفي:

اعتقد ملوك الأسرة الخامسة والعشرين منذ عهد بيعنخي ودخوله إلى منف ، أنهم نهضوا من كبوة طويلة وحاولوا إحياء تراثها القديم في الفكر والديانة. ومما يحسب لهم في هذا الباب إنجازهم في إعادة صياغة المذهب المنفي على لوحة حجرية صلبة ، جاءتنا من عصر شاباكا حاكت في أسلوبها اللغوي الأسلوب الكلاسيكي القديم ، وكانت النسخة المنفية الأصلية قد أتت عليها الأرضة^(٤٢) وتلك القطعة الرائعة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني^(٤٣).



٢- الفن:

الأهرامات:

أورد أحمد فخري في كتابه عن الأهرامات المصرية أهم مواقع تواجد الأهرامات المصرية في بلاد كوش حيث انتشرت أهراماتهم من منحى النيل بين نباتا - عند الشلال الثالث - وحتى مروي - شمال الشلال السادس^(٥٠). وقد بنيت هذه الأهرام من الحجر الرملي وشيدت ككتلة صماء ، وكان لكثير منها كوة صغيرة في الجزء العلوي منها يحتمل أنه قد حوت كل منها تمثالا للمتوفي مثلما نرى في اللوحات الهرمية التي تعود لعصر الدولة الحديثة.

وكان أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين وهو بيعنخي قد بنى هرمه في منطقة الـ "كورو" حيث ضمت جبانة أفراد أسرته واعتبر هرمه نموذجا لأهرامات تلك الجبانة^(٥١) ، وكذلك أهرام الـ "برقل"^(٥٢) وأهرام "مروي"^(٥٣) . وأهرام "نوري" التي قلدت الأهرام المصرية العظيمة في أسلوب بنائها وكسوتها أيضا ، وبلغ عددها ستين هرمًا أعظمها هرم طهارقا نفسه^(٥٤) .



منطقة أهرامات مروي في السودان الحالية^(٥٥)

وجدير بالذكر أن دفنات الكهنة والفنانين المصريين ، الذين يحتمل أنهم عاصروا بداية الأسرة ، قد وُدت أجسادهم في توايت ذات هيئة بشرية ، وعلى ذلك فلا يدلنا هذا وحسب على مجرد التأثير الظاهري في فكر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين بالعقيدة الهرمية للدفن التي ورثوها من العقيدة الجنازية القديمة في عين شمس و منف ، بل نضف إليه أيضاً وعي هؤلاء وتمسكهم بالفكر العقائدي المصري وممارسة علم الهندسة والمعمار على نفس النهج الذي كان يمارسه أجدادهم وكان يخدم عقائد الدفن والجناز المصرية القديمة تماماً كما كان من قبل ، كما أن تلك العقائد قد ظلت مستمرة منذ عصر الدولة الحديثة^(٥٦) .

الخاتمة

بذلك يتضح لنا الدليل على اعتناق ملوك تلك الأسرة للعقيدة المصرية القديمة ودليل على أصولها الفكرية والدينية والحضارية - وليس فقط الانثروبولوجية - المصرية ، وأنهم تمتعوا بالهوية المصرية الكاملة من خلال ظهورهم في الشكل الرسمي سواء الكهنوتي أو الملكي: وأن ذلك اتضح بجلاء في مشروعاتهم الحضاري لإحياء التراث المصري القديم ومحاولة إتباع منهاج الفكر هاديا لهم في منهج التقدم والتطور الذي كانت تحتاجه البلاد في تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر وفي مجالات عديدة منها اللغة والديانة والعمارة والفن بل وفي النظام السياسي كذلك.

حاكي فنانوا العصر الأساليب الفنية التي انتهجها فنانوا مصر القديمة في عصر الدولة القديمة والوسطى وعصر الرعامسة ، ثم حاولوا بعد ذلك أن يخرجوا من هذه الفنون بأسلوب جديد^(٥٤). وإن كان الباحث يرى في ذلك منهجا رصينا انتهجه هؤلاء الأجداد في إعادة إحياء النهضة المصرية في عصرهم: ملتزمين الهوية المصرية القديمة مستفيدين منها بتحقيق مفهوم "الأصالة" وأنهم لم يتوقفوا عند ذلك بل تشوفوا إلى وضع بصمة عصرهم في إخراج أسلوب جديد يلائمهم ويلائم فكرهم ، بما يحقق مفهوم "المعاصرة" فيكون منتجهم الحضاري في مجال الفن قد جمع ركني المعادلة الصعبة: الهوية في الأصالة والإبداع في المعاصرة.

أمثلة لفنون العصر:

من أمثلة النحت الملكي التي وصلتنا من عصر الأسرة الخامسة والعشرين رأس تمثال للملك شباكا ، و رأسان للملك طهارقا نحى الفنان في تصويرهما منحى الأسلوب الواقعي المشابه لما تخيرته مدرسة طيبة لتمثيل ملوكها في عصر الدولة الوسطى وأيضاً حافظوا على أن يخرجوه بما يناسب عصرهم. فظهر رأس شباكا بوجه متسع وشفتين ممتلئتين وأنف أفطس عريض في حين ظهر وجه طهارقا بعنق غليظ وشفتين ممتلئتين وشعر مفلل^(٥٥) . ونعرض هنا نموذجا لإحدى قطع فن النحت من هذا العصر ، هو رأس تمثال أبو الهول للملك طهارقا ، وهو موجود الآن بالمتحف البريطاني^(٥٦) .

التمثال الجرازي للملك طهارقا في هيئة أبو الهول ، عثر عليه بمعبد كاوا معروض في المتحف البريطاني .
تتألف من موقع المتحف البريطاني :
http://www.egyptarchiv.co.uk/html/british_museum_52.html



٣- عقائد الدفن والمعمار الجنازي والديني:

انتشرت المعابد المصرية في البلاد الجنوبية طالما انتشر المصريون هناك ، وازدادت بطبيعة الحال منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة حيث جمعت بين شعوب تلك الأراضي والدولة المصرية وحدة ثقافية وسياسية ، فالمعابد تبنى في جميع أرجاء السودان إلى ما بعد "شندي" على مقربة من الخرطوم^(٥٧). وكما كانت عبادتهم للإله آمون - رع ، كانت معابده تبنى ويتم نقشها على الطراز المصري القديم^(٥٨) . ويظهر لنا هنا عدة صور لمعبد العمدة Amada ، وهو أقدم معبد للإله آمون في بلاد النوبة قام بتشييده الملك تحتمس الثالث^(٥٩)

- ٣٨) رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة ج ٢، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ١٩٩٣، ص ٢٣٢ - ٢٣٥
- ٣٩) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣١٠
- ٤٠) كولين ماكفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ص ٤٣
- ٤١) توسع في ذكر ذلك عبد العزيز صالح في كتابه مصر والشرق الأدنى (الجزء الأول)
- ٤٢) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣١٦
- ٤٣) حجر شباكا، انظر: http://www.britishmuseum.org/explore/highlights/highlight_objects/aes/t/the_shabako_stone.aspx
- ٤٤) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣١٦
- ٤٥) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣١٦
- ٤٦) رأس تمثال أبو الهول للملك طهارقا <http://en.wikipedia.org/wiki/File:SphinxOfTaharqa.jpg>
- ٤٧) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٤٣
- ٤٨) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٥١
- ٤٩) معبد العمدة، انظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Amada#Temple_interior
- ٥٠) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٤٧
- ٥١) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٤٧ - ٣٤٩
- ٥٢) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٥١ - ٣٥٢
- ٥٣) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٥٦
- ٥٤) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٥٤ - ٣٥٥
- ٥٥) منطقة أهرامات مروى، انظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Meroitic_period
- ٥٦) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣٠٧.

المراجع العربية:

- ١- أحمد فخري، الأهرام المصرية (مترجم)، الأنجلو المصرية، ١٩٩٤.
- ٢- بهاء الدين إبراهيم، الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ١٩٨٦.
- ٣- بهاء الدين إبراهيم، المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.
- ٤- جيمس هنري بريستد، تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى العصر الفارسي (مترجم)، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩.
- ٥- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة ج ٢، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ١٩٩٣.
- ٦- عائشة محمود عبد العال، الملكية الإلهية في العصر المتأخر، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ٢٠٠٤.
- ٧- عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى (الجزء الأول)، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠.
- ٨- كولين ماكفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مترجم)، ١٩٨٧.
- ٩- محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان القديم، نسخة إلكترونية من موقع مكتبة المصطفى على الشبكة الدولية www.al-mostafa.com، بدون تاريخ.
- ١٠- ناصر الأنصاري، المجلد في تاريخ القانون المصري، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨.

المراجع الأجنبية:

- 1- Ann E. Kellebrew, Biblical Peoples and Ethnicity, Society of Biblical Literature, Atlanta, USA, 2005
- 2- Eva Nthoki Mwanika, Ancient Egyptian Identity (an abstract) A thesis submitted to the faculty of Miami University, 2004
- 3- Guthier, Henri. Dictionnaire des Geographiques, Vol.4
- 4- R.O. Faulkner, A Concise Dictionary of Middle Egyptian. (FCD), Oxford, 1964

- ١) ناصر الأنصاري، المجلد في تاريخ القانون المصري، ص ٢٩
- ٢) ناصر الأنصاري، المجلد، ص ٢٩
- ٣) ناصر الأنصاري، المجلد، ص ٢٩
- ٤) Eva Nthoki Mwanika, Ancient Egyptian Identity (an abstract), p. 48, 49 - A thesis submitted to the faculty of Miami University, 2004
- ٥) كولين ماكفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مترجم، ١٩٨٧، ص ٤٣
- ٦) كولين ماكفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ص ٤٣
- ٧) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان القديم، ص ٧
- ٨) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٧ - ٩
- ٩) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٧
- ١٠) FCD, p. 53
- ١١) FCD, p. 284
- ١٢) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٨
- ١٣) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٢٤
- ١٤) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٢٤، وقد أورد جوتييه اللقب "Kh3sout Nehs(i)ou" بمعنى: الأجانب السود الذين يسكنون أقاليم أرض الجنوب Guthier, Henri. Dictionnaire des Geographiques, Vol.4, p.162
- ١٥) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٧ - ٩
- ١٦) كولين ماكفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ص ٤٣
- ١٧) Ann E.Kellebrew, Biblical Peoples and Ethnicity, Society of Biblical Literature, Atlanta, USA, 2005, p. 1, 2
- ١٨) ناصر الأنصاري، المجلد، ص ٣٤
- ١٩) ناصر الأنصاري، المجلد، ص ٣٤، ٣٥
- ٢٠) أحمد فخري، الأهرام المصرية (مترجم)، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣٤٤، ٣٤٥؛ وانظر كذلك عقيدة السودانين في تقديس جبل البرقل ص ٣٥١؛ أيضا انظر: عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى (الجزء الأول)، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠، ص ٣٠٧.
- ٢١) بهاء الدين إبراهيم، الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ١٩٨٦، ص ٣.
- ٢٢) بهاء الدين إبراهيم، الشرطة والأمن الداخلي، ص ١٥
- ٢٣) عائشة محمود عبد العال، الملكية الإلهية في العصر المتأخر، مشروع المائة كتاب هيئة الآثار، ٢٠٠٤، ص ٤٣
- ٢٤) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ١٧
- ٢٥) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣٠٧؛ جيمس هنري بريستد، تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى العصر الفارسي (مترجم)، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩، ص ٥٠١
- ٢٦) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٢٤
- ٢٧) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٢١
- ٢٨) محمد إبراهيم بكر، المدخل إلى تاريخ السودان، ص ٢٦
- ٢٩) جيمس هنري بريستد، تاريخ مصر، ص ٥٠١، ٥٠٢
- ٣٠) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٤٣
- ٣١) أحمد فخري، الأهرام المصرية، ص ٣٥١
- ٣٢) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣٠٧
- ٣٣) جيمس هنري بريستد، تاريخ مصر، ص ٥٠٢
- ٣٤) عبد العزيز صالح، مصر والشرق الأدنى، ص ٣٠٧
- ٣٥) بهاء الدين إبراهيم، المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص ١٣٧ - ١٤٢
- ٣٦) بهاء الدين إبراهيم، المعبد في الدولة الحديثة، ص ١٣٩
- ٣٧) بهاء الدين إبراهيم، المعبد في الدولة الحديثة، ص ١٤١

مملكة ماري السورية (٣)

مملكة ماري في عصر الفلعلية الأكادية التاريخية
2350 . 2160 ق.م



د. بشار محمد خليف

باحث في تاريخ العالم العربي
دمشق — الجمهورية العربية السورية

Khleif200@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بشار محمد خليف ، مملكة ماري السورية: مملكة ماري في
عصر الفلعلية الأكادية التاريخية. - دورية كان التاريخية. -
العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ٦٥ — ٧٨.

(www.historicalkan.co.nr)

ثمة نقاط عديدة تشكل قاعدة للبحث في هذه الفترة:

أولاً: أن الفلعلية الأكادية الديمغرافية والتي تعود في ظهورها إلى
الألف الرابع قبل الميلاد ، شكّلت مدينة كيش الرافدية بورتها الأساسية.

ثانياً: أن هذه الفلعلية امتلكت أدوات التفاعل الديمغرافي الاقتصادي
والروحي مع الفلعلية السومرية واستطاعت أن تجبّ المنجز السومري
وتأخذ إلى آفاق تطورية جديدة اطراداً مع الزمن.

ثالثاً: أن الفلعلية الأكادية والهوية الأكادية تشكل القاعدة الأساسية
التي تمت صياغة المشرق العربي عليها وصولاً إلى العصر الحاضر ،
وذلك مروراً بالفلعلات العمورية والكنعانية والآرامية والعربية.

رابعاً: كنا أشرنا إلى أن طبيعة التفاعل الأكادي . السومري والامتزاج
والتعايش كان مثلاً يُحتذى به ، وهذا ما استمر في مختلف الفلعلات
الأخرى بما يعطي دلالة على أن خاصية التمازج والتفاعل والانفتاح هي
خاصية من طبيعة الشخصية المشرقية العربية عبر تاريخها.

خامساً: إن صعود الفلعلية الأكادية من مدينة كيش في حوالي 2350
ق.م كان تطوراً طبيعياً في مساق اكنمال هذه الفلعلية لإظهار حيويته
التاريخية في زمنها ، فهي لم تقم لنقض التواجد السومري وتدمير منجزه
بقدر ما كانت تعبيراً عن التطور المتبدّي في حركة مجتمعات مدن
المشرق العربي.

وعلى ذلك نفهم أن الفلعلية الأكادية ورثت الفلعلية السومرية
وجبّتها وأضافت عليها وطوّرتها ضمن خط ذهني حضاري واحد مع
الإشارة إلى أن التواجد السومري الديمغرافي لم يختفِ بل استمر
متفاعلاً بيد أنه أفسح المجال للأكاديين كي يسهموا في حضارة المشرق
العربي والحضارة الإنسانية بعامّة.

سادساً: يبدو أن خط الوعي الاتحادي لدى الفلعلية الأكادية تجاوز
ما كان قام به لوغال زاجيزي قبل حوالي مئة وخمسين عاماً ، فإن كان
هذا قد سعى إلى توحيد مدن المشرق آنذاك كاستجابة لمقتضيات دورة
الحياة السياسية . الاقتصادية الاجتماعية الروحية الواحدة ، فإن
شاروكين الأكادي امتلك أدوات التوحيد عبر ما يبدو لحظة وعي فرضها
الظرف التاريخي آنذاك بما تحمله الفلعلية الأكادية من إشرارات ثقافية
واقتصادية وروحية متطورة.

فمع مجيء شاروكين الأكادي الذي استطاع أن يرث ما وصل إليه
منجز زاجيزي ، مع ملاحظة أن الواقع الاجتماعي التاريخي المديني
لمدن المشرق العربي في عصر الفلعلية الأكادية كان أضعف من عوامل
القوة العسكرية الأكادية لهذا لم يستطع استيعابه وهذا ما أدى
بالإمبراطورية الأكادية إلى الاضمحلال فإن كانت وثائق زاجيزي تتغنى
بأنه: "من البحر الأدنى / الخليج العربي / وعلى طول دجلة والفرات ،
وحتى البحر الأعلى / المتوسط / جعل الإله انليل كل البلاد تذهب
إليه".⁽³¹⁾ فإن شاروكين استطاع أن يرث هذا ويضيف عليه ، كون أن
ثمة مبالغة في مقولة زاجيزي لجهة سيطرته الكاملة على المشرق
العربي.

بدأت مسيرة شاروكين بأن استلم السلطة في مدينة كيش في
حوالي 2350 ق.م ، وبعد حوالي 34 حملة عسكرية بينه وبين زاجيزي ،
استطاع أن يسيطر على تلك الدولة فضمّ إلى سلطته مدن أوروك . أوما .
أور . لاجاش ، ومضى في إنشاء عاصمته أكاد وسط الرافدين / إلى الآن
لم يعثر عليها / والتي أضحت ميناءها مركزاً تجارياً مهماً وصل بفاعليته
التجارية إلى سواحل الهند / ملوخوا / حسب الوثائق.

الواقع التجاري في المشرق العربي

في عصر الفاعلية الأكادية

لا ينفصل الواقع والنشاط التجاري في فترة الفاعلية الأكادية عما قبله إلا بوجود استمرارية للخطوط التجارية السابقة مع نشوء طرق جديدة ولا سيما إنشاء مدينة أكاد بمينائها. ويبدو أن خطوط التجارة المشرقية نحو آسية / أفغانستان / باكستان / الهند / استمرت مع وجود دور جديد لميناء مدينة أكاد.

ونستطيع أن نقارب النشاط التجاري آنذاك على أنه شهد ازدهاراً مشهوداً طالما تأمن الاستقرار السياسي والأمني الذي وفرته الفاعلية الأكادية ولا سيما في عصر شاروكين وحفيده نارام سن.

وتشير الوثائق إلى أن القوافل التجارية أصبحت تنجّه من آسيا الصغرى نحو الخليج العربي عبر طرق التجارة المشرقية تحت حماية فصائل الجيش الأكادي، وإن كان ثمة خطورة على القوافل فيجب ألا ننسى دور القبائل والعشائر التي كانت تجوب المشرق العربي والتي كان جزء منها يعتمد على سلب القوافل ونهبها. كما تشير الوثائق أيضاً إلى أن السفن القادمة من ملوخوا وماجان والديلمون أصبحت ترسو في ميناء أكاد، ويشير الباحث بوهارد برينتس إلى أن ثمة إشارات كثيرة في المدن الأكادية تدل على وجود مترجمين عرفوا لغة ملوخوا، وقد قدمت تلك الوثائق معلومات عن استيراد الأرز والقطن وخز الصود المزخرف من الهند. مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة شهد انحصاراً أو تراجعاً لدور المعبد في الشأن الاقتصادي، وأصبح للسلطة الزمنية الدور الأول في قيادة الدولة في كافة المجالات عدا الاعتقادية.

مهلكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية

نتيجة الازدهار التي وصلت إليه مدينة ماري مع منتصف الألف الثالث، ثم استطاعتها إعادة ترميم ما دمره هجوم لوغال زايجزي وبسرعة قياسية تدل على معطيات قوة واقتدار إن في المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي والروحي، فإن معالم تلك الفترة تتوضح في أن مدينة ماري أصبحت عاصمة لمملكة تعجّ بالبلدات والمدن التي تتبع فعاليتها.

ويبدو أن المستوطنات توزعت بكثافة حولها بحيث لا يكاد يفصل الواحدة عن الأخرى مسافة 10 كيلومترات[⊗]. وهذا ما يؤكد برينتس بقوله "أنه في أواسط الألف الثالث، انتشر العديد من المدن. الدول، التي تكونت عادة من مدينة واحدة محاطة بعدد من القرى^{⊗⊗}" ففي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، تبدو منطقة الجزيرة السورية مزدهرة بالمستوطنات والقرى، لا بل أن بعض هذه القرى أصبح مدناً ذات شأن مثل تل ليلان. تل براك. تل موزان. الخويرة، ولعل وجود مثل هذه المدن القوية في الشمال هو الذي دفع بالملك الأكادي نارام سن إلى الاستقرار في تل براك حيث بنى قصراً يشبه القلاع العسكرية الحصينة^{⊗⊗⊗}.

كما أنه اتجه بجيشه الذي يقدر بحوالي 5400 جندي نحو الجناح الشامي حيث جاء في وثائقه: "شاروكين الملك خرّ خاشعاً في توتول أمام الإله دجن وصلّى. الأرض العليا أعطاه إياها دجن: ماري. يرموتي. إبلا، وحتى غابة الأرز / جبال الأمانوس / وجبال الفضة / طوروس⁽³²⁾".

وبدوره يشير المؤرخ سيتون لويدي إلى أنه "تمّ تأكيد ادعاءات شاروكين بأنه عبّر البحر المتوسط في الغرب ليصل إلى قبرص وجزيرة كريت[⊗]". وقد أطلق شاروكين على نفسه لقب "ملك الجهات الأربع" ومقصده في ذلك: "مملكة عمورو في الغرب، وسوبارتو في الشمال، وسومر وأكاد في الجنوب، وعيلام في الشرق".

وتشير الأبحاث إلى أن امبراطورية شاروكين شملت منطقة الخليج العربي والجناح الرافدي ومعظم مناطق بلاد الشام الشمالية^{⊗⊗}. وتشير الوثائق إلى أن حملة شاروكين على الأناضول كانت بسبب تعرّض تجار أكاديين هناك لمضايقات من قبل حاكم مدينة "بورشاند" فذهب لجندتهم. وثمة وثيقة تعود لشاروكين تشير إلى أنه "خاض أربع وثلاثون معركة وانتصر فيها ودمّر أسواراً حتى شاطئ البحر، وجعل سفناً من "ملوخوا" / سواحل الهند الغربية / ومن ماجان / عُمان / وسفنًا من الديلمون / البحرين / ترسو في ميناء أكاد⁽³³⁾". وتنبغي الإشارة هنا، إلى أن نواة الامبراطورية الأكادية، كانت تشمل القسم الأوسط من بلاد الرافدين من نيبور في الشمال وحتى خط هيت. سامراء بما فيها منطقة ديبالي. وكذلك تنبغي الإشارة إلى أن العلاقات بين كيش وإبلا تعود إلى ما قبل صعود الفاعلية الأكادية حيث نجد أن ثمة دورة حياة واحدة بين كيش وإبلا وماري وموقع أبو صلابيخ.

وقد استطاع شاروكين من أن يضمّ إبلا وماري إلى امبراطوريته. ويشير هورست كلينغل إلى أن ثمة نصّاً يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، يذكر أن جميع البلدان الواقعة بين الخليج العربي والديلمون وماجان من ناحية، وكتبثارا (كريت) وأنكو (قبرص) من ناحية أخرى، خضعت لشاروكين الأكادي ثلاث مرات⁽³⁴⁾. وبدوره انطون مورتنقات يشير إلى أن امبراطورية شاروكين لم تتحقق بصورة فعلية إلا بعد احتلاله لبلدان العموريين في الجناح الغربي الشامي⁽³⁵⁾. وقد استمر حكم شاروكين حوالي 60 عاماً، أمكنه من خلاله تأمين استقرار سياسي. اقتصادي. اجتماعي، ساهم في توطيد أركان الامبراطورية الأكادية، ما أدى إلى اصطباغ المشرق العربي برمته بالطابع الحضاري الثقافي الأكادي والذي استمر حتى الألف الأول قبل الميلاد وبقيت تأثيراته إلى أيامنا الحاضرة.

⊗ انظر سيتون لويدي. آثار بلاد الرافدين. ت. محمد طلب. دار دمشق. ١٩٨٩

⊗⊗ هذا ما يشير إليه الدكتور علي أبو عساف في حين أن د. عبد مرعي يشير أن تلك الامبراطورية شملت كل بلاد الرافدين وسورية.

انظر. د. عبد مرعي. تاريخ بلاد الرافدين. دار الأبيدية. دمشق 1991. وكذلك د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية وكذلك مؤلفه: فنون الممالك القديمة في سورية.

⊗ انظر ألفرد هالدار. العموريون. ت. شوقي شعث. دار الأبيدية 1993 دمشق.

⊗⊗ انظر بوهارد برينتس. نشوء الحضارات القديمة. ت. جبرائيل كباس. دار الأبيدية. دمشق 1989.

⊗⊗⊗ انظر حميدو حمادة. تل ليلان. دراسات تاريخية عدد 37. 38. 1990.

الكنعانيين ، وكان أساس هذا الانبعاث إعادة تأسيس مدن قديمة مثل أوروك ولاجاش وأور ، وكذلك تأسيس ممالك جديدة. بالإضافة إلى ذلك فقد استطاع الكنعانيون من تأسيس سلالات حاكمة في مدينتي اسين ولارسا الرافديتين ، حيث أدى ذلك إلى سيطرتها على البلاد وانبعاث الدولة البابلية.

وفي النهاية ، خرجت سورية عموماً من أزمت العصر الأكادي / ولا سيما في ما بعد نارام سن / وحرابه ، ضعيفة جداً وبحضارة مدنية متقهرة. [⊗] وإن كانت الفاعلية الأكادية قد خمدت وتلاشت في المستوى السياسي والعسكري ، غير أن قوة وروحانية الثقافة الأكادية استطاعت أن تعبر عن حضارتها في عدة أمور:

أولها: هو شيوع اللغة الأكادية والكتابة الأكادية على مدى المشرق العربي وتواصل هذا حتى الألف الثاني قبل الميلاد في مقابل انحسار للسومرية وآدابها.

وقد استطاعت اللغة الأكادية أن تسود في الألف الثاني قبل الميلاد وتصبح لغة عالمية كتب بها الملوك مراسلاتهم. وبقيت الأكادية سائدة حتى انتشار اللغة الآرامية وكتابتها في القرن الخامس قبل الميلاد.

الجدير ذكره هنا ، هو أن أرشيف ماري كُتب بالأكادية وكذلك وثائق مكتبة آشور بانيبال العائدة للألف الأول قبل الميلاد بالإضافة إلى الكثير من وثائق أوغاريت في منتصف الألف الثاني. وقد أثبتت الأبحاث اللغوية على أن الأكادية هي أم اللغة العربية ، " فجدور اللغة العربية موجودة في اللغة الأكادية ، ومعظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريح الأسماء والصفات الأكادية تشبه ما هو موجود في اللغة العربية الحالية " [⊗] ويشير د. فيصل عبد الله إلى أن " الطابع الحضاري الأكادي الذي تكلن بألوان مدن ذلك العصر / الألف الثاني ق.م / وعلى رأسها حلب وماري وبابل وجبيل ما يزال قائماً وسائداً حتى يومنا هذا وسيبقى لأنه عميق الجذور ، ومتين الأصول " ^{⊗⊗}.

ثانيها: إذا كانت الفاعلية الأكادية التاريخية قد استمدت ركائزها من الفاعلية السومرية وجبته ، ولا سيما في المعتقدات والتجارة وهذا ما أشار إليه المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في مؤلفه تاريخ البشرية ، فإن ما يسمُ الفاعلية الأكادية وبتميز هو أنها ساهمت في تأسيس مفهوم الدولة الزمنية وبعمق بحيث نستطيع أن نقارب معالم نشوء " فصل الدين /المعتقد/ عن الدولة " فقد أبعد الأكاديون المعبد عن الشؤون الدينية ونقلوا النشاط الاقتصادي والتجاري إلى القصر الملكي ، وأصبح المعبد خاضعاً بشكل كامل لمراقبة القصر.

وهذا الأمر لم يكن صراعاً بين الأقنومين بقدر ما كان تعبيراً طبيعياً عن التطور الذي آلت إليه الذهنية الأكادية الحضارية والتي تختصر في مقولة " ما لقيصر لقيصر وما لله ، لله ".

⊗ مرجع سابق - MARGUERON

⊗ عيد مرعي. تاريخ بلاد الرافدين. مرجع سابق.

⊗⊗ انظر فيصل عبد الله . الحوليات الأثرية السورية عدد 43 للاستزادة انظر أيضاً كتاب فقه اللهجات العربيات للدكتور محمد بهجت قبسي وكتاب مقدمة في علم الأكاديات للدكتور فيصل عبد الله وكتاب د. علي أبو عساف " نصوص من أوغاريت ".

ونحن نعتقد أنه وللأسباب ذاتها أنشأ شمسي أدد عاصمته الثانية في شوباط انليل في تل ليلان في الألف الثاني قبل الميلاد.

وسط كل هذا ، كان على مملكة ماري مع امتداد الفاعلية الأكادية إليها وإلى إبلا ، أن تختار بين أن تواجه المد الأكادي أو أن تميل قليلاً وتتفاعل مع المد الجديد خصوصاً أن هذا المد ليس غريباً عنها أولاً وثانياً فإن ما استطاعه شاروكين الأكادي من خلق دولة مركزية ذات بنية واضحة وصارمة ، لم تكن تحتل أنصاف الحلول ، لهذا استطاعت سلطة ماري أن تواكب الفعل الأكادي محافظة على استقرارها وازدهارها ومستفيدة في الوقت نفسه من طوق الأمان الذي سببته الفاعلية الأكادية.

ومقابل هذا ، تراجع نفوذ ماري عن مملكتها في منطقة الفرات الأوسط لصالح الفاعلية الأكادية ، وفقدت استقلالها المديني لصالح الفاعلية الأكادية الاتحادية المسلحة. وعبر هذا ، " استطاع حكام ماري في هذه الفترة أن يعيدوا تنظيم وبناء المدينة جزئياً لحساب الملوك الأكاديين ومن ثم لحسابهم الخاص وحافظوا على البنية المعمارية التي تعود إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ، وهي البنية التي ورثوها " [⊗] وسوف يستمر فقدان ماري لاستقلالها السياسي / وهذا ضمن منطق الوعي المديني الذي كان سائداً / حتى انتهاء الفاعلية الأكادية بحيث ستعاود عند ذلك إلى استعادة سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط ، خزانها الحيوي للبقاء بالإضافة إلى الفرات.

وبعد موت شاروكين ، لم تعد فاعلية الدولة الأكادية كما كانت عليه ، بل تراجعت حتى زمن حفيده نارام سن 2260 - 2232 ق.م ، حيث ستعاود الفاعلية الأكادية فعلها ، وحفلت فترة حكم نارام سن البالغة حوالي 37 عاماً بتمردات وثورات ضد الدولة استطاع إخمادها سواء في مدينة كيش أو أوما ، نيبور ، أوروك ، بلاد ماجان ، بلاد عيلام ، نمار ، أيشال وزاغروس ، بالإضافة إلى ماري أيضاً. كما أن نارام سن وصل إلى الأمانوس وجبال الفضة ودمر إبلا ، ويبدو أن هذا كان نتيجة المزاخمة الاقتصادية . التجارية للفاعلية الإبيلية القوية ، للفاعلية الاقتصادية التجارية للدولة الأكادية.

وتتباهى وثائق نارام سن بأنه " أول من قضى على إبلا ولم يسبقه أحد في هذا العمل منذ الخليقة ". أما تدمير بلاد ماجان / عُمان / فتشير المعطيات إلى أن حاجة الجناح الرافدي لأحجار الديوريت اللازمة لصنع التماثيل كانت تتأمن من هناك والذي يبدو أن ثمة سبباً دفع نارام سن لتدمير ماجان ربما لاحتكارها استيراد هذه المادة المهمة. وتشير الوثائق أيضاً إلى أنه في فترة حكم نارام سن كلف هذا الملك ابنتيه بوظائف دينية في مدينة ماري فكانت شوماشاني وأختها مكيار كاهنتان / قدشتو / في معبد شمسي.

وبعد وفاة نارام سن في حوالي 2232 ق.م ، تدهورت أوضاع الامبراطورية الأكادية ووهنت ، ما أدى إلى هجوم قبائل الكوتيين القادمين من جبل ايران ، حيث سيطروا على الجناح الرافدي ولا سيما شماله لحوالي مئة سنة ، وتندر المعطيات المعمارية والكتانية التي يمكن أن يتركوها ، ما يعني أن فاعليتهم الحضارية هامشية وعلى مرتبة أدنى من الفاعلية الأكادية.

ومقابل ذلك ، بقي الجنوب الرافدي بعيداً عن هذه الهجمات ، بها سيؤدي لاحقاً لانبعاث جديد من هناك مدعوماً من العموريين

⊗ مرجع سابق GEAN MARGUENOR , EXPOSITION — MARI

مملكة ماري بين 2266 - 2008 ق.م

ذكرنا سابقاً أن الاجتياح الكوتي للمواقع الرافدية الشمالية أدى إلى تدمير المدين هناك ، وكون أن ثقافة الكوتيين أولية وأدنى من الفاعلية الأكادية المتطورة ، فقد أدى ذلك إلى تدمير بغض لمواقع المدن ، وقد حفلت الوثائق الأثرية بتفاصيل هذا الغزو البدائي ، فأحدى الوثائق تقول: ثعابين الجبال ، اختطفوا الزوجة من زوجها والأطفال من آبائهم ، ونقلوا الملكية من سومر إلى الجبال ، وبكت البنات ، المدن بسبب الكوتيين "

وأشارت وثيقة أخرى إلى ذلك حيث ورد فيها:

" البلاد في أيدي أعداء قساة

سقت الآلهة إلى الأسر

وأثقل كاهل السكان بالضرائب

وحقت الأقنية وشبكات الري

وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن

ولم يعد بالإمكان ري الحقول

ولم تعطِ الحقول محاصيلها ". (36)

إذن تم تدمير البنى التحتية للمدن الرافدية الشمالية ، ونتيجة أن الجنوب الرافدي بقي خارج نطاق السيطرة الكوتية ، فهذا ما سوف يؤدي إلى إعادة ترتيب أوضاعه ، ونحو 2164 قبل الميلاد ، سنلاحظ تأسيس حكم لسلالة حاكمة في لاجاش ، اعتبر من أشهر حكامها جوديا / 2143 - 2124 ق.م / وتشير الوثائق إلى أن عدد سكان هذه المدينة كان حوالي 21600 نسمة ، وقد سيطرت هذه المدينة على جنوب بلاد بابل.

ويبدو أن فاعلية لاجاش الصاعدة دفعتها إلى محاولة تفعيل دورها التجاري ، وحتى حدود الاستثثار بحركة التجارة آنذاك عبر البعثات التجارية. وتشير وثائق تلك الفترة إلى حصول هذه المدينة على أخشاب الأرز من الأمانوس وخابوم ، وأورشوم بالقرب من إبل. كما استطاعت تأمين الأحجار اللازمة من بزالا ، وجبال مارنو وكيماش وسوزا والديلمون وماجان وملوخوا ، كما حصلت على النحاس من كيماش وعلى الذهب والفضة من ملوخوا. مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة شهدت استخدام اللغة السومرية وكتابتها ، ما يعطي تأكيداً لعدم انعدام الفاعلية السومرية في المشرق ويؤكد على روحية التفاعل والتمازج بعيداً عن معالم الإلغاء للآخر.

الجدير ذكره هنا ، هو أن الكتابة السومرية المستخدمة انتابها التطور بالإضافة إلى دخول الكثير من الكلمات الأكادية في متن اللغة السومرية. والمتابع بشكل عام يلحظ وجود تأثيرات أكادية مهمة في ثقافة لاجاش. وإلى جانب لاجاش ، نجد إعادة تأسيس لمدين أوروك وأور ، وفي مدينتي إسين ولارسا ، تمكنت سلالتان كنعانيتان من تسنم عرش هاتين المدينتين ، واللتين سوف تساهمان في نشوء الدولة البابلية لاحقاً.

ومع حوالي 2112 قبل الميلاد ، سنكون أمام منعطف مهم شكلت مدينة أوروك نواته ، وذلك عبر مقاومتها للاحتلال الكوتي ، ومن ثم استطاعة حاكمها أوتو خينجال من هزيمة الكوتيين وأسر قائدهم تبريجان وهذا ما أدى إلى تحرير البلاد من الاحتلال الكوتي ، ليتفرغ الحاكم في أوروك إلى ترتيب أوضاع الجنوب الرافدي حيث عُين في أور حاكماً هو أورنمو ، الذي سرعان ما تمرد على الأول وبذا تنتقل الفاعلية

التاريخية من أوروك إلى أور في حوالي 2110 ق.م وهذا يعني فيما يعنيه ، عدم تطور الوعي المديني إلى وعي أشمل رغم الغزو الكوتي للرافدين ، وقد جاءت في الوثائق ما يلي: "ضربت أوروك بالسلاح ، وانتقلت الملكية منها إلى أور. في أور أصبح أورنمو ملكاً ، وحكم 18 عاماً " (37)

واستمرت سلالة أورنمو في الحكم حتى 2002 ق.م. وأشارت الوثائق إلى أن أورنمو أطلق على نفسه لقب " ملك سومر وأكاد " لأول مرة ، ما يعني أن مملكة أور شملت كامل الرافدين في فعاليتها إذا صدقت الوثيقة. / عيد مرعي 1991 / . ومع تنامي فاعلية أور أصبحنا أمام مملكة احتوت مدناً للجنح الرافدي / لارسا. لاجاش. نيبور. أوروك وأور طبعاً / ومنطقة الفرات الأوسط بما فيها ماري وتوتول ، وأشور في الشمال وجبيل على الساحل السوري. وإلى أورنمو تُنسب أول قوانين حقوقية في العالم والتاريخ الإنساني ، والتي استطاعت أن تؤثر في مجال الحياة الحقوقية اللاحقة مثل قانون لبت عشتار وقوانين حمورابي وغيرها.

وضمن كل هذا وفيما يعنيه من صعود الفاعلية السومرية بعد التمكن الأكادي في المشرق العربي ، سوف نشهد حركة ديمغرافية فاعلة / وإن بدأت منذ ما قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد / باتجاه الجنح الرافدي قادمة من الجنح الشامي ، تجلّت في زيادة حركة العبور العموري البدوي القبلي ، وربما يعزى هذا إلى عوامل تتغير مناخي جاف أدى إلى ارتحاله إلى الجنح الشرقي ومدنه.

ويبدو من وثائق هذه الفترة أن المدن الرافدية عانت من هذا الضغط القبلي العموري وعوالم تخريبه ، ما دفع حاكم أور " شوسين " إلى إنشاء خط دفاعي بري مائي يشمل ما بين دجلة والفرات ويمتد بطول 275 كيلومتراً لإيقاف انزياحهم إلى مدن الرافدين. (38) ويبدو أن الانزياح العموري نحو الرافدين ، ساهم بشكل أساسي في إضعاف فاعلية مملكة أور ما أدى إلى انتهائها عبر الهجوم العيلامي في حوالي 2002 ق.م.

وقد أشار هالدار إلى ذلك ، بالإضافة إلى أن هورست كلينغل لاحظ احتواء وثائق أور لهذه الفترة على أسماء عمورية وبشكل متزايد. (38) والجدير ذكره هو أنه في العشرين سنة الأخيرة من عمر مملكة أور وفي عهد إبي سين ونتيجة للضغط العموري بالإضافة إلى توثب عيلام للانقضاء عليها ، شهدت هذه المملكة تراجعاً في فاعليتها التاريخية ما سوف يسبب بداية انفصال المدين المشرقية المنضوية تحت فاعليتها ، عنها ما يعطي انطباعاً عن انعدام في وجود وعي ما فوق المديني.

✳️ العموريون هم سكان البادية الشامية وتشير الوثائق إلى أن نواة تواجدهم كانت في جبال بشري في البادية ، وجاء اسمهم من " أمورو " التي تعني الغرب. ويعود أول شاهد كتابي عموري إلى حوالي 2600 ق.م عبر نصوص موقع فارا في الرافدين ، وكذلك نقش تمال الملك لهجي ماري ، / 2400 - 2350 ق.م / وإن كان جورجيو برتشيلاي اعتبرهم أجنب في بلاد الرافدين غير أن التلميل منهم لم يكن لسبب ديمغرافي بقدر ما كان رفضاً للثقافة الأولية الرعوية / السلبية وليست الإيجابية / التي كانوا عليها.

انظر C. BUCCELLETI . THE AMORITES

وقد ورد في الوثائق الرافدية أن العموري " لا يعرف الحبوب " و " لا يملك بيتاً " و " يسكن خيمة تضرب بها الرياح والأمطار " للزيد: انظر كتاب الفرد هالدار في نسخته العربية " العموريون " . دار الأبجدية 1993 دمشق.

عصر تأسيسها الذهبي العمراني والاقتصادي وكل مجالات الحياة وهذا ما سوف يعبر عن نفسه في فاعلية ماري العمورية مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ففي فترة فاعلية أور ومملكتها ، تسلم حكم ماري سلالة حكام يدعون "شاكاناك" وتعني الوالي/الولاة. وكان هؤلاء يمثلون ملك أور في ماري ويقدر عددهم بحوالي 13 حاكماً بدأت فترة حكمهم عام 2266 واستمرت حتى 2008 ق.م. / انظر الملحق الأول/.

ويبدو أنهم تسلموا السلطة قبل بزوغ فاعلية مدينة أور. ويُعتقد أن حكم هذه السلالة بدأ في فترة الفاعلية الأكادية ولا سيما في عهد الملك الأكادي مانيشتوزو 2260. 2275 ق.م.

وتشير المعطيات إلى أن ماري في هذه الفترة/فترة فاعلية أور/ استعادت سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط بمعنى أنها عادت لمملكتها ، وكانت علاقاتها جيدة مع مدن الجنوب الرافدي. وهذا الأمر ليس جديداً فبالعودة لها قبل منتصف الألف الثالث ، سوف يتم اكتشاف " كنز أور " في ماري ويعود إلى هذه الفترة حيث تضمن هذا الكنز على خزانة كبيرة من اللازورد عليها كتابات مسمارية هي كما يلي: "أهدى هذه الخزانة المغزلية⁽³⁹⁾ إلى الربة غال ، ميزا نيبادا ملك أور عندما كان أسود ملك معيرا/ ماري"⁽³⁹⁾.

وقد أمكن تحديد حكام ماري في هذه الفترة بحسب الوثائق الأثرية وهم: ايبيل كين / تزوج ملك أور ، أورنمو من ابنة هذا الحاكم / . ايشتوب ايلوم .تورا داجان .بوزو عشتار / وهو يعتبر أشهر الحكام آنذاك / .هتلال عرا .حانون دجن.

وقد سعت ماري في هذه الفترة إلى إعادة تأسيس نفسها بكافة مناحي الحياة ، وإلى هذه الفترة يُعزى بناء القصر الملكي المشهور والذي دُشن وافتتح في عهد زمري ليم في الألف الثاني قبل الميلاد. وفي هذا القصر عثر على تماثيل الشكاناكو.

ويشير مارجرون إلى " أنه ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ومع عودة النشاط الاقتصادي الكثيف إلى الرافدين مع سلالة لاجاش وأور ، شرعت مدينة ماري بعملية الارتقاء من جديد ، ومنذ وقت مبكر حيث يلاحظ إعادة لبناء المدينة بعد زوال السيطرة الأكادية "⁽⁴⁰⁾.

كما يؤكد جان ماري ديوران إلى أن وقوع ماري تحت الفاعلية التاريخية لمملكة أور الثالثة وحكام الشكاناكو ، جعل ماري تصل إلى تحقيق فاعليتها التاريخية ، ويتحدث عن أن يخذون ليم وزمري ليم

العربي. ويعتقد أن نهر الفرات كان يجري بجوارها ، في حين أنها تبعد عنه الآن غرباً حوالي 12 كيلومتراً. مع الإشارة إلى أنها تبعد الآن عن البحر بأكثر من 200 كيلومتر. ولاحتمال تجاورها في هذه الفترة مع نهر الفرات فإن هذا يدل على مبلغ أهمية الموقع الاستراتيجي لمدينة ماري في حركة التجارة الشرقية والعالمية في ذلك العصر.

⊗ عام 1965م كشفت تنقيبات ماري على جرة تحتوي عدة لقي أطلق عليها اسم " كنز أور " ، وقد حوت هذه الجرة على تمثال صغير من العاج لامرأة عارية ، وتمثال صغير من النحاس لإلهة عارية ولوحظ أن شعرها عليه عصبة جبهة من الذهب وقرنان صغيران / علامة الألوهية / ، كما عثر على نسر له رأس أسد وقد تم نحته في لوحة سميكة من اللازورد حيث أن رأسه وجناحه من الذهب ونُزِلت عيناه بالقرار.

حوى الكنز أيضاً على زوجين من الأساور الأول من النحاس والثاني من الفضة ، وكذلك هناك ثمانية مشابك من الفضة والبرونز والذهب ورأس المشبك من العاج ، وسوار من الخرز صُنع من الذهب واللازورد وعقد مصنوع من الذهب واللازورد والفضة ، وثلاث نجوم من الفضة ، وستة تماثيل لازوردية ، وخزانة كبيرة مغزلية من اللازورد متعددة الوجوه منقوش عليها بالمسمارية.

فقد انفصلت إشنونا ثم لاجاش ثم أوما ، وفي مدينة إسين ، استطاع إشيبي إرا وهو من مدينة ماري من حكم مدينة إسين حيث اتخذها عاصمة له ، بالإضافة إلى قيام نبالوم العموري من حكم مدينة لارسا ، وهذا ما يعطي دلالة على عمق التفاعل والتداخل الديمغرافي الاجتماعي بين مدن الجناحين. أيضاً ثمة أمر مهم آخر يُعنى بزواج ملك أور " أورنمو " من ابنة حاكم ماري ايبيل . كين. بما يعطي دلالة أخرى على مبلغ التفاعل والانسجام بين مدن المشرق العربي آنذاك.

إذن مع 2002 ق.م. ، سوف نشهد انتهاء فاعلية مملكة أور ، غير أن ما يسم هذه الفترة هو الفعل الحضاري ، الثقافي الذي قدمته هذه المملكة بسلالتها لعموم المشرق العربي وتشير الوثائق إلى قيام الكتاب والفنانون والنساخون ، بنسخ المؤلفات والأعمال الأدبية والفنية بحيث جمعوا الأساطير والنصوص الأدبية القديمة ومجمل الابداع الذهني المشرقي السابق والمعاصر ، وصنفوها في مكتبات المعابد والقصور.

وفي مجال الفنون ، عمد الفنانون إلى تصوير الحكام والأمراء على لوحات أو مسلات ، وهم يطلبون من الآلهة المدّ في أعمارهم ، ويعتبر هذا تطور مهم على صعيد الحياة الفنية في المشرق العربي.

ورغم أن الباحثين درجوا على وصف هذه الفترة بالصفة السومرية ، غير أن الطابع الأكادي كان يصبغ ثقافة هذه الفترة ، بالإضافة إلى وضوح الأرضية الثقافية السومرية ، ما يؤكد طبيعة التفاعل السومري . الأكادي . العموري - الكنعاني.

وبانتهاء فاعلية سلالة أور لم يعد هناك دولة قوية في مدن المشرق العربي ، ما أفسح المجال أمام منعطف حضاري جديد تجلّى في تعبير الفاعلية الديمغرافية العمورية الكنعانية عن نفسها ، عبر انشاء الممالك العمورية . الكنعانية على مدى مدن المشرق العربي وذلك مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي وقت سنشهد ذوبان الفاعلية السومرية ضمن الفاعلية الديمغرافية المشرقية.

مدينة ماري في الفترة بين 2266 . 2008 ق.م

إذا كانت ماري ، قد فقدت استقلالها السياسي في زمن الفاعلية الأكادية ، وتراجعت فاعليتها التاريخية المستندة إلى البعد الاقتصادي . الزراعي . التجاري الذي تؤمنه لها مملكتها ، بحيث تحولت من مملكة إلى مدينة ، كون أن الفاعلية الأكادية المركزية والعسكرية استطاعت احتوائها ، فإن الاحتلال الكوتي لمدن الرافدين لم يؤثر مباشرة على ماري ، غير أن النهب والفوضى والتدمير الذي حَقَلَ به هذا الاحتلال لا بدّ من أن يؤثر على حركة التجارة وعلى دورة الحياة الاقتصادية . الاجتماعية لكامل منطقة المشرق العربي.

ثم مع طرد المحتلين الكوتيين ، وصعود نجم أور التي شملت فاعليتها كمملكة ، منطقة الفرات الأوسط بما فيها ماري وتوتول ، وأشور وجبيل بالإضافة إلى المدن الرافدية[⊗] ، سوف نجد أن ماري ستدخل

⊗ للمزيد: يمكن الرجوع إلى كتاب سومر لأندره بارو 1978 . وزارة الثقافة . بغداد وكتاب د. علي أبو عساف . فنون الممالك القديمة في سورية . دار شمال . 1991 . دمشق.

⊗ تقع مدينة أور على بعد 365 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بغداد ، وعلى مسافة 17 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي لمدينة الناصرية. وتشير الوثائق الأثرية إلى احتمال أن تكون مدينة أور في ذلك العصر قريبة من البحر أي مطلة على الخليج

مداها التجاري، مع وجود أهمية واضحة لمدينة ماري، كون أن الفرات الذي كان يمر قرب أور كان يُشكّل عصباً مهماً بين المدينتين من جهة ومع ما وراء الخليج العربي، بالإضافة إلى عمق المشرق الشامي ثم الأناضول وعالم المتوسط بالنسبة لمدينة أور.

وقد أبانت وثائق أور العائدة لتلك الفترة عن استيراد النحاس من باكستان إلى أور عن طريق البحر. حيث كانت السفن تبحر من جزيرة فيلكه في الكويت ثم تمر بالديلمون / البحرين / حتى مضيق هرمز محملة بالسهمسم والنسيج، ومنها إلى ميناء سوتكاكين ودور، وسوتكاكوه في باكستان ثم تعود تلك السفن محملة بالنحاس.

الجدير ذكره هنا، هو أن هذه الطريق هي نفس الطريق التي نقلت سلع الحرير من الشرق إلى المشرق العربي ثم عالم المتوسط. وفي مقاربة زمنية تذكر وثائق جوديا حاكم لاجاش، أنه استورد بضائع ومنتجات من مناطق بعيدة، فالديوريت والأخشاب استوردتا من الديلمون وماجان. ومن ملوخا، العقيق الأحمر واللازورد والذهب والنحاس. ومن الجناح الغربي / عبّر ماري / استورد الألباستر والخشب والأحجار. ومن مناطق شرق دجلة، النحاس.

وتشير الوثائق إلى أن التجار فيها كانوا يقايضون المنسوجات الصوفية والجلود وزيت السهمسم بالنحاس من ماجان. وثمة ملاحظة هنا تختص في عودة المعبد في هذه الفترة إلى السيطرة على النشاط الاقتصادي وعائداته في تعبير عن تقليد سومري، سبق للأكاديين أن أنهوه لصالح القصر والسلطة الزمنية/الدولة.

النظام السياسي في ماري في الألف الثالث

إذا كان الألف الثالث قبل الميلاد تميّز بالطابع الثقافي السومري ولا سيما في الجناح الرافدي، ما عدا مدينة كيش، فإن الجناح الشامي عبّر عن نفسه بالطابع الثقافي الأكادي. العموري، ولكن هذا الأمر لم يكن بشكل منفصل، فالتفاعل السومري. الأكادي. العموري سار بمنحاه الطبيعي على مدى الألف الثالث وهذا نراه واضحاً في ماري حيث ثمة تأثيرات سومرية في وسط أكادي. عموري.

وإن كانت كيش هي مركز فاعلية الديمغرافية الأكادية، فإن ماري شكلت مركز الفاعلية الديمغرافية العمورية منذ منتصف الألف الثالث وما قبله حتى. وتأسيساً على هذا يمكننا مقارنة حركة حياة ماري في الألف الثالث بما تتضمنه من طبيعة نظامها السياسي وتركيبه، وكذلك مجال الفنون والاعتقادات والحياة اليومية.

مع الإشارة إلى أن بعض ما سنناقشه ربما لم تشر إليه وثائق تلك الفترة، لكن التفاعل الذي تحدثنا عنه قمين بأن يجعلنا نقارب الأمر وكأننا أمام مدن اتسمت بروحية واحدة وهذا ما كان، وبالتالي فما ينطبق على مدينة ربما ينسحب على باقي المدن وهذا ما يؤكد الباحثون في مقاربتهم المختلفة لحضارة المشرق العربي ككل.

أيضاً تنبغي الإشارة إلى أن ما كان سائداً في الألف الثاني وأشارت إليه الوثائق، لابد أن له جذوره الممتدة إلى الألف الثالث، ربما مع بعض التطور، غير أن الطابع العام يُعبّر عن نفسه جلياً. فالقيم والمعايير والرموز هي نفسها، مع الأخذ بعين الاعتبار لواقع انتهاء فاعلية ما، ولا سيما السومرية، والتي ذابت في الفاعلية الديمغرافية المشرقية ككل وأخذت معها بعض رموزها الاعتقادية وبعض تقاليدها المجتمعية.

وأجدادهم، مجموعة قبائل الخانيين في شمال شرق الفرات، عرفوا كيف يكونوا الورثة الحقيقيون لعصر الشكانكو.⁽⁴¹⁾

وبدوره مارجرون، يعتبر أن هذه الفترة شكّلت أعظم حقبة في تاريخ مدينة ماري، فمعظم العمائر التي تتألف منها المدينة في أيام زمري ليم / حوالي 1800 ق.م. / تم بناؤها في تلك الحقبة الزاهرة.⁽⁴²⁾

استنتاجات حول ماري

في فترة الثلاث الأخير من الألف الثالث

أولاً: أن مدينة ماري عادت إلى مملكتها وأصبحت عاصمة لمنطقة الفرات الأوسط، كما كانت قبل سيادة الفاعلية الأكادية.

ثانياً: أن القاعدة المادية لبنى ماري في الألف الثاني تأسست في هذه الفترة، وشكّلت الأرضية الحضارية لانبعائها فيما بعد. يقول د. فيصل عبد الله: "منذ عصر إبلّا في الألف الثالث قبل الميلاد / من منتصفه تقريباً /، كانت ماري تُكدّس الثروات، والذهب خاصة. ويتحدث أحد النصوص في ماري أن فناناً استخدم قرابة كيلو غرام من الذهب لصنع شكل من أشكال البط".⁽⁴³⁾ كما أن مبلغ الازدهار والرقى الذي حققته ماري جعلها في هذه الفترة محطة أساسية في خط التجارة المشرقي والعالمي كما سنرى في الفصل اللاحق.

ثالثاً: أن هذه الفترة أكدت على عمق التفاعل الحضاري والذهني في دورة حياة واحدة لكلا جناحي المشرق العربي. فمثلاً إن الرسومات والتلوينات الجدارية التي عثر عليها في القصر الملكي في ماري، تُذكر بما حوته مسلة أورنمو في أور، إن كان من حيث الشكل واللباس أو المضمون. كذلك فإن الأواني المرسومة في الجداريات تذكر بأواني أور في سلاتنها الثالثة.⁽⁴⁴⁾

رابعاً: يبدو للباحث والمحقق على أن ماري لعبت دوراً غير مباشر في إسقاط الفاعلية التاريخية لمدينة أور في سلاتنها الثالثة. وهذا ما يتبدى في أن ماري ومحيطها، كانت تُشكل بوابة العبور العموري من الجناح الشامي إلى الرافدي. كما أن ماري بحد ذاتها كانت الخزان الأساسي للتواجد العموري، ويشير هالدار إلى أن ثمة رباط تقليدي كان يربط العموريين مع ماري، التي كانت العاصمة الحقيقية لهم منذ فترة مبكرة.⁽⁴⁴⁾ فإن كان سقوط أور يعود للهجوم العيلامي وزاغروس، إلا أن فاعلية الوجود العموري المتزايدة في الرافدين أسهمت في السقوط ذاك. مع الإشارة إلى أن أسباب هذا السقوط لم تكن لدوافع إثنية، بقدر ما كان تطور طبيعي في حركة التاريخ أفرز إضرطاته ونتائجه في آن.

الواقع الاقتصادي - التجاري

فترة فاعلية مملكة أور الثالثة

لابد حين الحديث عن الواقع الاقتصادي والتجاري للمشرق في هذه الفترة، من التأكيد على استثمارية وجود خطوط التجارة في الألف الثالث، مع وجود بعض التغيرات والانزياحات التي فرضتها الأحداث السياسية والعسكرية. فمثلاً إن سقوط أكاد أفقد خطوط التجارة ميناء هاماً وفاعلية تجارية مهمة، لصالح انبثاق فاعلية أور في ما بعد في

⊗ انظر علي أبو عساف. فنون الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق وكتاب اندره بارو. سومر. مرجع سابق. وكتاب فنون سومر أكاد - انطون مورتفات.

من الذكور المحاربين ، لذا سمي بمجلس الحرب ، حيث يدعى للاجتماع لاتخاذ قرار يختص بالحرب أو السلام.

وتشير الوثيقة إلى أن مدينة كيش أحست بتعاظم قوة أوروك وفاعليتها حتى باتت تهددها ، وهذا ما دفع ملك كيش " أجا " إلى تهديد جلجامش ملك أوروك بأنه سيشن حرباً مدمرة على مدينته ما دفع بالأخير إلى عقد اجتماع لمجلس الشيوخ والنواب ، حيث دعا الأعضاء إلى عدم الإذعان لتهديدات كيش ، لكن أعضاء مجلس الشيوخ رفضوا رأي جلجامش وفضلوا الحل السلمي معها ، مما أغضب جلجامش الذي طلب انعقاد مجلس النواب /الحرب/ وكرر طلبه بالحرب ، فقرر الأعضاء هؤلاء عدم التسليم بتهديدات كيش وإعلان الحرب عليها.

ويبدو أن الوثيقة تنتهي بحيث حاصر ملك كيش أوروك ، ثم تُعقد مصالحة بين الطرفين دون قتال فيرفع الحصار ويتم إرساء صداقة بين المدينتين. الجدير ذكره هنا هو أن هذه الوثيقة كتبت بوقت متأخر عن الأحداث بحدود الألف عام.^(٤٥)

عمارة وفنون ماري في الألف الثالث

لا تقتصر خصائص الفن في مدينة ماري على اختلاف أنواعه من عمارة وفنون نحتية وأختام ورسومات جدارية.. الخ عن المناخ العام الذي ساد الألف الثالث بقاعه الثقافية في كلا الجناحين. خلا ، بعض الطفرات الفنية التي كانت تشهدها بعض المدن فتقدم الجديد بما يناسب إمكاناتها. كما أن طبيعة البيئة الجغرافية فرضت إشرافاتها في كلا الجناحين ، فمثلاً كانت مدن الرافدين تقتصر إلى الجبارة والأخشاب ، في حين أن هذا متوافر وبكثرة في الجناح الشامي.

أيضاً ، ومثل كافة المجالات الأخرى ، فإن الحياة الفنية على أشكالها كانت تستند بعمق على الواقع الديمغرافي الاجتماعي. فإن كان الفن في ما قبل الألف الثالث هو فن ذو ثقافة رافدية ، فإننا وباتجاه الألف الثالث وباطراد سنجد ظهور روحية جديدة تستند على ما سبق وتضيف عليه كما في الثقافة الأكادية وكذلك في مجال الثقافة العمورية الكنعانية.

إذن ما يحكمنا هنا هو خط تواصل ذهني روحي واحد يستمد جذوره من الواقع الاقتصادي .السياسي ، وكل ذلك ضمن إطار تفاعل مجتمع المدينة مع بيئته الطبيعية ، وتفاعل المدن فيما بينها بما أدى إلى نشوء روحية واحدة تشمل مواقع المشرق العربي كافة. يقول الدكتور علي أبو عساف: " لقد أظلت الهلال الخصيب حياة جديدة وسادت السكان مفاهيم وقيم .. وحلت في أذهانهم وعقولهم وقلوبهم مثل أخرى "^(٤٦) وذلك في إشارته إلى هذه الفترة من تاريخ المشرق.

في الحياة العمرانية:

شهدت مدينة ماري منذ تأسيسها معالم عمرانية وإنشائية تتناسب مع ذهنية التخطيط المسبق ، حيث أننا أمام أنظمة متطورة للرعي كالأقنية والسدود ، وأنظمة ملاحية مبتكرة ، بالإضافة إلى سعي المدينة لتأمين مياه الشرب عبر الأقنية والسدود التي تجمع مياه الأمطار. ويبدو أن الازدهار الذي وصلت إليه ماري مع تأسيسها وانطلاقها في القرون الثلاثة الأولى من الألف الثالث تجلى واضحاً في القصور الفخمة والمعابد ، ومنحوتات تدل على وجود مدرسة فنية في ماري تعدّ

⊗ انظر .من الواح سومر .صموئيل كريمر .ت: طه باقر .بغداد .مغفل التاريخ . مكتبة المثنى

ففي مقاربة للنظام السياسي في ماري في الألف الثالث ، أشارت وثائق مدينة نيبور الرافدية وكيش ، عن أن ماري حكمت من قبل السلالة العاشرة بعد الطوفان ، وكان أول حكامها هو أنسود ، حيث حكم قرابة الثلاثين عاماً ، ويعتبر هذا أول حاكم لسلسلة من الحكام بلغ عددهم ستة حكموا ماري خلال 136 عاماً. ويعتقد أنهم حكموا في الفترة بين 2900 .2600 ق.م

وتشير الأبحاث إلى أن ثبت الملوك هذا لم يستوعب جميع الملوك ، حيث كشفت وثائق إبلا عن أسماء ملوك لم ترد في ثبت الملوك ، وربما حكموا في الفترة بين 2600 .2350 ق.م وهم: إيكوشمش ، سوم ، إيشتبو شار ، إيلول إيل ، أنادجن ، لمجي ماري.⁽⁴⁵⁾

وذكرنا سابقاً أن حكام مدينة ماري في فترة فاعلية مملكة أور الثالثة والذين أطلق عليهم اسم " الشكانكو " قد حكموا في الفترة بين 2266 .2008 ق.م وضمت قائمتهم 13 ملكاً أشهرهم بوزو عشتار ، الذي حكم بين 2050 .2025 ق.م ومن هؤلاء الحكام نجد: إيل كين . إيشتبو إيلوم .تورا داجان .هتلال عرا .حانون دجن .وبين 2015 .1920 ق.م ، كان ثمة سبعة حكام حكموا مدينة ماري ، إلى أن نكون في حوالي 1825 ق.م أمام حكم السلالة العمورية التي بدأت مع يجيد ليم واستمرت حتى 1760 ق.م حيث ستسقط ماري بيد حمورابي بابل . وفي طبيعة النظام السياسي في ماري ، لابد من الإشارة إلى أن الأرضية الذهنية التي طبعت هذا النظام سادت في معظم مدن المشرق العربي في الألف الثالث. ففي مجال مدينة إبلا ، نجد أن نظام الحكم الذي كان سائداً ، كان يقوم على سلطة الملك وإلى جانبه مجلس للشيوخ ، أعضاؤه من الفاعليات المشهود لها في الحياة المهنية والاقتصادية والاجتماعية والحرفية وغيرها ، حيث كانوا يشاركون الملك في اتخاذ القرارات المهمة لحماية المملكة ومصالحها.

وقد شملت معظم مدن المشرق على مثل هذه المجالس كما في أوروك وماري وكيش وأور وغيرها.⁽⁴⁶⁾ بدوره يؤكد هورست كلنغل على أن وثائق إبلا أكدت على وجود مجالس للشيوخ في أكثر من أربعين مدينة مشرقية ، تتقاسم بوضوح مع الحاكم والمسؤولين الآخرين حوله.⁽⁴⁷⁾ وكان يطلق على مجلس الشيوخ اسم " التهتامم " ويضم أعضاء مؤقتين ودائمين أو ينتخبوا انتخاباً بالإضافة إلى أعضاء كانوا يعتبرون وجهاء في مجالاتهم المختلفة.⁽⁴⁸⁾

ويقوم مجلس الشيوخ هذا بالبت بالمسائل الاقتصادية والتشريعات المتعلقة بها ، كذلك الأمور السياسية ، وكانت قراراته نافذة. ففي وثيقة من ماري تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد / وهو ما يمكن أن ينسحب على الألف الثالث / نستطيع نبين مدى قوة مجلس الشيوخ وقراراته ، حيث أن ملك ماري أبدى عدم رضاه على قرارات مجلس الشيوخ في مدينة توتول / التي كانت تتبع لفاعلية مملكة ماري / ، فأوعز الملك إلى مثليه وكان يطلق عليهم اسم " الحصانم " أن يبلغوهم بالأمر ويقولوا لهم: إن القرارات الآتية من العاصمة ماري ليست هي قرارات الملك فقط ، بل هي قرارات مجلس الشيوخ أيضاً.⁽⁴⁹⁾ وبالتالي مع هذا الأمر ، تددنا وثائق الرافدين العائدة إلى الألف الثالث ، وهي عبارة عن قصيدة ملحمة تصف صراعاً بين مدينتي كيش وأوروك يعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث تشير هذه الوثيقة إلى وجود برلمان يتألف من مجلسين ، مجلس الشيوخ ومجلس للنواب في مدينة أوروك. وكان مجلس النواب يتألف

وبنيت تلك البيوت من اللبن وأساساتها صنعت من الحجر الكلسي المنحوت. وصنعت المنشآت المائية مثل الأحواض والخزانات من الآجر المشوي. أما البيوت فكانت تُطلى جدرانها بسائل من الطين المزوج بالتبن وتلصق عليه تزيينات هندسية على شكل نواتئ وغوائر وأحياناً يضاف طرش أبيض من الكلس.

إن ما قدمته عمارة ماري في الألف الثالث يشي عن ذهنية ، حضارية عمرانية متعددة ومبدعة وهذا ما يدفع مارجرون للقول: " إن البنية المعمارية المكتشفة في ماري أحدثت انقلاباً في المفاهيم المتعارف عليها حول عمارة بلاد المشرق في الألف الثالث قبل الميلاد. / مارجرون 1996 /.

وإن تحدثنا عن عمارة الألف الثالث في ماري فلا بد أن نعرّج إلى القصر الملكي الذي عرف بقصر زمري ليم ، والذي تمّ تدشينه في حوالي 1800 قبل الميلاد ، لكن تاريخ انشائه يعود إلى فترة الثلث الأخير من الألف الثالث ، بحيث يبدو أن البدء في عمرانته تم في حوالي 2285 ق.م واستمر لعدة قرون حتى دُشن في عهد الملك زمري ليم. وتشير المعطيات على تعاقب البناء فيه قبل اكتماله ثلاث مرات حسب كل سوية. ويبدو أن مخطط هذا القصر أو فكرته مستوحاة من تقليد إبلائي عتيق ، حيث تظهر الدراسات المقارنة أن القصر خ في إبلا الذي يعود للألف الثالث قبل الميلاد ، يشابه في مخططة مخطط قصر ماري ما يعني أن فنان ماري حاول أن يحاكي تصميم قصر إبلا الذي دُمّر في حوالي 2250 ق.م.^(٥٢)

تبلغ مساحة هذا القصر هكتارين ونصف ، وأكبر طول فيه 200 متراً ، والعرض 120 متراً. ويحوي على 300 حجرة يصفه اندره بارو بأنه كان يؤلف مدينة داخل مدنية. وكان يعتبر من إحدى عجائب العالم. القصر محاط بسور مدهش ، الباحة السماوية المركزية تبلغ مساحتها 49 × 33 متراً ، وتقع قاعة العرش على أحد أضلاع هذه الباحة. ويشير بارو إلى أن معماري ماري كشفوا على أنهم رجال سياسة حقيقيين ، حيث أن هذه الباحة بإمكانها أن تستوعب من يشاء كي يشاهد الملك ويخاطبه وهذا يعكس طبيعة علاقة الحاكم مع المحكوم. الزاوية الشمالية الغربية من القصر ، تحتوي جناح الأسرة الملكية ، وقد تمّ اختيار هذا الركن لعزل الأسرة عن الصخب والضوضاء.

وقد حوى هذا الجناح الملكي على 23 غرفة متوضعة حول باحة داخلية مكشوفة ويشغل هذا الجناح حوالي 20/1 من مساحة القصر الكلية وهذا دليل تواضع وبساطة / PARROT . 1974 / ويبدو أن تصميم مخطط القصر الداخلي جعل تنقلات الملك تبدو سهلة وسريعة ، دلّ على ذلك وجود ممرات متعددة ، حيث كان الملك يستطيع أن يصل إلى أي من الأجنحة الهامة عن طريق عدة أبواب ، فمثلاً الباب الشرقي كان يقود إلى قاعة الجلسات والاجتماعات أما الباب الجنوبي الشرقي فكان يقود إلى قاعة العرش وثمة باب جنوبي يؤدي إلى غرف الأرشيف والرقم والنسخ والجناح الإداري. وتبين أن الملك يستطيع خلال دقائق معدودة أن ينتقل من مسكنه إلى قاعة العرش بها يعبر عن ذهنية معمارية عملية ومبدعة.

وفي المنطقة الشرقية من القصر عثر على عشر غرف تختص بالمسافرين وسعاة البريد والغرباء وتحتوي مطابخ وورشات وكوامين لا تزال مزودة بالفحم الخشبي حين تم اكتشافها وكانت جاهزة للاستخدام.

من أقوى مدارس الفن وأكثرها أصالة في " المشرق العربي " على حد قول أندره بارو.⁽⁵¹⁾

ففي مجال العمارة المعبدية ، كشفت التنقيبات عن معبد عشتار ، حيث يتألف من حرمين متجاورين لا يوجد بينهما باب ، وفيهما مقاعد ومنبر وقد أقيم هذا المعبد بجوار سور المدينة الغربي. وقد بنيت جدران المعبد باللبن فوق أساسات من الحجارة الكلسية . الجيرية ، ووضع فيها 13 مسباراً برونزياً. وشرق هذين الحرمين ثمة باحة ذات أرضية اسفلتية تحتوي على حوض للماء المقدس ، ومصطبة للذبائح ، ومذبح ، حيث تجرى الطقوس المعتقدية. وشرق هذه الباحة تقع مساكن الكهنة.

أما معبد عشتار الآخر ، فعثر عليه وسط المدينة ، حيث يشبه في مخططة مخطط البيوت ، وتوجه زواياه نحو الجهات الأربع. حرم هذا المعبد مستطيل يفتح على باحة تحيط بها الحجرات ، كما أنه يحتوي على مقاعد ومنبر. وهناك معبد نيني زازا الذي يجاور معبد عشتار من الجهة الشمالية الغربية ، وقد اشتمل هذا المعبد على باحة يفتح عليها الحرم كما وتحيط بها الحجرات ، وقد تم تزويق واجهاتها المطلّة على الباحة بالمحاريب. ووسط الباحة ثمة عمود بارزتي بارتفاع 1.50 م ، له وظيفة وقيمة اعتقادية.

قصور ماري:

أدت التنقيبات إلى الكشف عن ثلاثة قصور متوضعة فوق بعضها البعض ، حيث أنها بنيت الواحد فوق أنقاض الآخر وذلك على مدى عشرات السنين.

القصر الأحدث من هذه القصور يطلق عليه القصر . المعبد ويقع تحت قصر زمري ليم ، ويرجح أنه يعود إلى منتصف الألف الثالث أو مع بداية الفاعلية الأكادية. هندسة هذا القصر تشبه هندسة المعابد ، وتضيق المعالم بين الوظائف المعتقدية فيه والوظائف الزمنية. بيت العبادة في هذا القصر ، كبير ، توحى باحته المركزية على طابع اعتقادي. ففي وسطه باحة مربعة طول ضلعها 10 متر وجدرانها مزوقة بالمحاريب. وحوّث على درب مزفت ، ومنضدة نذور وحوض للماء المقدس ومذبح. وتحيط بهذه الباحة الغرف الكبيرة والصغيرة ، وفي الطرف الجنوبي عثر على قاعة كبيرة / 2.5 × 7م / تميزت بوجود قدس الأقداس فيها.

ولوحظ أن ثمة ممشى يحيط ببيت العبادة هذا ، يبدو أنه يشكل عقدة مواصلات تتفرع عنها الدروب إلى جميع جهات القصر. وعثر في هذا القصر . المعبد على بقايا عمود خشبي من أرز لبنان. الجدير ذكره أن القصور كانت تقام فوق القصور والمعابد فوق المعابد في خط الحضارة المشرقية العمراني.[⊗]

أما البيوت السكنية ، فقد أنشئت على أسس قوية وصلبة من ألواح حجرية ، وكانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف تتجمع مع بعضها البعض في كتل بينها مساحات فارغة تؤلف مساحات محاطة ببوابات. مخططها متشابه وثمة باحة تفتح عليها غرف البيت / بما يذكر بالبيت الدمشقي /.

⊗ استندنا في مناقشة عمارة ماري على كتاب الدكتور علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق. وكتاب أندره بارو — ماري. وكتاب " سومر " للمؤلف نفسه. وكتاب " فنون سومر وأكاد " — أنطون مورقات.

ففي مجال فن النحت ، تلحظ الدراسات على أن فن النحت بعامته وعلى مدى المشرق العربي كان تكعيبياً وهندسياً وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد ، ومع الألف الثالث اتجه هذا الفن للأخذ بالمنحى الواقعي ، وبمعنى آخر ، كان الفنان المشرقي بعامته يجتهد لرسم واقع منظور يحاكي الحياة مع مميزات فردية وشخصية لشخصه. وهنا كنا أمام الخطوات الأولى للانطلاق من التجريد إلى التصويرية ، حيث أصبحنا أمام تماثيل لأفراد عائلية واحدة ولكن لكل منها شخصيته وملامحه التي تميزه عن الآخر ، كما الواقع.

وهنا تستوقفنا دراسة مقارنة بين تماثيل مشرقية تعود للألف الثالث ، وتماثيل تعود للألف الأول قام بها أندره بارو ، حيث يلاحظ أن تماثيل الألف الأول قبل الميلاد كان من المستحيل تمييزها عن بعضها البعض ، فتمثال شاروكين الآشوري مثلاً لا يختلف عن تمثال سنحاريب أو آشور ناصر بعل أو آشور بانبيعل ، وفي حين أن تماثيل الألف الثالث تميزت بدقة الملامح وتمييزها بين الشخصيات تماماً كما الواقع. ⁽⁸⁾

ونحن نعتقد أن سبب هذا الانحدار في الألف الأول ، يعود لمجمل الظروف الموضوعية التي تحكمت بحركة التاريخ في تلك الفترة بحيث أن المجالات الروحية لم تأخذ حيزها الطبيعي. وبالالتفات نحو منتصف الألف الثالث ، نجد كثافة وغزارة في إنجاز تماثيل فردية لمتعبدين وهذا على مدى مدن المشرق العربي. وكانت تماثيل ملوك ماري وتماثيل كبار الكهنة توضع كتماثيل نذرية في المعابد ، كتقدمة للآلهة. وتشير المعطيات الأثرية إلى أنه كان هناك مشاغل في ماري تقوم بصناعة التماثيل ولا سيما اللاشخصية حيث تباع للحكام والكهنة من أجل وضعها في المعابد.

وتغزر التماثيل الرجالية مقابل قلة التماثيل النسائية / هذا على عكس العصر السابق حيث كان الحضور الأنثوي في مجال التماثيل ، طامغياً. تماثيل العباد هذه تبلغ 40 سم طولاً ، وتحمل معظم هذه التماثيل صفات عامة ، لرجل له لحية مستطيلة طويلة ومتجعدة ، أما شعره فطويل ومضفور بحيث يتدلى على جانبي الرأس وفوق الظهر وبجانب اللحية. وثمة تماثيل لرجال متعبدين حليقيين ، ويرتدي الواحد منهم مئزرًا معدقاً ، يستر الأطراف السفلية من الخصر حتى تحت الركبتين ، ويشده حزام عريض إلى الخصر ، ويلاحظ تشابك اليدين على الصدر العاري ، أما العيون فكانت مصنوعة من نفس الحجر وأحياناً من الصدف أو من حجارة ذات لون مختلف عن لون حجر التمثال في حين أن الجفنان من القار. ⁽⁹⁾

أما لناحية أسلوب النحت ، فقد عمد الفنان إلى تحرير جسم التمثال عن الكتلة الحجرية ، بحيث استطاع إظهار أعضاء الجسم كالذراعين والساقين والرأس ، مع الاحتفاظ بتوازن التمثال. الجدير ذكره أن الفنان النحات كان يخضع في عمله لنظم محددة أهمها أن الفواصل بين أعضاء الجسم البشري ذات شكل منتظم وكذلك المحيط الخارجي للجسم البشري. كما استطاع النحات حصر الكتفين والعندين والخط الواصل بين المرفقين المار بالحزام ضمن إطار مستطيل أو مربع.

⊗ انظر أندره بارو. سومر. 1978. العراق. وزارة الثقافة.

⊗ انظر. علي أبو عساف. فنون الممالك القديمة. مرجع سابق. وأندره بارو. سومر. مرجع سابق.

ويشير بارو إلى أن الناس كانوا يتحدثون عن هذه العجيبة ليس في بابل وحدها / وذلك خلال الألف الثاني بل حتى الشواطئ التي تغيب فيها الشمس أيضاً.

الجدير ذكره أن عدد طوابق القصر اثنان ، وثمة مجمعات أبنية تتوسطها باحات ، كما عثر على أفنية لتصريف المياه المالحة. وقد دلت الكشوف والدراسات على أن هذا القصر أبان عن تقنية جديدة في البناء تجلّت في وجود محاجر مقولبة في سقف قاعة لعرش وهذا الأمر يعتبر ميزة جديدة وهي الأولى من نوعها في المشرق العربي آنذاك. وبشكل عام يبدو مخطط هذا القصر متماشياً مع التقليد العمراني العام لقصور المشرق العربي.

وهنا تستوقفنا دراسة قام بها الباحث أوليفيه أورانش تحت عنوان " الملاحظات العرقية وأثرها في فهم الأوابد القديمة. قصر ماري وقصور " الشرق الأوسط " المعاصرة " ⁽¹⁰⁾ حيث يقارن الباحث بين الفن المعماري القديم والفن المعماري الحديث في المشرق العربي ولا سيما في نطاق القصور ويصل إلى استنتاجات عديدة:

أولها: تبين نتيجة الدراسة المقارنة بين الفن المعماري القديم في ماري والهندسة المعمارية القائمة حديثاً على أن النتيجة إيجابية لجهة الخصائص الفنية والروحية.

ثانيها: تبين أن جميع وظائف قصر ماري قد وجد لها مثيلاً في مجتمعات القصور المعمارية المعاصرة.

ثالثها: أن العوامل الاجتماعية التي أثرت على تكوين الفراغ والبناء في حضارة المشرق العربي ، نجدها في الحضارة الإسلامية التي تلتها وفي الوسط الجغرافي ذاته.

فنون ماري في الألف الثالث:

إذا كانت الفنون المجتمعية لا تنفصل عن حركة المجتمع وطبيعته وتجلياته المختلفة ، فإن هذا ينطبق على مساق بحثنا في فنون ماري ، يقول أندره بارو: " إن الفن حلقة في سلسلة لا نهاية لها ، حلقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما سبقه وبما سيعقبه ⁽⁵³⁾

والفن في ماري في هذه الفترة ، سواء لجهة فن النحت أو النقش على الأختام الأسطوانية والأواني الحجرية إلى الرسوم الجدارية وغيرها ، لا يشذ عن القاعدة الذهنية التي حكمت الخط الحضاري الفني المشرقي بعامته ، إلا في بعض الإبداعات المميزة أو الطفرات التي كانت تنبثق من هنا أو هناك.

بالإضافة إلى هذا فإن تعدد المذاهب والمدارس الفنية بين مدن المشرق العربي يتبدى واضحاً من خلال الأعمال الفنية ، وإن كنا قبل عصر ماري / قبل نهاية عصر فجر التاريخ 3500 - 2900 ق.م / قد شهدنا مثل هذا التنوع ، وهذا ما نلاحظه مثلاً حين مقاربتنا للنقش على الأختام الأسطوانية ، كذلك في مجال فن نحت الدمي ، فإن مواقع الجنوب الرافدي اتصفت بميلها إلى المذهب الواقعي / دون أن تدري طبعاً / أما في الشمال في تل براك وآشور فنشهد اتباع الأسلوب التجريدي. ⁽⁵⁴⁾

فإذن ، ضمن المنظومة الفنية العامة ، والخط الحضاري الفني ، نشهد حالة من الغنى والتنوع ، وهذا ما يُفعل المنجز الفني ويُغنيه ويجعله إنسانياً في مستواه الإنساني.

⊗ انظر فيصل عبد الله. دراسات تاريخية 37. 38 - قراءة في خمسة مجلدات من ماري.

فن النقش على اللوحات:

عثر في مواقع المشرق على لوحات منقوش عليها أو مسلات ، وقد تضمنت هذه النقوش مجلساً للشرب ، وقد كشف موقع مدينة ماري عن عدة كسر من اللوحات نذرية تحتوي في مضمونها مجلساً للشرب. صُنعت من الحجر الجيري كما عثر على كسر أخرى بلغت أبعادها بعد جمعها 11.6 × 6.3 سم ، وعثر عليها في القصر المعبد في ماري. وقد عمد الفنان إلى حصر المشاهد في تسع مربعات ، تم توزيعها على ثلاثة حقول متدرجة تفصل بينها أثلام ، ويبدو أن المشاهد لا تؤلف موضوعاً واحداً. فنرى في المشهد الأول ، شخص عار لحياي ذو شعر مضفور يمسك بكلتا يديه ثورين ، لهما وجه إنسان ، وينتصبان على القائمين الخلفيين. أما المشهد الثاني فهو لنسر بوجه أسد ينشب أظفاره بعنزتين جبليتين. وتعود هذه الكسر إلى حوالي 2500. 2350 ق.م ، وقد اعتمدت الأسلوب الواقعي.

ويبدو أن النسر الذي برأس أسد وهو ما يسمى بالسومري الأكدي / أنزوجود / كانت تصنع له دمي ، عثر على واحدة منها في ماري مع مجموعة من التحف الثمينة التي كانت معبأة في جرة مطمورة بأرضية القصر المعبد الذي يعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وقد تألف الجسم من حجر اللازورد والإسفلت والنحاس والذهب ، ارتفاعه 12.8 سم وعرضه 11.8 سم.

أما في مجال فن الترسيع ، فقد كانت أور وماري من أكثر مدن المشرق شهرة بذلك. وقد أبانت تقييات ماري عن وجود لوحة سميت " لوحة الحرب " بحيث صنعت من العاج واللؤلؤ والحجر بدقة عالية ، يظهر فيها رجال القصر يبذلون الاحتفال والأوسمة المبرقة والسدارة وهم يحملون بلطات. ويستقبلون الأسرى العراة تحت حراسة الجنود. وما يميز هذه اللوحة أن الفنان استطاع أن يميز بين الصديق والعدو حسب اللباس. وأيضاً هو استطاعة الفنان أن يعكس انفعالات الشخص بوضوح بشكل واضح.

كما عثر على لوحة تمثل مشهد أضحية من الحجر الكلسي الوردي والحجر المشقف والعاج واللؤلؤ بقياس 25.7 × 17 سم. وكذلك على لوحة مركبة من اللؤلؤ والحجر المشقف والعاج حوت على مشاهد اعتقادية وأبعادها 52.6 × 25.9 سم. وتحفل مقتنيات ماري بفن النقش على الأواني الحجرية أيضاً وفن النقش على الأختام الاسطوانية. والطريف أيضاً ، هو العثور في ماري على أقراص حلوى منقوش عليها مشاهد حياتية ، كمشهد صيد أو رسومات أو أساطير ، وهذا يعطي انطباعاً على أن ثمة مع كل قطعة حلوى ، قصة ، على حد تعبير الباحث حميدو حمادة - / 2002 /.

الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث

إن مناقشة طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث ، لا تشذ عما ألفناه سابقاً ، من الأخذ بمعايير أساسية شكلت القاع الثقافية لعالم الألف الثالث في المشرق العربي ، فمن طغيان الثقافة الرافدية وتجلياتها ، إلى تزايد التواجد الأكادي. العموري ومن ثم حصول نوع من التفاعل والتعايش والتمازج بين كل الأرومات الديمغرافية ، كل هذا شكل قاعدة لإمكانية دراسة الحياة اليومية في الألف الثالث في ضوء المعيار الأساسي المتجلي في التفاعل والتمازج ، بما يُذكر بمقولة الفرد هالدار:

ويشير د. أبو عساف إلى أن ظاهرة حصر العمل ضمن إطار هندسي ، شغلت بال الباحثين الذين رأوا فيها مقاربة بين النحت في الحجر والقطع في الخشب وسكب المعدن وطرقه.

وقد عثر في معابد ماري وفي المدينة ذاتها على مجموعة كبيرة من التماثيل للعباد الورعين ، وعلى مدى 2700. 2350 ق.م أنتجت ورشات ماري تماثيل لرجال واقفين وجالسين / ولو بشكل أقل / وكانت تماثيل النساء ، لنسوة واقفات وجالسات ، حفاة ، يرتدين ثوباً طويلاً فضفاضاً يستر الجسم ، لكن الكتف الأيمن يبقى مكشوفاً. وثمة عباءة وقلنسوة يتسترن بها.

وبالإضافة إلى التماثيل اللاشخصية ، عثر في ماري على تماثيل شخصية كما لملك ماري لمجي ماري / 2400. 2350 ق.م. وكذلك تماثيل الملك إيكو شماكان 2500 ق.م ، وتماثيل للموظف ايش ايل 2700. 2600 ق.م ، ويعتبر هذا التمثال من أجمل تماثيل ماري لمدلولاته الفنية وإيماءاته نسبة لفترته.

كما تنبغي الإشارة هنا إلى تماثيل المغنية أورنينا / أورنانشه / الذي عثر عليه في معبد نيني زازا وقد نذره لها ملك ماري إبلول إيل. ويعتبر هذا التمثال من الأعمال المميزة حيث تبدو المغنية جالسة على أريكة صغيرة وقد انحسر ثوبها إلى أعلى متجمعة على الفخذين فوق الركبتين وقد فقدت اليدين والآلة الموسيقية من التمثال.

وفي إطار آخر مميز أظهرت منحوتات ماري لتماثيل أخرى تختص بزواج / رجل وامرأة / حيث يحتضن الرجل المرأة في حنان وحب وقد بدا أن الرجل يرتدي مئزرًا معذقًا وجذعه عاري في حين أن المرأة ترتدي الرداء المغدق المكشوف عند الكتف الأيمن وهذه التماثيل انفردت بها ماري عن بقية مواقع المشرق العربي المعاصرة. وكانت المواد الأكثر استخداماً في نحت التماثيل هي الجص الذي يتواجد بكثافة في مقالع قريبة من ماري وعلى أطراف بادية الشام. "ومما يثير الدهشة أن نرى أن هذا الحجر الرديء من كل النواحي لم يحل دون بلوغ بعض التماثيل صفة الكمال تقريباً ، وكان أهل ماري معلمين حقاً في شتى الهياكلين" (٥٥).

وبالإضافة إلى الجص كان ثمة تماثيل مصنوعة من الرخام الذي كان يجلب من أماكن بعيدة عن الفرات ، كما استخدم فنانو ماري اللازورد الذي كان يجلب من أفغانستان لتشكيل العيون في التماثيل. كما أنه صنعت تماثيل من البرونز ، وفي معرض مقارنته بين تماثيل إبلو وماري يشير الباحث أبو عساف إلى أنه في إبلو لم يعثر على تماثيل حجرية بالمطلق بل عثر على تماثيل مركبة من مواد عدة كالحجر والخشب والصدف والذهب وتبين من خلال الدراسات المقارنة أن ثمة تماثلاً من إبلو يشبه تماثيل ملك ماري / لمجي ماري / (٥٦).

وفي مجال الفسيفساء والأختام الاسطوانية يشير الباحث ببيير أميه إلى أن موقع ماري قدم أكبر مجموعة من الأختام وطبعاتها ، في حين أن الخيال الذي كان مصدر إلهام الفنان في ماري ، جعل التكوين الفسيفسائي أكثر رقة من القسوة الرافدية. فقد عثر على كسر من لوحات فسيفسائية مركبة من قطع الصدف والعاج والحجر الكلسي الأحمر والحجر المشقف حوت على مشاهد عديدة تُذكر بما عثر عليه في أور الرافدية.

كما تجمع الدراسات على أن أهل ماري كانوا معلمين بارعين في زخرفة الأواني الحجرية النذرية.

مبكر لكنه كان قليل الاستعمال بسبب غلاء ثمنه حيث يفوق سعر الفضة بثماني مرات.⁽⁶⁰⁾

ولم يكن الطفل في ماري يُعرف باسمه. بل باسم امه ، إلى أن يكبر ويذَّب على قدميه ، وثمة وجود لطقس يختص بترسيم الأطفال حيث يتم إلباسهم ثياباً جميلة لأول مرة في حياتهم.⁽⁶¹⁾ وتذكر الوثائق أيضاً ، إقامة حفلات موسيقية في القصر ، حيث يُذكر مكان فرقة العزف ووجود مغنين ومغنيات / كما في تمثال المغنية أورينا /. وقد عثر على آثار فعالية موسيقية منظمة في معبد داجن في ماري ، كما عثر في القصر الملكي على مدرسة لتعليم الموسيقى.⁽⁶²⁾

وقد تمت الوثائق أيضاً / ومنها ما يعود للألف الثاني / طرائف من المعلومات عن حال الطقس عندما يتخذ الناس مدخلاً للحديث بينهم.⁽⁶³⁾ كما كان في ماري أطباء ، وورد في أحد النصوص عن إيفاد طبيب ماهر بمعالجة التهاب الأذن إلى مكان يبعد عن ماري حوالي 100 كم. وأبانت التنقيبات عم وجود قطع طينية لها شكل أكباد عليها كتابات ذات قيمة سحرية⁽⁶⁴⁾ ، بالإضافة إلى وجود بيطريين وحرفيين وقواد جيش وعزافين.

ونعتقد أنه في ماري ولا سيما في فترة ازدهارها في منتصف الألف الثالث ، كان ثمة خدمة عسكرية فقد أشارت وثائق الألف الثاني المبكرة إلى وجود هذه الخدمة ، حيث كان الملك يرسل الدعوة للناس للالتحاق بالخدمة العسكرية وكل من يتهرب يتعرض لعقوبة " الخازوق ".

ومن طرائف الأمور أيضاً ، ما ذكره الباحث حميدو حمادة / 2002 / ، من أن الرقم المسمارية التي كان يبطل مفعولها كانت توضع تحت أساسات الجدران كنوع من التقدير والاحترام لعالم الكتابة. وتشير الوثائق إلى وجود ورشات تصنيع العطور والبيرة ومستودعات للثلج في القصور لتخزين النبيذ. والجدير ذكره هنا هو أن المرأة المتزوجة في ماري كانت تضع غطاء على الرأس في تفريق عن غير المتزوجة.

وفي مجال الحياة الزراعية ، كان الري في ماري يتم في شهري آب وأيلول ، حيث كان يجري بطرق صناعية عبر الجداول والأقنية ، أما الحصاد فيتم في شهري نيسان وأيار ، حيث يتزامن هذا مع بدء فيضان نهر الفرات. وتشير الدراسات إلى أن متوسط عدد سكان المدن الكبرى في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً ، أما أوروك فقد بلغ 40 ألفاً ، وهذا مقارنة مع مساحتها.⁽⁶⁵⁾ ونعتقد أن سكان مدينة ماري في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً حيث أن قطرها بلغ حوالي 2 كم كما مدينة نيبور. ومنذ عصر ماري المبكر ظهر العدد مئة / MIAT / في نصوص ماري ، ومع بداية الألف الثاني يظهر فيها مئة وألف / ميات وليم /.⁽⁶⁶⁾

وفي مجال التاريخ ، كان اسم الشهر ورقم السنة الملكية يستخدم في ماري وإبلا وموقع أبو صلابيخ ، وقد ظهرت بعض أسماء الأشهر في تقويم ماري وأبو صلابيخ.

ويشير الباحث شاربان إلى أنه أمكن بواسطة نصوص ماري تحديد ترتيب الشهور في تقويم إبلا بشكل صحيح من خلال خمسين رقماً تعود إلى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.⁽⁶⁵⁾

" كان هناك عملية تبادل بين المجموعات ، بين الشرق والغرب / في المشرق العربي / ، وهذا يعني أن العموريين المستوطنين في بلاد الرافدين ازداد عددهم بشكل مستمر ، وأخذت هذه العملية في التسارع ، كما تراجعت في فترات ، ولكن منذ أول ذكر للعموريين في 2600 ق.م وحتى 2000 ق.م ، تكاملت هذه المسألة "⁽⁵⁷⁾ ولعلنا في مقاربتنا للحياة اليومية في مملكة ماري في هذه الفترة ، سوف نستند على وثائق الألف الثاني ، لقلة الوثائق العائدة للألف الثالث في هذا المجال ، كما أن الوثائق الرافدية المعاصرة ، تُقدم معلومات عن طبيعة الحياة اليومية هناك ، وهذا برأينا يمكن أن ينسحب بشكل عام على مواقع الجناح الشامي.

مع الإشارة إلى اكتفاءنا بالخطوط العامة دون الدخول في التفاصيل ، التي تختص بمدينة ما ، وكذلك دون إلصاق معالم الألف الثاني بشكل كامل وقطعي وجازم بعالم الألف الثالث ، علماً أن من يلاحظ طبيعة انتقال السلطة السياسية مثلاً في ماري مع نهاية الألف الثالث ولا سيما بعد انتهاء حكم سلالة " الشكاناكو " سوف يجد أن انتقال السلطة من هذه السلالة إلى السلالة العمورية ، كان انتقالاً سلساً وعفويّاً ، لم يوازه انقلاب مفاجئ في القيم والمعايير والرموز ، بما يعني أن المنظومة الحضارية التاريخية في الألف الثالث عُبِرت إلى الألف الثاني بشكل طبيعي ، وهذا ما يعطي صفة التواصل والاستمرارية بُعداً مهماً في قراءة الحياة اليومية في المشرق بعامة وماري بخاصة في الألف الثالث. والأساس في كل هذا هو أن الثقافة العمورية تمثلت الثقافة السومرية . الأكادية ومن ثم أضافت عليها ، وهذه تشكل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة في المشرق العربي.

وبالعودة إلى معالم حركة المجتمع في مملكة ماري في الألف الثالث قبل الميلاد ، فإن ما أشرنا إليه من نشاط الحياة الاقتصادية والتجارية والحرفية والاجتماعية وغيرها ، ينبئ بأننا أمام وجود مؤسسات تُعنى بفاعليات هذا المجتمع ، كي تُنظم شؤونهم وتصيغ نمط علاقات حضارية بين الأفراد وبين المؤسسات ، وهذا ما تشير الوثائق إليه. فالغرباء في ماري ، كان يحقّ لهم إنشاء جمعيات أو نقابات تُعنى بشؤونهم وأحوالهم ، كما توجد جمعيات للمساكين / الفقراء / كان يطلق عليها اسم " موشكينوم " / ويأمكننا ملاحظة مبلغ التشابه الكبير بين هذه الكلمة الأكادية وكلمة مسكين أو المساكين بالعربية /. ونعتقد أن أغلب مدن المشرق في هذه الفترة ، شهدت وجود مثل هذه الجمعيات أو الاتحادات ، كما أنه كان للتجار جمعيات تُسير أحوالهم وتضمن حقوقهم وتحل مشاكلهم ، وكانت هذه الجمعيات تمثل التجار في الوساطة بين القصر والسكان. وكان يطلق على هذه الجمعيات اسم " كاروم " / الكار = المهنة في العربية /. وكان التنقل في المراكب النهرية يتم وفق نظام ملاحية مستقل ، تديره تلك الجمعيات ، وتذكر إحدى الوثائق أن أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ مدينة ايمار ، كان ينتظره ستون رجلاً لتهيئ الطريق له ، حيث يتجهون نحوه مع الحرس وملاح خبير بإرشاد السفن ، كما تكون بانتظاره 30 طوافة في المياه.⁽⁵⁸⁾

وأشارت نصوص ماري إلى أن التجار العابرين / عبرها / كانوا يقدمون هدايا من بضائعهم للمدينة ، وكانت الضرائب لا تشمل تنقل الأفراد بل كانت على البضائع التجارية فقط.⁽⁵⁹⁾ ويشير الباحث هنري ليميه إلى أن وثائق ماري تشير إلى معرفة أهل ماري للحديد منذ وقت

⊗ حميدو حمادة - 2002

⊗ سوف نناقش طقس قراءة الأكباد الحيوانية في الحياة الاعتقادية للألف الثاني قبل الميلاد.

ولعل العلاقة هذه تشكّل محوراً مهماً في طبيعة العلاقات المدنية بين مدن المشرق العربي آنذاك وعلى هذا ينبغي النظر إلى العلاقة كجزء من حركة التاريخ الكامل في المشرق ، لأنها تتممها أولاً ، وفاعلة فيه ثانياً. يقول هورست كلينغل: " لقد كان لسورية تأثيرها وجاذبيتها من الناحية الاقتصادية ، فقد ألقت جزءاً من الهلال الخصيب بسهولها الواسعة التي كانت تجذب المزارعين بطرقها الجوية الجيدة وترتبتها الخصبة وأمطارها. وكان هذا الحال بخاصة في شمال سورية ووسطها"⁽⁶⁹⁾

وقد قدّمت كشوفات إبلا العائدة لسويات الألف الثالث قبل الميلاد عن وجود علاقات بين إبلا ومواقع الجنوب الرافدي من ناحية ، ومع مصر من الناحية الأخرى. والذي يبدو أن تلك العلاقات كانت تتم كلياً أو جزئياً عبر مراكز أخرى مثل ماري وجبيل. وبالعودة إلى معالم نشوء المدينتين ، فإن كانت ماري تعود في تأسيسها إلى بداية الألف الثالث ، فإن إبلا بما وصلت إليه من ازدهار وتطور في منتصف الألف الثالث ، يستند بقوة إلى تراكم حضاري ، تاريخي يعود في بدايته إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

وهنا تجدر الإشارة إلى وجود عمق في الاتصالات والعلاقات الثقافية بشكل مباشر وغير مباشر ، بين إبلا وماري في الجناح الشامي مع موقعي كيش وأبو صلابيخ في الجناح الرافدي وذلك في الألف الثالث. مع النظر إلى أن علاقات ماري وإبلا لم تخرج في عمقها السياسي عن علاقات دول . مدن ذات مصالح ، ايجابية حيناً وسلبية حيناً آخر ، وهذا ما يفسر تذبذب العلاقات بين المدينتين / المملكتين / ، والذي يبدو أنه ومع منتصف الألف الثالث حُسمت علاقتهما لجهة المصالح الإيجابية وهذا ما انعكس في ازدهار المدينتين.

وتشير المعطيات إلى أنه في فترة حكم ايكوشار وحيدار في ماري ، هدأت فاعلية ماري وبدأت المدينتان تنظمان علاقتهما بشكل وثيق ومدروس ضمن مسار وحدة حياة اجتماعية . اقتصادية . ثقافية. بحيث ازدهرت التجارة بينهما وتم تنظيم معاهدات سهلت تنقل التجار من وإلى ماري وإبلا ، وإلى مدن أخرى مثل كيش في الرافدين ، وقدمت الوثائق معلومات عن انتقال حرفيين ونساجين وصنّاع أثاث بين المدينتين.⁽⁷⁰⁾

ولعل مقارنة الحدود السياسية لكل المملكتين توضح مبلغ التداخل والاحتكاك والذي ساهم بدوره في خلق التجاذب والتناوب بينهما. ففي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، امتدت حدود مملكة إبلا من منطقة الفرات الأوسط في الشرق وحتى سواحل البحر المتوسط في الغرب ، ومن سهول حمص في الجنوب وحتى جبال طوروس في الشمال. ويعتقد أن نفوذها ربما وصل إلى جاسور في الرافدين. أما مملكة ماري ، فلا يمكن إلى حد دقيق تحديد حدودها السياسية ، كونها كانت خاضعة للتجاذبات من مد وجزر تبعاً لحركة التاريخ آنذاك. غير أن الباحث ألفونسو آرقي يشير إلى أن نفوذها في الألف الثالث ، امتد حتى كركوك في فترة حكم إبلول إيل ، ومنطقة كوموكينا في الأناضول ، كما أن إبلا دفعت الجزية لماري أثناء حكم هذا الملك.⁽⁷¹⁾

وفي فترة حكم اشتوب شار في ماري ، خضعت إيمار لفاعلية ماري ، حيث كانت إيمار مدينة مهمة كونها تشكّل ميناء مهماً على الفرات تنتهي إليه عدة طرق تجارية. وكانت دوماً تقع تحت سلطة الفاعلية الأقوى لمدن ماري أو إبلا أو حلب أو كركميش.

وفي وثيقة حقوقية المضمون تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ ماري ، يشير الباحث جان ماري دوران إلى احتواء الوثيقة على أسماء سومرية وأكادية تخص بأشخاص ، بما يعطي دليلاً على طبيعة التفاعل والتمازج الاجتماعي في ماري. وقدمت هذه الوثيقة على أن المرأة في ماري كانت تحوز على ملكية خاصة منذ نهاية الألف الثالث ، إن لم يكن قبل ذلك.⁽⁶⁶⁾

وإن كانت وثائق الألف الثاني قد قدمت معطيات عن الحياة الزراعية فإن الذي نعتقده أن هذا ينسحب على عالم الألف الثالث ، حيث كان ثمة نظام يطلق عليه " الايلكو " ILKU ، ويعني " يخدم أو يؤدي الخدمة " ، حيث كانت الأراضي التابعة للقصر تُعطى للأشخاص الراغبين من أجل استثمارها واستغلالها مقابل تأدية خدمات وضرائب للدولة ، وقد عرف هذا النظام في الألف الثاني في منطقة تمتد من جنوبي بلاد بابل وماري والألاخ ونوزي وأوغاريت وغيرها.⊗

أيضاً تقدم المعطيات العامة على أن سعر النبيذ في ماري كان أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت. وفي الإجراءات والأنظمة التجارية تقدم معطيات الألف الثاني جملة من المعلومات التي باعتبارنا تنسحب على عالم الألف الثالث ولاسيما في جذورها وأساساتها. فمثلاً في إجراءات نقل البضائع والقوافل بين ماري وحلب ، كان على تاجر ماري أن يعتمد على تاجر حلب فيما يخص إجراءات تفرغ ونقل بضائعه في إيمار / حيث كانت تتبع لفاعلية حلب السياسية / ، وعلى هذا فالتاجر الحلبي كان يعتمد على تاجر ماري في نفس الإجراءات في مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري/.

وتشير المعطيات بشكل عام إلى أن السفن الحاملة للبضائع كانت تخضع في ماري لدفع الرسوم والضرائب ، وأي تهرب يدفع سلطة ماري إلى مصادرة البضائع وحجز السفينة ، والطريف أن هذا الإجراء يدفع مدينة السفينة المحتجزة إلى اتباع نفس الأسلوب مع السفن في ماري. أما مبلغ الرسوم فكان يحدد بحسب طبيعة البضائع ونوعها ونوعيتها.⁽⁶⁷⁾

وفي مجال لغة ماري في الألف الثالث ، فقد أشار شاربان استناداً إلى نصوص ماري في الألف الثالث ق.م أن لغة ماري تتكون من لهجة مارية مع السومرية التصويرية.⁽⁶⁸⁾

وقد أشار هنري ليميه إلى أن فنانون ماري أبدعوا في صناعة الحلبي والمجوهرات حيث استخدموا الذهب والفضة والبرونز والالازورد والعقيق.. وغير ذلك.⊗

ماري وإبلا في الألف الثالث قبل الميلاد

لعلنا في دراستنا لطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا في الألف الثالث ، نكون أمام معايير عدة ، منها ، أن وثائق إبلا في الألف الثالث / في نصفه الثاني / قدمت معلومات مهمة عن ماري وأحوالها وحتى حياتها في كافة المناحي.

وإن مقاربتنا هذه لا تأخذ صفة الانتقاء بقدر ما أن العلاقة بين هاتين المملكتين في هذه الفترة ، تشهد على وجود نوع من دورة حياة حضارية واحدة في كافة المجالات.

⊗ انظر عبد مرعي . ملكية الأرض في عهد حمورابي . دراسات تاريخية 35 . 36 . 1990 . دمشق

⊗ فيصل عبد الله . دراسات تاريخية . مرجع سابق .

الموسيقا من ماري / حوالي 23 عازفاً مع مديرهم / مع آلاتهم إلى إبلا وكذلك انتقال معلمين وكتاب.

وفي موازاة كل هذا ، حفلت الحياة الثقافية والفنية بين المدينتين / المملكتين / بأوجه تفاعل لا بل تهاؤ نجاد آثاره في فن العمارة وفنون النحت المختلفة. فالباحث أبو عساف يشير إلى أن مدرسة إبلا الفنية ومنذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، كانت على صلة وثيقة بمدينة ماري وبالجنح الشرقي للهِلال الخصيب / أبو عساف 1990 /.

بناءً على كل هذا يمكننا رصد بضع استنتاجات تختص بطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا وكذلك في إيضاح طبيعة الحياة اليومية ومجرياتهما ونظامهما في ماري اعتماداً على الوثائق الإبلوية:

أولاً: أن هذه الحركة التجارية النشيطة والمميزة لتجار ماري ، تجعلنا أمام تأكيد أن هناك جمعيات أو هيئات تجارية عريقة في مدينة ماري كانت تنظم مجريات الحياة التجارية وتسهلها ، وأن هذه الحركة التجارية ، لها ارتباط عميق بحركة الملاحة النهرية التجارية والتي بدورها كانت تسير وفق منظومة مجتمعية إدارية فعلتها وأدارت أمورها. ثانياً: أن تفاعل المجتمع في ماري ، ديمغرافياً واجتماعياً ، ثم تفاعله الإيجابي مع الطبيعة وممكناتها ، ساهم في خلق اقتصاد مجتمعي نافذ وقوي أدى فيما أده إلى تفعيل لدور مملكة ماري الحضاري وهذا ما سنجدّه في ماري العمورية مع الألف الثاني قبل الميلاد.

ثالثاً: أن وجود فعاليات ثقافية / أدبية . موسيقية . تعليمية / ، وثقتها نصوص إبلا ، تجعلنا أمام تثبيت أن مجتمع ماري في الألف الثالث ، كان مجتمع ذو بنية مؤسسية فاعلة. فأن يأتي أحد معلمي الموسيقا ومعه 23 متبرناً إلى إبلا ومع آلاتهم ، فإن هذا يعطي انطباعاً أننا أمام نشاط مؤسسي في هذه الحقبة المبكرة من التاريخ الجلي.

وهذا ما يشير إلى مبلغ التطور الذي بلغته الحياة الروحية في مدن المشرق ، مُعبراً عنه في مدينة ماري وإبلا. وهنا تستوقفنا مقولة الباحث مارجرهون من أن " نهر الفرات سمح لسورية أن تسرع بعملية التمدن ، ذلك أنه يسهل لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد ، وهو دائماً ، وللأسباب ذاتها الذي صَهِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد". مع الإشارة هنا إلى أن نهر الفرات لم يتحول إلى حدود فاصلة بين جناحي المشرق العربي إلا مع الاحتلال الروماني لبلاد الشام في القرن الأول قبل الميلاد.

بهذا نكون قد قدمنا مقارنة لواقع مدينة ماري ومملكتها في الألف الثالث قبل الميلاد ، وعلى مدى حوالي ألف سنة ، وإن كانت وثائقها في هذه الفترة لا ترضي البحث التاريخي ، غير أن تواصل الحضارة في المشرق العربي بين المدن كافة وفي كلا الجنحين استطاع أن يضيء بشكل بانورامي على حياة هذه المدينة /المملكة في الألف الثالث.

وبالاتجاه نحو ماري العمورية مع الألف الثاني قبل الميلاد ، سنصبح أمام كمّ هائل من الوثائق التي تضيء على مناحي الحياة كافة في مملكة ماري لنحو 150 عاماً ، حتى سقوطها تحت ضربات حمورابي البابلي. ولعلنا نشارك الباحث كاي كولهاير قوله في " أن المأثورات المادية التي تركها سكان إبلا أقل تأثراً بكثير بحضارة بلاد الرافدين من تلك التي خلّفتها ماري ".

وكون الواقع الاقتصادي . التجاري فرض نفسه كرائز أساسي في العلاقات بين المملكتين ، فقد أشرنا سابقاً إلى أن طريق اللازورد والمواد الثمينة مثل العقيق والذي كان ينطلق من أفغانستان ووادي السند وينتهي بمصر ، كان يعبر مدناً مشرقية منها ماري وإبلا ، وهذا ما درّ أرباحاً طائلة على المدينتين ، وفضل ذلك يعود إلى نهر الفرات الذي كما قلنا شكّل عصب التجارة آنذاك بين الشرق الأقصى وما بعد المشرق العربي غرباً.

وقد أشارت إبلا في نصوصها ، إلى أن ماري كانت تشكّل مفتاح السيطرة على التجارة النهرية الفراتية. وأبانت كذلك عن وجود كتّاب شباب من ماري سوف يأتون إلى إبلا. وأن ثمة استاذاً للرياضيات قادم من مدينة كيش إلى إبلا لغاية التعليم ، وأشارت نصوص موقع أبو صلابيخ الرافدي إلى كتّاب أكاديين.

وتحتل وثائق إبلا أيضاً بمعلومات عن ريادةتها في صناعة الأنسجة ومن ثم تصديرها إلى مدن كثيرة ، وبينت أن ماري كانت ترفدها بالنساجين والحرفين. فقد كشفت وثائق إبلا عن قدوم نساجين إلى إبلا من ماري بالإضافة إلى تسعة حجارين ونجارين وحدادين. وكذلك عن وجود مغنين صغار ومغنين كبار من ماري في إبلا ، لا بل أشارت إحدى الوثائق إلى حصول أو استلام مغن صغير من ماري على 46 ثوباً من إبلا.

وقد نقلت إبلا الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية إلى ماري وكذلك النبيذ والشعير والمنسوجات والمفروشات وبالمقابل ، كانت ماري تنقل الأحجار الكريمة / لازورد . عقيق /.

كما أن أحد النصوص يشير إلى وصول 1028 كيلو غراماً من الفضة و 63 كيلو غراماً من الذهب من ملك ماري إبلول إيل وشيوخ ماري إلى إبلا. بالإضافة إلى نصوص تتحدث عن إرسال كميات من الفضة والذهب من إبلا إلى ماري عبر تجار للحصول على مواد من مدينة ماري.

أيضاً ثمة ذكر لنقل لازورد من ماري إلى إبلا والعكس كذلك ، وثمة ثوبان ولازورد تمّ إرسالهم من قبل ملك إبلا إلى ملك ماري. ويبدو أنه كانت تحصل صفقات تجارية بين تجار المدينتين ، فقد أشارت نصوص إبلا إلى صفقة تجارية بين ماري وإبلا أساسها مقايضة الأحجار الكريمة واللازورد والعقيق وغيرها بأنسجة إبلوية. وثمة نص يتحدث عن 46 ثوباً لمغنيين كبيرين من ماري و 42 ثوباً إلى 21 مغنياً من ماري. وتشير المعطيات إلى أن تجار ماري كانوا يعملون في إبلا بأعداد كبيرة وقد اتخذوا من بعض المدن مركزاً لتجارتهم. ويبدو أن حيوية تجار ماري وهذا يعود لإشراطات المدينة نفسها ، أدت إلى تفعيل هذا النشاط التجاري بين المدينتين ، حيث لعبوا دوراً أساسياً في تجارة إبلا ، وهذا ما أفصح المجال للتجارة الإبلوية من الوصول إلى المدن الرافدية والهضبة الإيرانية وما بعدها.

وقد أشارت وثيقة إبلوية إلى حصول عملية تجارية عبر المقايضة بين إبلا وماري ، حيث قابضت الأولى مادة الفضة بمادة اللازورد من ماري وذلك بنسبة واحد إلى واحد ، رغم أن اللازورد كانت قيمته تفوق قيمة الفضة بكثير. أيضاً تشير إحدى وثائق إبلا إلى انتقال معلمي

⊗ للمزيد: انظر عبد مرعي . إبلا . دار الأبيدية . دمشق . مصدر سابق.

ودراسة علي أبو عساف . إبلا وماري . مجلة البناء اللبنانية . مصدر سابق

وقاسم طويل . إبلا . مجموعة باحثين . دمشق 1984

⊗ كاي كولهاير . الآثار السورية 1982 . LAND DES BAAL

الهوامش

1- EXPOSITION SYRO — EUROPE'ENNE

D'AERCHE'OLOGIE MARI- MARGUERON . مرجع سابق.

٢- د. فيصل عبد الله . قراءة في خمسة مجلدات عن ماري . دراسات تاريخية . 37 . 38 .

٣- وثائق الآثار السورية . مارجرون " الفرات الأوسط في عصر البرونز " وزارة الثقافة السورية 2002

٤- المرجع السابق . التغييرات البيئية واستثمار الأراضي ونظم الاستيطان . أوليفية روو .

٥- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية . I.F.A.P.O . 1989 . دمشق . جيبير . ج . إ . منشائير . لاستكشاف وادي الفرات الأوسط .

٦- المرجع السابق . مارجرون . ماري .

٧- د. علي أبو عساف . آثار الممالك القديمة في سورية . وزارة الثقافة السورية 1988 .

8- A. PARROT: MARI; CAPITALE FABULESE. PAYOT . 1974 PARIS

٩- مارك لوبو - طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق م . الحوليات الأثرية السورية مجلد 43 .

١٠- ألفرد هالدار . العموريين . ت . شوقي شعث . دار الأبجدية . دمشق 1993

١١- مارك لوبو . مصدر سابق .

١٢- د. علي أبو عساف . مصدر سابق .

١٣- د. علي أبو عساف . مصدر سابق .

١٤- ألفرد هالدار . مرجع سابق .

١٥- المرجع السابق .

١٦- د. فيصل عبد الله . مرجع سابق .

١٧- أرنولد توينبي . تاريخ البشرية . 2 . نقولا زيادة . دار الأهلية . بيروت 1984 .

١٨- المرجع السابق .

١٩- جورجيو بوتشيلاتي ترقا . كتاب أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد الشام . مطبعة عكرمة 1989 . ت . قاسم طوير . دمشق

٢٠- الفونسو آركي . من دراسة د. علي أبو عساف . إبلا ماري قطبان في دورة حضارية واحدة . مجلة البناء اللبنانية العدد 732 1990/4/21

٢١- علي أبو عساف . فنون الممالك القديمة في سورية . دار شمال . دمشق 1993 .

٢٢- جان كلود مارجرون . وثائق الآثار السورية . مرجع سابق .

— JEAN MARGUERON; EXPOSITION SYRO — EUROPE'ENNE مرجع سابق . 23-

٢٤- علي أبو عساف . طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم . دراسات تاريخية 1991 . 40 . 39 . دمشق

٢٥- هورست كلينغل [تاريخ سورية السياسي] 3000 . 300 ق م . ت . سيف الدين دياب . دار المتنبي . دمشق 1998 .

٢٦- عيد مرعي . إبلا . دار الأبجدية . دمشق ١٩٩٦ .

٢٧- هورست كلينغل . الفرات الأوسط والتجارة الدولية خلال العهد البابلي القديم . الحوليات الأثرية السورية 34 .

٢٨- هورست كلينغل . " التجارة في بلدان المشرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق م . أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد الشام . مرجع سابق .

٢٩- محمد حرب فرزات . العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأول قبل الميلاد . دراسات تاريخية . العدد 37 . 38 . دمشق 1990 . جامعة دمشق .

٣٠- JEAN MARGUERON . مصدر سابق .

٣١- توفيق سليمان . دراسات في حضارات غرب آسية القديمة . دار دمشق .

٣٢- المرجع السابق .

٣٣- د. محمد حرب فرزات . د. عيد مرعي . دول وحضارات في الشرق العربي القديم . دار طلاس 1990 دمشق .

٣٤- هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي .

٣٥- أنطون مورتقات . تاريخ الشرق الأدنى القديم - ترجمة: توفيق سليمان — علي أبو عساف — قاسم طوير ١٩٦٧ .

٣٦- توفيق سليمان . مرجع سابق .

٣٧- المرجع السابق .

٣٨- هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق .

٣٩- الحوليات الأثرية . 34 . 1983 . ماري واسهامها الحضاري . بشير زهدي .

٤٠- جان كلود مارجرون . مرجع سابق .

٤١- د. فيصل عبد الله . قراءة في خمسة مجلدات عن ماري . دراسات تاريخية 38 . 37 .

٤٢- مارجرون . مرجع سابق .

٤٣- د. فيصل عبد الله . إبلا وماري أقدم مثال على نمط زراعي متقدم . دراسات تاريخية 1992 . 44 . 43 .

٤٤- الفرد هالدار . مرجع سابق .

٤٥- علي أبو عساف . بحث لم ينشر . إيهار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي إبلا وماري 1991 .

٤٦- عيد مرعي . إبلا . مرجع سابق .

٤٧- هورست كلينغل . مرجع سابق .

٤٨- علي أبو عساف . مرجع سابق .

٤٩- المرجع السابق .

٥٠- علي أبو عساف . إبلا وماري قطبان في دورة حضارية واحدة . مجلة البناء 1990/12/4 . 772 .

٥١- اندره بارو . مرجع سابق .

٥٢- علي أبو عساف . آثار الممالك القديمة . مرجع سابق .

٥٣- اندره بارو . سومر . ت . عيسى سلمان — سليم طه التكريتي — ١٩٧٧ بغداد .

٥٤- علي أبو عساف . فنون الممالك . مرجع سابق .

٥٥- اندره بارو . ماري . مرجع سابق .

٥٦- علي أبو عساف . إبلا وماري . مرجع سابق .

٥٧- الفرد هالدار . مرجع سابق .

٥٨- علي أبو عساف — دراسة غير منشورة — مرجع سابق .

٥٩- علي أبو عساف . مرجع سابق . دراسة غير منشورة .

٦٠- فيصل عبد الله . دراسات تاريخية 38 . 37 . قراءة في خمس مجلدات عن ماري .

٦١- المرجع السابق .

٦٢- فيصل عبد الله . مرجع سابق . ومحمد حرب فرزات وعيد مرعي . مرجع سابق .

٦٣- توفيق سليمان . دراسات . مرجع سابق .

٦٤- عيد مرعي . مرجع سابق .

٦٥- المساهمة الفرنسية — مرجع سابق .

٦٦- فيصل عبد الله . مرجع سابق .

٦٧- علي أبو عساف . ماري وإبلا . مرجع سابق .

٦٨- فيصل عبد الله . مرجع سابق .

٦٩- هورست كلينغل . تاريخ سورية السياسي . مرجع سابق .

٧٠- علي أبو عساف . مرجع سابق .

٧١- علي أبو عساف . إبلا وماري . مرجع سابق .

حول النوبة

تكتسي دراسة هذا الموضوع أهمية كبرى لكثرة الأوبئة التي عرفها المغرب ، ولظروف الدولية التي أحاطت بالموضوع خصوصا خلال القرن التاسع عشر مما يتيح إمكانية التوسع في البحث. كما تتجلى أهمية الموضوع في النتائج المرتبطة به ، فقد هزت الأوبئة بعنف البنى الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية للمغرب.^(١) كما خلفت تراثا فكريا ارتبط بكثرة الكتابات والفتاوى والرسائل في الطوائف خصوصا إذا علمنا أن الرسائل المغربية التي كتبت في الموضوع لا تخلو من فائدة ، فهي تفيدنا في معرفة منظور المعاصرين للطاعون ومواقفهم من أسباب ظهورها ، وطرقها العلاج منها والسلوك الذي يجب على المسلم أن يلتزم به إذا نزل البلاء.^(٢) و تعكس لنا هذه الرسائل والفتاوى ذلك الجدل الذي احتدم بين الفقهاء حول إشكالية حقيقة العدوى ، مما يلقي الضوء على واقع الحياة الفكرية للبلاد وتأثيرات ذلك على سلوكيات أفراد المجتمع.

وإننا هنا لن نحيط بكل ما كتب في الموضوع ، فهذا يحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها ، وإنما سنقتصر على نموذج واحد ورد في كتاب (المصادر العربية لتاريخ المغرب) الجزء الثاني لمحمد المنوني رحمه الله .^(٣) وهو كتاب (الكواكب الذرية المستنيرة بحديث لا عدوى ولا طيرة) من تأليف محمد بن المدني كنون رحمه الله ، منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية بهامش كتابه الآخر (الزجر والاقمع بزواج الشرع المطاع لمن كان يؤمن بالله ورسوله ويوم الاجتماع عن آلات اللهو والسماع).^(٤) ولقد اطلعنا عليه بمكتبة عبد الله كنون بطنجة.

وقد حاول صاحبه الجواب على إشكالية كبرى بقيت مثار خلاف بين العلماء وغالبا ما كانت النقاشات تنحصر في إعادة الخلافات القديمة حول الموضوع ، واجترار ما قرره السلف بشأن حقيقة انتقال العدوى ، وكيفية الاحتراز منها ، وذلك على ضوء الأحاديث النبوية وعلى التراث الفقهي الضخم الوارد من أجل تحديد الموقف الشرعي الذي يجب اتخاذه زمن الطاعون.^(٥)

وقد تضاربت الآراء حول مسألتين أساسيتين:

الأولى: حول حقيقة العدوى.

الثانية: حول جواز أو عدم جواز الفرار من أرض نزل بها الطاعون.

وتضارب الآراء هذا انعكس على نتيجة الاجتهاد ، وقد كان هناك اتجاهان رئيسيان:

الأول: أكد على ضرورة الأخذ بأسباب الوقاية ، بما فيها الفرار من أرض الطاعون.

والثاني: نهى عن الفرار وأكد على التسليم لمجرى القدر.^(٦)

ويمكن القول عموما أن مختلف الآراء والحجج التي أدلى بها كل طرف لدعم موقفه تعكس كما سبق وان اشرنا ذلك الخلاف الذي احتدم بين علماء وفقهاء الإسلام في السابق.^(٧) فأين يقع كتاب الكواكب الذرية المستنيرة بحديث لا عدوى ولا طيرة لمحمد بن المدني كنون في هذا الجدل القائم؟ وما دواعي تأليفه وقد تناول السابقون القضية بالدراسة والتحليل؟

إن الإجابة عن هذا السؤال نستشفها من الكتاب نفسه ، يقول المؤلف رحمه الله (وقد طلب مني بعض من لا تسعفني مخالفته...أن أجمع له ما وقفت عليه من كلام الأئمة على حديث لا عدوى ولا صفر ولا هامة...فأجبتني إلى ذلك تقربا لقائله وتوسلا بجاهه).^(٨)

مما يعني أن الحاجة الاجتماعية بقيت قائمة ، لإيجاد جواب شافي في المسألة ، رغم أن الموضوع قد تحدث فيه أهل الصناعة . كما أن جانب الرؤيا كان دافعا قويا للشيخ لإتمام التأليف ، فقد أشار محمد بن

نماذج من القضايا الاجتماعية من خلال كتاب المصادر العربية لتاريخ المغرب



خاليد فؤاد طحطح

باحث وكاتب وأستاذ الاجتماعيات

طنجة - المملكة المغربية

Tahtah_75@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خاليد طحطح ، نماذج من القضايا الاجتماعية من خلال كُتّاب المصادر العربية لتاريخ المغرب - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ٧٩ - ٨٣. (www.historicalkan.co.nr)



الأجرب وهكذا ، فإما أن يتسلسل إلى ما لا نهاية له أو ينتهي إلى جمل أصابه الجرب أولا من غير دخول جمل أجرب عليه ، والأول مستحيل لأنه من باب وجود حوادث لا أول لها ، ويتعين الثاني وهو الانتهاء إلى جمع ينقطع فيه توهم العدوى ، ويتيقن فيه أن جربه حدث فيه بمحض خلق الله تعالى بلا واسطة.^(١٧)

أما في قضية الفرار فإن المؤمن الموحد إذا فر منها إنها هو يفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله ويلجأ من الله إلى الله كما أشار إليه الفاروق رضي الله عنه.^(١٨)

حول الحجر الصحي (الكرنيتية)

ذكر المنوني رحمه الله أنه من أيام السلطان المولى عبد الرحمان أسسس السفراء بطنجة مجلسا صحيا يهدف إلى إنشاء محجر صحي لوقاية المغرب من أضرار الوباء.^(١٩) وفي هذا الاتجاه كتب الناصري تقييدا صغيرا أثبتته في الاستقصاء وفيه يستنكر هذا التنظيم استنادا إلى عدة اعتبارات ، ٢٠ وقد وقفنا على النص كاملا (في الاستقصاء). كما أفضت مشاكل الحجر الصحي يقول المنوني إلى استفتاء السلطان المولى عبد العزيز لعلماء فاس ومراكش عام ١٨٩٧ حول المنع المؤقت من سفر الحجاج توقيتا من الوباء. والمعروف الآن هو جواب في النازلة لمحمد بن جعفر الكتاني ، وقد أثبت نصه في سلوة الانقاس ، وقد وقفنا على هذا الجواب في الكتاب المذكور.^(٢١)

ولاشك أن الموقف من الكرنيتية يدخل في إطار ردود الفعل اتجاه المستجدات الأوربية للتعامل مع مشكل الوباء داخل المغرب.^(٢٢) وكيف تحدد الموقف المغربي من الكرنيتية ؟

نذكر في البداية أن أوربا هي أول من اعتمد التدابير الصحية الوقائية ، وذلك منذ القرن الرابع عشر وفي سنة ١٨٥١م ، وحدت سياستها في هذا الميدان انطلاقا من أول مؤتمر دولي صحي بباريس ، وأمام ضغوط أوربا شهدت عدة أقطار إسلامية تأسيس مجالس صحية دولية ، تكونت من أطباء وقناصل أجانب وممثلين عن تلك البلدان ، ومنها المجلس الصحي الدولي بالمغرب ، ومن التدابير التي كانت تتخذها هذه المجالس فرض حجر صحي على السفن الموبوءة أو المشكوك في حالتها الصحية ، وهو ما عرف بالكرنيتية.^(٢٣)

وقد تحدث المغاربة عن إجراء الكرنيتية أثناء زيارتهم إلى بعض البلدان الأوربية ، ونجد أول إشارة إلى ذلك في كتاب (الإكسير في فكاك الأسير) للسفير ابن عثمان المكناسي ، فبعد وصوله سبته سنة ١٧٩٩ وصف الكرنيتية بقوله (وذكروا لنا قبل أن لا بد من أن نجعل الكرنيتية ، ومعناها أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه ولا يدخل عليه أحد ...ولهم في ذلك تشديد كثير حتى أن الذي يأتي إلى صاحب الكرنيتية بطعام يطرحه له من بعد ويحمله الآخر ولا يتماسان ، وإذا ورد عليهم بكتاب ذكروا أنه يغمسونه في الخل بعد أن يقبضوه منه بقصبة).^(٢٤)

إن هذا الوصف الدقيق يؤكد أن الكرنيتية ظاهرة جديدة لا عهد للمغاربة بها وقتذاك لذلك فقد وصفها كشيء غير مألوف ، ونلاحظ أنه اكتفى بالوصف ، دون أن يبدي موقفه فيها.^(٢٥) بعد ١٥ سنة من ابن عثمان تحدث المؤرخ الزباني في كتابه (الترجمانة الكبرى) عن التدابير الصحية التي اصطدم بها في تونس ، أثناء عودته سنة ١٧٩٤ مع عدد من الحجاج ، إذ لم يسمح لهم بدخول ميناء تونس إلا بعد قضاء حجر صحي لمدة ٢٠ يوم ، وقد وصف الزباني هذا الإجراء بالشناعة الممنوعة عرفا ودينا ، ثم زاد قائلا (إنهم أنزلونا وسط البحر بقصد بدعة الكرنيتية التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعه).^(٢٦)

كنون إلى انه رأى النبي الكريم في المنام وأبو بكر الصديق عن يمينه وكأنهما داخلان عليه البيت ، وكان النبي عليه السلام على حلة من نور. يقول (ودهشت عندما رأيت الأنوار قد أهدت بي فإذا أنا بالذي عن يمينه وهو أبو بكر الصديق يقول لا بأس عليك يا سيدي قد أثابك على هذا الموضوع ، فاستيقظت من منامي فرحا برؤيته صلى الله عليه وسلم).^(٢٧)

هذا من حيث الدوافع ، أما عن المضمون فإن محمد بن كنون رحمه الله حاول في كتابه التوفيق بين الآراء المتضاربة معتمدا على تأويل الأحاديث التي تبدو متناقضة ظاهريا معتمدا في ذلك على أقوال بعض العلماء من السلف. وقد أكد في البداية على صحة الحديث الذي اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ...وزاد البخاري وفر من المجذوم فرارك من الأسد ، ... وخرجنا عن أبي سلمة مرفوعا (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ، فقال أعرابي يارسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل ، فيأتي البعير الأجرب ويدخل بينها فيجرها فقال فمن أعدى الأول ثم أعاد البخاري وزاد ما نصه وعن أبي سلمة انه سمع أبو هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يوردن ممرض على مصح).^(٢٨)

وأورد أحاديث مشابهة من روايات وطرق أخرى لها نفس المعنى. ثم انتقل لشرح الأحاديث التي أوردها معتمدا على أقوال السلف ، ففي موضوع حقيقة العدوى نقل عن الحافظ بن حجر (وحاصل قوله لا عدوى نهي عن اعتقادها وقوله لا يورد ممرض على مصح سبب النهي عن الإيراد خشية الوقوع في اعتقاد العدوى).^(٢٩) والمراد بنفي العدوى أن شيئا لا يعدي بطبعه كما كانت الجاهلية تعتقد ، فأبطل صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ، فأكل مع المجذوم ليبين أن الله تعالى هو الذي يمرض ويشفي.^(٣٠) ونهاهم عن الدنو من المجذوم ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجري الله العادة أنها تمضي إلى مسبباتها. وفي فعله أنها لا تنتقل بل الله هو الذي إن شاء سلها قواها فلا تؤثر شيئا ، وإن شاء أبقاها فأثرت وعلى هذا جرى أكثر الشافعية.^(٣١)

وقيل لا عدوى أصلا.. والأمر بالفرار إنها هو... سد للذريعة لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك فيظن انه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاه صلى الله عليه وسلم. فأمر عليه السلام بتجنب ذلك شفقة منه ورحمة.^(٣٢)

وقال العلامة المحقق أبو علي اليوسي في محاضراته ما نصه وفي الحديث (لا عدوى ولا طيرة) والحق عندنا في تأويله أنه إثبات لانفراد المولى عز وجل بكل التأثير ، وأنه لا تأثير لشيء مما يتوهم العرب أنه مؤثر لا في باب العدوى ولا في باب الطيرة...وقوله صلى الله عليه وسلم (لا وفر من المجذوم فرارك من الأسد) وكذا قوله صلى الله عليه وسلم (لا يورد ممرض على مصح) والإبل المريضة على الإبل الصحيحة يحتمل معنيين أحدهما انه سد للذريعة بمعنى انه يترك ذلك مخافة أن يقع شيء ، فيظن من وقع له وغيره انه ناشئ عن ذلك السبب فيقع في الشرك.^(٣٣) وقال الشيخ السنوسي في شرح القصد في بيان معنى لا عدوى ولا طير مانصه : أي لا تأثير لهما في وقع مرض أو مكروه البتة لاستحالة الشريك مع مولانا جل وعلا.^(٣٤)

ولها عرض لبعض من سمعه شبهة فقال يارسول الله فنا بال الإبل ؟ قال له الرسول (ص) مجيبا عن شبهته فمن أعدى الأولأي أن انتقال الإبل مثلا من حال السلامة إلى الجرب بدخول الجمل الأجرب بينها كما يتوهم ، لوجب أن يكون سبب جرب الجمل الداخل عليها دخول جمل آخر أجرب عليه ، ثم نقل الكلام أيضا إلى ذلك الجمل

عن الوباء واجب بأي وجه كان ، ولا يخفى انه يتعين تقييده بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية ، كعدم القدوم على الأرض التي بها الوباء ، ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة ..أما بالوجه الذي يشتمل على مفسدة أو مفسد كهده الكرنيتينة فلا .هذا ما تحرر لنا في هذه المسألة والله اعلم.^(٢٨)

ويعزز الناصري موقفه هذا قائلًا (ولما وقف على هذا الكلام أخونا في الله العلامة الأستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلاوي وهو اليوم قاضي حضرة مراكش كتب إلي ما نصه: (وأما حكم الكرنيتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفساد العظيمة التي لا تقي بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة في الجهات المتعددة ، ولا يخالف في هذا الحكم إلا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق إلا الظلال) ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك ، تركناها اختصارا والله تعالى الموفق بمنه).^(٢٩)

وبعد وباء الكوليرا الذي تسرب إلى المغرب سنة ١٨٩٥ ، قرر المجلس الصحي تصعيد إجراءاته ضد الحجاج العائدين من الديار المقدسة بعدم السماح لهم مطلقا بالنزول إلا بجزيرة الصويرة ، سواء كانت السفن سالمة أو موبوءة. وقد قابل المخزن هذه الإجراءات بالرفض ، وكان أمامه إما استئصال المجلس من أصله ، وهذا لم يكن ممكنا في ظل الظروف آنذاك ، أو منع الحج ، وقد كان هذا القرار هو الذي عزم عليه المغرب ، وأخبر به إباحامد الممثل الانجليزي نكلسن ..الذي استعمل جهوده لإقناعه عن العدول عن القرار مقابل أخذ شروط المغرب بعين الاعتبار وهي أن يقتصر الإنزال في الصويرة على السنة الموبوءة دون غيرها ، وأن يكون ذلك بإذن مسبق من طرف المخزن.^(٣٠)

غير أن المجلس الصحي لم يلتزم بما اتفق عليه ، مما دفع المخزن إلى التفكير في منع الحج سنة ١٨٩٧م ، وكتب بذلك محمد الطريس للمجلس الصحي الذي وافق بسبب توفره على معلومات بظهور وباء الطاعون بالهند ، وبعد استفتاء السلطان لفقهاء مراكش ووصول جوابهم بالموافقة اصدر أوامره إلى كافة المدن بمنع الحج ولم يكن هذا المنع بسبب الطاعون المذكور ، وإنما ردا على تحرشات وإهانات المجلس الصحي للحجاج.^(٣١)

وهذا نص الفتوى المعروف الآن بجواب في النازلة لمحمد بن جعفر الكتاني المثبت نصه بسلوة الأنفاس. يقول رحمه الله (وقد كان ورد السؤال على فاس الغراء من حضرة مراكش الخضراء ، من سيدنا أمير المؤمنين...مولانا عبد العزيز ...في السنة التي قبل هذه (أي ١٣١٤) ، عن قوم أرادوا الذهاب لحج بيت الله ، والحال أن أجناس النصارى - دمرهم الله- اتفقوا على التنكيل البالغ بمن يحج من هذه السنة من الأنام ، فهل يمكنون منه والحالة هذه أم لا؟^(٣٢) وقد كتبت في ذلك كتابة أحببت أن اذكرها هنا حفاظا لها من الضياع ، وحرصا على عموم الانتفاع . نصها بعد البسطة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : ...فمما هو ضروري لدى كل إنسان ، ومعلوم حتى عند صغار الولدان ، أن الحج أحد أركان الإسلام وقاعدة من قواعده المجمع عليها بين الأنام ، وأنه من الفروض العينية ، على كل من له استطاعة من البرية . قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وقال عليه السلام (بني الإسلام على خمس ...) ..وقال (من ملك زادا وراحلة تبغفه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا)^(٣٣).

ومما هو معلوم - أيضا - أن من جملة الاستطاعة ، وجود ما يكفي من البضاعة ، والأمن على النفس والمال والدين ومن أن يفعل به ما يخل بهروءه أو يشين ، وأنه متى فقدت ، فقد الوجوب والانبرام.^(٣٤) ومن

كما أن العربي المشرفي أيضا عاين هذا الإجراء بمصر سنة ١٨٤١ وهو في طريقه إلى الحج ، وقد عبر عن رأيه الصريح بقوله المثبت في كتابه (في أقوال المطاعين). (نعوذ بالله من هذا الاعتقاد فلا يموت ميت دون أجله). لكن أهم موقف من الكرنيتينة يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي أصبحت فيها مسألة الحجر الصحي تلاقي اهتماما متزايدا من طرف المغاربة الذين وجدوا أنفسهم مضطرين للبت في مدى مشروعيتها ، بعد أن أصبح العمل بها في بلادهم أمرا جاريا ومفروضا بقوة القانون.

وكان الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري من الذين تولوا القيام بهذه المهمة ، فأصدر فتوى شرعية بتحريمها وهذا نصها (فجرت المذاكرة فيما يستعمله الناصري في أمر الكرنيتينة من حبس المسافرين وشداد الآفاق عن المرور بالسبل ، والدخول إلى الأمصار والقرى ، ومنع الناس من مراقبتهم وأسباب معاشهم ، وحصل التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه ، ثم بعد ذلك وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعه الطهطاوي المصري في أخبار باريز فرأيت ذكر في صدرها ، أنه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد المناعي التونسي المالكي المدرس بجامع الزيتون ، ومفتي الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد البيرم في إباحة الكرنيتينة وحضرها ، فقال المالكي بحرمتها وألف في ذلك رسالة ، واستدل له فيها على أن الكرنيتينة من جملة الفرار من القضاء ، وقال الحنفي بإباحتها ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا ، فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي النظر في حكم هذه الكرنيتينة ، وظهر لي أن القول بإباحتها أو حرمتها منظور فيه إلى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ، ولو رسالة على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمه الله ، ثم يوازن بينهما وأيتها رجحت على الأخرى عمل عليها ، فإن استوتوا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول الفقه ، ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الكرنيتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة ، فأما المصلحة ففي سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء ، وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة ، لأنه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون ، وأنه مهما استعملها أهل قطر أو بلد إلا يسلمون لا دائما ولا غالبا ، بل الأكثر أو الأكثر أنهم يستعملونها ويبالغون في إقامة قوانينها ثم يصيبهم مما فروا منه كما هو مشاهد ، ومن زعم أن السلامة مقرونة بهذا دائما أو غالبا فعليه البيان ، إذ البينة على المدعي فنتج عن هذا أن مصلحة الكرنيتينة مشكوكة أو معدومة ، وإذا كانت كذلك فلا يلتفت لها شرعا ولا طبعا لأنها حينئذ من قبيل العبث.^(٣٥)

أما المفسدة فهي دنيوية ودينية أما الدنيوية فهي الأضرار بالتجار وسائر المسافرين إلى الأقطار بحبسهم وتسويقهم عن أغراضهم وتعطيل مراقبتهم على ابلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم ، وأما الدينية فهي تشويش عقائد عوام المسلمين والقدح في توكلهم وإيهام أن ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه ، وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشيء يكون أو لا يكون....مع ما في استعمال هذه الكرنيتينة من الاقتداء بالأعاجم ... ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم إلى الإصابة والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام ، فأما إذا وافق قدر من السلامة عند استعمالها فهي الفتنة والعياذ بالله ، فأى مفسدة أقبح من هذه؟ فالحاصل أن الكرنيتينة اشتملت على مفساد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها ، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير ، وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلاني ...بوجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ، ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب .هـ. وهو يقتضي بظاهاها الاحتراز

وتوجد رسالة أشار إليها المنوني رحمه الله ، وهي لجعفر الكتاني ، وفيها يقرر أن الأمة التي يصح تملكها شرعا هي المسيحية من بلاد الكفر ، حيث أشار لها بين تألفه التي سرد عناوينها غير أن هذه الرسالة لم يعثر عليها.^(٤٤) وللناصري رأي مشابه في المسألة قيده في كتاب الاستقصاء عند حديثه عن أخبار السودان إذ يقول: (قد تبين لك بما قصصناه عليك .. ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم وأنهم من أحسن الأمم إسلاما وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة وهذا الأمر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب ... من استرقاق أهل السودان مطلقاً ، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية ، يسمسون فيهم كما تسمس الدواب بل أفحش ، قد تما لا الناس على ذلك وتواتر عليهم أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية ، وهذا لعمر الله من أفحش المنكر وأعظمها في الدين ، إذ أن أهل السودان قوم مسلمون فليهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنها هو الإسلام والحكم للغالب ، ولو فرضنا أن لا غالب وإنما الكفر والإسلام متساويان هنالك ، فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين ، والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعي خلاف الحرية مدع لخلاف الأصل ، ولا ثقة بخبر الجالبيين لهم والبايعين لهم لما تقرر وعلم من الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم وإطرائها ، وفي باعة الرقيق خصوصاً مما هو أكثر من ذلك ، كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين ، والزمان كما علمت وأهله كما ترى ، ولا يعتمد أيضاً على قول العبد أو الأمة نفسها كما نص عليها الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك ، فإن البائع لهم قد يضرهم حتى لا يقرروا إلا بما لا يقدر في صحة بيعهم . وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان...^(٤٥)

وقد استفاد عند أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويسرقونهم...والكل مسلمون ، وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل ..وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالي...بأن البائع إذا كان متبهاً على ترويح سلعته لا يعتمد على قوله ، فإذا كان هذا في الأموال فكيف باسترقاق الرقاب.^(٤٦)

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا في تقييده الموضوع في هذه المسألة (بمعراج الصعود) تفصيلاً ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان.. وقال كل من كان من هؤلاء القبائل يجوز استرقاقه...لكن هذا التفصيل عند الناصري إنما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم ، فأما أهل المغرب... فمن الذي يحقق لهم ذلك ، وقد قلنا أنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبيين لهم ، وأيضاً فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن ، على أن الناس لا يلتفتون إلى ذلك أصلاً ، ومهما رأى أحدهم العبد أو الأمة يسمس في السوق لا يسأل إلا عن عيوب بدنه .. بل صار الفسقة ..يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره وبيعونهم في الأسواق.....وصار الناصري واليهود يشترونهم ويسترقونهم.^(٤٧)

فالحاصل أنه لما كان الأصل في الناس هو الحرية ، وعلم تواتر أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون...لم يبق لنا توقف

المعلوم في هذه الأزمان الأخيرة ، تأديته بالنسبة لغالب العوام إلى محرمات كثيرة: منها — وهو أشنعها ، تلفظ كثير منهم عند جريان بعض المحن عليهم بها هو عين الكفر ، أو ربما آل إليه . ومنها: تضييع الصلوات والجهل عند جريان بعض المحن مما يعرض في السفر من العبادات . ومنها الركوب في مراكب أعداء الدين والكفرة المعتدين ، حيث يعلم أنه تجري أحكامهم بالاهانة عليهم ، وأنهم يتوصلون بشيء من الأذى بالفعل إليه.^(٣٥)

والإفان شك في ذلك ، فعند الإيمنة حينئذ نزاع هنالك ، فقال أي في شرح مسلم ما نصه (وأما ركوبه في مراكب النصارى التي الركاب فيها تحت نظرهم ، فلا يجوز). هـ. ونحوه لغير واحد وقال بعضهم (إن تحقق جريان أحكامهم عليه ، حرم ركوبه في مراكبهم وإن لم يتحقق ذلك ، فقولان بالكراهة والتحريم).^(٣٦)

وقال الشيخ أبو العباس القباب (أكثر الأشياخ على النظر فيها ينال منه ، فإن كان يؤدي إلى أن يكره على سجود لصنم أو اذلال للإسلام ، لم يجز والإكراه قال: وهذا القدر لم تجز به العادة في مراكبهم).^(٣٧) وقال الشيخ زروق في شرحه لحزب البحر ، لما تكلم عن ركوب البحر ، وأنه ممنوع في خمسة أحوال...الرابعة إذا أدى ركوبه للدخول تحت أحكامهم ، والتذلل لهم ، ومشاهدة منكرهم ، مع الأمن على النفس والمال..قال وهذه حالة المسلمين اليوم في الركوب ..وقد أجراها بعض الشيوخ على مسألة التجارة لأرض العدو ، ومشهور المذهب فيها الكراهة..^(٣٨) فالمرء في السفر للحج ..إن كان يعلم أو يظن عدم السلامة من ارتكاب بعض المحرمات ، لم يجز له الإقدام على ذلك.^(٣٩) وأكد أنه رغم أن طريق الحج أصبح ميسراً بفضل السفن الحسان عما كان عليه الأمر في الطريق البرية البعيدة (فإنه تكدر صفو ذلك بجريان أحكام أهل الشرك هنالك).^(٤٠)

وختم بقول العلماء رضي الله عنهم (والناس موكلون في هذه العبادة ..إلى ما حملوا من الأمانة ، ويردون في فعلها وتركها إلى ما عندهم من اليقين والديانة ، بيد أنهم يعلمون منها ما جهلوا والله حسيبهم بعد ذلك فيما عملوه ، إلا إذا تمالكوا على الترك في جميع الأقطار ، ومن سائر النواحي والأمصار ، فعلى الإمام أو غيره من جماعة المسلمين تعيين طائفة من المحتسبين لتذهب إلى ذلك المقام ، لإقامة الموسم في كل عام وإذا تحقق أو غلب على الظن أنه يلحقهم بالسفر إليها مكروه شديد ، أو يقعون بسببه في وبال عظيم ونكال مبيد ، فالإمام حينئذ أن يمنعه منها في العام الذي يظن فيه حصول ذلك ، بل ذلك من النصيحة الواجبة عليه هنالك ، كما ذكر سيدنا حفظه الله فيما أخبر به نائبه بطنجة عن هذا العام ، وما يحصل فيه من البأس العظيم العام...كتبه محمد بن جعفر الكتاني لطف الله به أمين)^(٤١)

حول الرقيق

مما لا شك فيه أن دراسة الرق تندرج ضمن حقل التاريخ الاجتماعي بامتياز ، باعتبار أنها تهتم بفتة اجتماعية معينة وتحاول الكشف عن تطورها ، وطبيعة علاقاتها المتشابكة مع المجتمع ومع السلطة الحاكمة باعتبار دخول الرقيق وانتشاره في المؤسسات الإدارية والعسكرية للدولة وفي الحياة الزراعية والحرفية والتجارية.^(٤٢)

وتناول ظاهرة الرقيق هو نبش في تاريخ فئة مستضعفة داخل المجتمع المغربي ، تحتاج إلى إضاءة شاملة لجانب مغمور من التاريخ الاجتماعي ، مازالت في حاجة إلى البحث والتنقيب.^(٤٣) وقد عرفت ظاهرة الرقيق في المغرب جدلاً سياسياً وفقهياً ، اتسعت حدته أحياناً كثيرة (كما في عهد المولى إسماعيل).

في أن الإقدام على شراء هذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه...فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد ، لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالى^(٤٨).

وللسلطان الحسن الأول موقف مشابه لما تقدم فقد كتب أنه (من المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار واسترقاقهم بدون وجه شرعي ، فان المستعبد هو أحد الثلاثة الذين لا يقبل الله عنهم صلاة ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة من تقدم قوما وهم له كارهون ، ورجل أتى الصلاة دباراً ، ورجل استعبد حراً ، وهو أيضاً أحد الثلاثة الذين قال الله تعالى فيهم أنه سبحانه خصهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته ، رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره)^(٤٩).

ورغم صدور مثل هذه الفتاوى ، وكذا تغير الظروف الدولية بشأن تحريم الرق ، فإن الملاحظ أن هذه الظاهرة في المغرب بقيت سارية إلى حدود بداية القرن العشرين ، وقد أثارت اهتمام الأوروبيين ، إذ تحدث اوجوبين اوبان عنها سنة ١٩٠٢ عندما وصل إلى مراكش التي شاهد بها سوق الرقيق الذي يقام ثلاث مرات في الأسبوع (الأربعاء ، الخميس ، الجمعة) ولأحظ أن أسواق النخاسة في المشرق سرية لا يراها الأجانب بعكس الحال في مراكش ، وقلة الأوروبيين تسمح لهم بالحضور دون صعوبة ، وزاره لأول مرة وخاب ظنه لأنه كان يتصور خدمة الرقيق في منازل الأسر المسلمة بأقصى حد من اللطف لكنه شاهد في السوق منظراً كريهاً حيث السوق عبارة عن فناء محاط بأروقة يشكل فيها المشترون حلقات ، ويطوف سماسرة عديدون رافعين أصواتهم من طرف إلى طرف ومعهم البضاعة المعروضة على طريقة البيع بالمزاد العلني وهكذا تسير الزنجيات في مجموعات صغيرة ، وقد أنت بهن قوافل الجنوب أو أرسلهن سادتهن للتخلص منهن ، فكان جمهور لا يبالي يجس الأذرع والسيقان.. للزنجيات أو يفحص أسنانهن^(٥٠).

الهوامش

- ١- راجع موضوعنا (الأوبئة والمجاعات بشمال المغرب بين القرنين السادس عشر والثامن عشر) موسوعة دةشة.
- ٢- محمد الأمين البزاز (تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ١٨ منشورات دار النجاح الجديدة، ١٩٩٢. ص ٣٨٨.
- ٣- محمد المنوني (المصادر العربية لتاريخ المغرب) الفترة المعاصرة ١٧٩٠-١٩٣٠ ، الجزء الثاني، ص ١٤٠.
- ٤- المرجع أعلاه ص ١٤٠ ، وكتاب(الكواكب الدرية المستنيرة بحديث لا عدوى ولا طيرة) للشیخ العلامة محمد كنون ، الطبعة الحجرية الفاسية.
- ٥- محمد الأمين البزاز(تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)م.س. ص ٣٩٤.
- ٦- المرجع أعلاه ، ص ٣٩٥.
- ٧- نفسه ص ٣٩٦.
- ٨- الزجر والاقعاع بزواجر الشرع المطاع لمن كان يومئذ بالله ورسوله ويوم الاجتماع عن آلات اللهو والسباع) للشيخ الفقيه العلامة المحقق الحافظ القدوة شيخ الشيوخ أبي عبد الله سيدي محمد بن المهدي كنون رحمه الله ، وبهامشه الدرر الدرية المستنيرة بحديث لا عدوى ولا طيرة (المطبعة الحجرية الفاسية.ص ٢.

٩- المرجع أعلاه ص ٢.

١٠- نفسه ص ٢.

١١- نفسه ص ٢.

١٢- نفسه ص ٢.

١٣- نفسه ص ٣.

١٤- نفسه ص ٤.

١٥- نفسه ص ٤.

١٦- نفسه ص ٤.

١٧- نفسه ص ٥.

١٨- نفسه ص ٦.

١٩- محمد المنوني (المصادر العربية لتاريخ المغرب) الجزء الثاني، م.س. ص ١٤٠-١٤١.

٢٠- نفسه ص ١٤١.

٢١- المرجع أعلاه ص ١٤١ / شيخ الإسلام الشريف أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني (سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس) الجزء الثاني ، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني ، حمزة بن محمد الطيب الكتاني ، محمد حمزة بن علي الكتاني ، دار الثقافة البيضاء.

٢٢- محمد الأمين البزاز(تاريخ الأوبئة والمجاعات)م.س. ص ٤٠٣.

٢٣- المرجع أعلاه ص ٤٠٤.

٢٤- نفسه ص ٤٠٤.

٢٥- نفسه ص ٤٠٤.

٢٦- نفسه ، ص ٤٠٤.

٢٧- الشيخ أبو العباس احمد بن خالد الناصري (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) الدولة السعدية ، الجزء الخامس ، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٥٥. ص ١٨٣-١٨٤.

٢٨- المرجع نفسه ص ١٨٤-١٨٥.

٢٩- نفسه ص ١٨٥.

٣٠- التمساني خلق (موقف الرأي العام من خلال الفتاوى الشرعية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين)مجلة دار النبابة ، السنة الخامسة العددان ٢٠/١٩ صيف خريف ١٩٨٨ ، المطابع الدولية المغربية ، طنجة ، ص ٥٤.

٣١- نفسه ص ٥٤.

٣٢- محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني(سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن قبر من العلماء والصلحاء بفاس) م.س. ص ٢٤٣.

٣٣- نفسه ص ٢٤٣.

٣٤- نفسه ص ٢٤٤.

٣٥- نفسه ص ٢٤٤.

٣٦- نفسه ص ٢٤٤.

٣٧- نفسه ص ٢٤٤.

٣٨- نفسه ص ٢٤٤.

٣٩- نفسه ص ٢٤٥.

٤٠- نفسه ص ٢٤٥.

٤١- نفسه ص ٢٤٥.

٤٢- عبد الإله بنمليح (ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي) منشورات الزمن سلسلة قضايا تاريخية رقم ٣. ص ٤.

٤٣- المرجع نفسه ص ٨.

٤٤- محمد المنوني (المصادر ر العربية لتاريخ المغرب) الجزء الثاني م.س. ص ١٤١.

٤٥- احمد بن خالد الناصري (الاستقصا....) الجزء الخامس م.س. ص ١٣١/١٣٢.

٤٦- المرجع أعلاه ص ١٣٢.

٤٧- نفسه ص ١٣٣.

٤٨- نفسه ص ١٣٤.

٤٩- رسالة السلطان الحسن الأول إلى الأمة في سنة ١٣٠٠ هـ وبداية القرن الرابع عشر ، مجموعة كتب ، بدون نص. ٦٧/٦٨.

٥٠- محمد حجي (جولة في كتاب مغرب اليوم لوجين اوبان) موجود بكتاب(في النهضة والتراكم) م.س. ص ٣١٢.

بيلوجرافيا القضية الفلسطينية

مدخل

تعتبر مراجع القضية الفلسطينية بلا شك كنزاً ثميناً للباحثين ، وتعطي بُعداً جديداً ومثمراً في مجال البحوث التاريخية المتعلقة بالقضية لها لها من مخزون حضاري رفيع المستوى وبدون الاعتماد عليها يكون البحث وحقائقه ومقتله وتعميماته مبتسرة مفتعلة . ويستطيع الباحث في مجال الفلسطينية أن يستفيد من المصادر والمراجع والدراسات التي تناولت تلك الفترة الحساسة فتكون له بمثابة المرشد الأمين ناهيك عن قيمتها كموروث ثقافي وحضاري هائل للأمم بكاملها فهي نواة الباحث ومخزونه الاستراتيجي . ومن هنا يمكن لكل باحث أن يحدد مصدره الخاص وأن ينظر في الوقت نفسه إلى أمهات الكتب التي قد تعينه على مزيد من الكشف والتقصي . والبيلوجرافيا تخص المذكرات الشخصية والمراجع العربية و المعربة .

أولاً: المذكرات الشخصية

- ١- أبا ايبان : الدبلوماسية الجديدة ، مذكرات الجزء الثاني ، الشئون الدولية في العصر الحديث ، كتب مترجمة ٧٩٧ ، الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٩١ واندوم هوس ، نيويورك .
- ٢- أريك سيلفر : بيجن - سيرة حياته ، الهيئة العامة للاستعلامات ، كتب مترجمة ٧٨٧ .
- ٣- اسحاق دويتشر : سيرة سياسية ، ترجمة : فواز طرابلسي ستاليسن ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، يوليو ١٩٦٩ .
- ٤- إسحاق رابين والسلام الكاذب ، سليمان سليم البواب ، بيروت ، الحمراء ، ط ١ ، ١٩٩٦ .
- ٥- أفرايم ديكل : نشاطات جهاز المعلومات (هشاي) ، من مفكرة قائد بجهاز المعلومات في الهاغاناة ، مطبعة دافار ، تل أبيب ، ١٩٥٣ .
- ٦- إلباهو بن حور : الخروج من الجدار ، وزارة الدفاع ، تل أبيب ، ١٩٨٥ .
- ٧- أهرون أهرونسون : يوميات أهرون أهرونسون (١٩١٦-١٩١٩) ، إعداد : يورام أفرتي دت .
- ٨- بوريس يلسن : المسار الجديد ، إعداد سوسن البواب ، بيروت ، المندرة ، ط ١ ، ١٩٩٢ .
- ٩- جيمس فورستال : اللعب بالنار ، قضية فلسطين وموقف الولايات المتحدة منها في مذكرات وزير الدفاع الأمريكي ، ترجمة : رمضان لاوند ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٦ .
- ١٠- دافيد بن غوريون : يوميات الحرب : حرب الاستقلال (١٩٤٧-١٩٤٩) ، تحرير : غيرشون ريفلين والحنان أوران ، وزارة الدفاع ، تل أبيب ، ١٩٨٤ .
- ١١- روفائيل إيتان : مذكرات مقاتل ، مطابع معاريف ، تل أبيب ، ١٩٨٥ .
- ١٢- شاؤول أفيفور : مع جيل الهاغاناة ، ط ٤ ، وزارة الدفاع ، تل أبيب ، ١٩٧٠ .
- ١٣- عبد الله التل ، كارثة فلسطين مذكرات قائد معركة القدس ، الجزء الأول ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ١٤- عبد المنعم واصل : الصراع العربي الإسرائيلي ، من مذكرات وذكريات ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ط ١ ، ٢٠٠٢ .
- ١٥- عصمت عبد المجيد : زمن الانتصار والانكسار ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٩٩٩ .
- ١٦- عوني عبد الهادي (أوراق خاصة) : إعداد خيرية قاسمية ، سلسلة كتب فلسطين (٥٤) ، مركز الأبحاث ، يونيو ١٩٧٤ .
- ١٧- فوزي القاوقجي : مذكرات فوزي القاوقجي أول أغسطس سنة ١٩٥٠ ، إعداد خيرية قاسمية .



أنور محمود زناتي

مدرس مساعد - قسم التاريخ

كلية التربية - جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

anwar_zanaty@mail.com

الاستشهاد المرجعي بالحقال:

أنور محمود زناتي ، بيلوجرافيا القضية الفلسطينية - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ .

ص ٨٤ - ١٠٣ . (www.historicalkan.co.nr)



- ٤٢- أحمد الرشدي وآخرون: القضية الفلسطينية وأفاق التسوية، أعمال المؤتمر السنوي الحادي عشر للبحوث السياسية والدراسات السياسية، ط ١، جامعة القاهرة، ١٩٩٨.
- ٤٣- أحمد السيد النجار: بناء دولة (دور المساعدات الخارجية لإسرائيل من ١٩٤٨-١٩٩٦)، الأهرام، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٤٤- أحمد الشقيري: أربعون عاما في الحياة العربية والدولية، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩.
- ٤٥- أحمد الشقيري: حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء، دار العودة، بيروت.
- ٤٦- أحمد الشقيري، قضايا عربية مجموعة خطب وبيانات تعريب خيرى حماد، بيروت، المكتب التجاري ١٩٦١.
- ٤٧- أحمد الشقيري، محاضرات في قضية فلسطين، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٤.
- ٤٨- أحمد الشقيري: من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.
- ٤٩- أحمد تهامي سلطان: الخديعة الكبرى.. مخططات خبثاء صهيون وحزبية العالم بالأساطير السياسية، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة.
- ٥٠- ٢٨- أحمد حسن إبراهيم: الموقف الإسرائيلي من التعاون الاقتصادي الإقليمي في القضية الفلسطينية، مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٥١- أحمد خليفة (مترجم): حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨، الرواية الإسرائيلية الرسمية، ط ٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٦.
- ٥٢- أحمد ذكي الدجاني: مأساة فلسطين بين الانتداب البريطاني ودولة إسرائيل، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٥٣- أحمد زايد: علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
- ٥٤- أحمد سليم البرصان: إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وحرب يونيو ١٩٦٧، ط ١، مركز الأبحاث للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الإمارات، ٢٠٠٠.
- ٥٥- أحمد سويلم العمري: الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٤.
- ٥٦- أحمد صدقي الدجاني: الانتفاضة الفلسطينية وإدارة الصراع، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٥٧- أحمد صدقي الدجاني: الانتفاضة الفلسطينية والتحرير، ط ١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٩.
- ٥٨- أحمد صدقي الدجاني: الانتفاضة الفلسطينية والصحة العربية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨.
- ٥٩- أحمد صدقي الدجاني: الانتفاضة الفلسطينية وزلزال الخليج، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩١.
- ٦٠- أحمد صدقي الدجاني: بداية الصحة العربية في مواجهة الغزوة الصهيونية العنصرية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٦١- أحمد صدقي الدجاني: في مواجهة نظام الشرق الأوسط، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٤.
- ٦٢- أحمد صدقي الدجاني: لا لحل العنصري في فلسطين شهادة علي مدريد واسلو، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٤.
- ٦٣- أحمد طربين: محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، معهد البحوث والدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٩.

- ١٨- محمد أمين الحسيني: حقائق عن قضية فلسطين، صرح بها سماحة مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا، أصدره مكتب الهيئة العربية العليا بفلسطين، القاهرة، ١٩٥٤.
- ١٩- محمد مهدي كبه: مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨-١٩٥٨، ط ١، منشورات دار الطليعة، بيروت، نوفمبر ١٩٦٥.
- ٢٠- منحيم بيغن: التمرد، مطبعة أخ يوسف، تل أبيب، ١٩٨١.
- ٢١- منحيم بيغن: في العمل السري، دار هدار للنشر، د.ت.
- ٢٢- يتسحاق بن تسفي: مذكرات ومواقف من الشباب حتى ١٩٢٠، راحيل بن تسفي، تحرير: مؤسسة يتسحاق بن تسفي، القدس، د.ت.
- ٢٣- يتسحاق رابين: سجل خدمة، تحرير: دوف غولدشتاين، مطبعة معاريف، تل أبيب، ١٩٧٩.
- ٢٤- يهودا بن دافيد: سرايا الميدان تتحرك بالليل، مطابع حديكل، تل أبيب، د.ت.

ثانيا: المراجع العربية و المعربة

- ٢٥- أبا إيبان: فصول من مذكرات إبا إيبان، ترجمة صوت البلاد، ط ١، مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر، دبي، ١٩٨٦.
- ٢٦- إبراهيم أبراش: البعد القومي للقضية الفلسطينية، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧.
- ٢٧- أبا إيبان: حركة القوميين العرب وجدلية العلاقة بين الوطنية الفلسطينية والقومية العربية: الحركة القومية العربية في مائة عام ١٨٧٥-١٩٨٢، ط ٢، دار
- ٢٨- إبراهيم أبو الغار: علم الاجتماع القانوني والضبط الاجتماعي، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٧٧.
- ٢٩- إبراهيم أبو شقرا: مفتي فلسطين أمين الحسيني وثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، ط ١، دار الرواد، لبنان، ١٩٩٩.
- ٣٠- إبراهيم أبو لغد (محرر): تهويد فلسطين، ترجمة: أسعد رزوق، سلسلة كتب فلسطين ٣٧، رابطة الأتباعيين الكويت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٢.
- ٣١- إبراهيم أحمد العدوى، قادة التحرير العربي في العصر الحديث، ط ٢، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤.
- ٣٢- إبراهيم العابد: دليل القضية الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٩.
- ٣٣- إبراهيم العابد: سياسة إسرائيل الخارجية أهدافها ووسائلها.
- ٣٤- إبراهيم رضوان الجندي: سياسة الانتداب البريطاني الاقتصادي في فلسطين ١٩٢٢-١٩٣٩، منشورات الكرمل، عمان، ١٩٨٦.
- ٣٥- إبراهيم شكيب: حرب فلسطين ١٩٤٨، رؤية مصرية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٣٦- إبراهيم كروان: المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، (١٩٧٨).
- ٣٧- أبو علي مصطفى: الخبرات السياسية لحركة القوميين العربي والجهة الشعبية خلال القرن الماضي، الندوة الفكرية السياسية، منتدي الفكر الديمقراطي الفلسطيني، غزة، ٢٠٠٠.
- ٣٨- اتحاد الجامعات العربية: القضية الفلسطينية والصراع الصهيوني، ج ١، جامعة الدول العربية، ١٩٩٧.
- ٣٩- أحسان عباس: الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٧٩.
- ٤٠- أحسان محمد الحسن: المجتمع العربي مقوماته وتكوينه، دراسات في المجتمع العربي، ط ١، الأردن، عمان، ١٩٨٥.
- ٤١- إحسان نزار عطية: مصادرة الأرض في المنطقة المحتلة ١٩٦٧-١٩٨٠، جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٨٠.

- ٦٤- أحمد طربين ، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار ، (١٨٧٠-١٩٢٢) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٦٥- أحمد طربين : الوحدة العربية ، بحث في تاريخ العرب الحديث منذ قيام الثورة العربية حتي نشؤ جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٦٦- أحمد طربين : محاضرات في تاريخ قضية فلسطين حتي نشوب ثورة ١٩٣٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٦٧- أحمد عبد الرحيم مصطفى : العلاقات المصرية البريطانية (١٩٥٦-١٩٦٨) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٦٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : بريطانيا وفلسطين ، ط ١ ، دار الشروق ، (١٩٨٦) .
- ٦٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الولايات المتحدة والمشرق العربي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٧٨ .
- ٧٠- أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٥ .
- ٧١- أحمد عصمت عبد المجيد ، مفهوم السياسة الخارجية والأمن القومي ، كلية الدفاع — مارس ١٩٨٧ .
- ٧٢- أحمد فراج طابع : صفحات مطوية عن فلسطين ، الاتحاد الاشتراكي العربي ، دار ومطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٧٣- أحمد محمد خليفة : مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- ٧٤- أحمد محمود شعبان ، نهر الأردن معركة ومصير ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ٧٥- أحمد نجيب : فلسطين تاريخاً ونضالاً ، دار الجيل للنشر ، ط ١ ، عمان ، ١٩٨٥ .
- ٧٦- أحمد نوفل : المؤامرة الاستعمارية الصهيونية علي فلسطين — المدخل إلي القضية الفلسطينية ، ط ١ ، مركز دراسات الشرق الأوسط ، عمان ، ١٩٩٧ .
- ٧٧- أحمد يوسف أحمد : السياسة السوفيتية تجاه إسرائيل (٤٨-١٩٥٦) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ٧٨- أحمد يوسف أحمد : المشكلات المائية في الوطن العربي ندوة معهد البحوث والدراسات العربية ، دار نشر معهد البحوث المائية والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ٧٩- أحمد يوسف أحمد : مستقبل العلاقات الفلسطينية السوفيتية دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٧ ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٧٥ .
- ٨٠- أحمد يوسف أحمد وآخرون : صناعة الكراهية في العلاقات العربية الأمريكية ، ط ١ ، مطابع الأهرام التجارية ، ٢٠٠٢ .
- ٨١- أحمد يوسف القرعي ، قضية فلسطين في الأمم المتحدة دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٧ ، يناير ١٩٦٧ .
- ٨٢- أدورد . شيهان : العرب والإسرائيليون ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٨٣- آدمون غريب وآخرون : الوطن العربي في السياسة الأمريكية ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٢ .
- ٨٤- إدوارد سعيد وآخرون : الواقع الفلسطيني والاتجاهات الدولية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٥ .
- ٨٥- إدوارد سيدهم : مشكلة اللاجئين العرب ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٨٦- إدوارد شيهان ، العرب والإسرائيليون ، القاهرة مايو ١٩٧٦ .
- ٨٧- أديب ديمتري ، الماركسية والصهيونية ، دار الطليعة بيروت ، ١٩٧١ .
- ٨٨- الأرقم الزغي : الغزو اليهودي للمياه العربية ، دار النقاش ، (د.ت) .
- ٨٩- أرنولد توينبي : تاريخ البشرية ، ترجمة نقولا زيادة ، جزآن ، الألفية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ .
- ٩٠- أرنولد توينبي : فلسطين جريمة ودفاع ، تعريب : عمر الديراوي ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١ .
- ٩١- أروي طاهر رضوان : اللجنة السياسية ودورها في العمل السياسي المشترك ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٩٢- أرية . ل . أفنيري : دعوي نزع الملكية — الاستيطان اليهود والعرب ١٨٧٨-١٩٤٨ ، ترجمة : بشير شريف البرغوثي ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ١٩٨٦ .
- ٩٣- أسامة الغزالي حرب : الإستراتيجية الإسرائيلية والمقاومة في الأرض المحتلة ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٧٧ .
- ٩٤- أسامة الغزالي حرب : الأرض المحتلة ، مركز الدراسات (سياسية والإستراتيجية) ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٩٥- استيفن جرين : التحيز ، علاقات أمريكا السرية في إسرائيل المتشددة ، مؤسسة ويليام مور ، نيويورك ، ١٩٨٤ .
- ٩٦- اسحاق دويتشر ، سيرة سياسية ، ترجمة فواز طرابلسي ستاليسن ، ط ١ ، دار الطليعة بيروت ، يوليو ١٩٦٩ .
- ٩٧- إسحاق راين : مذكرات ، ق ١ ، ط ١ ، دار الجليل للنشر والدراسات ، عمان ، ١٩٩٣ .
- ٩٨- إسحق موسي الحسيني : تاريخ القضية الفلسطينية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٩٩- أسحق يعقوب قطب : التركيب الاجتماعي للشعب الفلسطيني ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ١٩٩٠ .
- ١٠٠- اسرائل كوهين ، هذه هي الصهيونية ، المخابرات العامة ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ١٠١- إسرائيل : المجموعة الإحصائية الإسرائيلية لعام ١٩٧٤ ، معهد بوري ، القدس ، ١٩٧٥ .
- ١٠٢- إسرائيل كوهين : الحركة الصهيونية ، لندن ميللر ، عام ١٩٤٥ .
- ١٠٣- إسرائيل كوهين ، الحركة الصهيونية ، لندن ميللر ، عام ١٩٤٥ .
- ١٠٤- أسعد زروق : الصهيونية وحقوق الإنسان العربي ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٠٥- أسعد زروق : نظرة في أحزاب إسرائيل ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٠٦- أسعد زروق ، نظرة في أحزاب إسرائيل ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٠٧- أسعد زروق : إسرائيل الكبرى — دراسة في الفكر الصهيوني التوسعي ، مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٠٨- أسعد صقر : الحركة العمالية في فلسطين منذ عهد الانتداب البريطاني وحتى عام ١٩٨٠ ، منشورات دار الجرمق للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٨١ .
- ١٠٩- أسعد عبد الرحمن : الانتفاضة .. مقدمات .. وقائع .. تقاعلات .. آفاق ، ط ١ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ١١٠- أسعد عبد الرحمن : التسلل الإسرائيلي إلي آسيا — الهند وإسرائيل ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٦ .
- ١١١- أسعد عبد الرحمن : الجامعة العربية والقضية الفلسطينية ١٩٥٦-١٩٦٧ ، محرر : عبد العزيز الدوري ، ج ٢ ، ق ١ ، اتحاد الجامعات العربية ، تونس ، ١٩٨٩ .
- ١١٢- أسعد عبد الرحمن : المنظمة الصهيونية العالمية تنظيمها وأعمالها (١٨٩٧-١٩٤٨) ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٦٧ .
- ١١٣- أسعد عبد الرحمن : موجات الغزو الصهيوني (صراع البقاء والأجلاء ١٨٨٢-١٩٩٠) ، دار اللوتس ، عمان ، ١٩٩١ .

- ١١٤- اسكندر عزيز: فلسطين ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، ١٩٤٨ .
- ١١٥- إسماعيل راضي الفاروقي ، أصول الصهيونية في الدين اليهودي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ١١٦- إسماعيل صبري مقلد ، السياسة السوفيتية والدول الأقرب آسيوية ، دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٢ أكتوبر ، ١٩٦٥ .
- ١١٧- أشرف راضي : الفجوة " الصراع الطائفي في المجتمع " ، دار البيان ، ١٩٨٧ .
- ١١٨- أفرايم ومناحم تلمس : معجم المصطلحات الصهيونية ، ترجمة : أحمد العجري ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٨ .
- ١١٩- أفي شليم : الحائط الحديدي ، ترجمة : ناصر عفيفي ، تقديم : محمد عبد المنعم ، مؤسسة روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ١٢٠- الاقتصاد الإسرائيلي ، بين دوافع الحرب والسلام ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ط ١ ، نيسان ١٩٨٤ .
- ١٢١- أكرم أبو سمرة : المرأة الفلسطينية في الانتفاضة : صور من التضحية والعطاء ، ط ١ ، الأعلام الموحد الفلسطيني ، نيقوسيا ، ١٩٩١ .
- ١٢٢- أكرم ديري والهيثم الايوبي : نحو استراتيجية عربية جديدة ، ط ١ ، دار الطلبة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٩ .
- ١٢٣- أكرم زعيتير : القضية الفلسطينية ، ط ٣ ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ١٢٤- أكرم زعيتير : وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ١٢٥- أكرم هنية ، أوراق كامب ديفيد فلسطين ، شركة مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ، رام الله ، آب ، ٢٠٠٠ .
- ١٢٦- ألكسندر شولش ، وآخرون : الفلسطينيون عبر الخط الأحمر ، ترجمة : محمد هشام ، ط ١ ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة (١٩٨٦) .
- ١٢٧- أولوين روبر : اتفاقيات المياه في أوسلو — تقادي مشكلة وشيكة ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، أبو ظبي ، ٢٠٠١ .
- ١٢٨- إلياس خوري : إحصائيات فلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٧٦ .
- ١٢٩- إلياس شوفاني : إسرائيل من خمسين عام المشروع الصهيوني من المجد إلى الملموس ، ج ١ ، دار مصر للنشر ، دمشق ، ٢٠٠٢ .
- ١٣٠- إلياس شوفاني : الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى ١٩٤٩ ، ط ٣ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ١٣١- إلياس شوفاني : مشاريع التسوية الإسرائيلية (١٩٦٧-١٩٧٨) دراسة توثيقية نقدية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- ١٣٢- إلياس مرقص : عضوية النظرية في العمل القدائي ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ١٣٣- إليزابيث نوسبوم : إسرائيل ، وزارة الإرشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة .
- ١٣٤- إيلشع كالي : المياه والسلام وجهة نظر إسرائيلية ، ترجمة رنده حيدر ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩١ .
- ١٣٥- أمل حمد علي العليان : الأمن المائي العربي — مطلب اقتصادي أم سياسي ، دار العلوم للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- ١٣٦- أميرة حبيبي : النزوح الثاني " دراسة ميدانية النزوح ١٩٦٧ " ، مركز الأبحاث (م ف) ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ١٣٧- أميل الغوري : اغتيال فلسطين وسحق العرب ، دار النيل للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ١٣٨- أميل الغوري : المؤامرة الكبرى لاغتيال فلسطين ومحق العرب ، دار النيل للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ١٣٩- إميل توما : الأعمال الكاملة ، المجلد الرابع ، معهد إميل توما للأبحاث السياسية والاجتماعية ، حيفا ، ١٩٩٥ .
- ١٤٠- أميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، يونيو ١٩٧٣ .
- ١٤١- أميل توما : ستون عاما علي الحركة القومية العربية الفلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، دائرة الثقافة والعلوم ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- ١٤٢- أميل توما : فلسطين في العهد العثماني ، ط ١ ، دار الفجر للطباعة والنشر ، القدس ، ١٩٨٣ .
- ١٤٣- أميل شاكر وآخرون ، حقيقة المعارف بمصر بدون تاريخ ، اصدار ، (سلسلة ١١) .
- ١٤٤- أمين حامد هويدي : الصراع العربي الإسرائيلي بين الرادع التقليدي ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٣ .
- ١٤٥- أمين حامد هويدي : كيف يفكر الزعماء للصهيونية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ١٤٦- أمين سعيد : اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساه الشريف حسين ، بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ١٤٧- أمين عبد الله محمود : مشاريع الأستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتي نهاية الحرب العالمية الأولى ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٤ .
- ١٤٨- أمين محمود : الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، أبو ظبي ، ١٩٩٨ .
- ١٤٩- أنتوني ه. كورد سمان : بعد العاصفة التغيرات في التوازن العسكري بالشرق الوسط ، ترجمة : محمد عبد الحليم أبو غزالة ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ١٥٠- انجيليا الحلو ، عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية دراسات فلسطينية ، ط (١٦) منظمة التحرير فلسطين ، مركز الأبحاث بيروت ، ١٩٦٧ .
- ١٥١- أندرو ولسلي كوكويرن : علاقات خطرة ، خفايا الروابط الوثيقة والنشاطات الإستخبارية الأمريكية والإسرائيلية ، ترجمة : محمود العابد ، عماد جولاق ، د.ت .
- ١٥٢- أنيس القاسم : من التية إلي القدس ، دار النشر الليلية ، طرابلس ، ١٩٦٥ .
- ١٥٣- أنيس القاسم : الأعداد الثوري لمعركة التحرير ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ١٥٤- أنيس صايغ : الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية ، ترجمة : لطفي العابد وموسي عنز ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ١٥٥- أنيس صايغ : الهاشيميون وقضية فلسطين ، منشورات جريدة المحرر والمكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٥٦- أنيس صايغ : فلسطين والقومية العربية ، سلسلة أبحاث فلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٥٧- أنيس فايز قاسم : قانون العودة لدولة إسرائيل ، دراسة القانون الدولي والمحلي مع ملحق قضية افروبيم ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧١ .
- ١٥٨- أنور محمود زناتي : سياسة تهويد القدس ، إحصائيات ودلالات ، بحث بمجلة المستقبل العربي ، عدد ٣٦٦ ، أغسطس ٢٠٠٩ .

- ١٥٩- أوبرين لي : المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها في دعم إسرائيل ، ترجمة : مجموعة من الأساتذة بإشراف محمود زايد ، نيقوسيا ، ١٩٨٦ .
- ١٦٠- إيان بلاك — وبيتي موريس : حروب إسرائيل السرية (تاريخ الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية) ، ترجمة : عماد جولاق وعبد الرحمن المغرم ، ط ١ ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٢ .
- ١٦١- إيجال ألون : الأمن الإسرائيلي ، ترجمة : مركز البحوث والمعلومات ، المخابرات العامة .
- ١٦٢- إيجال ألون : تكوين الجيش الإسرائيلي ، ترجمة : عثمان سعيد ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ١٦٣- إيجال ألون : ستار من الرمال ، ترجمة : مركز البحوث والمعلومات ، المخابرات العامة ، ط ٣ ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ١٦٤- أيفا نوف بوري ، احذروا الصهيونية دراسة حول ايدولوجية وتنظيم وممارسة الصهيونية ، موسكونوفستر ، ١٩٦٩ .
- ١٦٥- البابا عبد الحميد : شخصيات إسرائيلية ، دار البيارق للنشر والتوزيع ، رام الله ، ١٩٩٢ .
- ١٦٦- بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية ، ترجمة : يسر جابر ، مراجعة : منذر جابر ، ط ١ ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- ١٦٧- باسل الكبيسي : حركة القوميين العرب ، منشورات الاتحاد ، رقم ١٢ ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ١٦٨- براند لوري : الفلسطينيون في العالم العربي ، ط ١ ، بناء المؤسسات والبحث عن دولة ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩١ .
- ١٦٩- بروسترك ديني : نظرة شاملة علي السياسة الخارجية الأمريكية ، ترجمة ودود بدران مصر ، ط ١ ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .
- ١٧٠- بسام محمد العبادي : الهجرة اليهودية إلي فلسطين من ١٨٨٠-١٩٩٠ (جذورها وحواضنها مراحلها) ، دار البشير ، عمان ، ١٩٩٠ .
- ١٧١- بشارة خضر : أوروبا وفلسطين من الحرب الصليبية حتى اليوم ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٣ .
- ١٧٢- بشير شريف البرغوثي : إسرائيل عسكر وسلاح ، دار الجليل ، عمان ، ١٩٨٥ .
- ١٧٣- بشير شريف البرغوثي : المطامع الإسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ١٧٤- بشير موسي نافع : الإمبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ١٧٥- بطرس بطرس غالي : العمل العربي المشترك في إطار الجامعة العربية ، دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٢٠ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ١٧٦- بن تسبون دينور وآخرون : كتاب تاريخ الهاغاناة ، معراخوت ، تل أبيب ، ١٩٧٢ .
- ١٧٧- بنيامين جنزريج : العناق القاتل — اليهود والدولة ، جامعة شيكاغو ، ١٩٩٣ .
- ١٧٨- بنيامين عمري : إسرائيل وفلسطين بعد الحقيقة الصهيونية ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، (د.ت.) .
- ١٧٩- بهجت أبو غربية : في خضم النضال العربي الفلسطيني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- ١٨٠- بهوت فاط مراكابي : الاستراتيجية العربية وردود الفعل الإسرائيلية ، ترجمة : أحمد الشهابي ، دار القدس ، بيروت ، ب. ت. .
- ١٨١- بو علي ياسين : قراءة في وثائق الوكالة اليهودية ١٩٣٠-١٩٤٠ ، إتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ١٨٢- بو علي يسن : الأحزاب والحركات القومية العربية ، ج ٢ ، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية ، دمشق ، د. ت. .
- ١٨٣- بولا البطل : الاتفاق العسكري في إسرائيل خلال ٣٥ عاماً ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- ١٨٤- بولشاكوف ، ف : معاداة الشيوعية مهمة العدائية ، مطبوعات وكالة أنباء نوفوستي للنشر ، موسكو ، ١٩٧٢ .
- ١٨٥- بوليك : الأقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة : عاطف كرم ، بيروت ، ١٩٤٨ .
- ١٨٦- بوندار فسكي : سياستان إزاء العالم ، ترجمة خيرى الضامن ، ط ١ ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ .
- ١٨٧- بيان نويهض الحوت : القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨) ، ط ٣ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ١٨٨- بيان نويهض الحوت : الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين ، ط ١ ، دار الاستقلال للدراسات والنشر ، ١٩٨٦ .
- ١٨٩- بيتر جروز : إسرائيل المتغيرة ، الهيئة العامة للاستعلامات ، كتب مترجمة ٧٨٦ .
- ١٩٠- بيتر مانفولد : تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط ، ترجمة : أوديب شيش ، دار طلامس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- ١٩١- تريفور ن. دويوي : النصر المحير ، الهيئة العامة للاستعلامات جمهورية مصر العربية ، كتب مترجمة ٧٦٨ .
- ١٩٢- تقرير اللجنة التنفيذية : لمنظمة التحرير الفلسطينية للمجلس الوطني الفلسطيني في دورة انعقاد الثانية عشر ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ١٩٣- تقرير المفوض العام لوكالة الأمم المتحدة : لأغانة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، يوليو ١٩٨١ .
- ١٩٤- توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ، المطبعة النموذجية ، ١٩٧٢ .
- ١٩٥- تيسير جبارة : الانتفاضة الشعبية الفلسطينية من النواحي السياسية والإعلامية ، مطابع النجاح ، نابلس ، ١٩٨٩ .
- ١٩٦- تيسير جبارة : دراسات في تاريخ فلسطين الحديث ، ط ١ ، مطبعة الرائد ، البيرة ، ١٩٨٥ .
- ١٩٧- ج. م. ن. جفريز : فلسطين إليكم الحقيقة ، ترجمة : أحمد سعيد الحاج ، أربع أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧١-١٩٧٣ .
- ١٩٨- ج. ج. طعمة : الوضع القانوني للاجئين العرب ، ترجمة : المخابرات العامة ، معهد الدراسات الفلسطينية ، بيروت .
- ١٩٩- جاتينا نيكيتينا ، دولة إسرائيل خصائص التطور السياسي والاقتصادي ، دار الهلال ، القاهرة .
- ٢٠٠- جاليسون دت : الولاء المزدوج الذي تقرضه الصهيونية وإسرائيل علي اليهود في ضوء القانون الدولي العام ، ترجمة : فؤاد البستاني ، مركز دراسات الشرق الأوسط ، القاهرة .
- ٢٠١- جامعة الدول العربية : الإجماع الفلسطينيون بيانات وإحصائيات ، الأمانة العامة لإدارة فلسطين ، القاهرة ، د. ت. .
- ٢٠٢- جان لاندوزي اللعازري : عطية أرض فلسطين ، تعريب : بولس سليمان ، تقديم وإخراج : ميري هاجي أثناسيو ، دمشق ، ١٩٨٣ .
- ٢٠٣- جانيس تيري ، سياسة إسرائيل تجاه الدول العربية ، إبراهيم أبو لغد محرر تهويد فلسطين .

- ٢٠٤- جبارة عطية جبارة: المشكلات الاجتماعية والتربوية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.
- ٢٠٥- جبرائيل بيطار: المظاهر العسكرية للصراع العربي الإسرائيلي، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- ٢٠٦- الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: الاستراتيجية العسكرية للجبهة، دائرة الأعلام، بيروت، ١٩٧٠.
- ٢٠٧- جلال السيد: إسرائيل وكيف خلقها الاستعمار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.
- ٢٠٨- جلال السيد: إسرائيل وكيف خلقها الاستعمار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.
- ٢٠٩- جلال الماشطة (مترجم): يوميات دبلوماسي في بلاد العرب، كتاب الأهالي رقم ٢٣، القاهرة، مارس ١٩٩٠.
- ٢١٠- جلال يحيى: مشكلة فلسطين والاتجاهات الدولية، منشأة المعارف، (١٩٦٥).
- ٢١١- جلال يحيى: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٢١٢- جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا، تقديم: عبد الوهاب المسيري، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٢١٣- جمال مظلوم: التطور الاقتصادي لإسرائيل منذ إنشاء الدولة وحتى عام ١٩٨٥، ط ١، وزارة الدفاع المصرية، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، ١٩٨٥.
- ٢١٤- جمال موسي: وقائع ومعطيات حول الاستقلال الكولونيالي الإسرائيلي ضد العمال العرب، المنطقة المحتلة.
- ٢١٥- جمعية الخرجين في الكويت: القضية الفلسطينية في أربعين عام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٩.
- ٢١٦- الجمعية العامة للأمم المتحدة: الدورة ٢٩ لعام ١٩٧٤، خطاب ياسر عرفات الرئيس للجنة التنفيذية لتحرير فلسطين، نيويورك.
- ٢١٧- جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، الصحة تحت الاحتلال، ط ١، ١٩٨٨.
- ٢١٨- جميل السلحوت: القضاء العشائري، مؤسسة الثقافة الفلسطينية، دار الأسوار، فلسطين، عكا، ١٩٨٧.
- ٢١٩- جميل الشقيري: الكيان الفلسطيني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٢٢٠- جميل الشقيري: قضية فلسطين الحربية والسياسية، نشر بموافقة عموم فلسطين، ١٩٦٢.
- ٢٢١- جميل هلال: الضفة الغربية "التركيب الاجتماعي والاقتصادي"، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٤.
- ٢٢٢- الجنرال اندريه بوفر، الردع الاستراتيجي ملخص كتاب رقم ٤، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الحربية، إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٢٢٣- جواد الحمد: التدخل إلى القضية الفلسطينية، دار البشير والتوزيع، عمان، ١٩٩٧.
- ٢٢٤- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ج ٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، بغداد، ١٩٥٦.
- ٢٢٥- جودة عبد الخالق: التمويل الخارجي لإسرائيل منذ انشائها وأثره على إقامة إسرائيل ودعم امكانياتها، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٢٢٦- جوديث بيريرا: السياق النووي بين العرب وإسرائيل، مركز الدراسات العربية بلندن، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٢٢٧- جوديث بيريرا: السياق النووي بين العرب وإسرائيل، مركز الدراسات العربية بلندن، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٢٢٨- جورج المصري: الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية، مركز الدراسات العربي الأوروبي، باريس، ١٩٩٦.
- ٢٢٩- جورج انطونيوس: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإسان عباس، ط ٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧.
- ٢٣٠- جورج بلاندييه: الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة: علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢٣١- جورج بول: أمريكا إسرائيل علاقة حميمة، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل، ط ١، ١٩٩٤، بيان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥.
- ٢٣٢- جورج حبش: التجربة النضالية الفلسطينية — حوار مع الدكتور جورج حبش، أجري الحوار محمود سويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٨.
- ٢٣٣- جورج طعمة: قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥.
- ٢٣٤- جورج كرندي: الاتحاد السوفيتي والقضية الفلسطينية، دراسة منشورة بمجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد ٢٠، ١٩٧٧.
- ٢٣٥- جورج ماكاي: حروب إسرائيل الثلاثة، وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة، القاهرة، (د.ت).
- ٢٣٦- جورج و. بول-دوغلاس ب. بول: التطور الأمريكي مع إسرائيل منذ عام ١٩٤٧ حتى الآن، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل، ط ١، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤.
- ٢٣٧- جوزيف س. ناي: حتمية القيادة، ترجمة: عبد القادر عثمان، ط ١، مركز المكتب الأردني، الأردن، عمان، ١٩٩١.
- ٢٣٨- جولدا مائير: الحقد يوميات قادة العدو، ترجمة: بهجت حيدر-سمية أبو الهيجا طه، بيروت، ١٩٨٨.
- ٢٣٩- جولدا مائير، الحقد يوميات قادة العدو، ترجمة: بهجت حيدر، سمية أبو الهيجا طه، بيروت، ١٩٨٨.
- ٢٤٠- جوليا فروند: علم الاجتماع عند ماكس فيبر، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦.
- ٢٤١- جولييان بيزانسون: إسرائيل الخاطفة، ترجمة: الهيئة العامة للكتاب، ق ١، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٢٤٢- جولييان بيزانسون: إسرائيل الخاطفة، ترجمة: الهيئة العامة للكتاب، ق ١، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٢٤٣- جولييان بيزانسون حرب، إسرائيل الخاطفة القسم الأول، ترجمة: الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٢٤٤- جون. ه. ديفيز: السلام المروغ، ترجمة: محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٢٤٥- جون. س. بادو: الموقف الأمريكي اتجاه العالم العربي، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٧٦.
- ٢٤٦- جون باجوت: جندي مع العرب، ترجمة: عفيفي حسن الصدي، دار النشر للجامعيين، بيروت، د.ت.
- ٢٤٧- جون باجوت، جندي مع العرب، ترجمة: عفيفي حسن الصدي، بيروت، دار النشر للجامعيين — ت.
- ٢٤٨- جون جلوب باشا: أزمة الشرق الأوسط، ترجمة: السيد يوسف نصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٢٤٩- جون ديفيز: السلام المروغ، ترجمة: محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
- ٢٥٠- جون ريد، عشرة أيام هزت العالم مع مقدمتين، (الطبعة العربية)، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٢.
- ٢٥١- جون لافين: العقلية الإسرائيلية، كتب مترجمة.

- ٢٥٢- جوناثان جولد بيرج: قوة اليهود في أمريكا ، ترجمة : نهال الشريف ، ط ١ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ٢٥٣- جيرشون كيغال : السياسات الحزبية في إسرائيل والأراضي المحتلة ، ترجمة : مصطفى الرز ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، (د.ت) .
- ٢٥٤- جيمس بيكر : سياسة الدبلوماسية : مذكرات جيمس بيكر ، ترجمة : مجدي شرشر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٢٥٥- جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ، ترجمة : نبيه إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٢٥٦- حازم صاغية : قومية المشرق العربي : من درافوس إلي غارودي ، ط ١ ، رياض الرئيس للكتب والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- ٢٥٧- حافظ سلامة ، صراعنا مع اليهود من خيبر إلى كامب ديفيد ، العدد ٣٣ ، مجلة المختار الاسلامي — القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٢٥٨- حافظ وهبه : خمسون عاما في جزيرة العرب ، ط ١ ، شركة مكتبة ومطبعة البابي ، ١٩٦٠ .
- ٢٥٩- حامد الموعد : إسرائيل والمتغيرات الدولية ، ط ١ ، مؤسسة عبيكان للدراسات والنشر ، ١٩٩١ .
- ٢٦٠- حامد ربيع : الإسلام السياسي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، ١٩٨٣ .
- ٢٦١- حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإدارة التكامل القومي ، دار الموقف العربي ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- ٢٦٢- حامد ربيع : الحرب النفسية في المنطقة العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٢٦٣- حامد ربيع : الحوار العربي — الأوربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، ١٩٨٣ .
- ٢٦٤- حامد ربيع : المتغيرات الدولية ومشكلة الشرق الأوسط ، دمشق ، ١٩٦٨ .
- ٢٦٥- حامد سلطان : المشكلات القانونية المتفرعة على قضية فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٢٦٦- حامد عبد الله ربيع : فلسفة الدعاية الاسرائيلية ، مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٢٦٧- حاييم هرتزوج : الحروب العربية الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٨٢) ، ترجمة : بدر الرفاي ، ط ١ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- ٢٦٨- حبيب قهوجي : إستراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية ، دمشق ، ١٩٧٨ .
- ٢٦٩- حبيب قهوجي ، العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٢ .
- ٢٧٠- حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) : بيان حول المجلس الوطني الفلسطيني الرابع ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٢٧١- حساء على حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ٢٧٢- حسام سويلم : فلسطين وكشمير — بين المطرقة والإسرائيلية والسندان الهندي ، ٢٠٠١ .
- ٢٧٣- حسان حنوت : فلسطين النكبة الأولى ، دار الهلال ، (١٩٨٨) .
- ٢٧٤- حسان حلاق : فلسطين في المؤتمرات العربية والدولية ، ط ١ ، منشورات روائع مجد لاوي ، عمان ، ١٩٩٨ .
- ٢٧٥- حسان حلاق : فلسطين في المؤتمرات العربية والدولية ، ط ١ ، منشورات روائع مجد لاوي ، عمان ، ١٩٩٨ .
- ٢٧٦- حسان حلاق : فلسطين في المؤتمرات العربية والدولية وثائق ومراسلات تنشر للمرة الأولى ، دار اللوتس ، عمان ، ١٩٩٨ .
- ٢٧٧- حسن الجبلي ، قضية فلسطين في ضوء القانون الدولي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٢٧٨- حسن الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، ج ١ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .
- ٢٧٩- حسن العطار : الوطن العربي ، مطبعة اللواء ، بغداد ، ١٩٦٦ .
- ٢٨٠- حسن شريف : تطور العمل الفدائي بعد حزيران ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٢٨١- حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٢٨٢- حسن ظاها وآخرون : الصهيونية العالمية وإسرائيل ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٢٨٣- حسن عبد الخالق مطاوع : دراسات إستراتيجية وعسكرية عن فلسطين ، ج ١ ، معهد البحوث والدراسات ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٢٨٤- حسين أبو النمل : قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧ — تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٢٨٥- حسين أبو شنب : الإعلام الفلسطيني ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
- ٢٨٦- حسين أبو شنب : الانتفاضة : ثورة الأرض والشعب : دراسة تحليلية عبر عامين من العطاء ، ط ١ ، الإعلام الموحد الفلسطيني ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٢٨٧- حسين أغا — أحمد سامح الخالدي — قاسم جعفر : إسرائيل " العقيدة العسكرية وشؤون التسليح " ط ١ ، مركز العالم الثالث للدراسات والنشر ، لندن ، ١٩٨٢ .
- ٢٨٨- حسين التركي : هذه فلسطين ، تونس ، ١٩٧١ .
- ٢٨٩- حسين شريف : المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ الحروب التوسعية الصهيونية ١٩٤٨ — ١٩٦٧ ، ج ٢ ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
- ٢٩٠- حسين صبري الخولي : فلسطين بين مؤتمرات الصهيونية والاستعمار ، الاتحاد الدولي لتقابات العمال العربي ، ١٩٦٩ .
- ٢٩١- حسين كروم : صلاح نصر " المأساة والأسطورة " ، مكتبة كمال الدين ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٢٩٢- حسين مؤنس : مصر ورسالتها ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، (د.ت) .
- ٢٩٣- الحكم دروزة : الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية ، ط ٢ ، دار الفجر الجديد ، بيروت ، ١٩٦١ .
- ٢٩٤- الحكم دروزة ، وحامد الجبوري : مع القومية العربية ، ط ٤ ، د. ن ، العراق ، ١٩٦٠ .
- ٢٩٥- حليم بركات : المجتمع العربي المعاصر ، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ .
- ٢٩٦- حليم بركات : النازحون اقتلاع ونفي ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٢٩٧- حمدان بدران : تاريخ منظمة الهاغاناه في فلسطين من ١٩٢٠ — ١٩٤٥ ، ط ١ ، منشورات فلسطين المحتلة ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٢٩٨- حمدان بدران : دور منظمة الهاغاناه في إنشاء إسرائيل ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٥ .
- ٢٩٩- حمودة عبد الخالق : التمويل الخارجي لإسرائيل منذ إنشائها وأثره على إقامة إسرائيل ودعم إماكنيتها ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- ٣٠٠- حميدي قناس الحميدي : الخيار النووي في الفكر الإستراتيجي الإسرائيلي ، الربيعان للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٧٢ .
- ٣٠١- حول الحركة العربية الحديثة ، المطبعة العصرية ، ١٩٥٠ .

- ٣٠٢- خالد الحسن: فكر التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، ١٩٩٠.
- ٣٠٣- خالد عايد: التوسعية الصهيونية وإسرائيل الكبرى: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، بيروت، ١٩٩٠.
- ٣٠٤- خالد عايد: سياسة إسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤ م.
- ٣٠٥- خليل عمر صالح وطوطح البرعوتي: تاريخ فلسطين، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣.
- ٣٠٦- خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج ٢، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧.
- ٣٠٧- خيرى حماد: أبعاد المعركة مع إسرائيل والاستعمار، دار الكاتب العربي للنشر، (١٩٦٧).
- ٣٠٨- خيرى حماد: التطورات الأخيرة في قضية فلسطين، سلسلة كتب قومية.
- ٣٠٩- خيرى حماد، اضواء وأراء في القومية والحرية ولأشترابية، القاهرة، ١٩٦٤.
- ٣١٠- خيرى حماد، مترجم السياسة الخارجية السوفيتية بين عام (١٩٥٥-١٩٦٥)، القاهرة، ١٠٦٨.
- ٣١١- خيرية قاسمية: الأوضاع السياسية للفلسطينيين في البلاد العربية: الفلسطينيون في الوطن العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، دار الغريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.
- ٣١٢- خيرية قاسمية: الحركة الوطنية الفلسطينية خلال الحكم العثماني ١٩١٧-١٩٤٨ الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، هيئة الموسوعة الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٠.
- ٣١٣- خيرية قاسمية: المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٨).
- ٣١٤- خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (١٩٠٩-١٩١٨)، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٣.
- ٣١٥- خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في المشرق العربي وصداه (١٩٠٨-١٩١٨)، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٧.
- ٣١٦- خيرية قاسمية: أوراق عوني عبد الهادي، سلسلة كتب فلسطين عدد(٥٤)، مركز الأبحاث، ١٩٧٤.
- ٣١٧- خيرية قاسمية: تطورات القضية الفلسطينية ١٩٥٧-١٩٦٧ علي الصعيد الفلسطيني: القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، تحرير: عبد العزيز الدوري، ج ٢، ق ١، اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة، ١٩٨٩.
- ٣١٨- دادياني: الصهيونية علي حقيقتها، ترجمة: الياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٩.
- ٣١٩- دافيد بن غوريون: الوحدة والهدف: أقوال عن أمن إسرائيل، وزارة الدفاع، تل أبيب، د.ت.
- ٣٢٠- دافيد بن غوريون: رسائل بن غوريون، ترجمة دينا عبد الحميد، ط ١، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٩.
- ٣٢١- دافيد جدي: وسائل الإعلام والاتصال الأمريكية، ترجمة: وكالة الإعلام الأمريكية، ١٩٩٤.
- ٣٢٢- دافيد جدي: وسائل الإعلام والاتصال الأمريكية، ترجمة: وكالة الإعلام الأمريكية، ١٩٩٤.
- ٣٢٣- دافيد نيف: تاريخ المنظمة العسكرية القومية (اتسل)، كلاوزنر، تل أبيب، ١٩٦٥.
- ٣٢٤- دورين انغرامز: أوراق فلسطينية، ترجمة دار النهار، بيروت.
- ٣٢٥- ديفيد داوننج —جاري هيرمن: حروب بلا نهاية وسلام بلا أمل، ثلاثون سنة من الصراع العربي الإسرائيلي، الهيئة العامة العامة للاستعلامات، سلسلة كتب مترجمة، ٧٤١، القاهرة.
- ٣٢٦- ذياب عيوشي: هتافات الانتفاضة وشعاراتها، فصل من كتاب الأدب الشعبي في ظل الانتفاضة، إعداد: عبد اللطيف البرغوثي: مركز إحياء التراث العربي: الطيبة، ١٩٩٠.
- ٣٢٧- رابطة التضامن الأدبي: قضية فلسطين (رأي المرأة المصرية في الكتاب الأبيض الأنجلزي ١٩٣٩)، بيان السيدة منيرة ثابت.
- ٣٢٨- راشد حميد: مقررات المجلس الوطني الفلسطيني (١٩٦٤-١٩٧٤)، منظمة التحرير الفلسطينية، ط ١، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥.
- ٣٢٩- رباعي المهدهون: الانتفاضة الفلسطينية.. الهيكل التنظيمي وأساليب العمل، ط ١، شرق برسن، نيقوسيا، ١٩٨٨.
- ٣٣٠- رجاء جارودي: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٣٣١- رجاء شحاده صامد: يوميات صامد في الأرض المحتلة، دار البيادر، القاهرة، ١٩٨٥.
- ٣٣٢- رشيد الخلدي: السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، نابلس، فلسطين.
- ٣٣٣- رشيد سلمان: إسرائيل والتسوية، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٥.
- ٣٣٤- رشيق محمد رفعت: تطور القضية الفلسطينية "تاريخيا وبشريا"، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٣٣٥- رفعت السعيد: اليسار المصري والقضية الفلسطينية، دار الفارابي، بيروت، (١٩٧٤).
- ٣٣٦- رفعت سيد أحمد: الصراع الهائي- الأبعاد الكاملة للصراع حول الماء بين العرب وإسرائيل، دار الهدى، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٣٣٧- رفعت سيد أحمد: وثائق حرب فلسطين، ط ١، مكتبة مدبولي، (١٩٨٩).
- ٣٣٨- رفيق حبيب مطلق: إسرائيل قبيل العدوان، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، سبتمبر ١٩٦٧.
- ٣٣٩- رفيق شاكر الننتشة: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين (السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين)، ط ٥، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠.
- ٣٤٠- روبرت أصاراف: أزمة ورجال في إسرائيل (١٩٩٥-١٩٩٩)، ترجمة: حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ٣٤١- روجر أوين: التطور الاقتصادي لفلسطين عهد الإنتداب "في الاقتصاد الفلسطيني"، مركز دراسات الوحدة، ١٩٨٩.
- ٣٤٢- روجر أوين: الحياة الشعبية في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الأول، ١٩٩٠.
- ٣٤٣- روجية جي: علم الاجتماع الأمريكي، دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة: محمد الجوي، أحمد زايد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- ٣٤٤- روجيه جارودي: ملف إسرائيل، دراسة للصهيونية، ترجمة: مصطفى كامل نور، ط ٢، دار الشروق، ١٩٨٤.
- ٣٤٥- رودنسون —مكسيم: إسرائيل والرفض العربي، ترجمة: الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ٣٤٦- روز ماري صايغ: الفلاحون الفلسطينيون —من الاقتلاع إلي الثورة، ترجمة: خالد عايد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٠.

- ٣٤٧- رونالد ريفان : إسرائيل قلعة استراتيجية للولايات المتحدة ، سلسلة الدراسات الاستراتيجية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
- ٣٤٨- روني جبالي : دراسة سياسية للنزاع بين العرب واليهود ، أربع أقسام ، المخابرات العامة .
- ٣٤٩- رياض توفيق ماضي : سياسة الصهاينة المائبة في الأراضي العربية المحتلة ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ١٩٩٠ .
- ٣٥٠- ريتشارد ديكون : الموساد ، جهاز الموت اليهودي الدامي ، تعريب : لجنة الإعداد والترجمة ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، (د.ت) .
- ٣٥١- زروبال جاعد : كتاب البالماخ ، هاميثو حاد ، تل أبيب ، ١٩٥٦ .
- ٣٥٢- زكريا السنوار : مشاريع تسوية قضية فلسطين من (١٩٢٠-١٩٩١) ، ط ٢ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ١٩٨٦ .
- ٣٥٣- زياد أبو صالح : الانتفاضة في نظر الإسرائيليين ، ط ١ ، منشورات العرب للصحافة ، القدس ، ١٩٩٠ .
- ٣٥٤- زياد أبو صالح : الانتفاضة في نظر الإسرائيليين ، ط ١ ، منشورات العرب للصحافة ، القدس ، ١٩٩٠ .
- ٣٥٥- زياد أبو عمرو : أصول الحركات السياسية في قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧ ، دار الأسوار ، عكا ، ١٩٨٧ .
- ٣٥٦- زياد الصغير : ثورة فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) وأثرها على لبنان ، ط ١ ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ١٩٨٤ .
- ٣٥٧- ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية ١٩٢٣-١٩٦٣ ، كتبها ونشرها المؤلف في تواريخ مختلفة ، ج ١ ، دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٣٥٨- ساطع الحصري : آراء وأحاديث في القومية العربية ، سلسلة التراث القومي ، ط ٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ٣٥٩- سامي الأحمد : تاريخ فلسطين القديم ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٩ .
- ٣٦٠- سامي الجندي : يهود وعرب — العداء الكبير ، مترجم عن الألمانية ، المخابرات العامة .
- ٣٦١- سامي الحكيم ، طريق النكبة ، القاهرة ، المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٦٩ .
- ٣٦٢- سامي حكيم : امريكا والصهيونية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٣٦٣- سامي حكيم : ميثاق الجامعة والوحدة العربية ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦ .
- ٣٦٤- سامي ذيبان : الحركة الوطنية اللبنانية ، ط ١ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ٣٦٥- سامي هداوي : الاعلام العربي والقضية الفلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٣٦٦- سامي هداوي : الحصاد المر فلسطين بين عامي (١٩١٤-١٩٧٩) ، رابطة الجامعيين في محافظة الخليل ، عمان ، ١٩٨٢ .
- ٣٦٧- سامي هداوي : قضية فلسطين في الأمم المتحدة ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٣٦٨- سامي هداوي : ملف القضية الفلسطينية ، تحرير : يوسف صايغ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، يوليو ١٩٦٨ .
- ٣٦٩- سايكس كريسوفر : مفارق الطرق إلى إسرائيل ، ترجمة : خيرى حماد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٣٧٠- ستالين ، الماركسية والقضية القومية ، ترجمة رابطة الكتاب التقدميين بيروت ، منشورات دار النهضة الحديثة ، بدون تاريخ ، إصدار .
- ٣٧١- ستيفن سيثنلايت : نصيب اليهود من التغير السكاني بأمريكا - إعادة النظر في سياسة الهجرة التي أسئ توجيهاها ، مركز دراسات الهجرة ، نوفمبر ، ٢٠٠١ .
- ٣٧٢- سحر الهندي : التأسيس البريطاني للوطن القومي اليهودي فترة هربرت صموئيل (١٩٢٠-١٩٢٥) ، ترجمة : عبد الفتاح الصبحي ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ٢٠٠٣ .
- ٣٧٣- سعد جمعة : المؤامرة ومعركة المصير ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٣٧٤- سعد زهران ، المشكلات الاسيوية دراسة بجملة الطليعة ، العدد ١٢ ، القاهرة .
- ٣٧٥- سعدي بيسسو : الصهيونية نقد وتحليل ، دراسة علمية سياسية قانونية للصهيونية والانتداب البريطاني ، القدس ، ١٩٤٥ .
- ٣٧٦- سعيد التل : الأردن وفلسطين ، وجهه نظر عربية ، دار الجليل ، عمان ، ١٨٩٤ .
- ٣٧٧- سعيد حماده (محرر) : النظام الاقتصادي في فلسطين (مجموعة باحثين) ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٣٩ .
- ٣٧٨- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ط ٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٣٧٩- سلافه حجاوي : اليهود السوفيت ، دراسة في الواقع الاجتماعي ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٣٨٠- سلافه حجاوي : اليهود السوفيت ، دراسة في الواقع الاجتماعي ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٣٨١- سلمان رشد سلمان : اليسار في اسرائيل ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٣٨٢- سلمان رشد سلمان ، اليسار في اسرائيل ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، بيروت ، ديسمبر ١٩٦٦ .
- ٣٨٣- سليم الجنيدى ، الحركة العمالية في فلسطين ، منذ ١٩١٧ - ١٩٨٥ م ، دار الجليل للنشر ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٣٨٤- سليم عرفات المبيض : غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .
- ٣٨٥- سليم عرفات المبيض : ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .
- ٣٨٦- سليم عمرو حسن الأسكندري : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر ، مراجعة : أ. ج. سفدج ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ .
- ٣٨٧- سليمان بشير : جذور الوصاية الأردنية : دراسة في وثائق الأرشيف الصهيوني ، ط ١ ، جمعية الدراسات العربية ، القدس .
- ٣٨٨- سليمان رشيد سليمان : إسرائيل والتسوية ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ٣٨٩- سليمان ظاهر : الفلسطينيات ، ج ٧ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (١٩٥٤) .
- ٣٩٠- سميح المعايطة : في التسوية السياسية للصراع العربي الصهيوني ، دار البشير ، عمان ، ١٩٩٣ .
- ٣٩١- سميح فرسون : فلسطين والفلسطينيون ، ترجمة : عطا عبد الوهاب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، (د.ت) .
- ٣٩٢- سميح فرسون : فلسطين والفلسطينيون ، ترجمة : عطا عبد الوهاب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، (د.ت) .
- ٣٩٣- سمير أيوب : وثائق اساسية في الصراع العربي الصهيوني ، صامد للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ٣٩٤- سمير جبور : تطور العقيدة الفكرية الاسرائيلية خلال ٣٥ عاماً ، ترجمات مختارة ، ط ٢ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، قبرص ، (نيقوسيا) .

- ٣٩٥- سهر سلطي التل : حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٣٩٦- سوريا ، القيادات العامة للجيش والثورة المسلحة إسرائيل ، دمشق ١٩٦٥ .
- ٣٩٧- سيتون وليمتر ، م ، ف بريطانيا والدول العربية عرض للعلاقات الانجليزية العربية (١٩٢٠ - ١٩٤٨) ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٣٩٨- السيد رجب حراز : التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ٣٩٩- السيد عليوه : الثقافة العمالية ، القاهرة ، ب ت .
- ٤٠٠- السيد فرج : جيشنا في فلسطين ، مطابع جريدة المصري ، (١٩٤٨) .
- ٤٠١- السيد فرج : وجهها لوجه مع إسرائيل ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .
- ٤٠٢- السيد محمد الحسيني : نحو نظرية اجتماعية نقدية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ٤٠٣- سيد نوفل : العمل العربي المشترك ، ماضية ومستقبل ، الكتاب الأول ، معهد البحوث والدراسات العربية ، يونيو ١٩٦٨ .
- ٤٠٤- سيد نوفل ، الدبلوماسية العربية في خمسة وعشرون عاماً ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، فبراير ، ١٩٧١ .
- ٤٠٥- السيد ياسين : الاستعمار الاستيطاني في فلسطين (١٩٤٨ - ١٩٧٣) ، جزآن .
- ٤٠٦- السيد ياسين : تحليل مضمون الفكر القومي — دراسة استطلاعية ، ط ٤ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩١ .
- ٤٠٧- السيد ياسين : تشريح العقل الإسرائيلي ، ميريت للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- ٤٠٨- السيد ياسين و علي الدين هلال : الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، ج ١ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٤٠٩- شاكرا الدبس : الدول العربية في منظمة الأمم المتحدة ، ط ١ ، دمشق ، أغسطس ١٩٤٨ .
- ٤١٠- شاكرا النابلسي : قطار التسوية والبحث عن المحطة الأخيرة ، قراءة سياسة فكرية لكافة مبادرات التسوية العربية الفلسطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٤١١- شبتاي تيب : دافيد بن غوريون والعرب ، ترجمة : غازي السعدي ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٧ .
- ٤١٢- شبتاي تيب : شخصيات صهيونية ، بن جوريون والعرب ، ترجمة : غازي السعدي ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، ١٩٨٧ .
- ٤١٣- شحادة موسى : علاقات إسرائيل مع دول العالم ١٩٦٧-١٩٧٠ ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٤١٤- شحاده يوسف : الواقع الفلسطيني والحركة النقابية ، مركز الابحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٤١٥- شداد أحمد العتيبي : المياه الفلسطينية أزمة في الواقع وإشكال في التفاوض ، ٢٠٠٤ .
- ٤١٦- شريف كنعانة : التغير والاستمرارية ، دراسات في تأثير الأطلال علي المجتمع الفلسطيني العربي ، جمعية الدراسات العربية ، القدس ، ١٩٨٣ .
- ٤١٧- شفيق الرشيدات : العدوان الصهيوني والقانون الدولي ، الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، (١٩٦٨) .
- ٤١٨- شفيق الرشيدات : فلسطين ، تاريخاً وعبراً ومصيراً ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤١٩- شفيق الرشيدات ، القضية الفلسطينية والقانون الدولي ، القاهرة ، اتحاد المحامين العرب ، ١٩٧٠ .
- ٤٢٠- شلومر نيكودون ، ما قبل ساعة الصفر قمة الأحداث التي سبقت حرب الأيام الستة ، تل أبيب ، ١٩٦٨ ، ترجمة خاصة ، القاهرة الهيئة العامة للاستعلامات .
- ٤٢١- شلومو ليفي : في النضال والتمرد : الهاغاناة وإتسل وليحي (١٩١٨-١٩٤٨) ، وزارة الدفاع ، تل أبيب ، د.ت .
- ٤٢٢- شلومو هبال : تهجير يهود العراق ، ط ١ ، دار الجليل للدراسات والنشر ، عمان ، د.ت .
- ٤٢٣- شمعون بيريز : حروبنا مع العرب ، سلسلة أعرف عدوك ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٤٢٤- شوقي الجمل ، التضامن الاسيوي الأفريقي وأثره في القضايا العربية ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٤ .
- ٤٢٥- صادق جلال العظم : دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٤٢٦- صادق سعد : فلسطين بين مخالف الاستعمار ، لجنة القاهرة للتأليف ، مطبعة دار التأليف ، ١٩٤٦ .
- ٤٢٧- صالح صائب الجيوري : محنة فلسطين وأسراها السياسة والعسكرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٤٢٨- صالح مسعود أبو بصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ط ٣ ، دار البيادر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٤٢٩- صبحي ياسن ، الثورة العربية الكبرى ، ط ٢ ، دار الهنا القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٤٣٠- صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، ج ٢ ، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، نيقوسيا ، ١٩٨٦ .
- ٤٣١- صبري جريس : تاريخ الصهيونية ١٨٦٢-١٩٤٨ ، ج ٢ ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ٤٣٢- صلاح الدين البحيري : فلسطين ، أرض فلسطين والأردن ، طبيعتها وحياتها واستعمالاتها ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤ .
- ٤٣٣- صلاح الدين الحديدي ، شاهد على حرب ١٩٦٧ ، بيروت دار الشروق ، بدون تاريخ اصدار .
- ٤٣٤- صلاح العقاد : قضية فلسطين اللحظة الحرجة ١٩٤٠-١٩٥٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤٣٥- صلاح العقاد : العرب والحرب العالمية الثانية ، معهد الدراسات العربية العليا ، ١٩٦٦ .
- ٤٣٦- صلاح العقاد : المسألة اليهودية في الاتحاد السوفيتي ، دراسة بالاهرام الاقتصادي ، العدد ٥٦ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ٤٣٧- صلاح العقاد : تطور النزاع العربي الاسرائيلي (١٩٥٦-١٩٦٧) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٤٣٨- صلاح العقاد ، الشرق العربي المعاصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- ٤٣٩- صلاح بسيوني ، مصر وازمة السويس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٤٤٠- صلاح خلف : أبو إياد : الفكر الوطني الثوري في الممارسة ، ط ١ ، الشؤون الفكرية والدراسات ، غزة ، ١٩٩٢ .
- ٤٤١- صلاح دباغ : الاتحاد السوفيتي وقضية فلسطين ، مركز الابحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

- ٤٤٢ - صلاح زكي : الثورة الفلسطينية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٤٤٣ - صمويل آتينجر (محرر) : اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠-١٩٥٠ ، ترجمة : جمال أحمد الرفاعي ، مراجعة : رشاد عبد الله الشامي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مايو ١٩٩٥ .
- ٤٤٤ - ضياء الحاجري : إسرائيل من الداخل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٤٤٥ - طارق البشري : الحركات السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٤٤٦ - طارق فوزي : إسرائيل دولة الدمار الشامل ، دار الأحمدي للنشر ، القاهرة ، (د.ت) .
- ٤٤٧ - طاهر شاشي : مفاوضات التسوية النهائية والدولة الفلسطينية : الأمل والتحديات ، ط ١ ، دار الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٤٤٨ - طاهر عبد الحكيم : كارتر والتسوية في الشرق الأوسط ، ط ١ ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ٤٤٩ - طه الفرنواني : الصراع العربي الإسرائيلي في ضمير دبلوماسي مصري ، دار المستقبل العربي ، وزارة الإرشاد القومي ، القاهرة .
- ٤٥٠ - ظافر بن خضراء : إسرائيل وحرب المياة القادمة ، دار كتعان للدراسات والنشر ، دمشق ، ٢٠٠٠ .
- ٤٥١ - ع. ر. ج. في ، فريلو تسكي ، بنو إسرائيل من الفكر الصهيوني الحديث ، سلسلة كتب فلسطينية .
- ٤٥٢ - عائشة راتب : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، دار النهضة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٤٥٣ - عادل أبو عمسة : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة قبل واثاء الانتفاضة ، ط ١ ، جامعة النجاح الوطنية ، فلسطين ، ١٩٨٩ .
- ٤٥٤ - عادل حامد الجادر : أثر قوانين الأنتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٦ .
- ٤٥٥ - عادل حسن غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ٤٥٦ - عادل حسن غنيم : الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٤٥٧ - عادل حسن غنيم : القضية الفلسطينية - دراسة معاصرة لبعض جوانبها ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٤٥٨ - عادل حسين غنيم : قضية اللاجئين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د. ت .
- ٤٥٩ - عادل سمارة : اقتصاد المناطق المحتلة ، التخلف يعمق الألتحاق ، منشورات صلاح الدين ، القدس ، ١٩٧٥ .
- ٤٦٠ - عادل محمود رياض : الفكر الإسرائيلي وحدود الدولة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د. ت .
- ٤٦١ - عادل مناع : تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني ١٧٠٠-١٩١٨ ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- ٤٦٢ - عارف العارف : القضاء بين البدو ، مطبعة بيت المقدس ، فلسطين ، ١٩٣٣ .
- ٤٦٣ - عارف العارف : تاريخ غزة ، مطبعة دار الأيتام الإسلامية القدس ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣ .
- ٤٦٤ - عارف العارف : نكبة فلسطين والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢ ، ج ١ ، دار المدي ، د. ت .
- ٤٦٥ - عارف العارف (نكبة) بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢ ، ط ١ ، المطبعة المصرية بيروت ، ١٩٥٦ .
- ٤٦٦ - عاصم الدسوقي : الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، مطبوعات الدارة ، (١٩٨٣) .
- ٤٦٧ - عاصم الدسوقي : الولايات المتحدة وفلسطين ، مركز الدراسات السياسية والأستراتيجية بالأهرام ، (١٩٨٥) .
- ٤٦٨ - عاصم الدسوقي ، مصر في الحرب العالمية الثانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، للمعهد الدراسات العربية ، ١٩٧٠ .
- ٤٦٩ - عاطف السيد : القرارات المصرية والأسرار الخفية في الصراع العربي الإسرائيلي ، دراسة سياسية استراتيجة ، دار عطوة ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- ٤٧٠ - عاطف عدلي العبد : الإعلامي واللجوء الفلسطينيون ، دار المطبوعات الجديدة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ .
- ٤٧١ - عاموس بير لميوت : العسكرية والسياسة في إسرائيل ، ترجمة : مركز البحوث والمعلومات المخابرات العامة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، (توزيع خاص) .
- ٤٧٢ - عاموس بير لميوت : دراسات عن إسرائيل الجيش الإسرائيلي والسياسة سيطرة المدينة على العسكرية ، الهيئة العامة للاستعلامات ، العدد الرابع ، وزارة الارشاد القومي ، كتب مترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤٧٣ - عاموس بير لميوت ، العسكرية والسياسة في إسرائيل ، ترجمة ، مركز البحوث والمعلومات المخابرات العامة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، (توزيع خاص) .
- ٤٧٤ - عاموس بير لميوت ، دراسات عن إسرائيل الجيش الإسرائيلي والسياسة ، سيطرة المدينة على العسكرية ، الهيئة العامة للاستعلامات ، العدد الرابع ، وزارة الارشاد القومي ، كتب مترجمة ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٨ .
- ٤٧٥ - عايدة سليمة : مصر والقضية الفلسطينية ، ط ١ ، دار الفكر والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ٤٧٦ - عايدة عبد الحميد أبو هيف : المتغيرات في الاقتصاد الإسرائيلي ١٩٤٨-١٩٧٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الجامعة العربية ، ١٩٧٥ .
- ٤٧٧ - عباس محمود العقاد : الصهيونية وقضية فلسطين ، بيروت ، (د.ت) .
- ٤٧٨ - عباس مراد ، الدور السياسي للجيش الأردني ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث .
- ٤٧٩ - عبد الإله بلقزيز : الإنفاق والآفاق ، رؤية مستقبلية للصراع العربي الإسرائيلي ، الدار البيضاء ، أفريقيا الشرق ، ٢٠٠٠ .
- ٤٨٠ - عبد الجبار السامرائي : الأطماع الصهيونية التوسعية في البلاد العربية ، دار الكتاب الجامعي ، ٢٠٠٢ .
- ٤٨١ - عبد الجليل الطاهر : البدو والعشائر في البلاد العربية معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٥٤ .
- ٤٨٢ - عبد الحفيظ محارب : الهجرة الاسرائيلية الى اسرائيل مشاكلها وكيفية التصدي لها ، دراسة بجلية فلسطينية ، العدد ١٠ ، بيروت ، يونيو ١٩٧٢ .
- ٤٨٣ - عبد الحفيظ محارب : هاغاناه وأتلي وليحي ، العلاقات بين التنظيمات الصهيونية المسلحة (١٩٣٧-١٩٤٨) ، ط ١ ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٤٨٤ - عبد الحميد البطريق ، التيارات السياسية المعاصرة أصولها التاريخية أوروبا (١٨٧٠ - ١٩٣٩) ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- ٤٨٥- عبد الحميد متولي : نظام الحكم في إسرائيل ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٤٨٦- عبد الرحمن أبو عرفة : الاستيطان : التطبيق العلمي للصهيونية ، دار الجليل للدراسات والنشر ، عمان .
- ٤٨٧- عبد الرحمن أحمد حسن : النشاط الصهيوني خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ ، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ٤٨٨- عبد الرحمن الرفاعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩ ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- ٤٨٩- عبد الرحمن غنيم : مدفعية إسرائيل النفسية ، دار الأدب ودار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٤٩٠- عبد الرحمن غنيم : مدفعية إسرائيل النفسية ، دار الأدب ودار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٤٩١- عبد الستار قاسم : تجربته الاعتقالية في المعتقلات الصهيونية ، دار الأمة للنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٤٩٢- عبد السلام حسني ، فلسطين الثائرة بين العرب واليهود ، القاهرة ، ١٩٣٩ .
- ٤٩٣- عبد العال الباقوري : العرب وإسرائيل وفلسطين نصف قرن من الصراع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
- ٤٩٤- عبد العزيز سرحان : النزاع العربي الإسرائيلي في ضوء ميثاق وقرارات الأمم المتحدة والقانون الدولي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ٤٩٥- عبد العزيز سليمان نوار : وثائق تاريخ العرب المعاصر (فلسطين) — موسوعة الوثائق التاريخية (١)، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ٤٩٦- عبد العظيم رمضان : العلاقات المصرية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٧٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٩٢) .
- ٤٩٧- عبد العظيم رمضان ، تطوير الحركة الوطنية في مصر (١٩٣٧-١٩٤٨) .
- ٤٩٨- عبد الغفار الجيار : فلسطين للعرب ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٤٧ .
- ٤٩٩- عبد الفتاح حسن أبو علي : من وثائق تاريخ فلسطين المعاصر ، دار المريح للنشر السعودي ، ١٩٨٧ .
- ٥٠٠- عبد القادر ياسين : الحركة الوطنية الفلسطينية : المحطات الرئيسة والدروس المستفادة ، ط ١ ، دار الكلمة ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- ٥٠١- عبد القادر ياسين : الحزب الشيوعي الفلسطيني والقضية الوطنية ، دراسة بمجلة الكتاب ، العدد ١٢٠ ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٥٠٢- عبد القادر ياسين : تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨-١٩٤٨ مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٥٠٣- عبد القادر ياسين : تطور الأحداث السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة : (في) الفلسطينيين في الوطن العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٥٠٤- عبد القادر ياسين : كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ ، سلسلة دراسات فلسطينية رقم (١٠٢) ، مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ٥٠٥- عبد القادر ياسين : هجرة اليهود السوفيت بين المد الصهيوني والعجز العربي ، دراسة في كتاب بعنوان يهود العالم والصهيونية وإسرائيل ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٥٠٦- عبد القادر يسن : كفاح الشعب الفلسطيني حتي عام ١٩٤٨ ، ط ٢ ، المؤسسة العربية للنشر ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٥٠٧- عبد الكريم العطار ، ثورة فلسطين أسبابها تاريخها شهدائها ، دار طباعة الاتحاد السوفيتي ، القاهرة .
- ٥٠٨- عبد الكريم درويش ، حرب الساعات الست ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤ .
- ٥٠٩- عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلي حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٦٧ .
- ٥١٠- عبد الكريم رافق : غزة دراسة عمرانية وإقتصادية وإقتصادية ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٠ .
- ٥١١- عبد اللطيف البرغوثي : بين التراث الرسمي والتراث الشعبي في فلسطين ، مركز الوثائق والأبحاث ، جامعة بيرزيت ، ١٩٨٦ .
- ٥١٢- عبد الله التل : كارثة فلسطين ، ج ١ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٥١٣- عبد الله سلوم السامرائي : حركة القوميين العرب ودورها في الوعي القومي ، تطور الفكر القومي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٥١٤- عبد الله عبد السلام القطشان : التعليم في فلسطين ١٩١٦-١٩٤٨ ، ج ١ ، كتاب صامد ، ١٣ ، دار الكرمل ، عمان ، ١٩٨٧ .
- ٥١٥- عبد المجيد إبراهيم : النموذج الانتفاضي : السمات والأفاق ، ط ١ ، دار البيادر ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
- ٥١٦- عبد الملك خلف التميمي : الاستيطان الاجنبي في الوطن العربي المغرب العربي — فلسطين — الخليج العربي — دراسة تاريخية مقارنة سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٣ .
- ٥١٧- عبد الملك عودة : إسرائيل وإفريقيا ، معهد البحوث والدراسات العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٥١٨- عبد المنعم الغزالي : إسرائيل
- ٥١٩- عبد المنعم المشاط : تطور الكيان الفلسطيني : الفلسطينيون في الوطن العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، دار الغريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٥٢٠- عبد المنعم سعيد : العلاقات الدولية لمنظمة التحرير الفلسطينية : (في) الفلسطينيون في الوطن العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٥٢١- عبد المنعم محمد بدر ، الثورة العربية الاشتراكية ، ج ١ ، دار المعارف ، ١٩٦٧ .
- ٥٢٢- عبد الوهاب الكيالي : البعث والقضية الفلسطينية ، ج ١ ، ط ٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ٥٢٣- عبد الوهاب الكيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، سلسلة دراسات فلسطينية ، ط ٣ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، ١٩٦٦ .
- ٥٢٤- عبد الوهاب الكيالي : الموجز في تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ م .
- ٥٢٥- عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ط ١٠ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- ٥٢٦- عبد الوهاب الكيالي : وثائق المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨-١٩٣٩) ، مؤسسة الدراسات العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ .

- ٥٢٧- عبد الوهاب الكيالي : وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨-١٩٣٩) ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجمعية صندوق فلسطين ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٥٢٨- عبد الوهاب المسيري : الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الأدراك والكرامة ، ط ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- ٥٢٩- عبد الوهاب المسيري : اليد الخفية — دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
- ٥٣٠- عبد الوهاب المسيري : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٥٣١- عبد الوهاب المسيري : موسوعة تاريخ الصهيونية ، ج ٢ ، المرحلة الإمبريالية ، دار الحسام .
- ٥٣٢- عبد الوهاب المسيري : هجرة اليهود السوفيت ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
- ٥٣٣- عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٥٣٤- عبد الوهاب مسعود ، قضية الانسان لا مشكلة اللاجئين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الكتاب الأول ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٥٣٥- عبده مياشر : المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الاستراتيجية البناء ، الاطار الفكري المنظم ، العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٥٣٦- عدلي حشاد ، شعوب فلسطين في طريق العودة ، العدد ٢٧٩ ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٥٣٧- عدلي سعيد ، الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ٥٣٨- عدود الرديان : فلسطين والصهيونيين (١٨٨٢-١٩٤٨) ، جامعة اليرموك ، ١٩٨٣ .
- ٥٣٩- عرفات حجازي : إسرائيل والسلاح النووي ، دار الصباح ، الأردن ، ١٩٨٦ .
- ٥٤٠- عز الدين علي الخيرو : الاطماع الصهيونية في مياه الأردن والليطاني ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٥٤١- عز الدين فوده : قضية القدس في محيط العلاقات الدولية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ٥٤٢- عزت طنوس : الفلسطينيون ماضي مجيد ومستقبل باهر ، ط ١ ، منظمة التحرير الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ٥٤٣- عصام سخيني : فلسطين الدولة جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ٥٤٤- عصمت سيف الدولة وآخرون : المقاومة من وجهة نظر قومية : قراءات في الفكر القومي ، الكتاب الخامس ، القومية العربية وفلسطين والأمن القومي وقضايا التحرر ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- ٥٤٥- عطية حسين الأفندي : حدود مصر الشرقية في معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية وموقع مشكلة طابا ، مركز البحوث والدراسات السياسية والاستراتيجية بجامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
- ٥٤٦- علي إبراهيم عبده ، خبرية قاسمية : يهود البلاد العربية ، سلسلة دراسات فلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، يونيو ١٩١٧ .
- ٥٤٧- علي الجرباوي : الانتفاضة والقيادات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ط ١ ، دار الطليعة بيروت ، ١٩٨٩ .
- ٥٤٨- علي الدين هلال : الفكر السياسي لحركة المقاومة الفلسطينية ، الفلسطينيون في الوطن العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٥٤٩- علي الدين هلال : تكوين إسرائيل دراسة في أصول المجتمع الصهيوني ، إصدار دار الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٥٥٠- علي الدين هلال : مشروعات الدولة الفلسطينية ، مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٥٥١- علي الدين هلال ، وآخرون : المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٧٨) .
- ٥٥٢- علي إمام عطية : الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٣ .
- ٥٥٣- علي صافي حسين : قضية فلسطين في الماضي والحاضر والمستقبل ، الدار القومية للنشر ، (١٩٦٦) .
- ٥٥٤- علي كاشف الغطا : تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، (١٩٨٤) .
- ٥٥٥- علي محافظة : الفكر السياسي في فلسطين من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني ١٩١٨-١٩٤٨ ، ط ١ ، مركز الكتب الأردني ، عمان ، ١٩٨٩ .
- ٥٥٦- علي محمد علي : إسرائيل والشرق الأوسط ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د. ت) .
- ٥٥٧- علي محمد علي : إسرائيل والشرق الأوسط ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د. ت) .
- ٥٥٨- علي محمد علي : فلسطين بين عصبة الأمم - والأمم المتحدة ، الدار القومية للنشر ، (د. ت) .
- ٥٥٩- علي محمد علي : موجز القضية الفلسطينية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٥٦٠- عماد أحمد الجوهري : الأوضاع الإقليمية في فلسطين في العصر الحديث ، سلسلة دراسات فلسطينية (٢) ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية بغداد ، ١٩٨٣ .
- ٥٦١- عماد جاد : أنتفاضة الأقصى : طموح الفكرة وأزمة الإدارة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٥٦٢- عماد جاد : فلسطين الأرض والشعب من النكبة إلى أوسلو ، ط ٢ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ٢٠٠٥ .
- ٥٦٣- عماد جاد وآخرون : الانتخابات الإسرائيلية ١٩٩٩ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٥٦٤- عماد يوسف وآخرون : مستقبل السياسة الدولية تجاه الشرق الأوسط ، ط ١ ، مركز دراسات الشرق الأوسط ، ١٩٩٦ .
- ٥٦٥- عمر ابو النصر وآخرون : جهاد فلسطين العربية فصول تبعث في تاريخ القضية الفلسطينية ما طراً عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الأول حتى الثورة الحاضرة ، يافا ، ١٩٣٦ .
- ٥٦٦- عمر الصالح البرغوثي ، تاريخ فلسطين القدس ، ١٩٢٣ .
- ٥٦٧- عمر رشدي : الصهيونية وريبتها إسرائيل ، ط ٢ ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٥٦٨- عمر شديد الجدلاوي : المياه والأمن الفلسطيني ، ردمك ، عمان ، ١٩٩٩ .
- ٥٦٩- عمر صالح : الأردن ومشاريع تسوية القضية الفلسطينية في عهد الملك عبد الله بن الحسين (١٩٣٦-١٩٤٨) ، مطبوعات وزارة الثقافة الأردنية ، الأردن ، ٢٠٠٠ .
- ٥٧٠- عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر القضية الفلسطينية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٠ .

- ٥٩٣- فؤاد حمدي بسيو: الاقتصاد الإسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام ، دار الجليل ، عمان ، ١٩٨٤ .
- ٥٩٤- فؤاد حمدي بسيو: المقاطعة العربية الإسرائيلية: الموسوعة الفلسطينية ، الجزء الخامس ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ٥٩٥- فؤاد خليل مفرج: المؤتمر القومي العربي في بلودان ١٩٣٧ ، المكتب القومي العربي ، دمشق ، ١٩٣٨ .
- ٥٩٦- فؤاد مرسي: الاقتصاد السياسي لإسرائيل ، ط ٢ ، دار المستقبل العربي ، (١٩٨٣) .
- ٥٩٧- فؤاد مطر: حكيم الثور: قصة حياة الدكتور جورج حبش ، ط ١ ، منشورات هاي لايت ، لندن ، ١٩٨٣ .
- ٥٩٨- فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر حوار مع محمد حسنين هيكل ، دار القضايا ، ط ٢ ، بيروت ، فبراير ، ١٩٧٥ .
- ٥٩٩- فؤاد نصحي: فلسطين في المعركة ، طبعة خاصة ، ١٩٥٨ .
- ٦٠٠- فاضل الريبي: كبش المحرقة: نموذج لمجتمع القوميين العرب ، ط ١ ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ١٩٩٩ .
- ٦٠١- فاطمة عبد الحميد فرحات: تطور القضية الفلسطينية ، المجلس الأعلى للثقافة ، (١٩٨١) .
- ٦٠٢- فايز الصايغ ، مشروع هامرشولد وقضية اللاجئين ، دار الفجر الجديد ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- ٦٠٣- فايز صايغ: الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، ترجمة: عبد الوهاب الكيالي ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ٦٠٤- فتحي الأبياري: فن الدعاية والمخطط الصهيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٦٠٥- فتحي فوزي ، المزاعم الصهيونية في فلسطين سلسلة إقرأ (٢٧٤) ، القاهرة ، دار المعارف ، مصر .
- ٦٠٦- فخري الدين العبيدي ومحمد حامد الغائي: فلسطين وضعها الجغرافي وتطورها التاريخي ، بغداد ، ١٩٤٨ .
- ٦٠٧- فخري النشاشيبي ، صوت من قبور فلسطين العربية ، القدس ، ١٩٣٨ .
- ٦٠٨- فرانز فانون: معذبو الأرض ، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأناسي ، ط ٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٦٠٩- فرانك جرفازي: القضية في صالح إسرائيل مع مقدمة لـ أبا إيبان ، وزير الخارجية الإسرائيلي (ب.د.س) .
- ٦١٠- فرانك مانويل: بين امريكا وفلسطين ، تعريب: يوسف حنا ، عمان ، ١٩٦٧ .
- ٦١١- فريد خوري ، المشكلة العربية الإسرائيلية القسمين ، ترجمة ، إصدار مركز البحوث والمعلومات ، المخابرات العامة ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٦١٢- فكتور سحاب: الحياة الشعبية في فلسطين ، الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الرابع ، القسم الثاني ، ١٩٩٠ .
- ٦١٣- فلاح خالد علي: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩-١٩٤٨ ، مؤسسة العربية لدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٦١٤- فواز جرجس: السياسة الأمريكية تجاه العرب كيف تصنع ومن يصنعها ، ط ١ ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- ٦١٥- فواز حامد الشرقاوي: الهاء في فلسطين والمستقبل السياسي (بحث مقدم إلي المؤتمر السنوي الحادي عشر للعلوم السياسية) ، مركز البحوث والدراسات السياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ٦١٦- فيب جيللون: أنا صهيوني وأطالب بدولة للفلسطينيين ، ترجمة: عبد العظيم حماد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

- ٥٧١- عمر محي الدين وآخرون: الاقتصاد الإسرائيلي ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- ٥٧٢- عمر مصالحة: السلام الموعود - الفلسطينيون من النزاع إلي التسوية ، ترجمة: وديع اصطفان وماري طوق ، ط ٢ ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- ٥٧٣- عمرو موسي وآخرون: المفاوضات العربية الإسرائيلية ومستقبل السلام في الشرق الأوسط ، تحرير: مصطفى علوي ، أعمال المؤتمر السنوي السادس للبحوث السياسية ديسمبر ١٩٩٢ ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ٥٧٤- عواطف عبد الرحمن ، مصر وفلسطين والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٠ .
- ٥٧٥- عودة بطرس عودة: القضية الفلسطينية في الواقع العربي ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٥٧٦- عيسى محمد: فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ٥٧٧- عيس نخلة: الكيان الفلسطيني وضع فلسطين الحالي بموجب القانون الدولي ، الهيئة العامة الفلسطينية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- ٥٧٨- عيسى السفري: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، يافا ، ١٩٣٧ .
- ٥٧٩- عيسى الشعيبي: الكيانية الفلسطينية: الوعي الذاتي والمؤسساتي ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٥٨٠- عيسى عبد الحميد: ست سنوات من الجسور المفتوحة ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٣١ .
- ٥٨١- عيسى عبد الحميد: ست سنوات من الجسور المفتوحة ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٣١ .
- ٥٨٢- غازي إسماعيل ربابعة: الاستراتيجية الإسرائيلية ، ط ١ ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٩٩٨ ز
- ٥٨٣- غازي السعدي: من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين "مجازر وممارسات (١٩٣٦-١٩٨٣) ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، ١٩٨٥ .
- ٥٨٤- غازي خورشيد: دليل حركة المقاومة الفلسطينية ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٥٨٥- غازي ربابعة: الاستراتيجية الإسرائيلية للفترة من (١٩٤٨-١٩٦٧) ، ط ١ ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، ١٩٨٣ .
- ٥٨٦- غازي ربابعة: الهاشميون والقضية الفلسطينية ، إصدارات وزارة الشباب الأردنية ، الأردن ، ١٩٨٨ .
- ٥٨٧- غسان كنفاني: ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في فلسطين - خلفيات وتفاصيل وتحليل ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٥٨٨- فؤاد إبراهيم عباس: العادات والتقاليد في الموروث الشعبي الفلسطيني ، ط ٥ ، مؤسسة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٩ .
- ٥٨٩- فؤاد المرسي ، العلاقات المصرية السوفيتية (٤٣-١٩٥٦) ، بحث لدرجة الدكتوراة في التاريخ الحديث ، جامعة عين شمس ، دار الثقافة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٥٩٠- فؤاد المرسي ، مؤتمر باكو للشعوب الشرقية ، دراسة منشورة من بحوث في التاريخ الحديث بمناسبة انقضاء ٢٠ عاماً على سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث ، بجامعة عين شمس .
- ٥٩١- فؤاد جابر: الأسلحة النووية واستراتيجية إسرائيل ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٥٩٢- فؤاد حسين علي: اليهودية واليهودية المسيحية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة النهضة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

- ٦١٧- فيصل حوراني: الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤ - دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ط ١ ، مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٦١٨- فيصل حوراني: جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨ ، ط ١ ، نيقوسيا ، قبرص ، ١٩٩٠ .
- ٦١٩- فيصل حوراني: عبد الناصر وقضية فلسطين ، قراءة لأفكاره وممارساته (دفا تر عربية ١) ، شرق برس ، نيقوسيا ، ١٩٨٧ .
- ٦٢٠- فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة: كمال البازجي ، مراجعة: جبرائيل جبور ، ج ٢ ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ٦٢١- قاعدة للإستعمار وليست أمة ، دار الفكر ، ١٩٥٨ .
- ٦٢٢- قسطنطين زريق: الأعمال الكاملة ، المجلد الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- ٦٢٣- قسطنطين زريق: العروبة وفلسطين: حوار شامل أجره محمود سويد ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ٦٢٤- كامل أبو جابر: الولايات المتحدة وإسرائيل ، معهد البحوث والدراسات العربية العالمية ، ١٩٧١ .
- ٦٢٥- كامل أبو جابر: نظام دولة إسرائيل ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٦٢٦- كامل اسماعيل الشريف ، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين ، القاهرة ، دار الكتاب العربي .
- ٦٢٧- كامل خله: فلسطين والانتداب البريطاني (١٩٢٢-١٩٣٩) ، ط ٢ ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والأعلان ، طرابلس الغرب ، ١٩٨٢ .
- ٦٢٨- كاميليا بدر: نظرة علي الأحزاب والحركات السياسية الإسرائيلية ، ط ٣ ، جمعية الدراسات العربية ، القدس ، ١٩٨٥ .
- ٦٢٩- كريستوفر سايكس ، مفارق الطريق إلى إسرائيل ، ترجمة: خيرى حماد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
- ٦٣٠- كمال الدين رفعت ، الاستعمار والصهيونية وقضية فلسطين وزارة الثقافة ، دار الكتاب العربي .
- ٦٣١- كميل منصور: الولايات المتحدة الأمريكية إسرائيل العروة الوثق ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- ٦٣٢- كميل منصور: أوري أفينري ، الصهيونية المستحدثة ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٦٣٣- كميل منصور: أوري أفينري ، الصهيونية المستحدثة ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٦٣٤- كولين ليجيم: المهاجرون يبقون الجنود الأسرائيليين مشغولين ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٦٣٥- كوهين اهرن: إسرائيل والعالم العربي ، ط ٣ ، ترجمة خاصة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، غير منشور .
- ٦٣٦- لأكورو التر ، الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، ترجمة لجنة من الاساتذة الجامعيين ، بيروت المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر .
- ٦٣٧- لتشوفسكي جورج الشرق الاوسط في الشئون العالمية ، ترجمة ، جعفر ، بغداد دار الكشاف ، بدون إصدار .
- ٦٣٨- لطفي الخولي: الانتفاضة والدولة الفلسطينية ، ط ١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٦٣٩- لطفي الخولي ، وآخرون: المعركة بين العرب وإسرائيل ، دار الكاتب العربي ، (د.ت) .
- ٦٤٠- لمياء جميل مجاعص: الهابام حزب العمل الموحد في اسرائيل دراسات فلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٨ .
- ٦٤١- لورى رزق ، فرقة اتحاد تحقيقات ومقالات حول مشاكل الشعب اليهودي ، القاهرة ، ترجمة خاصة (غير منشورة) .
- ٦٤٢- لوكاز هيرزويز : المانيا هتلرية والمشرق العربي ، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .
- ٦٤٣- ليدل هارت ، الاستراتيجية وتاريخها في العالم ترجمة الهيثم الايوي ، دار الطليعة ، دار النشر بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ .
- ٦٤٤- ليلى سلم القاضي ، المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية (ماتسين) ، مركز الابحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، يوليو ، ١٩٧١ .
- ٦٤٥- لبنين ، مسائل السياسة القومية والاهمية البروالياترية ، موسكو دار التقدم ، ١٩٦٩ .
- ٦٤٦- ليونارد فين: السياسة في اسرائيل ، ترجمة مركز البحوث والمعلومات المخابرات العامة ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٧١ توزيع خاص .
- ٦٤٧- ليونيل داداياني: الصهيونية علي لسان قادتها ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٦٤٨- مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين تاريخها وقضيتها ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، نيقوسيا ، ١٩٨٣ .
- ٦٤٩- مؤسسة الدراسات الفلسطينية: فلسطين تاريخها وقضيتها ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، نيقوسيا ، ١٩٨٣ .
- ٦٥٠- مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني .
- ٦٥١- مائير: حياتي ، ط ١ ، دار الجليل للنشر والدراسات ، عمان ، ١٩٨٩ .
- ٦٥٢- مائير كهانا: شوكة في عيونهم ، ترجمة: غازي السعدي ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٥ م .
- ٦٥٣- مازن البندك: اسرائيل مجتمع عسكري ، مطابع دار الكفاح ، بيروت-لبنان ، ١٩٧١ .
- ٦٥٤- مازن البندك: اطلس الصراع العربي الصهيوني حتى بداية عام ١٩٧٨ ، دار القدس ، لبنان - بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٦٥٥- ماهر شريف: البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٠٨-١٩٩٣ ، ط ١ ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي F.K.A المحدودة للنشر ، نيقوسيا ، ١٩٩٥ .
- ٦٥٦- ماهر شريف: تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ٦٥٧- مايكل س. هيدسون: سياسات الدول العربية تجاه إسرائيل (في) إبراهيم أبو الغد ، تهويد فلسطين ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٦٥٨- مجدي حماد: النظام السياسي الأستيطاني ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٦٥٩- المجلس القومي للثقافة العربية: الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني ، ط ١ ، اتحاد الكتاب الأردنيين ، عمان ، ١٩٩١ .
- ٦٦٠- مجموعة من الأساتذة: الموسوعة الفلسطينية ، مركز الأبحاث الفلسطينية الدائرة الثقافية ، م. ت. ف. ، المجلد الأول ، القسم الثاني ، ١٩٨٤ .
- ٦٦١- مجموعة من الأساتذة: الموسوعة الفلسطينية ، مركز الأبحاث الفلسطينية الدائرة الثقافية ، م. ت. ف. ، المجلد الأول ، القسم الثاني ، ١٩٨٤ .
- ٦٦٢- محبوب عمر: الانتفاضة: تراث وحاضر ومستقبل ظافر ، ط ١ ، دار البيادر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

- ٦٦٣- محسن إبراهيم: الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي، دار الفجر الجديد، بيروت، ١٩٦٢.
- ٦٦٤- محسن إبراهيم: لماذا منظمة الاشتراكيين اللبنانيين، ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠.
- ٦٦٥- محسن إبراهيم، وهاني الهندي: إسرائيل (فكرة، حركة، دولة)، ط ١، دار الفجر الجديد، بيروت، ١٩٥٨.
- ٦٦٦- محسن الأمين: خطط جبل عامل، ج ١، ط ١، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣.
- ٦٦٧- محسن صالح: الطريق إلى القدس، ط ٢، دار المستقبل، الخليل، ١٩٩٧.
- ٦٦٨- محسن صالح: القوات العسكرية والشرطة في فلسطين ودورها في تنفيذ السياسة البريطانية (١٩١٧-١٩٣٩)، ط ١، دار النفائس، عمان، ١٩٩٦.
- ٦٦٩- محمد ابراهيم فضة: الجبايات الضاغطة الصهيونية الأمريكية، دراسة بمجلة السياسة الدولية، العدد ٤٦، القاهرة، ١٩٧٦.
- ٦٧٠- محمد أبو شعبانة: الطريق إلى الخلاص والحرية والمساواة، مطابع الشعب التجارية، القدس، ١٩٧٢.
- ٦٧١- محمد الجبالي، وآخرون: الدفاع الاقتصادي ضد الأطماع الاستغلاية الإسرائيلية، الدار القومية للنشر، (١٩٦٥).
- ٦٧٢- محمد السعيد إبراهيم: إسرائيل في التصور الأمريكي، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٩.
- ٦٧٣- محمد السماك القرار العربي في الأزمة اللبنانية، ط ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٤.
- ٦٧٤- محمد السيد سعيد، وأميره سلام: استيعاب المهاجرين في إسرائيل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة، ١٩٧٨.
- ٦٧٥- محمد السيد سعيد، وأميره سلام، استيعاب المهاجرين في إسرائيل مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة فبراير، ١٩٧٨.
- ٦٧٦- محمد السيد سليم: الاتحاد السوفيتي والقضية الفلسطينية، دراسة بمجلة السياسة الدولية العدد ١٧، القاهرة، ١٩٦٩.
- ٦٧٧- محمد أمين الحسيني: الحقائق عن قضية فلسطين، مكتبة الهيئة العربية العليا الفلسطينية، القاهرة، ١٩٥٤.
- ٦٧٨- محمد أمين الحسيني: حقائق عن قضية فلسطين، ط ٣، دار الكاتب العربي، (١٩٥٧).
- ٦٧٩- محمد أنيس، المؤتمر الآسيوي الأفريقي، العدد ٤٤، من سلسلة اخترناك، القاهرة، ديسمبر، ١٩٥٧.
- ٦٨٠- محمد بدیع شريف: مدخل لدراسة مطامع اليهود في فلسطين قديما وحديثا، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣.
- ٦٨١- محمد توفيق محمود: الجغرافيا السياسية لإسرائيل، دراسات خاصة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٦٨٢- محمد جعفر الحياي: الحركة القومية العربية في مائة عام ١٩٧٥-١٩٨٢، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧.
- ٦٨٣- محمد جمال باروت: حركة القوميين العرب - النشأة، التطور، المصائر، ط ١، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دار المهدي للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٧.
- ٦٨٤- محمد حافظ غانم: المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، (١٩٦٤-١٩٦٥) محاضرات، القاهرة.
- ٦٨٥- محمد حافظ غانم، المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولي، معهد البحوث والدراسات العربية العالمية.
- ٦٨٦- محمد حسنين زهير، أعلام الدول العربية والدليل العام، دار المعارف بمصر.
- ٦٨٧- محمد حسنين هيكل: ملفات السويس: حرب الثلاثين سنة، ط ١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٦٨٨- محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ط ٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٦٨٩- محمد خالد الأزعر: المقاومة في قطاع غزة، ط ١، دار المستقبل العربي، (١٩٨٧).
- ٦٩٠- محمد خليفة التونسي (مترجم): الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون، تقديم: عباس محمود العقاد، القاهرة.
- ٦٩١- محمد خليل الفقية: بيلوغرافيا المؤسسات الصحفية في الأرض المحتلة: رابطة الصحفيين العرب، القدس، ١٩٨٧.
- ٦٩٢- محمد خليل الفقية: بيلوغرافيا المؤسسات الصحفية في الأرض المحتلة: رابطة الصحفيين العرب، القدس، ١٩٨٧.
- ٦٩٣- محمد سلامة النحال: سياسة الأتدباب البريطاني حول أرض فلسطين، ط ٢، مطابع الكرمل الحديث، عمان، ١٩٨١.
- ٦٩٤- محمد سلامة نحال: فلسطين أرض وتاريخ.
- ٦٩٥- محمد سليم: نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل (١٩٢٢-١٩٤٨)، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢.
- ٦٩٦- محمد سليمان: إعلام الانتفاضة.. تكميلية الأداء.. فاعلية النتائج، ط ١، النهضة برس، نيقوسيا، ١٩٩١.
- ٦٩٧- محمد سليمان: إعلام الانتفاضة.. تكميلية الأداء.. فاعلية النتائج، ط ١، النهضة برس، نيقوسيا، ١٩٩١.
- ٦٩٨- محمد سليمان: أغاني الانتفاضة، مؤسسة بيان برس، نيقوسيا، ١٩٨٩.
- ٦٩٩- محمد شديد: المياه والأمن الفلسطيني، دار مجد، عمان، (د.ت).
- ٧٠٠- محمد صبري عابدين: مطامع اليهود الصهيونيين في الاستيلاء على المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية في فلسطين، القدس، ١٩٤٦.
- ٧٠١- محمد صفوت: إسرائيل العدو المشترك، النهضة المصرية، (١٩٥٢).
- ٧٠٢- محمد طلعت الغنيمي: قضية فلسطين في ضوء القانون الدولي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.
- ٧٠٣- محمد عبد الرحمن برج: عزيز المصري والحركة الوطنية المصرية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٠.
- ٧٠٤- محمد عبد الرؤوف، تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة، ١٩١٨، القسم الثاني، تصريح بلفور وصاداؤه العالمية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، معهد البحوث والدراسات العربية، رسائل وبحوث، القاهرة، ١٩٧٤ م.
- ٧٠٥- محمد عبد الرؤوف سليم: العرب وتقسيم فلسطين مع دراسة عن مؤتمر بلودان ١٩٣٧، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.
- ٧٠٦- محمد عبد الرؤوف سليم: مؤتمر زيورخ الصهيوني العالمي (١٩٣٧) ودوره وايزمان في أعماله، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٧٠٧- محمد عبد الرحمن: تحالف الصهيونية والاستعمار، المؤسسة المصرية للنشر، (١٩٦٤).
- ٧٠٨- محمد عبد الرحمن برج: الصهيونية والاستعمار مقدمات ونتائج، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٧٤.
- ٧٠٩- محمد عبد الرحمن برج، الصهيونية والاستعمار مقدمات ونتائج، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٧٤.

- ٧١٠- محمد عبد المنعم عامر : القضية الفلسطينية بحث شامل على ضوء الحقائق التاريخية والسياسية ، مكتبة النهضة ، القاهرة .
- ٧١١- محمد عبد المنعم عامر : القضية الفلسطينية بحث شامل على ضوء الحقائق التاريخية والسياسية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٧١٢- محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها - تاريخ ومذكرات وتعليقات ، ج ٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٠ .
- ٧١٣- محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها - تاريخ ومذكرات وتعليقات ، ج ٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٠ .
- ٧١٤- محمد عزة دروزة : مأساة فلسطين ، دار اليقظة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ .
- ٧١٥- محمد عزت دروزه : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الثاني ، منظمة التحرير الفلسطينية دائرة الإعلام والثقافة .
- ٧١٦- محمد عزة دروزه : الوحدة العربية ، ط ١ ، المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٥٧ .
- ٧١٧- محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ، الجزء الأول (انجلترا والحركة العربية) ، المطبعة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، (د.ت) .
- ٧١٨- محمد عزيز شكري : التكتلات والأحلاف الدولية في عصر الوفاق ، دراسة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٨ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ٧١٩- محمد عزيز شكري : نظرية الأمن الإسرائيلي : الموسعة الفلسطينية ، المجلد السادس ، القسم الثاني ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ٧٢٠- محمد علي خلوصي : التنمية الاقتصادية في قطاع غزة ، فلسطين (١٩٦٦-١٩٤٨) ، المطابع التجارية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٧٢١- محمد علي علوب : فلسطين وجارتها ، اسباب ونتائج ، ط ١ ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٧٢٢- محمد علي علوبة : فلسطين والضمير الانساني ، كتاب الهلال ، (١٩٦٤) .
- ٧٢٣- محمد عماره : العروبة في العصر الحديث ، دراسات في القومية والأمة ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ٧٢٤- محمد فائز القصري : حرب فلسطين ١٩٤٨ ، الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب ، ج ١ ، ط ١ ، دار المعرفة ، (١٩٦١) .
- ٧٢٥- محمد فايز القصري : فلسطين مأساة العالم العربي ، المطبعة التعاونية ، دمشق .
- ٧٢٦- محمد فيصل عبد المنعم : تاريخ الحرب بين العرب وإسرائيل ١٩٤٨-١٩٧٣ ، دار أمية للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٧٢٧- محمد فيصل عبد المنعم : نحن وإسرائيل في معركة المصير ، ١٩٦٨ .
- ٧٢٨- محمد فيصل عبد المنعم ، فلسطين والغزو الصهيوني ، مكتبة القاهرة الحديثة ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٧٢٩- محمد فيصل عبد المنعم وآخرون : التوسع الاسرائيلي - عرض وتحليل مشروعات السلام الإسرائيلية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة .
- ٧٣٠- محمد فيصل عبد المنعم وآخرون : التوسع الاسرائيلي - عرض وتحليل مشروعات السلام الإسرائيلية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة .
- ٧٣١- محمد كمال عبد الحميد ، الشرق الأوسط في الميزان الاستراتيجي ، دار القاهرة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ابريل ، ١٩٥٩ .
- ٧٣٢- محمد كمال يحي حامد : الاتحاد السوفيتي والقضية الفلسطينية ١٩٤٨-١٩٦٧ ، دار الطباعي العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ٧٣٣- محمد كمال يحي حامد : الاتحاد السوفيتي وفلسطين حتي قيام إسرائيل ، رسالة ماجستير غير منشورة اجيزت بمعهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ابريل ١٩٧٣ .
- ٧٣٤- محمد متولي العتري : قضية فلسطين قضية عالمية ، دراسات في الإسلام ، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية العدد ، ١٠٤ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٧٣٥- محمد محمد شراب ، معجم بلدان فلسطين ، ط ١ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٧ .
- ٧٣٦- محمد محمود إبراهيم الديب : حدود فلسطين - دراسة تحليلية لوثائق الانتداب ، معهد البحوث والدراسات المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٧٣٧- محمد محمود الصياد ، جغرافية التوطن اليهودي في فلسطين المحتلة ، دراسة بمجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الأول القاهرة ، مارس ، ١٩٦٩ .
- ٧٣٨- محمد مدحت جابر عبد الجليل : مدن التنمية في فلسطين المحتلة ، حويلات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، (١٩٨٨) .
- ٧٣٩- محمد مصطفى زيدان : القومية العربية بين التحدي والاستجابة ، ط ١ ، دار مكتبة الأندلس ، بنغازي ، ١٩٧٣ .
- ٧٤٠- محمد نحلة : تطور المجتمع في فلسطين ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٧٤١- محمد نصر الدين مهنا : مشكلة فلسطين والصراع الدولي (١٩٤٥-١٩٦٧) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٧٤٢- محمد نصر مهنا : السوفيت وقضية فلسطين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ٧٤٣- محمد نصر مهنا : مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥-١٩٦٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٧٤٤- محمد نصر مهنا : مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥-١٩٦٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٧٤٥- محمد نصر مهنا : مشكلة فلسطين والصراع الدولي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، (١٩٧٨) .
- ٧٤٦- محمد يونس الحسيني : التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية ، القدس ، ١٩٤٦ .
- ٧٤٧- محمود العابدي : الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن ، عمان ، ١٩٧٣ .
- ٧٤٨- محمود العابدي : صفد في التاريخ ، عمان ١٩٧٧ .
- ٧٤٩- محمود بركات ، النخبة الحاكمة في اسرائيل ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ٧٥٠- محمود حمد صالح قيس : تصريح بلفور مع قسم خاص عن فلسطين في تقارير بيل الامريكية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٧٥١- محمود خيرى بنونه : السياسة النووية لاسرائيل ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٧٥٢- محمود زايد : تاريخ فلسطين (١٩١٤-١٩٤٨) ، دار القدس ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٧٥٣- محمود سعيد عبد الظاهر : الصهيونية وسياسة العنف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٧٩) .
- ٧٥٤- محمود عزمي : القوات الإسرائيلية المحمولة جوا ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٧٥٥- محمود عزمي : القوات الإسرائيلية المحمولة جوا ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٧٥٦- محمود فهمي سعيد : دور المتغيرات الخارجية في الصراع العربي الاسرائيلي ، دراسة على ورق في ١٧٢ ، صفحة معهد الدراسات الدبلوماسية ، بوزارة الخارجية المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

- ٧٥٧- محمود متولي : اتفاقية رودس بين العرب وإسرائيل ١٩٤٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- ٧٥٨- محمود محمود توفيق : الجغرافيا السياسية لإسرائيل ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- ٧٥٩- محمود نعناعة : الصهيونية في الستينات ، الدار القومية للنشر ، (١٩٦٤) .
- ٧٦٠- مدحت جابر : بعض جوانب جغرافية العمران في فلسطين وتأثيرها بالأسستيطان اليهودي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ .
- ٧٦١- مركز الأبحاث الفلسطيني : دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني (قرية ترمسعا) ، منظمة التحرير الفلسطينية .
- ٧٦٢- مروان كنعاني : يهود الاتحاد السوفيتي ، أوضاعهم الديمغرافية والدينية ، ضمن مجموعة من الدراسات بعنوان ، (يهود العالم والصهيونية وإسرائيل ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٤) .
- ٧٦٣- مروة جبر : جامعة الدول العربية وقضية فلسطين ١٩٤٥-١٩٦٥ ، مركز الأبحاث : ل. م. ت. ف. ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٦٤- مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية ، سلسلة عالم المعارف "المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب" ، الكويت ، ١٩٩٩ .
- ٧٦٥- مصطفى الطحان : فلسطين والمؤامرة الكبرى ، ط ١ ، المركز العالمي للكتاب الإسلامي ، الكويت ، ١٩٩٤ .
- ٧٦٦- مصطفى بلاويني ، عصابة العمل القومي وإسهامها في الحركة القومية: الحركة القومية في مائة عام ١٩٧٥-١٩٨٢ ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، رام الله ، ١٩٩٧ .
- ٧٦٧- مصطفى طيبة ، وآخرون : المعركة بين العرب وإسرائيل ، دار الكاتب العربي ، (د.ت) .
- ٧٦٨- مصطفى طيبة ، الثورة العربية المعاصرة وحركة التغيير الطليق ، بيروت ، أكتوبر ، ١٩٦٠ .
- ٧٦٩- مصطفى عبد العزيز : التصويت والقوي السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، سلسلة دراسات فلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٧٧٠- مصطفى عبد العزيز ، إسرائيل ويهود العالم ، بيروت ، مركز الأبحاث ، فلسطين ، ١٩٦٩ م .
- ٧٧١- مصطفى مراد الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الثاني ، الجزء الأول ، ط ١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ .
- ٧٧٢- مصطفى مراد الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الثاني ، الجزء الرابع ، ط ١ ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ .
- ٧٧٣- المظاهر العسكرية للصراع العربي الإسرائيلي ، ط ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٧٧٤- معن زيادة : تقييم حركة القوميين العرب في مرحلتها الأولى : القومية العربية في الفكر والممارسة ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٤٨ .
- ٧٧٥- معهد البحوث والدراسات العربية : الفلسطينيون في الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٧٧٦- معهد البحوث والدراسات العربية : الفلسطينيون في الوطن العربي ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٧٧٧- معهد البحوث والدراسات العربية : المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية ، معهد البحوث العربية ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
- ٧٧٨- معين رجب : الواقع الزراعي في قطاع غزة ، الملتقي الفكري العربي ، القدس ، ١٩٩٠ .
- ٧٧٩- مفيد محمود شهاب : جامعة الدول العربية ، ميثاقها وانجازاتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٨ .
- ٧٨٠- المكتب المركزي للإحصاء : المجموعة الإحصائية الفلسطينية ، دمشق ١٩٧٦ .
- ٧٨١- مناحم بيغن : التمرد قصة الأرجون ، نصوص ودراسات في الصهيونية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٧٨٢- المنظمة البريطانية لمناهضة الصهيونية : التعاون النازي الصهيوني أخطر وثائق القرن العشرين ، دار الكتاب الحديث ، بيروت ، د.ت. .
- ٧٨٣- منظمة التحرير الفلسطينية : فلسطين الثورة أحداث (١٤) ، ط ١ ، مؤسسة بيان للصحافة والنشر ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٨٤- منظمة التحرير الفلسطينية : فلسطين الثورة أحداث (١٤) ، ط ١ ، مؤسسة بيان للصحافة والنشر ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٨٥- منظمة التحرير الفلسطينية : فلسطين الثورة أحداث (١١) ، ط ١ ، مؤسسة بيان للصحافة والنشر ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٨٦- منظمة التحرير الفلسطينية : الانتفاضة في الصحافة العالمية ، ط ١ ، الأعلام الموحد ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٨٧- منظمة التحرير الفلسطينية : الانتفاضة في الصحافة العالمية ، ط ١ ، الأعلام الموحد ، نيقوسيا ، ١٩٨٩ .
- ٧٨٨- منظمة التحرير الفلسطينية ، الممارسات الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، خلال عام ١٩٨٧ ، عمان .
- ٧٨٩- منير الهور وطارق الموسي : مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥ ، ط ٢ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٦ .
- ٧٩٠- منير شفيق : النظام الدولي الجديد وخيار المواجهه ، ط ١ ، مركز منظمة التحرير الفلسطينية للأبحاث ، ١٩٩٢ .
- ٧٩١- منيرة ثابت : قضية فلسطين ورأى المرأة المصرية في الكتاب الأبيض الانجليزي ، القاهرة ، رابطة التضامن الدولي .
- ٧٩٢- مهدي عبد الهادي : المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السياسية ١٩٣٤-١٩٧٤ ، ط ٤ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ٧٩٣- الموسوعة الفلسطينية المجلد الثالث ط ١ ، ١٩٨٤ م .
- ٧٩٤- موشي ديان : مذكراتي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت. .
- ٧٩٥- ميغيل أنجيل باستينير : الحروب الدائمة الماضي والحاضر والمستقبل في الصراع العربي الإسرائيلي ، ترجمة : دينا أسامة محمود ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٧٩٦- ناثان وانستوك : الصهيونية ضد إسرائيل ، ترجمة : بمعرفة المخابرات العامة ، أربع أقسام .
- ٧٩٧- ناجي علوش : الحركة القومية العربية - نشوءها ، تطورها ، اتجاهاتها ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ٧٩٨- ناجي علوش : المسيرة إلى فلسطين ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- ٧٩٩- ناداف سافران : من حرب إلى حرب ، المواجهة العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٦٧ ، القسم الأول ، مركز البحوث والعلوم ، ١٩٦٨ .
- ٨٠٠- ناصر الدين النشاشيبي : الوحدة وقضية فلسطين ، كتب قومية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٨٠١- ناهد نزال : جدوي الصحافة في الأرض المحتلة ، رابطة الصحفيين العرب ، القدس ، ١٩٨٧ .
- ٨٠٢- نايف حواتمة : نايف حواتمة يتحدث ، ط ٢ ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، ١٩٩٧ .

- ٨٠٣- نبيه زكريا عبد ربه : الحركات الإسلامية ضد الصهيونية والصليبية والشيوعية ، ط ١ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٦ .
- ٨٠٤- نبيل راغب : موسوعة الفكر القومي ، ج ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- ٨٠٥- نبيل محمود عبد الغفار : السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي من حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحتى اتفاقية كامب ديفيد ، ط ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- ٨٠٦- نتان يلين مور : المقاتلون من أجل حرية إسرائيل ، شكمنة ، نل أبيب ، ١٩٧٤ .
- ٨٠٧- نجدة فتحي صفوة : اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى نصف محاضرة القيت في الحلقة الدراسية الدولية ، في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وزارة الخارجية العراقية ، جامعة بغداد ، ١٩٦٧ .
- ٨٠٨- نجيب الاحمد : فلسطين تاريخاً ونضالاً ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٥ .
- ٨٠٩- نجيب صدقة : قضية فلسطين ، دار الكتاب ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٣ .
- ٨١٠- ندي عبد الصمد : أيام الحجارة ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ٨١١- نزار عمار : الاستخبارات الإسرائيلية ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ .
- ٨١٢- نزيه قوره : تعليم الفلسطينيين : الواقع والمشكلات ، مركز الأبحاث (م ت ف) ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ٨١٣- نقولا الدر : هكذا ضاعت .. وهكذا تعود ، دور النفط والمدفع في تحرير فلسطين ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- ٨١٤- نمر سرحان : موسوعة الفولكلور الفلسطيني ، القسم الثاني ، ط ٢ ، دائرة المعارف (م ت ف) ، ١٩٨٩ .
- ٨١٥- نور الدين مصالحة : طرد الفلسطينيين - مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيوني ١٨٨٢-١٩٤٨ ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ٨١٦- نيل س - لفنجستون : القصة الحقيقية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ترجمة : مركز الدراسات والترجمة بالزهاء للإعلام العربي ، ١٩٩٢ .
- ٨١٧- هالة سعودي : السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧-١٩٧٣) ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- ٨١٨- هالة سعودي وآخرون : الوطن العربي والولايات المتحدة الأمريكية ، ط ١ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- ٨١٩- هاني الهندي وعبد الإله نصراري : حركة القوميين العرب : نشأتها وتطورها عبر وثائقها ١٩٥١-١٩٦٨ ، الكتاب الأول ، ج ١ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ٢٠٠١ .
- ٨٢٠- هشام شرابي : الفدائيون الفلسطينيون ، صدقهم وفاعليتهم ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٨٢١- هشام شرابي : المقاومة الفلسطينية في وجه إسرائيل وأمريكا ، ترجمة : إنعام رعد ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٨٢٢- هند أمين البديري : أرضي فلسطين من مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ ، مطابع جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
- ٨٢٣- هنري كتن : فلسطين في ضوء الحق والعدل ، ترجمة : وديع تلحوق ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٨٢٤- هوارد مودلي ساشار : تاريخ الشعب اليهودي ، القسم الرابع ، ترجمة : المخابرات العامة المصرية .
- ٨٢٥- هيثم الكيلاني : الإستراتيجيات العسكرية للحروب العربية - الإسرائيلية (١٩٤٨-١٩٨٨) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- ٨٢٦- هيثم الكيلاني : المذهب العسكري الإسرائيلي ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٨٢٧- هيثم الكيلاني : حروب فلسطين العربية الإسرائيلية : الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، المجلد الخامس ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ٨٢٨- هيثم الكيلاني : دراسة في العسكرية الإسرائيلية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٨٢٩- واصف عيوشي : فلسطين قبل الضياع : قراءة جديدة في المصادر البريطانية ، ترجمة : علي الجرباوي ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٥ .
- ٨٣٠- والتر لاكير ، الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، ترجمة : المكتب التجاري ، ط ١ ، مطبعة النشر ، بيروت ١٩٥٩ .
- ٨٣١- الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : المجموعة الأولى (١٩١٥-١٩٤٦) ، والمجموعة الثانية (١٩٤٧-١٩٥٠) ، جامعة الدول العربية .
- ٨٣٢- وجيه حسن قاسم : نظرة جديدة في التحالف الصهيوني الامبريالي ، دار البيادر ، ١٩٨٧ .
- ٨٣٣- وجيه ضياء الدين : الفلسطينيون في الوطن العربي ، دار الغريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ٨٣٤- وحيد رأفت ، العربي والاستراتيجية السوفيتية المعاصرة ، نشأة المعارف بالاسكندرية ، اغسطس ، ١٩٧٦ .
- ٨٣٥- ودودة بدران : الوساطة الأمريكية في الصراع العربي الإسرائيلي في الوطن العربي والولايات المتحدة الأمريكية ، محرر : هالة سعودي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- ٨٣٦- وصف عيوشي : فلسطين قبل الضياع قراءة جديدة في المصادر البريطانية ، ترجمة : علي الجرباوي رياض ، الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٥ .
- ٨٣٧- وفاء البحر : الممارسات الإسرائيلية وواقع الصحافة الفلسطينية ، رابطة الصحفيين العرب ، القدس ، ١٩٨٧ .
- ٨٣٨- وفيق ابو حسين ، الجريمة في اسرائيل ، منشورات فلسطين المحتلة ، ط ١ ، ١٩٨٢ .
- ٨٣٩- وفيق وليم فهمي ، الهجرة اليهودية الى فلسطين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ٨٤٠- ولاديسلو وكولسكي ، مترجم ، التعايش السلمي تحليل للسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي .
- ٨٤١- وليام ب كونت : أمريكا والعرب وإسرائيل ، عشر سنوات حاسمة (١٩٦٧-١٩٧٦) ، ترجمة : عبد العظيم حماد ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .
- ٨٤٢- وليام ب كونت : عملية السلام الدبلوماسية الأمريكية والنزاع العربي الإسرائيلي منذ ١٩٦٧ ، ط ١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ٨٤٣- وليد الجعفري : المشروع الإسرائيلي للأدارة الذاتية جذورة وتطورة وأخطارة ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٨٤٤- وليد الخالدي وآخرون : القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني ، ط ١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت .
- ٨٤٥- ولیم ب. کواندت : عشر سنوات من القرارات السياسية الأمريكية اتجاه النزاع العربي الإسرائيلي ١٩٦٧-١٩٧٦ ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٨٤٦- ولیم فهمي : الهجرة اليهودية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

- ٨٦٩- يهو شا. فار هاركابي ، حرب نووية وسلام نووى ، ترجمة ، مركز البحوث والمعلومات ، المخابرات العامة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، (توزيع خاص) .
- ٨٧٠- يهو شقاط هيركابي ، النزاع العربي الاسرائيلي ، تعريب ، شلوموزلخه ، تل ابيب ، ١٩٦٨ .
- ٨٧١- يهودا سلوتسكي : موجز تاريخ الهاغاناة ، وزارة الدفاع ، تل ابيب ، ١٩٧٨ .
- ٨٧٢- يورام بيرى : المجتمع العسكري الصناعي في اسرائيل دراسة استطلاعية ، مراجعة وتقديم : يزيد الصايغ ، سلسلة الدراسات ، رقم ٧٢ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٥ .
- ٨٧٣- يوري ايفانوف : احذروا الصهيونية ، ترجمة عن الروسية : أحمد داود ، من أدب المعركة ٧- منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٩ .
- ٨٧٤- يوسف الرضيي : ثورة (١٩٣٦-١٩٣٩) في فلسطين : دراسة عسكرية ، ط ٢ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، عكا ، ١٩٨٦ .
- ٨٧٥- يوسف حجازي : أيام فلسطين في القرن العشرين ، سلسلة دراسات (٥) ، ط ١ ، المركز القومي للدراسات والتوثيق ، غزة ، ١٩٩٩ .
- ٨٧٦- يوسف حداد : المجتمع والتراث في فلسطين ، قرية البصة ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، نيقوسيا ، ١٩٨٥ .
- ٨٧٧- يوسف سلمان : الولايات المتحدة الأمريكية والصراع العربي الإسرائيلي ، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ٨٧٨- يوسف عبدالله صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٨٧٩- يوسف هيكل : القضية الفلسطينية ، تحليل ونقد ، مطبعة الفجر ، يافا ، فلسطين ، ١٩٣٧ .
- ٨٨٠- يوليشا كوف ، معاداة الشيوعية مهمته العدائية ، موسكو ، مطبوعات وكالة ، أنباء نوفوسه للنشر ١٩٧٢ .
- ٨٨١- يونس الكتري : حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني : الكتيبة ١٤١ فدائيون ، ط ١ ، دار المستقبل ، بيروت ، ١٩٨٧ .



من مؤلفات الأستاذ أنور محمود زنائي تهويد القدس:

محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق والإحصاءات

تستهدف المخططات الإسرائيلية تهويد مدينة القدس ، من خلال مؤامرات عديدة ومحاولات يهودية ، مستمرة ، لتزوير هوية العاصمة الدينية والتاريخية والسياسية والاقتصادية لعرب فلسطين ومسلميها. وقد بدأت هذه المخططات الإسرائيلية الإجرامية بعمل "حفرات" تحت المسجد الأقصى ، وبناء الكنس اليهودية ، ومحاولات عدة لحرق وهدم المسجد واجتياحه ، وحتى "تهويد السكان" عن طريق طرد العرب والمسلمين من المدينة ، واستقدام يهود آخرين لتغليب تعداد اليهود فيها ، ومروراً بـ "تهويد ملامح المدينة" عن طريق هدم المنازل وردم الآثار الإسلامية ، وبناء مستوطنات على أنقاضها. وتهدف هذه الدراسة إلى تقديم وصف واقعي ، يستند إلى أوثق المصادر الإحصائية المتوافرة ، وتقنين بعض الروايات المضللة ، وتحليل المضمون عن طريق استيعاب النصوص والوثائق والأرقام ، ثم تحليلها.

- ٨٤٧- وليم فهمي : الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٧٤) .
- ٨٤٨- وليم فهمي : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مكتبة الجبلوي ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٨٤٩- وولتر لأكور : الطريق إلى الحرب (١٩٦٧) ، جذور النزاع العربي الإسرائيلي ، وزارة الإرشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، (د.ت) .
- ٨٥٠- د. ديمترييف وآخرون : نشأة وتطور حركة المقاومة الفلسطينية ، ترجمة : زهدي الشامي ، دار العالم الجديد ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- ٨٥١- اليا هوبن اليسار وزيق شيفا ، الحرب الاسرائيلية العربية ، يونيو ، ١٩٦٧ ، وزارة الإرشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٨٥٢- الياس اندراوس : هل لليهود حق بإنشاء دولة خاصة بهم في فلسطين ، مطابع جريدة الصباح ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٨٥٣- الياس سعد : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٨٥٤- الياس شوفاني : إسرائيل في خمسين عاماً ، ط ١ ، دار جيفرا للدراسات والنشر ، ٢٠٠٢ .
- ٨٥٥- الياس مرقص : تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- ٨٥٦- ياسر حسين : الحروب العربية الإسرائيلية ، مركز الراية للنشر والإعلام ، ط ٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
- ٨٥٧- ياغيل شتاين : البحث عن حل للظلم — أزمة المياه في المناطق الفلسطينية وحلها في إطار التسوية الدائمة ، ترجمة : كريمة كراس ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٨٥٨- ياقوت البغدادى : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، طبعة دار احياء التراث العربي ، بيروت .
- ٨٥٩- بيان جيجيسك ، خفايا عدوان ١٩٦٧ ، منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجه المعنوى لجيش التحرير الفلسطيني ، ط ١ ، دمشق ، مايو ، ١٩٧٣ .
- ٨٦٠- يتسحاق بن تسفي : كتاب هاشومير ، دافار ، تل ابيب ، ١٩٦٢ .
- ٨٦١- خيري حماد : التطورات الأخيرة في قضية فلسطين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، أبريل ١٩٦٤ .
- ٨٦٢- يوميات موشي ديان : ترجمة : جوزيف صغير ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- ٨٦٣- يزيد الصايغ : بدايات العمل المسلح في الضفة الغربية والقطاع عام ١٩٦٧ ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ٨٦٤- يزيد الصايغ : رفض الهزيمة : بدايات العمل المسلح في الضفة الغربية والقطاع عام ١٩٦٧ ، ط ١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ٨٦٥- يزيد صايغ : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٩-١٩٩٣ ، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة ، ترجمة : باسم سرحان ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ٢٠٠٣ .
- ٨٦٦- يعقوب خوري : اليهود في البلدان العربية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٨٦٧- يعقوب محمد حافظ : نظرة جديدة إلى تاريخ القضية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٤٨) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٨٦٨- يعكوف إلباب : جرائم الأرغون وليحي ١٩٣٧-١٩٤٨ ، ترجمة غازي السعدي ، ط ١ ، دار الجليل للنشر ، عمان ، ١٩٨٥ .

تعد

الأسوار التاريخية للقاهرة سواء التي تعود للعصر الفاطمي أو الأيوبي من أطول أسوار المدن التاريخية في العالم ، بل وأفضلها من حيث التنوع المعماري ، حيث أزيلت العديد من أسوار المدن ، أما بسبب التوسع العمراني أو الحروب أو لانتشار سلاح المدفعية وقدرته على تدمير هذه الأسوار مما أدى إلى زوال سبب إنشائها^(١) غير أن هذه الأسوار تعرضت لسنوات طويلة إلى الإهمال منذ عصر دولة المماليك الجراكسة وبصورة خاصة الأسوار الشرقية ، وكذلك امتداد هذه الأسوار إلى ميدان باب الحديد (رمسيس حالياً) ، وفي عرضنا هذا سنتعرض إلى تجربة خاصة جداً تجمع بين عملية الحفاظ على الحالة حتى لا تؤدي إلى مزيد من التدهور ، ثم إنقاذ ما تبقى من السور الشرقي مع الكشف عن تفاصيله كاملة لأول مرة ، ثم محاولة إزالة التعديلات من عليه ، وأخيراً مشروع ترميم السور ، هذه العناصر مجتمعة تشكل ما يسمى مشروع إنقاذ أسوار صلاح الدين الشرقية التي شرفت بالإشراف عليها خلال الفترة من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠١ ، وشاركتي في هذا زملاء أعزاء من المجلس الأعلى للآثار ، وساعد على إنجاح المشروع في مراحل لاحقة مشاركة مؤسسة أفاخان (برنامج المدن التاريخية) ومحافظة القاهرة ، وهو ما أدى إلى اعتبار السور الشرقي ظهير أثري لحديقة الأزهر ، فرض على الحديقة العديد من المتطلبات وأعطى لها العديد من المزايا.

أسوار القاهرة الأيوبية

للعاصمة المصرية أسوار تاريخية مازالت باقية ، تحكي جانباً هاماً من التاريخ المصري ، فبتأسيس القاهرة كحصن للحكام الفاطميين شيد حوله سور لحمايتها وعزلها عن المصريين وذلك سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ، ثم تهدم هذا السور بتقادم الزمن وأعيد إنشاؤه مرة أخرى علي يد بدر الجمالي ٤٨٠ / ٤٨٥ هـ - ١٠٨٧ م / ١٠٩٢ م ، ووسعت علي أثر ذلك حدود حصن القاهرة ، وفي نهاية العصر الفاطمي ومع تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة الفاطمية رمم السور الفاطمي.

لكن مع قيام الدولة الأيوبية واتجاهها لتحرير الأرض المحتلة في بلاد الشام ، وضع صلاح الدين الأيوبي مخطط إستراتيجي قام علي تحصين العاصمة المصرية من خلال إقامة سور يضم حواضرها (الفسطاط والقاهرة وما بينهما من عمران) مع إقامة قلعة تتوسط هذا السور العظيم ، وهو ما ورد في نص ذكره لنا العماد الأصفهاني كما يلي : "لها ملك السلطان صلاح الدين مصر وآتاه الله علي الأعداء بها النصر رأي أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعها ، ولا قوة لأهلها لتحميها وتردها وقال : لو أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلي جند مفرد ونظر مجدد ، والرأي أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلي الشاطئ ، ثم يتكل في حفظهما علي الله الكائي فأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة علي جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهي به إلي أعلي مصر ببرج وصلها بالبرج الأعظم ، ووجدت في عهد السلطان ثبناً رفعه النواب ، وتكمل فيه الحساب ، وهو دائر البلدين مصر والقاهرة ، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وذراعان ، شرح ذلك قياس ما بين قلعة المقسم علي شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ، ومن القلعة بالمقسم إلي حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة

مشروع الكشف عن

أسوار صلاح الدين الشرقية

"تقرير عن الفترة من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠١"



د. خالد عزب

المشرف على مشروع إنقاذ السور
مدير إدارة الإعلام ومدير الخطوط
مكتبة الإسكندرية

Khaledazab66@hotmail.com

■ الاستشهاد المرجعي بالتقرير:

خالد عزب ، مشروع الكشف عن أسوار صلاح الدين الشرقية - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ ص ١٠٤ - ١١١.

(www.historicalkan.co.nr)

البرج الأول: برج المقسي ويقع في نهاية السور الشمالي ، وموقعه اليوم قرب جامع أولاد عنان^(٨) عرف هذا البرج بقلعة المقسي أو قلعة قراقوش^(٩). ظل هذا البرج قائماً إلى أن هدمه الوزير شمس الدين أبو الفرج عبد الله المقسي وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون ، وذلك عند تجديده لجامع المقسي المذكور ، وجعل في موضع البرج بستان ، ويرجح أنه هدمه بين عامي ٧٧٠ - ٧٧٩ هـ / ١٣٦٨ - ١٣٧٧ م.

البرج الثاني: عرف هذا البرج بقلعة الكوم الأحمر^(١٠) كما عرف بقلعة يازكوج^(١١). هذا البرج من المرجح أنه كان يقع علي شاطئ النيل عند التقاء السور الجنوبي بالغربي. أما عن سبب نسبه للأمير يازكوج فمن المرجح أن ذلك قد يعود لقيادته له.

أما العنصر الثاني في خطة بناء السور من حيث الأهمية الدفاعية ، فهو الأبراج المفصلية ، هذه الأبراج قد تقع عند نقاط التقاء مفصلية بالسور ، علي غرار برج المقسي والكوم الأحمر ، ولكن الأبراج المفصلية ليست بمثابة قلاع صغيرة ، ولكنها أبراج ضخمة ، تبقي لنا نموذجين منها هما: برج الظفر: يقع هذا البرج عند التقاء السور الشمالي الفاطمي بالسور الشرقي الأيوبي ، وهو برج ضخم يتكون من ثلاثة طوابق ، مازال باقياً إلي اليوم ، وردت تسمية برج الظفر علي خريطة الحملة الفرنسية للقاهرة ، يتكون البرج من ثلاثة طوابق ، الطابق الأرضي يفتح علي الشارع الداخلي بالمدينة بعقد وينزل منه إلي أرضية الطابق بدرج حيث يغطي المنطقة الوسطي للبرج قبة ضحلة يوجد في مناطق التقائها بجدار الطابق مقرنص من حطة واحدة ، ويفتح علي الطابق ثنائي فتحات من المزاغل موزعة علي ثلاثة أرباع الدائرة ، ومن الملاحظ أن القبة يفتح بها فتحات شبابيك مستطيلة من الطابق العلوي ، وهو عبارة عن ممر مقبي حول القبة تفتح عليه (٦) فتحات مزاغل عميقة ، كل واحد منها عبارة عن قبة ينتهي بفتحة المزغل ، أما الطابق الثالث فهو مندثر الآن ، وكان عبارة عن طابق غير مسقوف به فتحات مزاغل. يكتنف البرج من جهتيه الغربية والجنوبية باي سر يؤدي كل منهما إلي درج مسقوف بقبو هابط.

برج درب المحروق: هذا البرج يبلغ ارتفاعه ١٥ متر وقطره ١٦ متر وهو علي شكل ثلاثة أرباع الدائرة علي غرار برج الظفر ، هذا البرج الذي يقع علي امتداد السور الشرقي جاء موقعه ليلفت الانتباه ، ولكن أدت أعمال الكشف الأثري به عام ١٩٩٩ إلي الكشف عن سبب اختيار هذا الموقع ، البرج هنا وظيفته إقامة نقطة انتقال قوية بين مستويين من طبوغرافية الأرض ، إذ أن مستوي الأرض إلي الشمال منه ينخفض عن الجنوب ، ومن هنا أرتبط الطابقين الأول والثاني بامتداد السور إلي الشمال منه ، بينما ارتبطت باقي الطوابق بالسور الممتد إلي الجنوب منه ، فضلاً عن أن السور قبل هذا البرج من الناحية الجنوبية ينكسر بزوايا قائمة بطول يقرب من ١٣.٦٠م ليلتقي بالبرج. البرج يتكون من ثلاثة طوابق ، كشفت أعمال الحفر الأثري أنها مازالت بحالة جيدة ، البرج من المفترض أنه يفتح علي المدينة بعقد مدبب كبير يفضي إلي الطابق الأرضي بالبرج بدرج يؤدي إلي قاعة مستديرة مسقوفة بقبة ضحلة كبيرة في أركانها عند التقائها بالحائط مقرنصات من حطة واحدة ، يفتح عليها قبوات تنتهي بفتحات مزغلية ، ويوجد بها سلم يؤدي إلي الطابق الثاني وممشى السور إلي الشمال من القاعة ، والطابق الثاني عبارة عن ممر مقبي بقبو برميلي ارتفاعه ٣.٤٠م به ٦ دخلات مقبية تنتهي بفتحات مزغلية ، أما الطابق الثالث فهو طابق

إلي البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف وعشرة أذرع ، وذلك بطول قوسه وأبدانه ، وأبراجه من النيل إلي النيل علي التحقيق والتعديل ، وذلك بالدرع الهاشمي ، بتولي الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي^(١٢).

مما يلفت الانتباه في مشروع تحصين العاصمة المصرية هو أنه لم يشمل فقط تحصين القاهرة والفسطاط ، بل شمل كذلك ضم أراضي طرح النهر غرب القاهرة ، فظهور أراضي جديدة ، في غربي المدينة أثر علي الوظيفة الدفاعية التي كانت تقوم بها ، إذ كان الفاطميين يعتمدوا في طريقهم الدفاعية عن المدينة الكبرى علي أساس جعل القاهرة - وهي الجزء المحصن من المدينة الكبرى في ذلك الوقت - هي التي تقوم بتحمل عبء الدفاع عن القاهرة والفسطاط معا^(١٣).

وهو ما أشار إليه المقدسي ، حيث ذكر بأن الوصول إلي القاهرة لم يكن يتم إلا بعد المرور علي القاهرة ، نظراً لكون القاهرة ممتدة فيما بين الماء والجبل^(١٤) ، فهي تحجز الفسطاط من الشمال. وهي الجهة التي يسهل منها الدخول إلي هذه المنطقة ، لأن أراضيها كانت أرض سهلية ، في حين كانت تلال المقطم تحد المدينة من جهة الشرق ومعظم الأجزاء الجنوبية ، فهي تكون خطاً دفاعياً ممتازاً ، علاوة علي وجود الخليج غرب المدينة ، يليه أراضي فيضية رخوة لا تسمح طبيعتها بالتمركز فيها وعرضها ليس كبيراً ، مما يوفر مناعة طبيعية من هذه الجهات ، وعند ذلك لا تحتاج الفسطاط إلا إلي توفير الحماية بإزاء الطرف الشمالي منها. إلا أنه بمرور الزمن ، فإن طرح النهر أدى إلي تباعد الشاطئ عن القاهرة ، الأمر الذي سيجعلها منطقة استقرار صالحة لأي قوة عسكرية ، تستهدف الدخول إلي مصر ، وهو ما جربه صلاح الدين بنفسه ، حيث أن القوات الزنكية لما دخلت مصر في سنة (٥٦٤هـ - ١١٦٨م) استقرت في هذه المنطقة إذ كان نزولهم في أرض اللوق^(١٥). لذلك فقد اقتضت الضرورة إلي إجراء نوع من التكيف إزاء هذه التطورات ، فجري مد السور حتى شاطئ المدينة ضمن المشروع التحصيني الذي نفذته صلاح الدين ، وبشكل عام ، فبالإمكان القول بأن انحراف نهر النيل باتجاه الغرب ، ضماناً لمصالحها مع النهر ، سواء الأمنية ، أو الاقتصادية ، التي لا بد وأن النهر كان له دور أساسي في إيجادها.

أما عن نقطة البداية في هذا المشروع ، فهي علي الأرجح من امتداد السور الشرقي ، عند لقائه بالسور الشمالي للقاهرة الفاطمية ، يدل علي ذلك ما عثر عليه من أحجار ذات كتابات هيروغليفية في الجزء المكتشف من السور أمام مستشفى الحسين الجامعي حالياً ، ويبدو أن قراقوش رأي في مرحلة مبكرة من المشروع أن جلب الأحجار من أهرامات الجيزة التي تعود لعصر الدولة القديمة أمر باهظ التكلفة ، فرجع عنه. كما يعد السور الشمالي المرحلة الثانية في المشروع ، أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي تبدأ من القلعة لتضم الفسطاط التي بدء فيها سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م^(١٦) أي بعد تسع سنوات من تاريخ البدء في بناء مشروع السور بصفة عامة ، ولعل ذلك يرجع إلي العناية بالسور الشرقي والشمالي إذ كانت غالباً الهجمات تنصب عليهما.

خطط السور لكي ينتهي عند طرفيه الشمالي والجنوبي ببرجين كبيرين^(١٧) بمثابة قلاع صغيرة تشكل نقطتي ارتكاز لنهاية وبداية السور ، فضلاً عن نقطة الارتكاز الرئيسية الوسطي المتمثلة في قلعة صلاح الدين ، يقوم هذين البرجين بعدد من الوظائف منها: أنهما مركزا قيادة وتحكم فرعيين - يقومان بالإشراف علي الحراسة والمناوبة علي طول السور - يتوليان الإشراف علي أعمال مراقبة أي هجوم وصده وإعاقته.

■ توفير النفقات في مشروع بناء السور الاستراتيجي ، حيث أن إنشاء ممرات في جسم السور بين الأبراج يعني ارتفاع تكلفة هذا المشروع الحربي العملاق الذي يغطي العاصمة المصرية.

■ عامل الوقت إذ أن الحروب الصليبية مثلت ضغطاً علي صلاح الدين الأيوبي لإنجاز مشروع متكامل للدفاع عن مصر بإنشاء قلعة وسور للعاصمة وعدة قلاع في سيناء وبلاد الشام وتحصينات للسواحل المصرية ، من أبرزها سور الإسكندرية.

المزاول:

تعد المزاول العنصر الدفاعي الذي يسمح للمتحرسين بالسور الدفاع عن المدينة تجاه أي قوات غازية ، لفظ المزاول لم يرد له تعريف في اللغة العربية ، لكنها ترد بلفظ المراهي^(١٢) ، في حين إنه يعرف في اللغة اليمنية القديمة باسم صوبت^(١٣) والتي ربما هي مشتقة من كلمة صوب السهم أو البندقية أي وجهه نحو الهدف وأستعد لإطلاقه ، في حين يعرف في العمارة الحربية في الأردن باسم الطلاقة وجمعها طلاقات^(١٤) . والمزاول من الناحية المعمارية عبارة عن فتحة لرمي السهام علي هيئة شق مستطيل رأس أو مربع ، ضيق من الخارج ومتسع من الداخل لتسهيل حركة المدافعين ، استخدمت منذ فترة مبكرة في العمارة الحربية الإسلامية وأقدم بقاياها توجد في قصر الحير الغربي ١١٠ هـ / ٧٢٨ م ، وقصر الأخيضر ١٦١ هـ / ٧٧٨ م ، ومزاول الطوابق العليا في سور سوسة ٢٥٤ هـ / ٨٢٩ م ، كما استخدمت المزاول في أسوار القاهرة الفاطمية ٤٨٠ - ٤٨٥ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٩٢ م .

قسم الدكتور أسامة طلعت مزاول السور الأيوبي إلي أربعة طرز^(١٥) :

■ الطراز الأول : مزاول مسقطه الأفقي مثلث قاعدته للداخل ويغطيه عقد أو عتب حجري مستقيم من كتلة واحدة يعلوه نفيس وعقد عاتق ، أنتشر هذا الطراز في أماكن متعددة بالسور .

■ الطراز الثاني: مزاول مسقطه الأفقي مثلث قاعدته للداخل ويغطيه عتب مستقيم من كتلة واحدة وتكتنف فتحة المزاول جليستان لجلوس المدافعين ، ويشتمل السور علي نموذج واحد فقط من هذا النوع ، وهي مزاول الطابق الأرضي بالبرج رقم ٣٧ غرب برج الظفر .

■ الطراز الثالث: مزاول مسقطه الأفقي مثلث قاعدته للداخل ويغطيه قبة مسلوب عبارة عن نصف مخروط صغير وضع أفقياً وقاعدته للداخل ، ويوجد هذا النوع من المزاول في برج درب المحروق .

■ الطراز الرابع: مزاول مسقطه الأفقي نصف دائري ويغطيه طاقية من نصف قبة صغيرة ، ويوجد هذا النوع من المزاول في برج الظفر .

الأبواب:

تخلل سور صلاح الدين الأيوبي عدة أبواب علي طول السور ، كان يعتقد أن جلها معروف مما أورده المؤرخين ، غير أن الإكتشافات الأثرية بالسور الشرقي لأبواب جديدة ، فضلاً عن وجود أبواب علي مسار السور لم يذكرها المؤرخين مثل باب الوداع بالحطابة ، تدعو إلي إعادة النظر في الجزم بمعرفتنا الكاملة بأبواب السور ، إندثرت بعض هذه الأبواب كباب الشعيرة ، كما كان يوجد في الجزء المهمت من السور إلي الفسطاط عدة أبواب إندثرت الآن منها:

● باب مصر: هذا الباب بناه بهاء الدين قراقوش ، وكان يقع بالقرب من السيدة زينب حالياً ، يخط الحبراء القيصوي ، وكان به برجان يمينه ويسره بعتبة سفلي صواناً وقوس معقود عليه ، ودفتين يغلقان عليه ، وكان يسلك منه إلي أربعة طرق . وهي الطريق إلي القاهرة ،

مكشوف به قاعة وسطي مئنة يفتح عليها ٥ فتحات مزغلية . يكتنف برج درب المحروق عن جانبه الغربي والشمالي باي سر تم الكشف عنها مؤخراً . وكان يعتقد أن الأجزاء التي تلي السور إلي الشمال قد فقدت إلي أن تم الكشف عن خمسة أبراج تالية نصف دائرية .

الأبراج نصف الدائرية:

تتخلل هذه الأبراج جسم السور الأثري ، والدراسة المتأنية للسور تكشف عن نوعين من هذه الأبراج في السور الشرقي عند درب الأحمر والباطنية :

● النوع الأول: عبارة عن قبة طولي مدبب يرتفع إلي السقف الذي يعلو عن ممشى السور ، يتفرع من هذا القبة ثلاثة أذرع ينتهي كل واحد منها بفتحة مزاول ، وهما عبارة عن مزغلين جانبيين وواحد أمامي ، وتغطي الأذرع الثلاثة أقبية طولية منخفضة عن قبة الدخول ، ويفتح بالضلع الأيسر للداخل من قبة البرج ممر ضيق يؤدي إلي حجرتي رماية ، هذا البرج كان يدخل إليه من الشارع الموازي للسور ، ومزاوله ذات مستوي منخفض . وهناك نوع من هذا البرج لم تلحق به غرف رماية .

● النوع الثاني: عبارة عن برج مصمت في طابقه الأرضي ، أما الطابق الثاني فينزل إليه بسلم من ممشى السور ، يؤدي إلي ممر يقضي إلي البرج الذي يتوسطه قبة طولي يقابله في الضلع الغربي فتحة نافذة لإضاءة وتهوية البرج ، أما القبة فيوجد به ثلاثة أذرع مسقفة بأقبية ، وينتهي كل ذراع بفتحة مزاول ، وعلي يسار القبة يوجد ممر يقضي إلي دورة مياه علي يمينه وينتهي بحجرة رماية .

يتبادل هذين النوعين من الأبراج علي طول السور ، وهذا يعني أن هناك نوعين من مستويات مزاول رمي السهام أحدهما أرضي وآخر علوي .

حجرات الرماية:

يوجد بسور صلاح الدين ثلاثة أنواع من أبراج الرماية ، وهي حجرات تتخلل جسم السور بها فتحة مزغلية بهدف زيادة القوة الدفاعية له ، وهما:

● النوع الأول: حجرات رماية ذات عقد مدبب يفتح علي داخل المدينة ويبرز سمت الحجرة عن سمت السور الداخلي ، ويغطي الحجرة قبة مدبب يتعامد علي محور السور ، ويتصدر ضلعها الشرقي فتحة المزاول ، ويفتح بالضلع الأيسر للحجرة سلم صاعد إلي ممشى السور .

● النوع الثاني: ينزل إلي الحجرة بسلم من ممشى السور يؤدي إلي حجرة التي غالباً ما تكون مستطيلة يتصدر ضلعها الشرقي فتحة مزاول ، ويسقفها قبة مدبب .

● النوع الثالث: غالباً ما يشبه النوع الثاني غير أنه يتم الوصول إليه عن طريق ممر جانبي من أحد الأبراج ، وقد يلحق بأبراج السور إما حجرة رماية واحدة أو حجرتين واحدة علي كل جانب .

تعود أهمية حجرات الرماية إلي أنها تمثل نقاط دفاع تتخلل سمت السور الذي خلا من الممرات التي كانت تتخلل أسوار القاهرة الفاطمية ، ولذا حرص البعمر علي إلحاقها أيضاً بالأبراج ، وتعود هذه الحجرات وإنشائها لسببين:

إستخدام لهذا النوع من الأبواب في العمارة الحربية الإسلامية في سور بغداد ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م ، وعلي غرارها شيدت أبواب مدينة الرقة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م^(٢٠) ثم انتشر استخدامها في أجزاء مختلفة من بقاع العالم الإسلامي ، فنراه في مدخل قلعة الحصن ببلاد الشام ، وفي قلعة الكرك ، ومدخل قلعة عجلون .. إلخ.

قسمت المداخل المنكسرة في عمارة أسوار القاهرة إلي طرازين^(٢١) :

- الطراز الأول: وهو البرج ذو المدخل المنكسر ، ويتكون من برج مربع أو مستطيل يبرز عن سمت واجهة السور الخارجية ، ويفتح بداخل البرج ممر منكسر علي هيئة زاوية قائمة ، يتبع هذا الطراز ثلاثة أبواب بالسور ، فضلاً عن الباب المدرج في قلعة صلاح الدين.

- الباب الأول: وهو الباب الجديد وموقعه الآن شرق شارع المنصورية ، ويتكون من برجين الجنوبي منها نصف دائري لتأمين المدخل ، ويتكون من طابقين: يشتمل الأرضي منها علي مساحة وسطي مربعة مغطاة بقبو متقاطع ، ويتفرع منها ثلاثة أذرع ، بنهاية كل ذراع فتحة مزغل ، والطابق العلوي فقدت معالمه الآن ، أما البرج الشمالي فهو مربع شكلت كل من زاويتيته الخارجيتين علي هيئة بدنة صماء ثلاثة أرباع دائرية ، ويشتمل هذا البرج علي ممر المدخل وهو منكسر علي هيئة زاوية قائمة واحدة ينحرف الداخل منها يساراً ، ويفتح بكل من الضلع الشرقي والشمالي للمساحة الوسطي المربعة بممر المدخل دخلة تتصدرها فتحة مزغل تشرف علي خارج الباب ، وتغطي هذه المساحة الوسطي قبة ضحلة ، محمولة علي مثلثات كروية. وزود الباب بالعديد من الوسائل الدفاعية ، منها جسر خشبي متحرك ، وكان يستخدم لعبور الخندق الذي كان يتقدم الباب في حالة السلم ، وكان يرفع عند الخطر ، والسقاطات التي تفتح بين عقدي الواجهة الخارجية للباب.

هذا الباب يقودنا للحديث عن الباب المكتشف حديثاً إلي الشمال من برج درب المحروق ، وهو عبارة عن مدخل منكسر ، يتكون ضلعه الجنوبي من كتف بارز أو بدنة بها قبوين مدبيين بصدر كل واحد منهما فتحة مزغل ، أما الضلع الجنوبي فيبرز منه برج نصف دائري له كتف بارز في جنوبه ، وبين البرج والكتف الجنوبي توجد دخلة المدخل المنكسرة التي تؤدي إلي باب معقود بعقد مدبب يقضي إلي مساحة وسطي مسقفة بقبة ضحلة علي مثلثات كروية ، ومن المرجح أن هذا الباب كان يعرف بباب البرقية.

أما ثالث الأبواب التي تتبع هذا التخطيط فهو باب القرافة ، ويقع الآن بميدان السيدة عائشة في الجزء الذي كان يمتد من سور الفسطاط إلي القلعة ، تبين من الأجزاء التي تم الكشف عنها ، أنه مدخل ذو ممر منكسر علي هيئة زاوية قائمة كان ينحرف الداخل فيها يساراً ، كان هذا الممر يفتح داخل برج تمتد واجهتيه الجانبيتين باستقامة ، أما واجهته الجنوبية الشرقية الخارجية فعلي هيئة قوس دائري ، لم يتبقى من هذا الباب سوي مثلثين كرويين يعلوها مدامكان من مداميك القبة الضحلة التي كانت تغطي المساحة الوسطي المربعة من ممر المدخل ، فضلاً عن الطرف الشمالي الغربي من ممر المدخل ويفتح في سمت جدار السور ويغطيه قبو طولي نصف دائري وكان يؤدي إلي داخل المدينة^(٢٢).

- الطراز الثاني: يتكون المدخل من برجين نصفين دائريين يبرزان عن واجهة السور الخارجية ، ويحصر البرجان فيما بينهما ممرأ عمودياً علي محور السور ، ثم ينحرف الممر يميناً أو يساراً علي هيئة زاوية قائمة

وعلي يمينته إلي الفواخير وعلي يسرته إلي البحر وإلي داخل المدينة^(١٦) ، هدم هذا الباب في العصر المملوكي.

● باب الصفا: كان هذا الباب الرئيسي الذي يؤدي إلي مصر الفسطاط منه تخرج القوافل والعساكر ، وموضعه بالقرب من كوم الجراح ، وكان باباً كبيراً ببرجين متقابلين يعلوها عقد كبير ، وهو بعتبة كبيرة سفلى صوانا ، هدم باب الصفا في عهد الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ / ٦٧٦ هـ - ١٢٦٠ م / ١٢٢٧ م علي يد سيف الدين بن سدار والي الفسطاط ، وباب الصفا سمي بهذا الاسم لوقوعه علي رأس درب الصفا ، ودرب الصفا هو امتداد الشارع الأعظم ، وهو الطريق الذي يربط بين القاهرة والفسطاط ، والذي يبدأ من باب زويلة ويمتد حتي مشهد السيدة نفيسة^(١٧) . بالإضافة إلي بابين آخرين هما باب الساحل وباب القنطرة.

هذا يقودنا إلي التعرف علي أنماط أبواب سور صلاح الدين الشرقي وهي كما يلي:

● النمط الأول: يشبه في تخطيطه باب زويلة من حيث التخطيط ، وهو عبارة عن باب ذا برجين نصفين دائريين بينهما باب معقود ، ويربط بين البرجين ممشى علوي به سقاطات ، والباب كان يتقدمه زلاقة من حجر الصوان مائلة بحيث تعوق بميلها صعود أي مهاجم ، وهذا التخطيط وجد في باب الصفا ، ومن المرجح أنه كان يماثله من حيث التخطيط الباب المحروق.

الباب المحروق

كان هذا الباب يعرف في العصر الفاطمي بباب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق الغنم ، وكان يجلس عنده القراطين الذين يبيعون القرط (البرسيم) ، وحدث في بداية العصر المملوكي صراع بين أمراء المماليك انتهى بسيطرة المعز أيبك التركماني ، ومقتل الفارس أقطاي ، وهو ما دفع مماليك الأخير للهروب من باب القراطين الذي وجدوه مغلقاً فقاموا بحرقه ، ومنذ ذلك الحين عرف بالباب المحروق ، وصار رمزاً لنهاية عصر النزاع الأيوبي وبداية استقرار دولة المماليك البحرية ، وقد سدت فتحة الباب المحروق سنة ١٨٠٠ م عقب ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين ، وذلك ليتمكن الفرنسيين من السيطرة علي المدينة بصورة جيدة.

ظل موضع الباب المحروق مجهولاً حتي قام المهندس محمد فهمي من مصلحة التنظيم سنة ١٩٤٠ م ، باكتشاف الباب ، وتم استكمال اكتشاف الباب من قبل فريق من المجلس الأعلى للآثار خلال الأعوام ١٩٩٧ م و ١٩٩٨ م^(١٨) وفريق مصري فرنسي مشترك سنة ١٩٩٩ م ، غير أن وجود خزان مياه حديث في مواجهة الباب أعاق عملية استكمال الكشف عنه. وقد كشف في البرج رقم (٦) عن بقايا لفرن لصناعة الخزف والفخار يعود للعصر العثماني ، تم الاحتفاظ بأجزاء منه في البرج للدلالة علي التحول الوظيفي الذي طرأ عليه.

يكشف تخطيط برجي الباب علي أنه كان للبرجين طابق علوي ، بكل واحد منهما ثلاث فتحات مزغلية وبينهما ممشى به سقاطات.

● النمط الثاني:

المدخل المنكسر: يعرف في العمارة الإسلامية بعدة أسماء منها الباشورة ، والمدخل المكسر ، والمدخل ذو الهرق ، والمدخل ذو العطف ، والمدخل المزور ، والمدخل المنحني^{١٩} سمي بهذا الاسم لأن تصميمه يجعل الداخل إليه ينعطف يساراً أو يميناً مرة واحدة أو أكثر ليصل إلي داخل المدينة أو القلعة أو المنشآت الأخرى. كان أول

● الاعتداء شبه اليومي على السور من الأهالي في الجانب الغربي منه ، وهي ظاهرة قديمة بدأت مع تغير وظيفة السور أو تلاشي قيمته الدفاعية ، حتى استغل البرج الجنوبي من الباب المحروق منه كفرن لصناعة الخزف في العصر العثماني ، وهو ما ظهر لنا خلال موسم حفائر ١٩٩٩/٢٠٠٠م ، حيث قام الأهالي بالركوب بالبناء فوق جسم السور أو هدم أجزاء منه بناء امتدادات لمساكنهم فيها ، ومن المشكلات الكبرى التي واجهناها أثناء العمل قيام بعض المنازل بمد خطوط الصرف الصحي لمنازلهم داخل جسم السور ، وهو ما أحدث تلفيات كبيرة في أحجاره ، كان أصعب ما نمر به هو إقناع الأهالي بالتحويل نحو الصرف في الشبكة العامة للصرف الصحي ، وتارة تحت ضغط استعمال الشرطة وتارة تحت ضغط إصدار قرارات إزالة كان يحول خط الصرف الصحي لمنزله إلى الشبكة العامة. مثل هذه الاعتداءات دأب الأهالي عليها لسنوات طويلة ، وهي مذكورة في كراسات لجنة حفظ الآثار العربية^(٢٤) على الرغم من تسجيل السور ضمن الآثار منذ سنة ١٩٨٠م^(٢٥) والجهود التي بذلتها اللجنة على السور من اعتداءات الأهالي المستمرة^(٢٦) زادت هذه المحاولات خلال الفترة من ١٩٦١ إلى ١٩٩٦م ، لذا لم يعد معها من المجدي التعامل بصورة تقليدية.^(٢٧)

لذا كان التعامل مع السور وفق ما يلي :

- محاصرة المنطقة من باب الوزير وحتى مستشفى الحسين لمنع إلقاء المزيد من المخلفات بالواقع.

- إزالة التعدييات الظاهرة للعيان من عشش وأكشاك سواء على طول السور أو في حرمه.

- وقف الحد من التوسع العشوائي لجبانة باب الوزير.

- التواجد اليومي بكثافة على طول السور لمنع البناء عليه أو في الأجزاء الباقية في حرمه.

أتضح من التعامل مع السور ما يلي:

- وجود محاولات من لجنة حفظ الآثار للحفاظ على السور خاصة في الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٦م ، وهي الفترة التي تم الكشف فيها عن وجود الباب المحروق ، فضلا عن ترميم برج ٤ وبرج ٣ من السور والمسافة بينهما ، مع نزاع العديد من ملكيات الأراضي في الجانب الغربي من السور للحفاظ عليه وترميمه ، كالقطعة رقم ١ عطفة المركز والمنطقة الواقعة خلف الباب المحروق مع غيرها من القطع التي كانت مجهولة لدى المجلس الأعلى للآثار عند بدء ترميم وإنقاذ السور الشرقي ، وهو ما استدعى طلب تشكيل لجنة للبحث عن ملكيات المجلس على امتداد السور.

- الحاجة الماسة لفتح طريق من باب الوزير برفع المخلفات المتراكمة التي تعوق التعامل مع السور بصورة مباشرة.

- وضع خطة الكشف عن كافة أجزاء السور المطمورة بكاملها أو الظاهر منها ارتفاعات محدودة لا تتجاوز في أفضل الأحوال ٢.٥ م.

داخل كتلة بناية مستطيلة ، وتقع هذه الكتلة داخل السور لصق الواجهة الداخلية للبرجين. ويتبع هذا الطراز بابين بقلعة صلاح الدين هما بابي المطار والإمام ، ومن المرجح أنه كان يوجد لهذا الطراز أمثلة في سور صلاح الدين.

الجدار الساتر والممشى:

الجدار الساتر عبارة عن حائط يعلو الواجهات الخارجية للسور أمام الممشى الذي يعلو الثكنات أو الأبراج أو الأبواب أو بدن السور فيما بين الأبراج ، والجدار الساتر في سور صلاح الدين عبارة عن مداميك من الحجر يعلوهما شرافات نصف دائرية من ثلاثة مداميك ، ويبلغ ارتفاع الجدار الساتر في السور ١.٨٥م ، وهو ما يسمح للمدافعين عن المدينة باستخدامه في رمي السهام والرمح بسهولة. ويرتبط بالجدار الساتر الممشى ، وهو إرتباط عضوي ، إذ أن الأول هو الذي يحمي الممشى المكون من ممر إستطراق أو مساحة مكشوفة تربط بين أبراج السور ، يتخللها سلالمة تؤدي إلي حجرات الرماية.

بداية المشروع

بدأت فكرة المشروع مع العام ١٩٩٧ حين توليت تفتيش منطقتي الدرب الأحمر والباطنية ، وكان الأثر رقم ٣٥٢ المتمثل في امتداد سور صلاح الدين الشرقي من المنطقة الممتدة أمام قصر ألين أقي الحسامي ، وهو قصر أثرى يعود للعصر المملوكي البحري حتى برج المحروق وطولها ما يقرب من ٩٣٠ مترا ، بها بقايا ظاهرة للعيان بارتفاع يبدأ من ٥ سم ويبلغ أقصاه ٢م عند برج رقم ٤ ، وكان باديا لنا في أول الأمر الاستغناء عن الأرقام القديمة المعطاة للأبراج على خرائط الآثار ، واستخدام ترقيم بسيط يسهل على الحراس وعلينا إتباعه في موقع العمل ، فاخذ البرج الظاهر لنا أجزأه العليا عند نقطة موازية للجامع الأزرق برج رقم ١ وتسلسلت الأبراج حتى برج رقم ١٠ وهو برج درب المحروق اكبر أبراج السور الأثري.

توصيف الموقع ومشاكله

كان الموقع عند بدء العمل في الحالة الراهنة:

● وجود تلال من القمامة الظاهرة في الجانب الشرقي من السور ، تكشف استخدام المساحة المتاخمة للسور كمقلب قمامة ، وهو أمر بدأ في العصر المملوكي واستمر في العصر العثماني وتفاقم في القرن ١٩م^(٢٣) . واستمر حتى بدء العمل فيه ، هذه الظاهرة كانت في حاجة إلى حسم شديد للحد منها ، وهو اتجاه بدأنا في الأخذ به سواء إجرائيا من خلال الشرطة أو من خلال تشديد الحراسة على الموقع على اتساعه وعلى قلة الإمكانيات ، لكن الإجراءات كانت قد بدأت تؤتي ثمارها رويدا رويدا.

● الحد من امتدادات جبانة باب الوزير في اتجاه الشمال ، حيث كان يتم بناء أحواش للدفن بدون تراخيص من المحافظة في اتجاه الشمال ، وهو أمر كان سيعوق الكشف عن السور بالكامل ، فضلا عن أعاقته لاستخدام السور كمزار سياحي ثقافي والكشف عنه بصورة كاملة ، لقد أصبحت هناك حاجة ماسة لإزالة ما يقرب من ٣٠٠ حوش دفن تعوق الكشف عن امتدادات السور حالياً بصورة كاملة خاصة عند برج ١ ، ١١ ، ١ ب.

● وجود عشش صفيح وورش لفرز القمامة بين برجي ٢ ، ٣ وقهوة وكذلك أعمال تجارية غير مشروعة.

الكشف عن السور

مرت عملية إعادة الكشف عن السور بعدة مراحل كما يلي:

أولاً : حصر الخرائط القديمة الخاصة بالقاهرة والموضح عليها السور الأثري ، وقد أفادت هذه الخرائط خاصة خريطة بييرى رئيس قبطان البحرية العثمانية في مصر والتي تعود للقرن ١٠هـ / ١٦م ، وخريطة الحملة الفرنسية على مصر ، والعديد من الخرائط المحفوظة في مكتبات أوربية ، مثل خريطة هارتمان شيدل التي تعود لسنة ١٤٩٢م وهى محفوظة في مكتبة بيركلى ، وخريطة ماتيو باجينو التي تعود لسنة ١٥٤٩م وهى محفوظة أيضاً في بيركلى ، وخريطة هنرى بافون التي تعود لسنة ١٦١٥م ، إضافة لخريطة جران بك للقاهرة التي ترجع لسنة ١٨٧٤م. هذه الخرائط ساعدت على توقع امتداد السور بعد برج عشرة برج درب المحروق بصورة علمية سليمة ، وهو ما ساعد على الكشف عن هذا الامتداد ، فضلاً عن وضع تصور لامتداد السور إلى قلعة صلاح الدين ، وهو ما سنعرضه لاحقاً.

ثانياً : حصر كل ما كتب عن السور سواء في كتابات المؤرخين أو الرحالة أو ما ورد من أخبار تتعلق بمناطق باب الوزير أو درب الأحمر أو الباطنية في المصادر التاريخية ، مع حصر ما كتب حديثاً عن السور سواء في كراسات لجنة الآثار ، أو ما كتبه كرزويل ، وأخيراً الدكتور أسامة عبد النعيم في رسالته للماجستير في جامعة القاهرة ، والتي اعتمد فيها على وصف الأجزاء الظاهرة للعيان منه ، وهو أفضل ما كان يمكن القيام به حينئذ.

ثالثاً : حصر الصور التي التقطت للسور في مراحل مختلفة أو رسومات الرحالة الأجانب وأشهرها لوحة لديفيد روبرت تظهر التلال والسور وخلفها مدرسة السلطان حسن وهى تعود لسنة ١٨٣٠م. فضلاً عن صور لجنة حفظ الآثار والتي يعود معظمها لأربعينات القرن العشرين ، وقد أفادت كثيراً في عملنا.

رابعاً: تكوين بعثة للحفر الأثري توليت تنفيذ مهامها بوصفي المفتش المسئول عن السور ، وتكونت البعثة من عدد من الأثريين منهم الأساتذة / محمد لطفي أثري إسلامي وناصر عطا الله أثري إسلامي وأيمن منصور أثري متخصص في الآثار المصرية و٢ أخصائي ترميم ، فضلاً عن مساح ومهندسي معماري وفني حفائر ، حرصت على أن تكون هذه البعثة متنوعة ومتكاملة التخصصات.^(٢٨) وقد مول المجلس الأعلى للآثار عمل هذه البعثة حتى اشترك مؤسسة اغاخان في تمويل العمالة وتوفير المعدات منذ العام ١٩٩٩م.

بداية العمل

تلازم العمل في خطين متوازيين حينئذ:

- الأول: محاولة لشق طريق من جبانة باب الوزير إلى داخل السور برفع المخلفات المتراكمة والتي تعود لفترات حديثة بواسطة بلدوزر وسيارات المجلس الأعلى للآثار.

- الثاني: الكشف عن السور في المنطقة من برج ١ : ٣ في الموسم الأول ثم تتابع الكشف عن السور والأبراج وحجرات الرماية حتى برج ١٠ ثم الكشف عن السور بامتداد برجي ١١ ، ١٢.

- الثالث: إجراء مجسات حفائر في المسافة الممتدة إلى الجنوب حتى باب الودائع للتأكد من امتداد السور ، كلما أتيج ذلك على المسار المتوقع للسور عند تجديد أي حوش أو مدفن في النقاط المتوقع مرور السور بها.

نوعية الحفريات

يعد مشروع الحفر الأثري للكشف عن سور صلاح الدين الشرقي خليط بين نوعين من الحفريات متعارف عليهما.

- الأول: هو حفريات الإنقاذ هذه النوعية من الحفريات تهدف إلى إنقاذ موقع ما من عمليات الزحف العمراني أو الاعتداء على التلة الأثرية ، ومثل هذا النوع يتطلب إجراء مجسات سريعة والحفر على شكل خنادق لجميع معلومات دقيقة عن الموقع لإنقاذه في أسرع وقت ، وقد استخدم هذا الأسلوب في التعامل مع السور سواء مع امتداده الشمالي أو الجنوبي ، وقد أثبتت هذه الطريقة حتى الآن نجاحها في إنقاذ أجزاء كبيرة من السور.

- الثاني: يعرف بإعادة حفر الموقع ، وقد بدأ هذا النوع من الحفر في الظهور مع تنظيم التنقيب عن الآثار بصورة مقننة وعلمية ، حيث يعالج عمليات الحفر العشوائي التي يقوم بها الهواة أو جامعي الآثار أو اللذين يدمرون مناطق أثرية مطمورة لصالح شخص لبناء منزل فوق الموقع ، لذلك فإن إجراء حفريات دقيقة وشاملة ، وربما تكون نتائج تلك الأجزاء المتبقية التي لم تمس ولم يسبق حفرها أهم من تلك النتائج التي سبق حفرها ، مثل باب المحروق الذي كشف تقاصيله كاملة لأول مرة ، وأتضح برجه الجنوبي استخدم فرناً لإعداد الخزف في العصر العثماني ، حيث عثر فيه على أواني خزفية عثمانية ، ومثل التفاصيل الكاملة لبرج درب المحروق برج ١٠ ، وامتدادات المهدات في أبراج السور التي أتضح أن بعضها الحق به حجرات رماية ، وكذلك الكشف عن حجرات رماية لم ترد في أي مرجع علمي اثنى تناول السور وبقياء بالوصف ، فضلاً عن الكشف عن قطع خزفية مملوكة تحمل توقيعات صناع ، وفخار مطلي بالميخا عليه أما كتابات بالخط الثلث أو رونك ، وقطع خزفية عثمانية ، ولسوء الحظ لم يتم العثور على قطع كاملة أو قطع يمكن من خلال عملية الترميم إعادة تشكيلها في صورتها الأصلية ، وكان من المقرر أن نقوم بإعداد كتالوج لهذه القطع الدراسية غير أن تركي العمل بالموقع منذ سبتمبر ٢٠٠١ حال دون ذلك.

تخطيط الحفريات

تم استخدام نظام الخنادق الشريطية في إجراء عمليات الحفر الأثري في الموقع ، وفيها خطط السور بطول ١٢٠٠ متر على شكل سلسلة من الأشرطة العريضة المتوازية تمتد بطول الموقع ، ثم بدأنا في حفر خنادق في هذه الأشرطة بالتبادل ، أي بحفر الخنادق بصورة متتالية بالطول حيث ينقل الرديم إلى الخندق المفترض إلى جواره ، تحتاج هذه الطريقة إلى عمالة كثيفة ، وهى مفضلة في الحفريات التي تتم داخل المدن وفي مناطق ضيقة ، كان الحفر يتم أولاً لتحديد البرج إذا كان ظاهراً ثم امتداد السور شماله وجنوبه ثم تنظيف سطح الممر العلوي للسور والشرافات ثم الدخول إلى داخل البرج وتنظيفه والكشف عن امتداداته ثم حفر الجزء الأمامي ، وهو هنا الجانب الشرقي من السور بعرض يتراوح بين متر ومتر ونصف وعمق لا يتجاوز متر ، إذا كان الرديم في المراحل الأولى من العمل يعوق الكشف عن مساحات أكبر.

لقد كانت أكبر صعوبة في الموقع هو رفع المخلفات منه ، وإزالة جزء من التلال الشاهقة الارتفاع والتي تجاوزت في بعض الأحيان في بعض

المنصة الوارد ذكرها في المصادر التاريخية أو إحدى منشآت الميدان الوظيفية ، وقد تلاشت وظيفة هذا الميدان بعد عصر الناصر ، لتتحول منطقة باب الوزير لجبانة.

كما أننا بأجراء محسات بعد الباب تأكد لنا بصورة أولية امتداد السور منه في اتجاه الجنوب حتى الشارع الموازي لقلعة الجبل ثم ينحرف شرقاً مرة أخرى حيث نعث على برج أسفل قبة رجب الشيرازي اثر رقم ٤٧٦ ، على برج أثرى شيدت أعلاه القبة ، وبمتابعة عمليات هدم وتنكيس المباني على امتداد قبة رجب الشيرازي تجاه الشرق بخط شبه مستقيم اتضح وجود بقايا للسور أسفل بعض المنازل ، وهو ما يعني ضمناً أن هذه المنازل اتخذت السور كحجر أساس بنيت فوقه ، ومن الملاحظ امتداد السور إلى باب الوداع بسكة المحجر ، وهو باب أثرى كان يعتقد أنه ليس جزءاً من السور ، غير أن تحليل مواد بناؤه وأحجاره أثبتت أنه جزء من السور الأيوبي ، ويستمر السور مسافة غير محددة بعده ، إذ يحتاج الأمر لمزيد من الدراسات.

ارتفاعات السور الشرقي

دلت أعمال المحسات أن ارتفاع السور من الشرافات إلى الأرض الموازية للسور ٩ أمتار تقريبا ، غير أن العديد من العوائق حالت دون الكشف عن ارتفاع السور بالكامل منها:

- وجود أحواش دفن في المنطقة الممتدة من البرج ١ إلى البرج رقم ٢ ، وهو ما يعيق الكشف بالكامل عن السور ، لذا اقترح إزالة عدد ٦٠ حوش لكي يتم ضم رباط ازدمر إلى مشروع تطوير وإنقاذ السور ، فضلاً عن أن هذا الكشف قد يؤدي إلى المزيد من المعلومات عن ميدان القبق الأثري.

- وجود عدد ٢ خزان مياه في المنطقة الموازية لباب المحروق بصورة خاصة ، يقع هذا الخزان المواجه للباب على بعد ٦٠ متراً من السور ، ويعلو عن السور بحوالي ٢٢ متراً وهو يرتكز من الناحية الإنشائية على التلال الترابية المحيطة به وإلى أعمال حفر غير محسوبة سيؤدي إلى انهياره ، حيث أن قطره ٨٠ متراً ويستوعب ٣٥ ألف متر مكعب من المياه ، ولذا فانه بات من الصعوبة الكشف عن باب المحروق بالكامل ، واقتراح الكشف عنه بارتفاع ٣.٥م مع إقامة حائط ساند موازى له.

- استحالة الكشف عن الارتفاعات الكاملة للسور في باقي المناطق ، إلا بعد تخفيض أحمال المباني الملاحقة له والراكبة عليه من الجهة الغربية ، فضلاً عن أن وجود طريق صلاح سالم حد من إمكانية خفض مستوى محدد ، وفي حالة الرغبة في تجاوزه يجب أولاً خفض مستوى طريق صلاح سالم ، وتحمل تكاليف مالية باهظة لا طائل من وراءها لذا تم التوصل إلى إمكانية الكشف عن السور في المرحلة الحالية طبقاً للارتفاعات المقترحة بالجدول التالي:

الارتفاع	البرج
٤.٥ متر	١
٤.٥ متر	٢
٩ متر	٣
٩ متر	٤
٩ متر	٥
٣.٥ متر	٦
٣.٥ متر	٧

النقاط ٣٠ متراً فوق المستوى العلوي للسور ، غير أن مساهمة برنامج المدن التاريخية التابع لمؤسسة أمخاان منذ ابريل ١٩٩٨ في رفع المخلفات من الموق ، وفي إزالة ارتفاعات التلال التي تعوق الكشف عن السور ، ساعد على إنجاز عمليات الإنقاذ والحفر بصورة جيدة ، كما أغرى كشف السور برنامج المدن التاريخية على اعتباره ظهيرا لمشروعها الخاص بإنشاء حديقة على تلال باب الوزير المجاورة للسور ، وهو أدى إلى مساهمة البرنامج بعد ذلك خاصة بدءاً من العام ٢٠٠٠م في الكشف عن السور ثم ترميمه.

اهتداد السور إلى قلعة صلاح الدين

كشف المحسات الأولية فيما بعد البرج ١ أ عن وجود بقايا برج آخر يقع تحت منزل يبعد عنه مسافة حوالي ١٠٠م أسفل منزل بنى عليه مباشرة دون أساسا ، ويستمر السور مسافة إلى برج دائري يقع في مقابل مجموعة ايتمش البجاسي ، هذا البرج له بقايا ظاهرة للعيان تم الكشف عن عمق له يصل إلى ١.٥٠م أسفل مستوى الشارع يتجه السور منه إلى الشرق بدلاً من الجنوب طبقاً لأعمال الكشف الأثري عنه ، هذا البرج إذا برج زاوية يشبه في وظيفة برج درب المحروق وبرج الظفر الذي يقع عند التقاء السور الشرقي مع السور الشمالي للقاهرة ، وقد حال الكشف عنه كاملاً وجود منزل صغير بني فوقه دون أساسات ، كنا قد بدأنا في إجراءات إزالته ، وقد تبين وجود امتداد للسور في اتجاه الشرق من هذا البرج بطول ٤ متر ، من هنا يتضح لنا أن مجموعة ايتمش البجاسي بنيت داخل المدينة ، بينما بني رباط ازدمر خارجها ، كما يلاحظ أنه على مسافة من السور يوجد مدخل من بقايا منشأة مملوكية جركسية على منسوب مرتفع نسبياً عن منسوب السور وفي نفس اتجاهه ، وهو ما يعني تراكم المخلفات في الشارع منذ العصر الأيوبي للعصر المملوكي الجركسي أو أن لهذه المنشأة من الشارع سلم صاعد ، غير أن اعتراض هذا المدخل لمسار السور مازال في حاجة للإجابة عنه باستكمال أعمال الحفر في هذا الاتجاه ، هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى فهي استدارة البرج نحو داخل المدينة على عكس باقي الأبراج التي أما تبرر إلى خارج المدينة ، أو تفتح بعقد على المدينة ، هذه الاستدارة تستدعي من الذاكرة برج القلة في القلعة ، الذي يُعرف ببرج المقطم حالياً ، وهو برج دائري يقع على سور القلعة بين نطاقها الجنوبي والشمالي ، وكان يستخدمه وإلى القلعة لمراقبة أقسامها وضبط الحركة بها ، فهل كان هذا البرج يؤدي نفس الوظيفة ؟ لاشك أن كشف المزيد منه يؤدي إلى الإجابة عن التساؤل ، وربما تتأكد الفرضية السابق طرحها بناءً على ما تم الكشف عنه من السور ، أن المعطيات تؤكد استمرار السور إلى الخوخة الباقية حالياً والمؤدية إلى جبانة باب الوزير ، ومن المرجح أنها هي نفسها باب الوزير الذي ينسبه محمد رمزي إلى الوزير نجم الدين بن شروين المعروف بوزير بغداد ، عند توليه الوزارة في عصر السلطان الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤٢م لمرور الناس فيه بين المدينة وبين الجبانة الواقعة خارج السور. هنا يثار تساؤل حول تضال أهمية السور حتى فتح باب أو خوخة مستحدثة به ، ثم الدفن خارجه ، يبدو أن السور الشرقي ظل محتفظاً بأهميته حتى زادت مع إنشاء الظاهر بيبرس ميدان القبق به ^(٢٩) فقد كان هذا الميدان هو ميدان التدريب الرئيسي في العصر المملوكي والمهرجانات والاحتفالات ، ومن المرجح أن البناية المكتشفة بين البرج ١ والبرج ١ أ ذات القبوات المتتالية أما أن تكون

الارتفاع	البرج
٨ متر	٨
٨ متر	٩
١٢ متر	١٠
٨ متر	١١
٨ متر	١٢
٨ متر	١٣
٨ متر	١٤
٨ متر	١٥

في النهاية لا يسعني إلا أن أذكر أنه لولا تضافر جهود ثلاثة مؤسسات لم يكن من الممكن استكمال هذا المشروع ليصبح السور الشرقي ظهيراً أثرياً لحديقة الأزهر، هذه المؤسسات، هي مؤسسة أغاخان التي استكملت في مرحلة لاحقة أعمال الكشف الأثري وترميم السور، ومحافظة القاهرة والمجلس الأعلى للآثار اللذين تضافر التقديم مشروع نوعي مميز.

الهوامش

- ١ الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٤، ص ١٢٥.
- ٢ البنداري، الفتح بن علي بن محمد، سنا البرق الشامي، إختصار كتاب سنا البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الأصفهاني، ص ١١٩؛ أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر سلاطين المماليك، ص ٢٦. رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٩٢ م.
- 3 Suzan jane staffa, conquest and fusion, the social elevation of Cairo, a.d. 642- 1890, p94, leiden 1979.
- عدنان الحارثي، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين، ص ٨٧، زهراء الشرق ١٩٩٩.
- ٤ المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٠٠، ليدن ١٩٠٩ م.
- ٥ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين، ج ١ ق ٢، تحقيق محمد حلمي ص ٣٣٤، القاهرة ١٩٦٢؛ عدنان الحارثي، عمران القاهرة، ص ٨٨.
- ٦ المقريزي، السلوك، ج ١ ق ١، ص ٩٠؛ عدنان الحارثي، عمران القاهرة وخططها، ص ٣٨٧.
- ٧ عرفت القلاع الصغيرة بالأبراج، وهي تعد إستحكام حربي للمراقبة والدفاع الأولي، يتسع لإقامة حامية عسكرية صغيرة لصد هجمات الأعداء، أو علي الأقل تعطيلهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها. محمد أمين وليمي إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٢١.
- ٨ يعرف حالياً بجامع الفتح ويقع بميدان رمسيس في القاهرة.
- ٩ المقريزي، السلوك، ج ٣ ص ٣٨٠، الخطط، ج ١، ص ٣٧٩، ٤٨٠.
- ١٠ البنداري، سنا البرق، ص ١١٩، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ق ٢ ص ٦٨٧.
- ١١ كان يازكوج مملوكاً لأسد الدين شيركوه، وصار أميراً علي طائفة الأجناد والأسدية في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي. توفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٣٩؛ السخاوي، تحفة الأحباب، ص

- ٧٥؛ أبو شامة، الذيل علي الروضتين، ص ٣٤؛ أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص ٢٧١؛ عدنان الحارثي، عمران القاهرة، ص ٣٨٨.
- ١٢ الهروي، علي بن أبي بكر (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤ م) التذكرة الهروية في الحيل الحربية، ص ١٠٩، تحقيق مطيع المرباط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٢ م.
- ١٣ فهمي الأغبري، التحصينات الدفاعية في اليمن القديم، ص ٣٤، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٤ م؛ عبدالله الحداد، مقدمة في الآثار الإسلامية، دار الشوكاني، صنعاء ٢٠٠٣ م.
- ١٤ سعد المؤمني، القلاع الإسلامية في الأردن، ص ٣٥١، ٣٥٠، دار البشير، عمان، ١٩٨٨ م.
- ١٥ أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص ٢٢٩، ٢٣٠.
- ١٦ ابن دقماق الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ٢٧؛ المقريزي، الخطط، ج ٤، ص ٢٧؛ خالد عزب، الفسطاط، النشأة، الإنحسار، ص ١٤٣، دار الأفاق العربية، القاهرة ١٩٩٨ م.
- ١٧ ابن دقماق، الانتصار، ص ٢٨؛ المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٤٧؛ خالد عزب، الفسطاط، ص ١٤٤.
- ١٨ تولي تنفيذ الحفر الأثري عن الباب فريق برئاسة الدكتور خالد عزب الذي عمل كذلك بالاشتراك مع الفريق الفرنسي.
- ١٩ عبد الرحمن ذكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص ٧٤، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٥، ١٩٦٩ م؛ فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة، ص ١٩١، ٢٧٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م؛ السيد عبد العزيز سالم، وسائل الدفاع الإسلامي في الأندلس، ص ٢٥، مجلة الجيش، عدد ٨٢، ١٩٥٧ م.
- ٢٠ عبد الرحمن ذكي، العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين، ص ١١١، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٧، ١٩٥٨ م.
- ٢١ أسامة طلعت، ملامح تخطيط المدخل المنكسر في العمارة الدفاعية بين مصر والغرب الإسلامي فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين، ص ٣٢٧؛ ٣٣٠، بحث ضمن أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثاريين العرب، القاهرة ١٩٩٩ م.
- ٢٢ أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص ٣٢٨، ٣٢٩.
- ٢٣ صديق شهاب الدين، تخطيط المدن وتاريخ الحصون، ص ٤٥٤، ومجلة العمارة العدد ٩، ١٩٣٩ م.
- ٢٤ انظر: الكراسة ٢ من سنة ١٩٥٤ إلى ١٩٦١ ص ٣٧، ٣٦.
- ٢٥ انظر: كراسات لجنة حفظ الآثار المجلد ١٨٩٠ م ص ٢٤، ٢٠.
- ٢٦ انظر: كراسات لجنة حفظ الآثار المجلد ٢١ ١٩٠٤ م ص ٤١، ٤٠.
- ٢٧ انظر: ملفات سور صلاح الدين الشرقي من منطقة آثار جنوب القاهرة.
- ٢٨ حصلت البعثة على رعاية خاصة من كل من / عبد الله العطار رئيس قطاع الآثار الإسلامية آنذاك، والأستاذ عادل عبد الستار مدير عام مناطق جنوب القاهرة آنذاك، والأستاذ عبد الخالق مختار مدير عام منطقة جنوب القاهرة آنذاك.
- ٢٩ محمد الششتاوي، ميادين القاهرة في العصر المملوكي، ص ٦١:٧١، دار الأفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩ م.

مَن هم الآراميون؟

وبعد

أن تعرفنا في الموضوع المنشور في العدد السابع على معنى كلمة آرام ، نتساءل من هم الآراميون ؟ والسبب الذي دفعنا لإطلاق هذا السؤال يعود إلى عدم وجود إجابة واضحة ومحددة حول أصل الآراميين وهويتهم. فمن قائل أن الآراميين هم أنفسهم قبيلة الأحملامو أو الأخلامو ، إلى قائل أن الأحملامو لا علاقة لهم بالآراميين ، ولاسيما أن الأحملامو ظهرُوا إلى الوجود قبل الآراميين. إلى قائل أن الآراميين يمثلون مجموعة من القبائل كالأحملامو أو الأخلامو والخاييرو والسوتو وسواها ، إلى قائل أنهم يختلفون عن هذه القبائل ، ومنفصلون عنها ، حتى ولو اشتروا مع شعوبها ببعض الخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية... وهكذا. الأمر الذي يضفي المشروعية على سؤالنا ، ويدفعنا للبحث الجدي عن إجابة عنه.

أرام كإقليم جغرافي

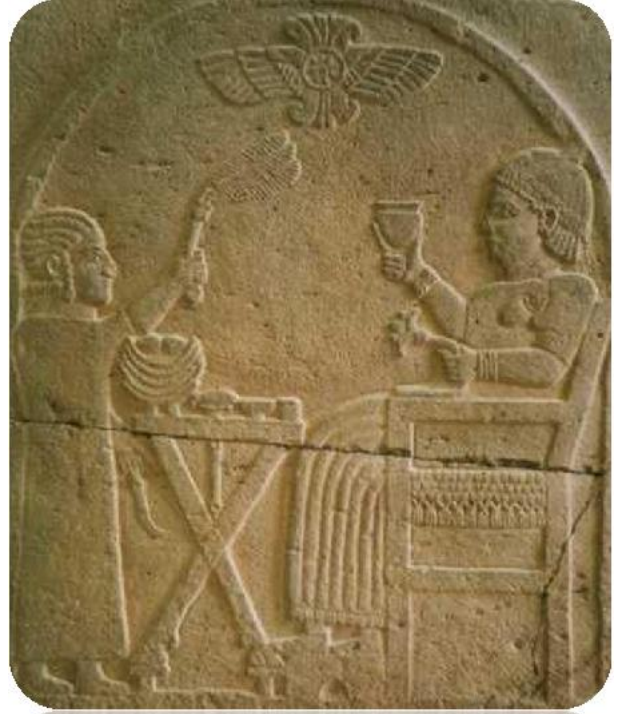
يرى محمود حمود أن اسم الآراميين يرقى إلى زمن أبعد بكثير من الزمن الذي شغل فيه الآراميون دوراً خطيراً في تاريخ المنطقة. وقد تكون من أقدم الوثائق التي تذكر اسم آرام كإقليم جغرافي ، تلك التي وردت في نصوص إبلا العائدة للآلف الثالث ق.م. وجاءت بشكل "أرام. كي" A-ra-mu-ki . وقد وردت ضمن قائمة أسماء لمواقع جغرافية كانت قد عرفت أولاً في تل أبو صلابيخ في العراق^(١). كما وجدت أسماء مشابهة أخرى لأماكن جغرافية في إبلا مثل أريمو-كي Arimu-ki وأرامو كي Arram-ki .

وتذكر المصادر المسمارية أخبار الأخلامو ، الذين يبدو أنهم كانوا يشكلون القسم الأكبر والأقوى بين القبائل الآرامية في مناطق الفرات الأوسط الممتدة من بلاد سوخي "مناطق عانا" حتى كركيش "جرابلس" في القرن السابع عشر ق.م حيث ورد ذكرهم في رسالة ضمن أرشيف تل دير (سيبار أمانانوم) جنوب غرب بغداد ، تعود للنصف الثاني من القرن السابع عشر ق.م ، ونقرأ فيها أن بلوشونو يعلم أباه أنه لا يستطيع تحقيق رغبته في شراء شعير له ، لأن الأحملامو لم يأتوا إلى المدينة بعد.

وهناك نص آشوري يعود إلى عهد الملك الآشوري أريك دين إيلو "١٣٢٥-١٣١١ ق.م" يقول فيه أنه خاض معركة ضد قوات الأحملامو والسوتو في منطقة شمالي دجلة^(٢).

وقد ترافق ذكر الأحملامو مع الآراميين في نصوص تيجلات بيلاصر الأول "١١١٢-١٠٧٤ ق.م" الأمر الذي أدى للكثير من الجدل والبحث في العلاقة التي تربط بين الاسمين أو المجموعتين البشريتين. هل هما مجموعتان مختلفتان ، أم هما اسمان مختلفان لمجموعة بشرية واحدة ؟. حيث ذكرت كلمة (أرام. كي) في وثائق رافدية تعود إلى عصر أور الثالثة (أواخر الألف الثالث) وفي وثائق تجارية تعود إلى حوالي ٢٠٠ ق.م. إلا أن أقدم إشارة تاريخية إلى الآراميين لكونهم غزاة ظهرت في حوليات تيجلات بيلاصر الأول (أواخر القرن الثاني عشر) ملك آشور بضيغة (آرامايا) ولكن ذكرهم بقي مقروناً باسم الأخلامو.

ويشير علي أبو عساف إلى أن قبائل البدو الشامية ذات أصل مشترك وقد تكلمت لغة واحدة متعددة اللهجات ، وإن كلمة أحملامو هي بالأصل أغلام وتعني الشباب ، ويرجح أن تكون كلمة أحملامو قد قصد بها الإشارة إلى طلائع الآراميين الذين اصطدم بهم الآشوريون ولم يقصد بها قبيلة^(٣).



خليل إقطيني

كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر

مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة

الجمهورية العربية السورية

aya2006@scs-net.org

■ الاستشهاد المرجعي بالتقرير:

خليل إقطيني ، مَن هم الآراميون -. دورية كان التاريخية -. العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ١١٢ - ١١٥ .

(www.historicalkan.co.nr)

صديق ورفيق

فيها رجل اسمه آرامو. وهناك من استنتج أن مدينة آرامي تقع بالقرب من مدينة أشنونة "تل أسمر" على دجلة وقد أسسها الآراميون الذين هاجروا إلى بلاد سومر وأكاد تباعاً، وهم أسلاف الآراميين الذي ظهروا على المسرح السياسي بعد ذلك بنحو ألف عام. ووجد في نصوص ماري من تحدث عن ذكر الآراميين والأحلامو، إذ كانوا قبائل بدوية تحركت واستوطنت في وادي الفرات منذ مطلع الألف الثاني ق.م. كما يرد ذكر آرام في اسم علم في نص من النصوص العائدة لعصر زمري. ليم ملك ماري. وربما يدل الاسم على جماعات بدوية، أو أفراد من قبيلة آرام أو أحلامو كانوا يوفدون إلى ماري للمتاجرة.

ومنذ القرن الرابع عشر ق.م. كثرت الوثائق التي تتحدث عن الأحلامو والآراميين ففي رسالة موجهة من حاكم دلمون التي هي مملكة البحرين حالياً، إلى والي نجر جنوبى بغداد، وتعود إلى نهاية القرن الخامس عشر، اشتكى حاكم دلمون من الأحلامو الذين نهبوا تمور بلاده، والواقع أن بلاد بابل إياها لم تكن في مأمن من خطرهم إذ كانوا يسببون المتاعب للحكام المحليين ويتدخلون في شؤونهم ويعيقون المواصلات بين مدنهم.

في الجزيرة الشامية

أما في بلاد الجزيرة الشامية فقد اجتازت القبائل البدوية وخاصة الأحلامو نهر الفرات إلى أراضيها ووصلوا ضفاف دجلة^(٨). وذكر تيجلات ييلاصر الأول "١١١٢-١٠٧٤ ق.م." فيما بعد أنه حارب وطارد القبيلة الآرامية حيرانو إلى أواسط حوض الفرات. فمن المرجح إذاً أن يكون آل حيرانو المذكورين في تلك الرسالة التي تعود إلى عصر الملك الآشوري هدد نيراري الأول "١٠٣٥-١٢٧٤ ق.م." قبيلة آرامية توغلت في أعالي بلاد النهرين آنذاك، وبقيت بطون منها في بلاد سوخي وماري على أواسط الفرات.

ويخبرنا ييلاصر الأول أنه خرب في يوم واحد بلاد (أحلامو آرام) الممتدة من بلاد سوخي على أواسط الفرات حتى كركميش في أعاليه ثم اجتاز النهر إلى البادية الشامية، ودمر ستاً من مدنهم على سفوح جبال بشري التي يظن أنها هي جبال الأحلامو التي سبق ذكرها^(٩):

(سرت ضد الآراميين الأحلامو أعداء سيدي، الإله آشور، سلبت المناطق الواقعة من أرض سوخي وحتى مدينة كركميش في أرض خاتي في يوم واحد، ذبحتهم وأخذت غنيمتهم، وأملاكهم وسلعاً لا تعد ولا تحصى. ما تبقى من قواتهم التي هربت من سلاح الإله آشور، سيدي، عبّر الفرات وعبّرت الفرات خلفهم... قمت باحتلال ستاً من مدنهم على سفح جبل بشري، هدمتها وأحرقتها ودمرتها)^(١٠).

وقد اضطر هذا الملك أن يجتاز الفرات ثمان وعشرين مرة ليحارب الأحلامو. آرام، وغيرهم من القبائل مثل السوتيين الذين انتشروا من جبال بشري إلى تدمر وإلى مدينة رايقو في بلاد بابل وإلى مدينة عانة في بلاد سوخي على أواسط الفرات وإلى كركميش وسهل سروج إلى الشرق منها^(١١): (عبّرت الفرات ثمان وعشرين مرة خلف الأحلامو الآراميين حتى بلاد الحثيين، مرتين في السنة الواحدة، من سفوح جبال لبنان، ومن تدمر في أمورو، ومن خانات في سوخي، حتى رايقو في كاردونياش "بلاد بابل" وألحقت بهم الهزيمة، وأخذت غنائم وممتلكات لهم إلى مدينتي آشور)^(١٢).

ووجد البعض في اصطلاح أحلامو معنى صديق أو رفيق، بالعودة إلى جذر (خلم) في معاجم اللغات السامية ومنها العربية. ففي العربية الخلم تعني الصديق الخالص والجمع أحلام وخلصاء وهم الأصحاب. والأحلام أيضاً مرابض الغنم. ولكن انتقدت هذه النظرية وأساسها اللغوي واعتبرت كلمة أحلامو اسم علم لقبيلة أو لمجموعة من القبائل البدوية المتحالفة. وإذا اعتبرنا أن لاصطلاح

أحلامو صلة بالجذر (حلم) فأصل مدلول الكلمة يمكن أن يشير عندئذ إلى معان أخرى نجدها في المعجم الآرامي والعبري، مثل القوة والبأس، وما يضادها في العربية مثل الأناة والعقل، فأولو الأحلام والنهي هم ذوو الأبواب والعقول، والأحلام: الأجسام، فأحلامو أرميا يمكن أن تعني إذاً:

أحلاف الآراميين، أو شيوخ الآراميين وحملاتهم، ومهما يكن فقد ورد ذكر تغفل عناصر الأحلامو على بابل في أواسط الألف الثاني حتى وصل بعضهم إلى شواطئ شرقي الجزيرة العربية (ديلمون)^(٤) وإلى مناطق من الفرات والجزيرة، وبقي الاصطلاح المزدوج أحلامو. أرميا في المصادر الآشورية في عصر آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩) إلى أن تغلب الاصطلاح أرميا الدال على الآراميين على الاصطلاح الآخر أحلامو. ولكن هذا الاسم لم يزل من الاستخدام حتى عصر سنحريب (القرن السابع) فأضحى كلا

الاصطلاحين مترادفين ولكن لا يوجد في المصادر ما يمكن أن يثبت أن الأمر كان كذلك في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م.^(٥) كثيراً ما تذكر الوثائق السوتيين والآراميين والأحلامو في آن واحد. ففي حين افتخر أربك دين إيلو وسنحارب بانتصارهما على السوتيين والأحلامو، ذكرت كتابة تعود إلى عصر آشور بل كالا الآراميين والسوتيين والأحلامو معاً.

ويخلص حمود إلى أن الآراميون يرجعون في أصولهم إلى قبائل بدوية عاشت وتقلت في البادية السورية، وبخاصة ما بين سلسلة الجبال التدمرية وجبل بشري، قبل أن تستقر على أرض الرافدين وبلاد الشام. وظهروا على مسرح التاريخ في الشرق العربي القديم منذ الألف الثاني وربما منذ أواخر الألف الثالث ق.م.^(٦)

أما علي أبو عساف فيتحدث عن أقدم الوثائق التي تذكر اسم آرام كإقليم ويقول إنها تعود إلى عهد الملك الأكادي نارام سين (٢٢٧٠-٢٢٣٣ ق.م.) وهي نسخة بالبابلية لكتابة أكادية، تتحدث عن انتصار نارام سين على شيخ آرام خرماشتكي وغيره. ومن المرجح أن هذا الإقليم يقع في أعالي الجزيرة في سورية. وتقول وثيقة أخرى اكتشفت في مدينة خفاجة في العراق، أن نارام سين إياه، قد انتصر على مدينتي سيموروم وآرامي ويستدل من سياق الأحداث المذكورة في الوثيقة أن هاتين المدينتين تقعان في منطقة شرقي دجلة بين نهري الزاب الأسفل والديالي^(٧).

وهناك وثائق تجارية عثر عليها في مدينة دريهم في العراق تعود لعصر سلالة أور الثالثة "١٩٥٠-٢٢٥٠ ق.م." من بينها وثيقة دون عليها اسم "آرامي" لمدينة أو إقليم، ومؤرخة في السنة ٤٦ لحكم الملك شولجي "٢٠٣٩-٢٠٤٦ ق.م." ثاني ملوك سلالة أور الثالثة. وبين الوثائق كانت وثيقة أخرى من عهد الملك شوسن "٢٠٤٥-٢٠٣٧ ق.م." ذكر

قوم أنهم كانوا يسمون بـ (سوتو) وذهب آخرون أنهم كانوا يدعون بقبائل (أحلامو) في عام ١٥٠٠ ق.م. وكان الأموريون المقيمون في منطقة الفرات أول من أطلق عليهم هذه التسمية وتعني الرفاق أو الأحلاف^(١٧).

ولم يكن الآراميون في بادئ أمرهم سوى قبائل رحل تجوب مختلف المناطق سعياً وراء الكلاً وموارد الرزق، حسب رأي المطران صليبا شمعون، حتى إذا ما هب عليهم نسيم الحضارة، الذي جاءهم من وادي الرافدين، أخذوا يزحفون نحو الشمال فوصلوا بلاد الشام واحتلوها. فيما اتجه قسم آخر منهم نحو الشمال الشرقي، ثم تغلغلوا في أعماق سورية حتى وصلت بعض قبائلهم إلى أقصى الشمال، فاستقروا هناك في أعالي ما بين النهرين، وأخذوا يعملون في الزراعة، في حين زحفت قلة منهم إلى مصر عن طريق صحراء سورية وبرية سيناء، وعرفت هناك باسم (سوتو) أي الرحل. كما نزح قسم آخر من قبائلهم إلى بلاد أكد (جنوبي العراق) حيث أسسوا لهم دويلات صغيرة مبعثرة هنا وهناك، وصار لهم فيما بعد شأن يذكر في تاريخ تلك المنطقة. كما اتجه قسم آخر من قبائلهم نحو الشمال الشرقي. وقد جاء هذا التوسع الجغرافي نتيجة لفتوحاتهم والغزوات التي شنوها ضد الشعوب التي قطنت البلاد قبلهم كالأموريين والميتانيين والحثيين، وفرضوا سيطرتهم عليهم وأسسوا دويلات صغيرة على أنقاض ممالكهم^(١٨).

إن طلائع القبائل الآرامية الزاحفة نحو الشام عرفت أولاً باسم (أحلامو) وهي تعني الرفاق^(١٩). وقد وردت هذه التسمية في رسائل تل العمارنة في القرنين الخامس والرابع عشر ق.م حيث تحدثت عن (الضجة التي أحدثها الأحلامو في المنطقة). وفي أواخر القرن الرابع عشر نرى صراعاً عنيفاً بين الآشوريين والأحلامو الغزاة. إذ أن الأخيرين كانوا يشكلون خطراً على مسالك الطرق، كما تفيد رسالة حوشيل ملك الحثيين إلى ملك بابل سنة ١٢٧٥ ق.م حيث ورد فيها أن (الأحلامو جعلوا الطرق بين المملكتين حافلة بالمخاطر)^(٢٠).

غير أن نشاط الآراميين السياسي لم يبلغ ذروته إلا في أواخر القرن الحادي عشر ق.م وأوائل القرن العاشر، حيث تمكنوا آنذاك من الاستقرار التام، وترسيخ أقدامهم في سائر أنحاء المنطقة التي عرفت ببلاد آرام أو آرامو أو ريمو أو مات ريمي كما ورد في الوثائق المكتشفة في بابل وآشور والمدونة بالسومرية. وما إن استتب لهم الأمن واستقروا على الوجه الأفضل، حتى أخذوا يؤسسون دويلات، ولكن متفرقة ومستقلة عن الأخرى. إلا أن الآراميين لم يفتهم أن يتحالفوا أحياناً ضد الغزوات الآشورية، سواء مع بعضهم البعض أم مع جيرانهم. وهذا ما ساعد على امتداد فترة تاريخهم السياسي بالرغم من الانقسام الذي ساد ممالكهم^(٢١).

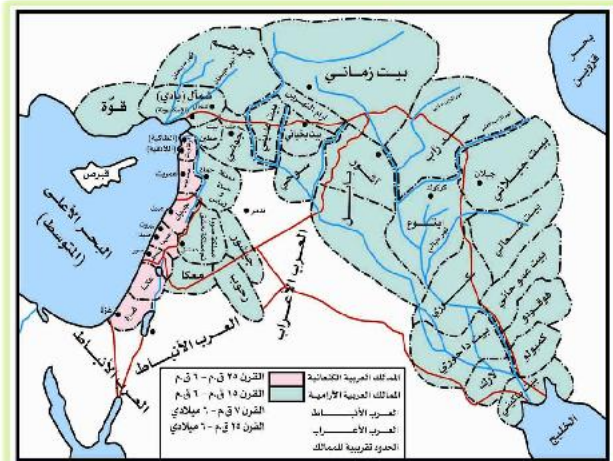
ويؤكد دوبيون سومر أن نشأة الشعب الآرامي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م، وقد أكدت ذلك بعض النصوص الآرامية القديمة، التي ألقت الضوء على أصل القبائل الآرامية: مثلاً هناك رسالة من تل العمارنة^(٢٢) تتعرض لذكر قبائل الـ (أحلامو) الغزاة، الذين هم بحق نفس

الآراميين. وهذه النتيجة أو الحقيقة تؤكد كلا النصوص اللاحقة، التي تذكر أن قبائل الأحلامو استوطنت ضفاف نهر الفرات، لكن مع الأسف لم ترد فيها أي إشارة إلى الملك المعاصر لها في أرض كاردونياش (بابل)^(٢٣).

ولا تعود أهمية أخبار حروب تيجلات بيلاصر الأول مع (الأحلامو. آرام) لأنها أشارت إلى موطن الأحلامو- آرام، بل لأنها حوت اسم الأحلامو مقترناً باسم آرام. ومن عصر هذا الملك فصاعداً أصبحت الغلبة لاسم آرام، ولم يذكر اسم الأحلامو إلا في القليل من النصوص الآشورية المتأخرة. إذ كثيراً ما نرى في الكتب التاريخية أن الأحلامو هم (الآراميون) ولكن يمكن للمرء أن يفترض أيضاً أن جميع الأحلامو ليسوا (آراميين). وإن إطلاق مثل هذه الصفة على الأحلامو مجرد وصف عام. ونلاحظ أن اسم أحلامو قد ورد في نصوص ماري والعمارنة ونفر قبل قرون من ظهور اسم أحلامو آرامي الذي ظهر لأول مرة في عهد تيجلات بيلاصر الأول كما ذكرنا. كما نلاحظ أن اسم آرام لم يصبح مألوفاً إلا بفضل الآشوريين^(١٣). حيث نسمع (مثلاً) أن الملك الآشوري شلمانصر الأول "١٢٧٣-١٢٤٤ ق.م" يقارع الأحلامو في مناطق الخابور^(١٤).

ونستفيد من نصوص الحقبة الآشورية، أن الملك الآشوري تيجلات بيلاصر الأول قام في السنتين الثالثة والرابعة من حكمه بحملة عسكرية من مدينة سوخي إلى مدينة كركميش. ويبدو أن هذا الملك كان يصيد الثيران والفيلة في حران ومنطقة الخابور عام ١٤٣ ق.م. أما الملك الآشوري بعل. كالا "١٠٧٤-١٠٥٦ ق.م" فيصف في نصه التذكاري الحملة التي قام بها ضد بلاد عريم، ويذكر مدناً معروفة مثل دور كاتليمو أو دوريجديليم "تل الشيخ حمد" على الخابور الأدنى وسيحريت "ساجاراتوم" لكن الآشوريين لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم في شمال ما بين النهرين، بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين شعوب متعددة في المنطقة، الأمر الذي أفسح المجال أمام

شعب آخر هو الشعب الآرامي للظهور على الساحة^(١٥). والخلاصة لدى علي أبو عساف أن الآراميين كانوا موجودين كبدا في بلاد الشام منذ القرن الخامس عشر ق.م وإن عبارة الشاصو (البدو) المصرية لا بد وأنها كانت تشمل أيضاً الآراميين. ويستدل من الأحداث التي جرت خلال القرون الثلاثة الأخيرة للألف الثاني ق.م أن الغلبة كانت لهم في بلاد ما بين النهرين بينما انطوى أمر السوتوتيين. ويمكن للمرء أن يفترض الشيء ذاته بالنسبة إلى بلاد الشام^(١٦).



قبائل رحالة

ويقول المطران اسحق ساكا، أن الآراميين برزوا على مسرح التاريخ في الألف الثالث ق.م على شكل قبائل رحالة عديدة. وقد تحرى الباحثون والمؤرخون عن أسمائهم فلم يتوصلوا إلى تشخيصها بضبط ودقة. فزعم

ولعل الالتحام القوي بين الآراميين والآشوريين في الألف الأول ق.م وبين الآراميين والكلدان ، وبين هؤلاء الأقوام والكنعانيين قد وسع رقعة البلاد الآرامية ، ولابد أن نشير إلى تحالف الآراميين مع بعضهم ضد الملك الآشوري شلمانصر عام ٨٥٣ ق.م وانتصارهم في معركة قرقر^(٢٨).

أرمان

وعندما هلك آخر أقوام الآراميين وهي عاد وثمود ، أصبح اسم الآراميين (أرمان) وهي آرام مضافاً إليها (ان) في النهاية ، وهما حرفا التعريف حسب الجنوب العربي. وقد انتهت الدولة الآرامية التي لم تكن موحدة سياسياً في عام ٧٢٠ ق.م على يد سرجون (شبروكين) ملك نينوى ، والذي قضى على مملكة حماه. وكان تيجلات بيلاصر الثالث قد احتل دمشق عام ٧٣٢ ق.م ، لكن النفوذ الآرامي استمر عن طريق نشوء الدولة الكلدانية في عام ٦٢٥ ق.م على يد نبوليسر ، وما زالت عدة مدن وقرى وبلدات سورية تحمل أسماء آرامية حتى الوقت الحالي.

الهوامش

- * خليل اقطيني ، آرام "معناها ومصدرها". - دورية كان التاريخية. - العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٦٦ - ٦٩. (www.historicalkan.co.nr)
١. محمود حمود. المالك الآرامية السورية. ص ٣٣.
 ٢. عبد الهادي نصري. شمس آرام شمس العرب - ص ١٧.
 ٣. د. علي أبو عساف. الآراميون تاريخاً ولغة وفناً. ص ١٦
 ٤. البحرين
 ٥. المصدر رقم ١. ص ٤٢ - ٤٣
 ٦. المصدر السابق. ص ٣١
 ٧. المصدر رقم ٣. ص ١١
 ٨. المصدر السابق ص ١٢
 ٩. المصدر السابق ص ١٤
 ١٠. المصدر رقم ١. ص ٣٧
 ١١. المصدر رقم ٩
 ١٢. المصدر رقم ١. ص ٣٨
 ١٣. المصدر رقم ٣. ص ١٥
 ١٤. المصدر رقم ١. ص ٣٦
 ١٥. خليل اقطيني. مدائن الخابور في الحسكة ودير الزور. ص ٢٨.
 ١٦. المصدر رقم ٣. ص ١٨
 ١٧. المطران اسحق ساكا. الآراميون ص ٧
 ١٨. المطران صليباً شمعون. الممالك الآرامية. ص ١١ ، ١٢ ، ١٣.
 ١٩. بشير زهدي. المجلة البطركية الدمشقية. السنة الرابعة. ص ٤٩٥
 ٢٠. المطران صليباً شمعون. الممالك الآرامية. ص ١٤.
 ٢١. المصدر السابق ص ١٨
 ٢٢. تل أثري في مصر كان موقعه عاصمة مصرية قديمة في عهد فرعون أخناتون
 ٢٣. دوبيون سومر. الآراميون - ص ٢١.
 ٢٤. المصدر رقم ٢. ص ١٧.
 ٢٥. (المصدر رقم ٢. ص ١٨)
 ٢٦. عبد الحكيم الذنون. الذاكرة الأولى. الجزء الثاني. التاريخ القديم لبلاد الشام. ص ٢٣٦
 ٢٧. المصدر السابق ص ٢٣٧
 ٢٨. المصدر السابق ص ٢٣٨

ويرجع أسد الأشقر الوجود الآرامي إلى فترة أسبق ، من خلال إشارات ترد منذ عام ٣١٠٠ ق.م عن السلالات المصرية الأولى إلى قبائل في بلاد الشام باسم (سيتو) ونجد الوثائق الأكادية منذ عام ٢٧٠٠ ق.م تطلق اسم (سيتو) أيضاً على تلك القبائل ، وهذا الاسم سيصبح فيما بعد صفة لكل الأقوام الرحل^(٢٤). وفي نصوص لاحقة يقتدر اسم الأخلامو بالآراميين. لكن عبد الهادي نصري يبين أنه لا يستطيع أن يقول أن للآراميين اسمين مزدوجين. الأخلامو والآراميون - وربما كان الأخلامو تسمية للمجموعة البشرية الكبيرة وإن الآراميين كانوا يشكلون جزءاً أصيلاً فيها ورجحت بعد ذلك تسميتهم عليها. أو أن الآراميين مختلفون عن الأخلامو ، وقد ربطتهم النصوص ببعضهم إلى أن تميزوا عنهم تاريخياً^(٢٥).

بدو وحضر

ويقول عبد الحكيم الذنون إن الآراميين لم يكونوا على مستوى واحد من الحضارة ، فكان منهم أهل البداوة ومنهم أهل الحضر والمدن. وقد عرفت بعض القبائل والعشائر التي كان لها دور تاريخي مثل الأخلامو. الذين أصبحوا في العهد الأخير مرتبطين كلياً بالآراميين في صد الغزو الآشوري. ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يطلق على كافة الآراميين ، كما ورد ذكر جماعات أخرى مع الأخلامو ، وهم الهيرو أو العبيرو أو الخبيرو. وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً^(٢٦). وقد جعلت بعض السمات المشتركة بين الخابيرو والعبيرو والأخلامو الباحثين لا يعرفون كيف يميزون فيما بينهم. لأن هذه التسمية استخدمت بشكل فوضوي وعشوائي دونما أن تبدل أي محاولة حقيقة لفهم هذه الظاهرة ضمن نطاق التطور السياسي والاجتماعي .

الاقتصادي في المنطقة في تلك الحقبة. ذلك أن تسمية الأخلامو هي تسمية مرتبطة أساساً بالوجود الآرامي في المنطقة ، وجميع هؤلاء من الآراميين البدو أو الفقراء أو الكادحين بوجه عام. ويتحركون في منطقة واحدة من شبه جزيرة العرب. وامتد الآراميون بنفوذهم الاقتصادي إلى خارج حدود هذه المنطقة ، وكان منهم بطون في العراق وسيناء وفلسطين وانتشرت مع تجارتهم اللغة الآرامية حتى أصبحت لغة رئيسية في بابل ونينوى ومصر وفلسطين وإيران ، وكانت الآرامية لغة السيد المسيح ، بل إن انتشار الآرامية أدى إلى إطلاق تسمية آراميين على جميع من يتكلمها من مصر حتى فارس وحدود بلاد الأرمن وبلاد الإغريق^(٢٧).



مجمع معبد وقصر آرامي



الأنوثة في فكر ابن عربي

المؤلف : نزهة براضة

الناشر: دار الساقى للطباعة والنشر

تاريخ النشر: ٢٠٠٨

عدد الصفحات: (٢٦٣)

عرض

أ.د. أحمد السري

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ والآثار

جامعة الإمارات العربية المتحدة

ahmed.sirri@uaeu.ac.ae



٦٣٨ / ١١٦٤ - ١٢٤٠ ، إذ تكاد في بعض جوانبها تكون معاصرة بل متقدمة على بعض الطروحات المعاصرة في حثييات خطاب المرأة أو "النوع الاجتماعي".

الأنوثة كما يقدمها الكتاب عند ابن عربي ، شيخ شيوخ الفكر الصوفي وقطبه الأعظم ، تحظى بدلالات كونية عميقة ، إنها مرافعة صوفية عميقة في معنى الأنوثة وصلتها بالكون وخالقه ، وما المرأة في هذا السياق إلا تجسيد مباشر محدود مقتبس من أنوثة الكون العامة.

الكتاب ومحاورة:

يقع الكتاب في ٢٦٣ صفحة من القطع المتوسط وينقسم إلى سبعة محاور أساس تنقسم بدورها إلى عناوانات جزئية تشكل المحور العام. ويسبق هذه المحاور سيرة مختصرة لابن عربي ، ومقدمة إضافية حول فكرة الموضوع ، وقد صدر الكتاب عن دار الساقى بلندن عام ٢٠٠٨.

يبدأ الكتاب بصعق ذهن القارئ لانتشاله من خدر التراث السائد وصوره ، ليوقفه مذهولا مدهوشا متسائلا ، وذلك عبر التمهيد في المقدمة بيتين من الشعر لابن عربي فيهما يتم نفي وجود الرجال وأن الإناث هن أصل الوجود كله ، وقارئ هذا العرض يحتاج هو الآخر إلى هذه الصعقة ليستعد لتلقي أفكار غير التي ألف ، فليقرأ البيتين معنا:

إنا إناث لما فينا بولده فلنحمد الله ما في الكون من رجل
إن الرجال الذين العرف عينهم هم الإناث وهم نفسي وهم أمني

وفي المقدمة التي تركزها الكاتبة للتعريف بابن عربي وزمانه وبيئته التاريخية تقدم أيضا مبرر الخوض في فكر ابن عربي حول الأنوثة وهو أن الأبحاث المتعلقة بفكر ابن عربي ، رغم الكثرة الظاهرة ، ما تزال في بداياتها ، وتضيف لتبرير التفاتها إلى موضوع الأنوثة عند ابن عربي أن الشيخ الأكبر وسلطان العارفين ، وهي من ألقاب ابن عربي ، صاغ منظومة فكرية حول الأنوثة مبنية ليس فقط على المعرفة الدينية والعقلية ولا على العقل ومبادئه المنطقية وحسب بل أيضا على أساس مركزية الحب في الفكر الصوفي وعده السبيل لمعرفة الوجود الحق.

وكي لا يبقى مفهوم الحب مجردا متعاليا تسارع الكاتبة إلى الإيضاح بالقول إن " الانجذاب والنكاح قاعدتان لإيجاد العالم ولظهور الموجودات " ويرتبطان مباشرة بالسر الأعظم ، سر انجذاب الرجل والمرأة لبعضهما. ثم إن الكاتبة وهي تؤول مركزية الحب في فكر ابن

ما يزال الجدل حول قضايا المرأة العربية المسلمة جار وسيستمر قويا طالما بقيت أسبابه ، وكالعادة يبرز التراث الفكري العربي الإسلامي مصدرا ملهما يستعان به لتأييد فكرة ما أو دحضها. اللجوء إلى التراث الفكري للاستعانة به في مواجهة تحديات العصر يعد إقرارا صريحا بأن العقلية العربية ما تزال في الأصل تراثية ، بل هي الوجه العملي المترجم لفعل التراث فيها. إدراك هذه الحال عند المفكرين والمهتمين بالشأن المعاصر لأوضاع المرأة العربية الإسلامية يقنعهم بنفع الاستعانة بالتراث لجلاء المواقف والأفكار ، لكن التراث الصوفي تحديدا لم يكن حاضرا على الدوام عند جل الكتاب لاستنطاقه والبناء على رؤاه ومقولاته ، وآية ذلك أنه ضرب من التراث الفكري عال وعميق عند قوم أو مربك ومحير عند قوم آخرين ، رغم أنه مثل غيره من ألوان التراث الفكري الإسلامي تخلق في سياقات متعرجة للتاريخ الإسلامي ودخل ولا يزال في سجل محترم حول جواز منهجه أو خلاصاته الفكرية مع من يروه مجافيا للصورة الفكرية المعتمدة لديهم. ويعد هذا الكتاب الذي نعرض الآن نموذجا لما يختزنه التراث الفكري الصوفي من رؤى إسلامية ترصد العلاقة بين الكون وخالقه وناسه ، ذكوره وإناثه.

أغلب النقاشات الدائرة حول المرأة في عالمنا العربي تحديدا تتمحور حول كفاءات استخلاص المرأة العربية من أسر التقاليد والتراث لتصفو لنفسها عقلا وجسدا حرا مستقل الوجود والإرادة. وتعد الصور الذاتية لكل من الرجل والمرأة المتشكلة في السياق التاريخي ، حوائط ذهنية منيعة عائقة للتجديد والتحرر. وهي صور مجتمعية في الخلاصة يمكن مراجعتها وتتبع جذورها وتصويب إطلاقاتها في الذهن المعاصر على ضوء قراءات جديدة للتراث عقلانية ومعاصرة.

والكتاب الذي بين أيدينا " الأنوثة في فكر ابن عربي " يشكل محاولة لاخترق بعض تلك الحوائط الذهنية برؤى صوفية فريدة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

يقدم الكتاب أفكارا مدهشة ومغايرة للمألوف التراثي السائد ، أفكارا تستحق أن نطلق عليها صفة الفريدة والغريبة معا ، فريدة لأنها لا تصادف إلا عند سلطان العارفين ابن عربي ، وغريبة لأنها غريبة عن عقولنا ومألوفات وجداننا ، ولكنها مع ذلك كما أسلفت أفكار عالية وعميقة بالنظر إلى بيئتها التاريخية وزمن تشكلها القديم في حياة ابن عربي الذي عاش بين القرنين السادس والسابع الهجريين من ٥٥٨-

الوجودي ، دون أن يقدح هذا في القيمة الإنسانية على المستوى البشري.

وفيما يلي عرض للمحاور السبعة التي يتألف منها الكتاب ، مع الإشارة إلى أننا سنتجاوز بعض المحاور الفرعية لإغراقها في النظر الفلسفي المحض أو لأنها لا تخدم الفكرة الأصل " الأنوثة " بالوضوح الضروري أو لأن الأفكار فيها مكررة عن السابق.

أولاً: الذكورة والأنوثة

بعد المقدمة العامة التي تلخص فيها الكاتبة رؤية ابن عربي للأنوثة والذكورة ، تستعرض الفكرة ثانية في المحور الأول من خلال عناوانات جانبية تعزز الفكرة الأصل ، وثانية تورد المؤلف أشعارا لابن عربي تظهر عمق الفكرة عنده وعشرته الطويلة معها ، وهي أبيات صادمة للعقلية التقليدية كما قلنا لوضوحها اللافت في تأكيدات البديهية للتناوب القائم بين الذكورة والأنوثة في الكائن الحي :

رأيت ذكورا في إناث سواجر تراءين لي ما بين سلع وحاجر
فخاطبت ذكرانا لأنني رأيتهم رجالا بكشف صادق متواتر
وكن إناثا قد حملن حقايقا من الروح إلقاء لسورة غافر

ورغم هذا التناوب بين الذكورة والأنوثة في الكائن الحي تورد المؤلف اقتباسا فيه " إن الذكورة والأنوثة ليست من خصائص النوع الإنساني " وهي فكرة تأسيسية تقوض قواعد المجتمعات التي أقامت نظلمها الذاتية على أساس التمييز بين الرجل والمرأة ، باعتبار الأنوثة والذكورة فيهما ، بينما الأنوثة والذكورة عند ابن عربي سمتان لا صلة لهما بحقائق الإنسانية لاشتراك جنس الحيوان في سمات الذكورة والأنوثة ، ومعنى هذا ، كما تبين المؤلف ، أن حيابة صفة الذكورة والأنوثة لا تكفي لولوج عالم الإنسان بحكم وجود الصفتين في الحيوان ، وهي من الصفات الطبيعية لا الإنسانية. أمام هذه الفكرة الجوهرية توضح الكاتبة أن تصورات الإنسان للأنوثة والذكورة هي التي تصنع الفرق وتخلق التراتب في المجتمع ، ومن خلال الإشارة إلى العلاقة بين الطبيعي والطبيعي وتصورات الإنسان تبرز المؤلف أثر العلاقة بين الطبيعي والثقافي ، وأنه يمكن مراجعة الثقافي للحصول على تصورات أكثر إنسانية حول الطبيعي الكامن فينا ، وفي هذا السياق يلهم القارئ إسقاطا ما للأفكار المعاصرة على رؤية ابن عربي من خلال الفكرة التي تلقي بوزر انكسار العلاقة بين الذكر والأنثى في السياق الثقافي العربي على الثقافي وإزاحة الطبيعي المؤهل لجبر العلاقة المنكسرة في التاريخ.

تلقت المؤلف في هذا السياق بعد ذلك إلى دور اللغة ودلالاتها في التأسيس لتصورات ذهنية عن الذكر والأنثى وتشير إلى ارتباط صفات الحدة والشدة والصعوبة بمعنى (الذكر) ، وصفات الليونة والسهولة بمعنى (الأنثى) ، وتصل إلى خلاصة مجبرة وهي " إن اللغة في رسمها لدلالات الذكورة والأنوثة تنطلق بدرجة أولى من الصفة وليست من الجسم في مادته " ولايضاح الفكرة تذكر الكاتبة أن تبادل السميات بين المرأة والرجل ستعيد تبادل الصفات أيضا فتكون صفات الذكورة ملحقة بالإنثى وصفات الإنثى ملحقة بالذكر على مستوى الصفات فقط وليس على مستوى الواقع ، ولذلك تتهم الكاتبة ما تسميه " الفكر العامي " بإحداث تطابق بين دلالات اللغة والاختلاف الجنسي وإنشاء تراتبية ظالمة على هذا الأساس. ثم تلقت إلى رأي الفلسفة في صفات الذكورة والأنوثة وتختصرها إلى كونه يرى في الذكورة دلالة على الفاعلية

عربي تشير إلى أن الاعتراف بالحب وبموقعه المركزي يعين على الاعتراف بالآخر وإبراز دوره الخلاق. والآخر المقصود هنا هو الآخر الجنسي رجلا كان أم امرأة ، ولا تخصيص للآخر ، لأن التخصيص قد ينطوي على تفضيل ما ، وهذا هو المدخل الذي تقدمه الكاتبة عن ابن عربي أرضية يعتمد عليها لعرض العلاقة بين الأنوثة والذكورة ، وهي ترى أن هذه الفكرة الأصل التي تقرر التنوع والتجاوب المتمثلين في إطار الأنا والآخر تقف نقيضة لما سمته " التفكير الأحادي " وأنماطه المعرفية ومنها الفلسفة وعلم الكلام والفقه. والمؤلفة تتهم هذه الأنماط الفكرية بتهميش دور التعدد والاختلاف وبناء تصورات تراتبية عمودية تحيل على أفضلية تنتهي إلى تمجيد صفات تدل في عمقها على الذكورة فقط ، كما ترى الكاتبة أن التعدد الكامن في فكر ابن عربي يتعارض جوهريا مع التفكير الأحادي المشار إليه ، وهذا التعارض ، كما تستخلص المؤلف ، هو سر العداء الذي يمارسه ممثلو الفكر الأحادي ضد ابن عربي وفكره واتهامه بالمخالفة للشرع.

تقلل الكاتبة من أوجه الخلاف الكثيرة بين ابن عربي وخصومه وترى أن الخصومة الشديدة لفكر ابن عربي تكمن في منح ابن عربي الأنوثة حضورا مركزيا مساويا للذكورة مسنودا ، إلى جانب الفكر الجوال ، بمبررات شرعية من الكتاب والسنة ، وتغامر المؤلف في استخلاص أن " خطاب ابن عربي في عمقه وشموليته إنما يعكس خطاب الأنوثة " وتمضي في التدليل على ذلك باقتباسات ومشاهدات قلبية رواها ابن عربي في كتبه وبشكل خاص في سفره العملاق " الفتوحات المكية " ، ويستغرق منها ذلك باقي المقدمة.

ويحسن أن نشير هنا إلى أن كلام المؤلف يتداخل بقوة مع كلام ابن عربي ، لدرجة أنه يمكن الحديث عن تأويلات المؤلف لتأويلات ابن عربي ، ومن ذلك قناعتها بأن ابن عربي يريد أن يقول " بأن الأنوثة مرآة الغيب وانعكاس لحقيقة الوجود ، لكنها ليست الأنوثة المتجسدة في المرأة بل الأنوثة الكامنة في الكون والموجودات واقتتران هذه الأنوثة بالحب ، وفي هذا الإطار لا تشكل المرأة سوى تجل واحد من تجليات الأنوثة في الكون ، ولبيان العلاقة بين الذكورة والأنوثة تستعرض المؤلف رؤية ابن عربي في " القطبية " ، وهي من المصطلحات المركزية المستخدمة في إيضاح الرؤية ، ويقدم مصطلح القطبية بوصفه الشارح للوجود الذي تشابك من خلاله الأنوثة بالذكورة ، وتقدم المؤلف بعد ذلك أدلة ابن عربي لشرح تشابك الأنوثة والذكورة في الكون ، أو القطبية ، وفي هذا السياق تعرض المؤلف لفكرة تأسيسية ذات صلة بروح المقالة الصوفية في وحدة الوجود ، وهي أن " الفكر التقليدي أو الأحادي " كما سمته أنشأ تباينا بين الخالق والمخلوق ، فخلق هذا التباين ثنائية ترتبت عليها ثنائيات أخرى منها الرجل والمرأة. وأبرز الأفكار المستعرضة لابن عربي من قبل المؤلف ، بل قل مدار جل الكتاب ، هي تأكيد إنسانية الإنسان بمعزل عن الذكورة والأنوثة ، وهي فكرة تكاد تكون عصرية الطعم والملاحم وخاصة حين تضيف المؤلف بأن الذكورة والأنوثة حقيقتان وجوديتان تميزان كل الكائنات ، وأن الإنسانية المشتركة بين الرجل والمرأة تجعلهما متكافئين ومتماثلين وهو ما يلغي الاختلاف بين الرجل والمرأة على المستوى الرمزي. لكن ابن عربي كما تعرض المؤلف وهو يثبت التكافؤ والتماثل بين المرأة والرجل على المستوى الإنساني يتحدث أيضا عن الشيء ونقيضه وحاجة هذه النقاظ لبعضها البعض على المستوى



يتم تأكيد ارتباط ثنائية الفاعل والمنفعل بالذكورة والأنوثة معا ، وهكذا يسقط المنطق التفاضلي ، وتلقي المؤلفة بوزر سيادة المنطق التفاضلي على اللغة تحديدا وبنائها وتحملها مسؤولية صياغة صور ذهنية لصالح الفاعل على حساب المنفعل أو المفعول به ، وتستعين المؤلفة لبيان ذلك بالأفكار الكبرى لابن عربي في علاقة الله بالعالم وفكرة وحدة الوجود لتقرير شراكة تقول أن ابن عربي يراها حاضرة دوما بين الفاعل والمنفعل أو المفعول به. وتبدأ باستعراض الفكرة الأصل ذات الصلة بإيجاد العالم كما يرسمها ابن عربي وهي أن إيجاد العالم ما كان ممكنا لولا استعداد العالم لقبول الانفعال ، وعند نقل هذه الفكرة لعالم الإنسان يصبح تصورهما أسهل بالنظر إلى التوالد بين البشر باعتباره ثمرة فعل مشترك واحد يقوم بين الفاعل الذكوري أو المنفعل الأنثوي (أو المفعول به) ، هذا الفعل المشترك يسقط الأفضليات ويؤسس للمساواة في مبدأي الفعل والانفعال على مستوى الكون وليس فقط على المستوى البشري ، "إذ الأنوثة "سارية في العالم وكانت في النساء أظهر".

وفي سياق إيضاح فكرة الأنوثة في الكون وإسقاط التفاضل بين الفاعل والمنفعل تعود الكاتبة إلى استعراض رأي لابن عربي يشبه فيه المرأة بالطبيعة من حيث استعدادها للانفعال والتأثر بالفاعل الذي هو الرجل الفاعل لخاصية الانفعال لأنه الفاعل أو ملقي الماء في الرحم لا غير. ثم تناقش الكاتبة بعد ذلك مبدأي الفعل والانفعال وعلاقتها بالحب واثرة الحب في صنع الاستعداد لدى الفاعل أو المفعول به ليشتركا في عمل يحوطه الحب بين المحبوب الذكر لتمتعه بقدرة التأثير والسلطة وتحكمه بقلب المحب (الأنثى) وبين المحب المنفعل الأنثى ، ذات القدرة على الاستقبال ، ومن ثم كما تعلق الكاتبة " تلثقي في المحب والمحبوب الفاعلية والانفعال " أو بكلمات ابن عربي " فقر كل واحد إلى الآخر فقر ذاتي ".

ولتأكيد فكرة الأنوثة في الكون تقدم الكاتبة مصطلح "النكاح الكوني المتجدد" ، وتضع عنوانا بارزا ، وهو ليس من مصطلحات ابن عربي ، لكنه يقع ضمن المعاني التي يؤكد بها مصطلحاته مثل " النكاح الغيبي أو نكاح المعاني والأرواح " وفكرة النكاح الكوني كما تعرض المؤلفة هي أن التوالج أو النكاح بأشكاله الحسية والمعنوية والإلهية سائر في الكون ويرى ابن عربي أن عمليات النكاح السارية هي إحدى العلوم الكونية الكبرى " وهو علم التوالد والتناسل وأصله من العلم الإلهي مثل كل علم آخر " ولذلك فإن مفردة النكاح عند ابن عربي ، كما تقيد المؤلفة ، تتجاوز الحسي إلى المجرد وتصير قاسما مشتركا بين أي ذات وآخر ، ويرتبط المفهوم عند ابن عربي بعالم الكليات المعقولة والحقائق الخفية كي يجد أصله في الوجود المطلق ، وعن هذا الوجود المطلق يصدر النكاح وتسري مبادئه في الكون فيكون التوالد في المعاني والأفكار والمحسوسات بفعل حركة تقوم بين موجودين ، وتتخذ مفردة "الحركة" في سياق التناكح والتوالد موقعا مركزيا ويتم استعمالها مصطلحا للإشارة إلى وقوع فعل بين فاعل ومنفعل ، وهي حركة ضرورية للإيجاد والتكوين ، فالذكر والأنثى لا ينتجان أصلا ما لم تقم بينهما حركة الجماع. وفي سياق استعراض الكاتبة لفكرة الحركة بين موجودين لإحداث التناسل في كل الكون بمعانيه ومحسوساته تورد أدلة ابن عربي الشرعية لإثبات رؤاه في الحركة (النكاح) والتوالد ، وهي حركة أو فعل يضاف إلى الفاعل والمنفعل لنقف أمام مصطلح ابن عربي الذي يسمي النكاح

وفي الأنوثة دلالة على الانفعال ، وأن هذه الثنائية الفلسفية تقوم على رسم حدود بين عالمين متمايزين ولكنهما متوازيين ، وفيما يخص الرجل والمرأة فإن تمايزهما لا يلغي توازيهما ، أي الاحتفاظ بقيمة إنسانية واحدة ولا يوجد مزيد فضل في الفاعل والمنفعل. ومع ذلك فإن الكاتبة تتهم الفلسفة والفقه معا لتأسيسهما بنى فوقية مغلقة تطبعها سيادة الفاعلية والذكورة ولا مجال فيها لحضور الأنوثة كطرف فاعل ، ثم تنتصر لرؤية ابن عربي التي تراها الكاتبة هدمت هذه الفكرة بتأكيدهما "عرضية الذكورة والأنوثة" ، وأنهما مجرد عرضيين لا علاقة لهما بالانتماء إلى الإنسانية ، لأن جوهر إنسانية الرجل والمرأة يكمن في تجاوزهما للحيواني وليس الخضوع لأحكامه ، وتخلص الكاتبة ، وهي تستدعي ثانية صفتي الفاعلية والانفعال إلى أن الذكورة والأنوثة الطبيعيتين إنما هما في الأصل كائنات فاعلة ومنفعله وترى أن كل الموجودات مركبة من وجهين ، وجه يؤثر ليتصف بالفاعلية والذكورة ووجه آخر يتلقى التأثير وينعت بالانفعال والأنوثة.. ورغم نقد الفكر الفلسفي القائم على الثنائية وعلى فكرة الفاعل والمنفعل في العلاقة بين الذكر والأنثى ، لكنها المؤلفة تعود في مساحات واسعة من الكتاب للتعامل مع هذين المصطلحين لأنهما من مصطلحات ابن عربي أيضا ، والإضافة التي تقدم بها المؤلفة ، وتحاول تأكيدها فلسفيا وعرفانيا ، هي في فكرة اشتراك الذكر والأنثى في الفاعلية والانفعال ، أي أن كلا من الرجل والمرأة لهما قابلية الفاعل والمنفعل ولا يقتصر الفعل فقط على الذكر ولا الانفعال على المرأة ، وهي تنسب هذه الأفكار لابن عربي دون عرض اقتباسات محددة واضحة ، لكنها تشير إلى لغته الرمزية التي تسمح بالتأويل ، وإلى استخدامه مفردات القهر واللطف والغضب والرضا للإشارة إلى مبدأ عام كلي مشترك بين الرجل والمرأة.

ولبناء فكرة المعنى المزدوج للأنوثة والذكورة يتم التمييز بين الحاجة الغريزية والرغبة ، والكاتبة إذ تميل إلى جعل الحديث عاما مطلقا فإن التصورات في النهاية تنصب على العلاقة بين الرجل والمرأة ، وتخلص إلى أن الشهوة حاجة غريزية وإتيانها مع أنثى دون رغبة يجردها من الروح ويجعلها حيوانية ، وتعرف الرغبة في هذا السياق بأنها "الوعي بالحاجة وبالآخر" وتتخذ العلاقة بين الذكر والأنثى شكلا آخر عميقا حين يكون الآخر حاضرا في الرغبة وهو الغائب في الحاجة الغريزية ، وتواصل الكاتبة التمييز بالإشارة إلى أن الرغبة تمر بالحب والمعرفة بالآخر فيصير العلم والحب حدين يميزان بين الطبيعي والإنساني في الكائن البشري بفضلها يتحقق الانجذاب بين إنسان وآخر.

وفي سياق تحديد هوية الذكورة والأنوثة في الكون تتم نسبة خاصية الفاعلية للذكورة فيما تنسب خاصية الانفعال للأنوثة ، وفي سياق تحديد فعل ما بين فاعل ومنفعل تستعرض الكاتبة مقولات ابن عربي التي توضح صلة الله بالعالم وتستعرض بتفصيل فكرة أن كل شيء في الوجود زوجان ، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة "ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين" ، وفي سياق علاقة الله بالكون تبرز المؤلفة رأي ابن عربي الذاهب إلى أن الحق تعالى هو الفاعل والعالم منفعل فيه لأنه محل ظهور الانفعال ، وفي استخدامات ابن عربي لفكرة الفاعل والمنفعل كما ترد في التراث الفلسفي تعيد الكاتبة إلى الأذهان رفض ابن عربي للفصل بين طرف يملك القدرة على الفعل والتأثير وآخر يغلب عليه الانفعال ، لأن هذا الفصل قاد إلى منطق تفاضلي لصالح الفاعل (الذكر) على حساب المنفعل (الأنثى) ، وبدلا من ذلك

عربي وهي في معظمها تنكئ على الآية الكريمة التي تقرر أن الله خلق الناس من نفس واحدة وأن معنى نفس هنا يشتمل على " جملة الشيء وحقيقته " ومن جهة أخرى تبين المؤلف أن الاختلافات المشاهدة بين البشر إنما هي اختلافات تمس الأحوال لا " العين " وهي تنشأ بحكم قابلية الإنسان للمعرفة واختلاف حظوظ البشر منها وتعرض المؤلف للعلاقة بين المعرفة ومقام العبودية وتقرر إن ابن عربي يرى أن مقام العبودية الحق هو معرفة الإنسان لنفسه وطبيعة ذاته ومعرفة الإنسان تعني معرفة الإنسان لربه " من عرف نفسه عرف ربه " كما جاء في قول صوفي.

ولدعم فكرة اشتراك الإنسان رجلا كان أم امرأة في معنى الذكورة والأنوثة تعرض المؤلف لعلاقة آدم بحواء من وجهة نظر الصوفية المستندة إلى الفكر الفلسفي ، وتناقش فكرة صدور المتعدد عن الواحد ، وأن التعدد الإنساني صدر عن " نفس واحدة هو آدم " الجامع بين صفتي الفاعلية والانفعال والحامل لصورتَي الذكورة والأنوثة من خلال كونه ذكرا أخرج أنثى من ضلعه الأيسر . لكن وعي آدم بذكوريته لم يتحقق إلا من خلال مخالفته للأمر الإلهي بعدم الاقتراب من الشجرة فبالأكل من تلك الشجرة انكشفت ذكورة آدم أمام أنوثة حواء وتوارى تماثلها أمام الغيرة المكتشفة وتولدت الرغبة ، لكن المؤلف تعرض لرأي ابن عربي الذي يرى في مخالفة آدم للأمر الإلهي تحقيقا لمشية إلهية ، فاقترضى المقام الانتقال من نعيم اللاوعي إلى حال الانتهاء إلى الوجود . فالأكل من الشجرة شكل بداية وعي بالغيرة والذكورة ، مع ذلك تلمس المؤلف شتات أفكار لابن عربي لتربط بين درجة الوعي وفكرة " الإنسان الكامل " ومقام الزوجية ، وفكرة الإنسان الكامل هي إحدى الرؤى الكبرى الأساسية لابن عربي وتقوم ، كما تعرضها المؤلف هنا ، على وعي الإنسان بصورتَيه الحقيقيتين المركبتين من الانفعال والفاعلية ، أي من بعدي الذكورة والأنوثة ، وأما الرجل فعليه أن يستبطن أنوثته كما استبطنها آدم من قبل ، وتختتم المؤلف هذه النقطة باقتباس فيه " إن الكمال يتحقق في النساء في أفضل حالاته لأنهن محل التكوين وفي فعل التكوين تكون الفاعلية والانفعال ، وهو شرط الكمال الإنساني العاكس لحقائق الوجود .

وفي سياق عرض دور المرأة تحديدا في حفظها للتكوين أو الولادة " الخلف على الأرض " تستعرض المؤلف استخلاص ابن عربي من قصة خلق حواء من ضلع أعوج في آدم ، وهو استخلاص مغاير للمألوف بشأن قصة الضلع الأعوج ، فالضلع الأعوج يرى فيه ابن عربي رمزية " الحنو " وحين يحنو الإنسان فإنه ينعطف قليلا على المحبوب للتعبير عن ذلك ، أو ليعطيه حنانا وحباً ، فاعوجاج المرأة كما يرى ابن عربي هو عين استقامتها لما فيه من رمزية الحنو والحب ومن تأكيد انفعالها وميلها الذاتي للقبول . وللتدليل على أن اعوجاج المرأة هو أصل استقامتها يستشهد باستدارة رحم المرأة وإحاطته لها بدخله وحفظه الحياة إلى أن تستقيم النشأة ، لكن هذا الحنو المادي لا يكتمل إلا بحنو معنوي أو روحي أساسه الحب الصادر عن وجه الأنوثة في كل إنسان .. ثم إن قدرة المرأة على حفظ الخليفة أو الخلق إنما هو في الأصل حفظ إلهي للعالم يتم عبر المرأة جسديا وعبر الحب والحنو الذي تختزنه الأنوثة معنويا .

تنتقل المؤلف بعد ذلك لمناقشة موضوع جديد يتصل بعلاقة المريد بربه ، أو بالطريق الصوفي إلى الله ، وتضع لذلك عنوانا جانبيا

" بالتثليث " ، لأنه يعطي الحركة الرابطة بين فاعل ومنفعل حضورا خاصا في الكون كله ، لأنها شرط الإيجاد والتكوين ، إذ لا يكون عن الاثنين شيء مالم يكن ثالثا بينهما (الحركة = الجماع) ، وفيما يتعلق بفعل النكاح الكوني تورد الكاتبة عن ابن عربي " أن المعاني تنكح الأجسام نكاحا غيبيا ومعنويا ، فيحدث التناسل في المعاني والأحكام " . وقد تنازلت المؤلفة عن إيراد أمثلة أوردها ابن عربي في " الفتوحات المكية " لتأكيد فكرة النكاح الكوني ، وهي مثال الرياح اللواقح ، ونكاح المطر للأرض ، وما ينتج عن الرياح والمطر ليس سوى ثمار تناكح بين الموجودات .

ولا يترك ابن عربي فكرة النكاح الغيبي بعيدة عن فكرة العبودية لله ، لذلك تعرض الكاتبة أيضا لهذه العلاقة وتذكر أن النكاح يفتح " خزائن العلم بأسرار الغيوب " ولا تتحقق للقطب أو لغيره من العارفين عبودية أكثر مما تتحقق له في النكاح ، فالنكاح يتيح الوعي بالغيرية وفي حضرته يذوب الفرق بين المرأة والرجل ليعودا إلى وحدتهما الأصلية المتمثلة في النفس الواحدة ، ويدركان أن سبب انشطار وحدتهما يكمن في النكاح كما هو حال اتصالهما ، وعلى هذا الأساس يعرف النكاح سر كل موجود ويبين أن كينونة الإنسان والأشياء تقوم على نكاح باطني مستمر متجدد بين أنوثة وذكورة .

ثم تعرض الكاتبة رأي ابن عربي في الشهوة والجماع ، وهو رأي يغاير على الأقل آراء الغزالي في إحباطه حين تحدث عن شهوة البطن والفرج وأنها آفتان ينبغي الاقتصار فيهما على ما يسد الجوع ويحفظ النسل فقط ، لكن ابن عربي يربط بين النكاح والعبودية ويرى أن العارفين والأقطاب منهم خاصة يتصفون بكثرة النكاح وبالرغبة فيه وبحب النساء وأنهم بذلك يوفون الطبيعة حقها وهم لا يفعلون ذلك لمجرد النسل بل طلبا للشهوة واللذة ثم إن نكاح العارف هذا له مقام يشبه نكاح " أهل الجنة القائم على الشهوة والالتذاز ، وهو التجلي الأعظم " ولتأكيد هذه المعاني يتم الاستشهاد بسيرة الرسول الأعظم ﷺ في حبه النساء .

وفي محاولة من المؤلف لعرض فكرة اشتراك الموجودات في الذكورة والأنوثة تعرض لرأي ابن عربي حول علاقة الجو بالأرض أو حول الليل والنهار وأن أحدهما يولج في الآخر حسب منطق الآية الكريمة " يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل " وأن كلا منهما يصير تارة أما وتارة أبا ، لكن الفكرة بقيت غير مقنعة ضمن الأمثلة الموردة بالنسبة للإنسان رغم جمال وصف العلاقة وأن كل فعل في الكون إنما يعد عناقا بين ذكورة وأنوثة يحصل بعدها صباة وحنين مخلصا عاشقين من كرب الشوق .

ثانياً: الإنسان

في هذا المحور تستعرض المؤلف مفهوم الإنسان ، وتذكر بأن مفهوم الإنسان بشموليته للذكر والأنثى ، يتجاوز الاختلاف الطبيعي للذكورة والأنوثة لأنهما يشكلان وحدة لا تفاضل يمسيها في جوهرها وأصلها .

وتذكر المؤلف أن مفهوم الإنسانية عند ابن عربي مؤسس على القيم والمعايير والقواعد السلوكية والروحية ، وهي واحدة في النوعين ولا زيادة فيها ولا نقصان ، هذه القيم والمعايير هي التي تزيح الفرق بين المرأة والرجل وبين الأسود والأبيض والغني والفقير فالإنسانية تكافئ بعضها في الموجودات وتجعلهم يساؤون بعضهم وإن اختلف كل رجل وامرأة بحكم أو مزية خاصة ، فالرجل والمرأة وجهان لوحدة اسمها الإنسان . بعد ذلك تقدم المؤلف شروحا لأصول هذه النظرة عند ابن



بالعالم الأسفل ورأى تعشق العالم الأعلى به ، وشهد نفسه في كل حال ووقت ووارد منكوحا دائما ، ولا يبصر لنفسه في كشفه الصوري وحاله ذكرا ولا أنه رجل أصلا بل أنوثه محضة ، ويحمل من ذلك النكاح ويلد ، وحينئذ يجوز له أخذ الرفق من النساء ولا يضره الميل إليهن وحبهن " وفي هذا تأكيد تصدر صفات الربوبية وبمقتضاها يطالب الإنسان بالتخلي عن العلو إن أراد طريقا سهلا إلى الله ، لأن الإنسان بعدم تخليه عن صفات الذكورة فيه ينافس الرب في صفاته كما يرى ابن عربي . وتواصل المؤلفه عرض أفكار غريبة فريدة لمن أراد تحقيق الشهوة وأن شرطها هو أن يستخرج المريد من ذاته الذكورية أنوثه كاملة كتلك التي تعرفها النساء ويسبرن غورها ، ويستعد بعد لقبول الحركة الذكورية كأثني تحمل وتضع ، وهو شرط صحة الانفعال بالفاعلية السماوية ، وتورد قولاً للحلاج يستشهد به ابن عربي لدعم هذه الفكرة هو " أنا عروس الحضرة " وقولاً للبسطامي فيه " أولياء الحق هم عرائسه المحبوبون تحت حجاب غبرته ، ولابن عربي قول فيه " أولياء الله هم ضنائن الله وعرائسه ". وبهذا التصوير لمعنى الأنوثة يطلب من المريد التحرر من كل صفات الفاعلية الذكورية ليصبح محلاً قابلاً للوارد الإلهي ، وفي هذا السياق تكون الذات الإنسانية بما فيها من أوصاف تأنيث هي المخاطبة وهي المطلوبة بأبعادها الأنثوية في الطريق إلى الله .

ثالثاً: الرجولة والأنوثة مقامان روحيان

تناقش المؤلفه في هذا المحور رؤى ابن عربي حول طرق التقرب إلى الله من قبل العباد السالكين في مدارج التصوف ، ويرد مصطلح الرجولة في هذا السياق بوصفه صفة عامة يمكن للرجل والمرأة التخلق بها ، فالرجولة كما تصف المؤلفه مجرد حالة من أحوال البشر يجتمع فيها الرجال والنساء ، وهي تعلن عن نفسها في السلوك الإرادي المتمركز حول الأنا وفي المعرفة التي تعني تحكم العقل في الإنسان ، وتحكم العقل في الإنسان يعني تحول الإنسان من الحياة الطبيعية الأولى إلى حال جديد "روحي في عمقه" وتقنيس نصا لابن عربي فيه أن خروج الإنسان من ظلمة طبعه وهواه إلى نور عقله وهدهار أربعين صباحا هو الذي يحقق معنى الرجولة (أو معنى الاقتدار) فإن لم يقدر الإنسان على هذا اختفت صفة الرجولة وغاب كمالها عن الإنسان رجلا كان أم امرأة . وارتباط الرجولة (في الذكر والأنثى) بالمقام الروحي أت من الرغبة في السعي إلى الله على أساس الإرادة والتصميم وعلى أساس التوكل والتخلي عن الإرادة بالخضوع ، ولما كان مثل هذا السعي فيه قصد وإرادة وبالمحصلة (فاعلية) متصلة بصفة الرجولة فإن القادر على قهر ذلك يحول الرجولة إلى مقام روحي للقرب من الله يستوي في ذلك الرجال والنساء . لذلك يكون واهما من يعتقد أنه رجل في أحوال المشاهدة ، لكن الإنسان يحقق كمال الرجولة بقهر الأنا والتحول إلى منفعل أثنوي بفاعلية الله نفسه ، وهكذا تسمو الرجولة والأنوثة معا ويصيران مقامان روحيان في مضمار السعي إلى الله والقرب منه .

رابعا: النساء شقائق الرجال

تعرض الكاتبة في هذا المحور آراء ابن عربي ورؤاه حول فكرة انتفاء الفروق بين الرجل والمرأة . واصل الفكرة يقوم على أساس أن الإنسان يتكون من وحدة انشقت إلى نصفين وظهر منها الرجل والمرأة شقيقتين متماثلتين ، وتدلل على ذلك باستحضار الأصل اللغوي الذي يفهم منه أن الشق هو النصف من كل شيء ، ورغم الفصل بين النصفين فإن هذا لا يلغي كونهما شقيقتين وهو منطوق الحديث أعلاه "

"التواضع العرفاني (أو تأنيث الطريق الصوفي ") ، وتصدر هذا الموضوع بأبيات شعرية تستنفر الذهن كسابقاتها من الأبيات وهي :
الناس أولاد حواء سواي أنا فإني ولد للوالد الذكر
إن الأنوثة في نعت الرجال لذا تراهم يحملون العلم في الصور
فيصبجون حبالى حاملين به حمل السحاب لها فيها من المطر

يتحدث ابن عربي كثيرا عن التواضع ، لكن المؤلفه هنا تعتمد أفكارا لابن عربي لتربط بين ما تسميه "التواضع العرفاني" أو تأنيث للطريق الصوفي " وبين الوصول إلى الله . وفي الأبيات السابقة تأكيد جديد لأنوثة الرجال وأنهم يحملون ويحبون . وفي العلاقة بين الله والإنسان ، رغم تأكيد الصوفية بأن الله خلق الإنسان على صورته ، يتم إبراز الإنسان (بصيغته الذكورية الحاضرة في درب المتصوفة) بوصفه محلاً للانفعال لأن الفاعلية في هذا السياق ، سياق الوصول لله ، له وحده ، وله وحده الصفات الذكورية " أو صفات الربوبية " بمصطلح ابن عربي مقابل " صفات العبودية " ، وفي هذا الصدد تستعمل المؤلفه اصطلاح " الذكورة الإلهية " من عندها ، لكن معانيه قائمة في أفكار ابن عربي التي تذهب إلى أن أفضل طريق للتقرب من الله هو أن تقترب إليه بما ليس له من صفات الربوبية ، ولأن صفات الربوبية أغلبها صفات ذكورية ، أي وقوعها في دائرة الفاعلية ، فإن في استبقاء الإنسان (الذكر) لهذه الصفات في علاقته بالله تعثير للطريق الصوفي ، ولا بد لذلك من إفراغ الذات البشرية من صفات الفاعلية والذكورة وحب الذكر لتتحول إلى انفعال خالص بالله يكشف عنه الحب نظرا لقدرته على تطهير القلب إلى أن يصير مرآة تتلقى الوارد الإلهي ، وهذا هو المقصود بتأنيث الطريق الصوفي . لكن اصطلاح "الذكورة الإلهية" التي صاغته المؤلفه من وحي كلام ابن عربي ، وإفراطها في تقريب المصطلح على أساس بشري محض ، ربما شط بعيدا عن مألوف التراث السائد وأسلم إلى تصورات حسية تجرح جلال الرب وعظمته كما تجرح فكرة تقدر الله وعدم مشابهيته للخلأق وأنه "واحد صمد" و ليس كمثله شيء " ، ولو بقيت الكاتبة مع مصطلحات ابن عربي " الصفات الربوبية " و "الصفات العبودية" ، لكان ذلك لها أولى ، فالرب عال والعباد دون ذلك ، ويحذر ابن عربي من الرغبة في العلو ويطالب الأولياء البقاء قريبا من الأرض التي نشؤا منها فهي أهمهم " ومن تكبر على أمه فقد عققها وعقوق الوالدين حرام "

ورغم التشديد على المساواة في الإنسانية وفي الطبيعة من جهة الذكورة والأنوثة ، إلا أن المؤلفه هنا تعرض لصفات الربوبية بوصفها صفات ذكورية لها العلو ، وتورد المؤلفه مصطلح " الزوجية الكونية " وأن الله سبحانه وهو يخلق من كل زوجين اثنين قد جعل للذكور مرتبة العلو وللأنوثة مرتبة السفلى ، ولا تعلق المؤلفه على هذه الفكرة الحسية التي ربما جرحت فكرة المماثلة والمساواة ، لكنها تمضي مع ابن عربي في تحذير الإنسان من اتخاذ العلو طريقا في علاقته بالله ، فحين يختار الإنسان العلو فإنه يتغرب عن أصله ويتبعد عن ركن من الأركان المكونة له وهو التراب .. ولا تعلق المؤلفه على هذه الفكرة وإن كانت ذات صلة بالذكورة والأنوثة في المحيط الإنساني ، بل تستمر في عرض آراء تبرز القيمة الواحدة وأن لا أثر للاختلاف الطبيعي على القيمة الواحدة ، ومع ذلك فلا مناص من إسقاط الفكرة على الإنسان ، يتضح ذلك في سياق إيضاح المقصود من تأنيث الطريق الصوفي أو التواضع العرفاني حين تورد المؤلفه اقتباسا غريبا فيه " فلا ينبغي للمريد أن يأخذ رفقا من النساء حتى يرجع هو في نفسه امرأة ، فإذا تأنت والتحق



الثقافية السائدة. ثم تبدأ المؤلفة في شرح آراء ابن عربي في بعض الأصول وتقنيده لها وما هو الأصل والفرع فيها وتكشف عن رؤية متكاملة لابن عربي في الأصول غاية في الانسجام والعقلانية ، وتخلص إلى آراء ذات صلة بالنقاشات المعاصرة حول المرأة حين تقرر إن الفقهاء ميزوا بين الرجل والمرأة وفصلوا بين عالين هو البيت المخصص للإنجاب والعاطفة ومسرح الحياة المخصص للمصالح والحروب ، ثم ألصقوا قسرا هذا التقسيم بالدين ليجعلوه مرجعية تمنحهم المشروعية اللازمة للسيادة.

وفي سياق تأكيد قطبية الوجود الإنساني أو تلازم وجود المرأة والرجل في المعنى الإنساني والاجتماعي تناقش الكاتبة موضوع جواز إمامة المرأة في الصلاة وغيرها من عدمه ، وهي مناقشات أثيرت في السنوات الأخيرة بعد أن أمت امرأة جمعا من المصلين رجالا ونساء في أحد مساجد أمريكا ، وبهذا الصدد تعرض المؤلفة رأي ابن عربي المجيز لإمامة المرأة لأنه لا يوجد نص في كتاب أو سنة يمنع ذلك إعمالا لقاعدة أن ما سكت عنه الشرع فهو مباح أصلا ، وتستعرض المؤلفة في عرض مواقف جمهور الفقهاء من بعض الأوامر النبوية مثل " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " وكيف يحاول الرجال تحكيم غيرتهم وأنانيتهم وترجيح رغباتهم من ثم على شرع الله ، وأنهم لو حكموا سلطان العقل وسلطان الإيمان ما غاروا ولا وجدوا حرجا فيما يأمر به الشرع ، وفي السياق نفسه تعرض المؤلفة للأحاديث المتصلة بكفاءة المرأة ومنها " لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " وكيف يدحض ابن عربي صحة هذا الحديث مستعينا بأحاديث أخرى تؤكد تماثل المرأة والرجل ومنها " النساء شقائق الرجال " وابن عربي يتكئ على هذا الحديث ، مسنودا بمنطق عقلي متماسك ، ليرد به على المنتقسين من قدر المرأة وقيمتها .

المرأة ليست عورة:

تلقت الكاتبة بعد ذلك إلى موضوع عورة المرأة ، وتخصص لذلك عنوانا ، وتعد قضية عورة المرأة من القضايا المركزية في الفقه الإسلامي وعنها خرجت وما تزال تخرج قوائم المحظورات إلى اليوم ، ولابن عربي فيها رأي مميز فريد. تصدر الكاتبة عرضها لرأي ابن عربي في موضوع " المرأة والعورة " بنقد للتراث الفقهي السائد ، وترى أن مؤسسيه وحماته المعاصرين قاموا بتفسير الخطاب الإلهي من موقع " مركزية الذكورة وسلطتها " ونظروا إلى جسد المرأة بوصفه عورة يجب ستره كي لا يفتن الرجال ، وهي ترى في قائمة المنوعات والمحظورات المرتبطة بالمرأة سببا في ضعف الأخلاق لدى الرجال ، لأن هذه المحظورات تعفيهم من فضيلة التعفف وتقر للوجه الحيواني في الإنسان بحضور طاغ ينبغي تعجيله من خلال المنوعات الملقاة على المرأة ، وفي هذا كما تخلص الكاتبة استغلال للشرع وظلم للمرأة. ثم تنقل عن ابن عربي رأيه في أن حجاب المرأة ليس أصلا من أصول الدين ولو كان كذلك لها أمرت المرأة بالسفور في الإحرام ، وفي سياق دعم هذه الحجة تبرز المؤلفة أصلا من أصول الفقه المعتمدة عند ابن عربي ، وهي أن أحكام الله سبحانه على ضربين: الأول ، وهو الأصل ما نزل من عند الله ابتداء بآمر إلهي أصلي ، والثاني ما نزل متعلقا بأسباب بشرية وكان مطلوبا لبعض عباد الله. والضرب الأول يرتبط بالآيات المحكمات وهن الأصل وأم الكتاب والتي تخترق معانيها الزمان والمكان ، أما الضرب الثاني فهن المتشابهات التي تعلق نزولها بأسباب بشرية وتقتضي رؤية في الفهم وإعمالا للتأويل فيها.

النساء شقائق الرجال " ، وتصل الكاتبة إلى بيت القصيد حين تربط بين اشتراك المرأة والرجل في أصل واحد ولزوم اشتراكهما من ثم في الأحكام المترتبة على هذا الفصل وهكذا يلغى التمييز بين المرأة والرجل كما يلغى بين الشقيقتين. ولإعطاء هذه الفكرة القوة اللازمة تستعرض المؤلفة تخريجات ابن عربي اللغوية وتطوعها لصالح فكرة علو مقام الأنوثة لاشتراك اسم (الذات الإلهية) المؤنثة مع النساء ، ولأن الذات الإلهية هي أعلى مراتب الوجود ، ولأن النساء يشتركن لغويا في هذا التأنيث فإن للتأنيث رتبة شرف عليا ، فإطلاق صفة التأنيث على الذات الإلهية هو الذي يعطي للتأنيث هذا الشرف كما تنقل المؤلفة عن ابن عربي وتضيف إن رتبة شرف التأنيث هذه إنما جعلت لجبر قلب المرأة الذي يكسره من لا علم له من الرجال بالأمر ، ومع أن مصطلح "الذات الإلهية" المستخدم في التراث الصوفي لا يجد له أصلا في القرآن والسنة ، ولا قبولاً في التراث التقليدي الإسلامي الغالب حيث ترتبط الذكورة بالله ، وباسمه المباشر وباقي أسمائه الحسنى التي لا يوجد فيها اسم واحد دال على التأنيث ، إلا أن المؤلفة تسترسل مع ابن عربي في استخدام اصطلاح الذات الإلهية بوصفه معطى أصليا عند الصوفية ، تخرج عنه تلك الأفكار حول مرتبة الأنوثة كالتى مرت ، وتزيد المؤلفة على ذلك بالإشارة إلى أن ابن عربي له تصور متكامل لموقع التأنيث في اللغة يصب لصالح التشديد على القيمة المتساوية بين الرجل والمرأة وعلى حضور تناعم باطني بين الفاعلية والانفعال وعلى تماثل بين المرأة والرجل ، وأن ابن عربي يستمد حججه لدعم هذا التصور كالعادة من قراءات مميزة لنصوص الكتاب والسنة.

أصول الشريعة في الفقه الأكبري

بعد الغوص في مجاهل فكر ابن عربي وشعابه الفلسفية المجردة ، وبعد الكشف عن مصادر أنواره الفكرية وآفاق تأويلاته وبعد رسم حدود رؤاه في موضوع الأنوثة في الكون تبدأ الكاتبة ضمن المحور الرابع الذي نحن بصدد عرضه استعراض مواقف ابن عربي من أصول الشريعة ومن قضايا مثارة مشهورة في الفقه الإسلامي الغالب. وابتداء من هذا العنوان الفرعي في إطار المحور الرابع ، ينطوي جل القسم الفلسفي المجرد الذي يصور الأنوثة والذكورة في الكون وتداخل الصور وتبادل المواقع بين الرجل والمرأة ، وتبدأ المؤلفة بعرض أفكار ابن عربي في مسائل شرعية مألوفة في التراث الفقهي ومنها أصول الشريعة التي أنتجت في سياقات تاريخية طويلة وأخذت توجه مسار الأحكام الشرعية بعدئذ ، وكى تتغير الأحكام يستلزم تغيير الأصل الذي تقوم عليه أو إعادة تعريفه ، وهذا بالضبط ما حاوله ابن عربي كما تبين المؤلفة ، فابن عربي يعارض السائد من الأصول المعتمدة لدى الفقهاء وتشير المؤلفة إلى أن أصل الخلاف ، بل النقمة على ما تسميه "الفقه الأكبري" يعود إلى اعتماد رؤيتين متناقضتين للكون والإنسان عند كل من ابن عربي وعلماء الأصول الأوائل. فرغم اشتراك العلماء جميعا في محاولة الوصول إلى المعاني الحقيقية للشريعة ، إلا أن اتجاهات كل طرف شيدت على أساس تصور خاص للوجود والكون والإنسان ، وفيما يخص الإنسان وموقع الذكورة والأنوثة فيه أو موقع المرأة فيه تحديدا ، فإن ابن عربي يبني تصوره الفقهي على أساس قطبية الوجود في الكون ، أي الثنائية المتماثلة لكل من الرجل والمرأة ، فيما بنيت نظرة فقهاء الأصول على مركزية الذكورة وسيادة الرجل ، وتذكر المؤلفة أن بساطة هذا التصور والتفسير للعلاقة المجتمعية القائمة هو الذي مكن من سيطرة هذه القراءة على ذهن العامة ضمن الشروط



النساء يترجم في دعوى دنس أجسادهن رغم افتقارها إلى أساس ديني ، وترى المؤلفة أن هناك إصراراً على جعل العلامات الطبيعية في الأنثى مرادفة للشهوة الحيوانية وجعلها مبرراً لإتقال المرأة بالمحظورات وحرمانها حتى من صوتها ، وتختتم بأن وحدة الإنسان لا يفككها الاختلاف الطبيعي بعلامات الذكورة والأنوثة فالإنسان يبقى الأصل بقطبيه وتبقى الأنوثة والذكورة رمزين يسريان في كل الموجودات .

خامساً أحكام الذكورة:

الدرجة الفاصلة بين الرجل والمرأة

في هذا المحور المعنون " بأحكام الذكورة " تناقش الكاتبة موضوعات مثل تعقل الذكورة لذاتها وقيومية الذكورة والدرجة الفاصلة بين الرجل والمرأة ، ونرى أن موضوع الدرجة الفاصلة هو ما يستحق العرض هنا لاتصاله المباشر بالتراث الفقهي ، وبالأفكار المثارة قبل قليل ، بينما يغلب النظر التأويلي الفلسفي على باقي الموضوعات .

في موضوع " الدرجة الفاصلة بين المرأة والرجل " ، تناقش الكاتبة أفكاراً لابن عربي وحصيلتها النهائية لا تتفق مع ما صورته المؤلفة في الصفحات السابقة ، ثمة انكسار بارز يظهر في الصورة العامة التي حاولت المؤلفة رسمها في الكتاب ، فرغم التشديد الواضح على فكرة النفس الواحدة وعلى التماثل بين الرجل والمرأة وعلى وحدة الإنسانية الطاغية على علامات الذكورة والأنوثة ، تضطر الكاتبة إلى التصريح برأي ابن عربي الذي يقرر أن للرجال على النساء درجة نزولاً عند حكم الآية " وللرجال عليهن درجة " ويجتهد ابن عربي ، كما تعرض المؤلفة ، في تقديم فهم لمعنى هذه الدرجة ، وتتم الإشارة إلى أن الله سبحانه خلق آدم ابتداءً وبالتالي فإن الرجل تقدم المرأة في الوجود ، وهذه الدرجة هي درجة زمنية لكنها معرفية في الأصل اكتشف فيها الرجل أنه وفاعليته واختلافه عن المرأة ، وهو اختلاف كما تؤكد الكاتبة نفسها لا يكسر التماثل بينهما ويفضي ، بكلمات ابن عربي ، إلى كون المرأة لا تماثل الرجل أبداً ، ثم تنقل عن ابن عربي كلاماً يخالف الصورة التي رسمتها المؤلفة سابقاً حول المماثلة والمساواة مستعينة برؤاه ، فابن عربي يقول إن المرأة لا تماثل الرجل أبداً وليست له بكفو لأن المنفعل ليس كفواً لفاعله ، فكما أن العالم " منفعل عن الله فما هو كفو لله وحواء منفعله عن آدم فله عليها درجة الفاعلية " وتهمل المؤلفة هذا الإيضاح المتصل بانفعال العالم عن الله وعدم كفاءة العالم للمنفعلة عنه ، وبقاء الدرجة الفاصلة في علاقة الفاعل بالمنفعلة لأن هذا الإيضاح يهدم بناء المؤلفة ولا يترك سبيلاً لإعادة تعريف المماثلة والمساواة ، لأن تبعات هذه الدرجة سينسحب على مجالات كثر لا تريد المؤلفة التطرق إليها ، والخلاصة أنه يبرز درجة الاختلاف حداً فاصلاً بين المرأة والرجل تتعطل المثلية بينهما وتباين رتبتهما الأنا والآخر .

وكي لا ينكسر السياق العام عبر هذه الدرجة الفاصلة وكي لا يسقط البناء الذي شيدته الكاتبة بأفكار ابن عربي ورؤاه وتأويلاته حتى الآن ، يتم اللجوء إلى تفسير يربط الدرجة الزائدة بالحركة ، وهي الفعل الرابط بين الموجودات أي الرابط بين الفاعلية والانفعال ، وهو أن هذه الحركة لا تتعلق بالأعيان والحقائق بل تلحق المراتب وتفرق بين النسب والعلاقات من دون أن تنتج تقاضاً بين البشر ، وتحاول المؤلفة جبر الكسر الحاصل عبر الدرجة الفاصلة ، كما بينت ابتداءً ، بالمقولات العامة لابن عربي حول الأسماء الإلهية وتجلياتها في الكون وأن لا مفاضلة بينهما ، لتخلص إلى أن ابن عربي لا يرى في الأفضليات زيادة أحد على أحد ، وهي هنا تعمم هذا القول ولا تستثنيه بأقوال

تعرض الكاتبة بعد ذلك لأية الحجاب (سورة الأحزاب ، آية ٥٩) وتقول إنها نزلت ضمن شروط تاريخية لم تعد قائمة ، لكن الكاتبة لا تذكر الأسباب البشرية المتعلقة بنزول هذه الآية كما ترد عند جمهرة المفسرين وهي إيذاء فساق المدينة للنساء في الطرقات وانزعاج المؤمنين من ذلك وشكواهم للرسول ﷺ حتى نزلت آية الحجاب حلاً لموضوع الإيذاء ، وهذا الظرف التاريخي المتجاوز بعدئذ هو ما تستحضره المؤلفة لتشير إلى انقسام مجتمع النساء قديماً إلى إماء وحرائر مسنوداً بتصورات ثقافية متباينة ارتئي معها تمييز النساء الحرائر عن الإماء ، وهي حال اختفت في السياق التاريخي ، ثم تعرض الكاتبة لرأي ابن عربي الذي لا يفرق بين امرأة حرة وأخرى أمة مثلما لا يفرق بين رجل وامرأة ، لأنه يعتبر الاختلاف الطبيعي (بين المرأة والرجل) بدهي ولا يقدر في معنى الإنسانية ، فالناس سواء ، الحرائر والإماء والرجال والنساء . وكالعادة تتخذ المفردات عند ابن عربي بعداً فلسفياً قابلاً للتأويل ضمن رؤية وحدة الوجود ومنها مفردة " الوجه " ، إذ تعرض المؤلفة تأويلات ابن عربي لمعنى الوجه وعلاقته بربه وتصل بعد طواف في شعاب التأويلات الأكبرية إلى أن الوجه هو البرزخ بين الباطن والظاهر في الإنسان وأنه الجهة العظمى ، وعبره يتجلى الغيب ويطل المخبوء من خلاله ، والوجه عند ابن عربي معرض للأسرار الباطنية و امرأة تعكس الخفي وعبره تتجلى صورة الجمال .

أما سر فتنة وجه المرأة كما يراها ابن عربي فيمكن في أن ستر المرأة لجسدها وتعريه وجهها يصيرها مجرد أنثى تنطق بها وعبرها الشهوة وتصرخ أنوثتها الطبيعية فيتعطل وجه الإنسانية في الإنسان ويبقى الحيواني فيه بارزاً من خلال علاقة خاصة تقوم بين الوجه والفرج ، فالفرج كما يرى ابن عربي ليس سوى الباطن المتجلي في الوجه ، بل إن الوجه هو الجهة العظمى الحامل لعلامات العورة ، والعورة عند ابن عربي تحيل على السر الإلهي ، وهي لغويا الميل ومآتاه انفصال الأنثى عن الرجل في قصة آدم ثم حصول خواء في الإنسان يملأه عبر الميل للأنثى ، لكن هذا الميل نوعان: ميل إرادي عام للمعرفة وآخر شهواني باتجاه المرأة . بعد هذه التأويلات المدهشة التي تقدمها المؤلفة لابن عربي تعود لتقول إن ابن عربي لا يرى في المرأة عورة ، وليس في المرأة عورة سوى السوءتين وهو الحكم الإلهي الأول للعورة مستمداً من الآية " وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة " ، وهذه الآية تسوي بين آدم وحواء وأن عورتها واحدة وهي السوءتان ، وهكذا يستوي جسد المرأة مع جسد الرجل ، لكن المؤلفة تغفل باقي رأي ابن عربي فيما يخص الستر ، فهو وإن حدد عورة المرأة بأنها السوءتين فقط ، إلا أنه يقرر أيضاً أن مذهبه هو أن تستر المرأة باقي جسدها باستثناء الوجه والكفين لأن ذلك حكم مشروع ، لكنه يشدد أيضاً على أن ما يستر لا يستر لكونه عورة ، بل لأنه من الشبهات ، وينبغي أن يتقى لأن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا القول يورده ابن عربي في شأن عورة الرجل مما يلي السرة والركبة ولا بأس من إلحاقه بالنساء أيضاً . والمهم في هذا السياق أن ابن عربي يفرق بين حكم الشرع وحكم المجتمع لكنه لا يهمل حكم المجتمع ، إلا أن المؤلفة أهملته تجنباً فيما يبدو لجرح الفكرة الأصل التي تريد إبرازها بمعزل عن الاجتماعي والثقافي وهو أن لا عورة في المرأة سوى السوءتين شأنها شأن الرجل ، ولذلك تستخلص الكاتبة لنفسها رأياً في اللباس وترى أنه وسيلة تعبيرية مليئة بالرمزية والدلالات الاجتماعية المتشابهة لكنها في المحصلة ، كما تضيف الكاتبة ، تنطق بعداء حيال

التفاضل ، لكن علامات الذكر والأنثى أو الاختلاف الطبيعي يظهر في هذا المقام ثانية حيث تستعرض الكاتبة مصطلح " الغربية " كما يستعمله ابن عربي في سياق يدesh بعدم اختلافه عن الاستخدام المعاصر لمصطلح " الاغتراب ". يربط ابن عربي بين بلوغ الكمال وبين التشبه بالأصل فيما يخص الرجل والغربة فيما يتعلق بالمرأة ، فالرجل في سيره نحو الكمال يحقق الفاعلية والعلو والسيادة ويفصح عن نفسه بفعل لا يغرب الإنسان (الرجل) عن موطنه ، بينما المرأة ، إذ تحاول التخلق بكمال الرجولة تكتسب صفات ذكورية مثل الجبروت والشدة والغلظة ، وهي صفات تغربها عن ذاتها وأنوثتها ، وابن عربي بهذا القول القديم يقدم مرجعية للنقد المعاصر لمحاولات النساء التشبه بالرجال ، فهو تقريبا نفس القول لكنه آت من المؤسسة الدينية التقليدية التي تضيق بابن عربي ورواه ، لكن الاتفاق في هذا المقام واضح بين الفريقين ، فابن عربي يقول بوضوح إنه " متى حاد الإنسان عن توجه استعداده الذاتي وانتقل إلى مقام لا يلائمه ، فإنه يتغرب عن ذاته " وبشكل أوضح يتصل بالمرأة ، تقرر الكاتبة اعتمادا على تفسير ابن عربي لآية " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " " أنه حين تسلك المرأة النهج الرجولي فإنها تفقد الطريق إلى ذاتها وتعجز عن منافسة الرجل في موطنه " فللرجل كما يؤكد ابن عربي رتبة شرف عند ربه بجعل المذكر " رجالا " كما في الآية " شاملا للذكر والأنثى وهي إنما تلحق باسم الرجل إلحاقا . ومع يقين ابن عربي بقدرة المرأة على حياة ما يحوزه الرجل كما فعلت مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون إلا أن هذا النجاح يقيها مع ذلك تابعة للرجل لأنه ميدانه وهو صاحب السبق فيه ، كما أن قدرة المرأة هذه يقابلها تغرب المرأة عن أنوثتها لأنها تضطر للتخلق بأخلاق الذكورة .

سر قوة المرأة

في سياق عرض فكرة جديدة تتعلق " بسر قوة المرأة " ، يقدم ابن عربي كما تعرض الكاتبة تعريفا للقوة يغيّر المألوف الحسي في النظر إلى القوة باعتبارها " صلابة بدنية وعنف واقتدار على الغلبة ". هذا الفهم المألوف للقوة يحجب النظر إلى قوة أخرى تتسامى وترمز وتشكل قوة أمضى من القوة المرتبطة بالعضلات ، وهذه القوة هي قوة " الجذب " أو قوة المطلوب ، وهي قوة تتمثل في كون المرأة مطلوبة للرجل وكونها مطلوبة يمنحها قوة لا يقدر أشد الرجال على مقاومتها . يقول ابن عربي تدليلا على هذه الفكرة " الناكح طالب والطالب مفتقر والمنكوح مطلوب والمطلوب له عزة الافتقار إليه والشهوة غالبية ". قوة المرأة إذن تكمن في القابلية والانفعال ومما تحمله من قدرة على الخلق والإيجاد ، فالمرأة توقظ في الرجل الانجذاب إليها وتثير فيه الرغبة والحب فيعرف باطنه في حينه وافتقاره إليها وهو يخال نفسه القوي الشديد ويدفعه عشقه للانحناء أمامها وفي ذلك قوتها التي لا تقارع .

وفي قراءة مدهشة لمفهوم الضعف والقوة من خلال أنصبة الميراث يرى ابن عربي أن قوة المرأة تتجلى أيضا في تخصيص ميراثها بنصف ميراث الرجل ، فهذا التقسيم غير المتكافئ يستدرك ضعفا في الرجل مقابل قوة المرأة فيوهب ضعفها ليستوي في القوة معها ، فعجز الرجل عن الحمل والإنجاب يجعله ضعيفا أمام المرأة التي تجلب بقوة خالصة لأنها تحمل التكوين في ذاتها كخاصية جوهرية تنطوي على سر الوجود .

واضحة فاصلة لابن عربي حول الدرجة الفاصلة التي لا يمكن للمرأة من خلالها أن تماثل الرجل وبالتالي فإن الدرجة هنا زيادة فضل لا تلغيه الأقوال العامة ، لكن المؤلفة وحفاظا على السياق العام للفكرة الأصل تعود لطرح تخريجات ذكية لتؤكد انتفاء التفاضل ، بالقول إن الاختلاف لا يؤدي إلى تفاضل بين الموجودات بقدر ما يحدث تعددا ضروريا لحفظ الوجود عبر الانجذاب المتبادل الحاصل في الموجودات وعبر التناغم في الحب بين المرأة والرجل . وتستمر المؤلفة في محاولاتها تأويل الدرجة الفاصلة ونفي فضلها عن الرجل ، ومع الإقرار بأن مآتي الدرجة هو فاعلية الرجل ، إلا أنه يتم تهوين درجة الفاعلية بالإشارة إلى أن الفاعلية صادرة عن عناصر الطبيعة ، وهذا الصدور عن الطبيعة ينزع عن الرجل كما تقول المؤلفة هذه الدرجة لتضاف للطبيعة أو للعالم ، والعالم أفضل من الإنسان لأنه عنه تولد كما يقول ابن عربي ، ومع أن ابن عربي هنا يصور العلاقة بين العالم والإنسان (ذكرنا وامرأة) ، وليس في معرض تحرير فكرة الدرجة التي بينها وفصلها وأثبتها للرجل ، إلا أن المؤلفة تخلص إلى أن الرجل يفقد درجته أمام الطبيعة ، وهي بهذا تريد إسقاط فكرة الدرجة الذكورية مقابل الانفعال الأنثوي بها ، لكن أفكارها هنا لا تقوى على الإقناع بل تتسم عند هذه النقطة بالغموض والتداخل المخل خاصة حين تعود ثانية لتستشهد بكلام ابن عربي المؤكد للدرجة الفاصلة وأنها تظل تصحب الذكورة على الأنوثة ويصير بمقتضاها حتى للابن درجة على أمه رغم أنها ولدته .

الباب السادس: الجمع والفرق بين المرأة والرجل

تستعرض المؤلفة في هذا الباب جملة أفكار منها فكرة الكمال بين الرجال والنساء ، وتستمر في تأكيد وحدة الإنسانية ومترتبات ذلك من جهة الأحكام والقيم ، وفيما يخص الكمال فإنه يتم ابتداء التصريح بأن الرجال والنساء يشتركون في بلوغه وإن قل عدد النساء ، والكمال عند ابن عربي كما تورد المؤلفة هو " اللحاق بالدرجة العليا وهو التشبه بالأصل " ، ويقصد بالدرجة العليا المعنى الرمزي للعلو ، وهو يخص الذكورة ويرتبط بالفاعلية ، كما أن معنى التشبه بالأصل سيكون له متعلقاته حين الحديث عن ميادين الكمال لكل من المرأة والرجل . في هذا الإطار يتم ثانية تأكيد الدرجة الفاصلة بين الرجال والنساء ، وتأكيد قدرة النساء أيضا على إدراك الكمال الذكوري ، ويلاحظ هنا ارتباط الكمال بالفاعلية والذكورية ، وأن النساء يستطعن بلوغه ببعض التدريبات والطاعات كما هو الحال مع مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون اللتين شهد لهما الرسول محمد ﷺ بالكمال .

وتستمر الكاتبة في عرض مفهوم الكمال وعلاقته بالرجل والمرأة وتصل إلى أن أفضل كمالات المرأة هو لحوقها بربها عبر معرفة نفسها وليس بالضرورة إدراك الكمال الذكوري وإزاحة درجة التفاضل ، إذ المقصود بالكمال هو الفاعلية والتأثير وهو مقام للذكورة ، ولا تنقص قيمة المرأة إن هي تركت التخلق بأخلاق الرجولة والتفتت إلى كمالاتها الخاص بها ، وهذا يعني التفريق بين كمال وكمال حسب الجنس ، وهو ما يعني أيضا الإقرار بوجود مجالين متميزين ، ومثل هذا الإقرار يخدش الصورة التي اجتهدت الكاتبة في رسمها حول التماثل والمساواة ، وإن بقيت وحدة الإنسانية قائمة ، لكن فكرة الافتراق بين مجالي المرأة والرجل تزداد وضوحا في سياق الحديث عن مفهوم الكمال لكل من الرجل والمرأة ، وهو ما يعني أيضا ، رغم انكسار بناء الكاتبة العام ، نزاهتها العامة في عرض آراء ابن عربي رغم محاولات التهوين من درجة



خلاصة

تختتم المؤلف كتابها بخلاصة تستعرض فيها مصادر ابن عربي الفكرية والمؤثرات الشخصية والاجتماعية الأخرى التي مكنته من تقديم تلك الأفكار بالعمق والشمول ، وترى أن صوفيته وانكشاف حجب الغيب عنه جعله يبصر الحقائق الكونية عارية كما هي بالإضافة إلى شخصيته المنفتحة على الأنساق الفكرية التي سبقتها ، وترتيبه الأولى في المجتمع الأندلسي المتعدد الثقافات والألوان ، ورحلاته في الشرق والغرب ، ثم ، وهو المهم ، مركزية الحب عند ابن عربي ، فهذه المركزية هي القاعدة التي شيد عليها ابن عربي رؤاه وفلسفته.

وفي الخلاصة تناقش الكاتبة ما يناقش عادة في الكتابات المعاصرة المتعلقة بخطاب المرأة و بالأنوع الاجتماعي. والسؤال المطروح الذي أفاضت المؤلف في الإجابة عليه اتصل بصفات الرحمة المتصلة بالأنوثة و صفات الغلظة والجبروت المتصلة بالذكورة ، ثم بعلاقة هذه الصفات بالكائن الإنسان ، أهي فيه بفعل الطبيعة أم بفعل الثقافة المجتمعية ؟ والسؤال عن الثقافي والطبيعي في المرأة قديم ، ومن ضمن من طرحه في الخمسينات من القرن الماضي العقاد في كتابه القيم " المرأة في القرآن " ، لكن إجابة المؤلف على السؤال ليست بعيدة عن مألوف الكتابات المتعلقة بالأنوع الاجتماعي حيث تحمل السياقات التاريخية والاجتماعية وزر إقصاء المرأة عن المبادئ التي ارتادها الرجل ومن ثم مسؤولية خلق الصفات الأنثوية والذكورية و مطابقتها فطريا مع الكائن الإنسان. ودفاعا عن الأنوثة تعرج الكاتبة على نتائج أبحاث علمية لتأكيد الحضور المركزي للأنوثة في الإنسان ، وكانت في غنى عن ذلك بعد مرافعة فكرية وفلسفية طويلة لصالح الأنوثة والمرأة ، فقد أشبهت بنوسلها بعض نتائج العلم الحديث رواد " الإعجاز العلمي في القرآن " فكثير من التأويل والتكلف والتحل هو الغالب على هذه الاستعارات العلمية ، إذ العلم متغير لا يقر له قرار وفيه أدلة لكل مريد ومؤول لهذا الغرض أو ذاك ، كما أن التاريخ الإنساني (المتهم) لا نهاية له ولا وصاية لأحد عليه ، ولا يمكن وقفه على تصوراتنا الحاضرة ، وفي الخلاصة تكرر الكاتبة أيضا علاقة الإنسانية بالمعرفة والوعي ، وبالعلاقة أسماء الله بالموجودات وتعدد صورها وتناغمها وانسجامها الذي لا يقبل فكرة إقصاء الآخر ، وتختتم بكلمات رقيقة أليفة داعية إلى طرح العداء والتنافر حين تقول " نحن الصورة إلى أختها وهي تتعشق نفسها فيصير الاختلاف سبيلا للانجذاب والحب والوئام."

تعليق ختامي

بعد الكتاب إضافة مهمة إلى المكتبة العربية ، لاسيما وهو يعتمد الفكر الصوفي أساسا لكشف موقع الأنوثة في الكون ، ولا شك أنه صادم مستنفر للمستغرق في التراث التقليدي ، لكن التعايش مع أفكار الكتاب تفتح آفاقا رحبة في الوجدان والنفس لتفهم الأنوثة في إطار إنساني وكوني يعكس إيجابا على العلاقة الإنسانية المباشرة بين الرجل والمرأة ، والكتاب مع ذلك ليس سهل التناول وفيه عورة في كثير من شعبه ، وهو شأن كل فكر عال ونفيس يعتمد المجرى ويخوض في تأويلات فكرية و يقيم أنساقا معرفية بين الموجودات ، لذلك ، ولفهم موضوع الأنوثة الكونية ، يحتاج قارئه إلى صبر ومطولة للتغلب على الغموض الفلسفي المرافق لبعض الأفكار وصلتها من ثم بالشرع الإسلامي كما ينتجه عقل صوفي بقامة عقل ابن عربي.

وفيها يتعلق بشهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد فليس في هذا ما يشي بضعف المرأة من خلال ذاكرتها ، فالمؤلفة تستعرض كلام ابن عربي وتفسيره لعله وجود امرأتين للشهادة مقابل شهادة رجل واحد ، وهي النسيان ، لكنه لا يرى أن المرأة تنسى بل تحترق وهذا هو معنى الآية " إن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى " والضللال هنا ليس النسيان الكامل بل الجزئي أي أنها مجرد حيرة فقط ، فإن كان النسيان هو علة إقامة امرأتين أمام رجل في الشهادة ، فإن النسيان صفة أصيلة يثبتها القرآن للرجل وليس للمرأة ، ثم تستعرض الآيات الدالة على النسيان ومنها نسيان آدم " ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما " أو " نسوا الله فنسيهم " ، أما المرأة فلم توصف إلا بالحيرة وليس بالنسيان وإن احتارت إحداها فإن الأخرى تذكرها بالتفاصيل كاملة ، أي أن هناك واحدة لا تضل فتذكر ، وهي صفة من صفات الألوهية ميزت بها المرأة استنادا إلى الآية ٥٢ من سورة طه " لا يضل ربي ولا ينسى " ، وطبقا لابن عربي فإن الرجل مجبول على النسيان أما المرأة فإنها فقط تضل أو تحترق لأنها لا تنسى الشهادة كلها ، فإذا أضفنا إلى كون شهادة المرأة فقط هي المعتمدة في موضوعات خاصة محددة رأينا ، وهذا ما تستخلصه الكاتبة ، أن فكرة شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل قابلة للتأويل والاجتهاد ضمن أفق إنساني وإلهي عام.

ومن خلال رؤية ابن عربي المدعمة بالكلام الإلهي ، يتضح كما تورد الكاتبة ، أن الأنوثة قوة خالصة لأنها تجل للحقيقة الباطنية وتتجلى هذه الحقيقة عبر الحب الذي يرفع صاحبه إلى مقام القرب الإلهي.

سابعاً: حب النساء إرث نبوي

تمت الإشارة في غير موضع من الكتاب إلى أن الحب في الفكر الصوفي مفهوم مركزي وهو طريق للمعرفة والقرب الإلهي ، بل هو أصل الوجود وأساس حفظه ، وحينما يحب الرجل المرأة بالحب الذي وهبه الله له يصير حب المرأة في هذا المقام تخلقا إلهيا وإرثا معنويا ، ومن هنا يفهم معنى الحديث " حبيب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة " وكلمة حبيب تعني أن الله هو مانح هبة الحب فيصير حب المرأة مرتبطا بحب الله ومرتبطا بالتخلق الإلهي أيضا ، ثم إن حب النساء يحقق الكمال البشري ، إذ يمكن المحب من رؤية صورته الباطنية وحقيقته الغيبية متجلية في المرأة من حيث هي هو في رتبة الانفعال.

وزيادة في إبراز العلاقة بين الحب ومقام الألوهية تذكر الكاتبة أن الحب يحول المحب إلى عين ترى الحق في كل شيء ويصير الآخر امرأة أو مظهرًا للحضرة الإلهية ، كما تحل المرأة في موقع امرأة للذات وتجمع بين الانفعال والفاعلية فتعبر المرأة عن الوجود في كليته ولا تكشف أسرارها إلا عبر النكاح حيث تتم أعظم مشاهدة لأنه في رأي ابن عربي ليس هناك " أعظم وصلة من النكاح " لأن النكاح مقام برزخي يجمع الأنثى والذكر والمنفعل بالفاعل وعبره تنتفي الغيرية ويصير الإنسان كما كان قبل الانفصال نفسا واحدة وإنسانا كاملا. ومن عرف سر النساء لم يزهّد في حبه بل إنه من كمال العارف حبه فإن ميراث نبوي.



مشروع القرش

كان الطربوش هو أحد الرموز للشخصية الوطنية للمصريين قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، فكان من الغريب قبل الحرب العالمية الثانية استيراده من الخارج وخاصةً من النمسا، لذا فقد نادى أحد طلبة كلية الحقوق ويدعى "أحمد حسين" - وهو مؤسس جمعية مصر الفتاة فيما بعد - سنة ١٩٣٢ بأن يدفع كل مصري قرش صاغ للمساهمة في بناء أول مصنع لصناعة الطرابيش، وقد وجد نداه صدى هائل وخلال سنتين جمعت الهيئة المشرفة أكثر من ٣٥ ألف جنيه أنشئ بها المصنع الذي ظل ينتجها حتى منتصف الخمسينات.



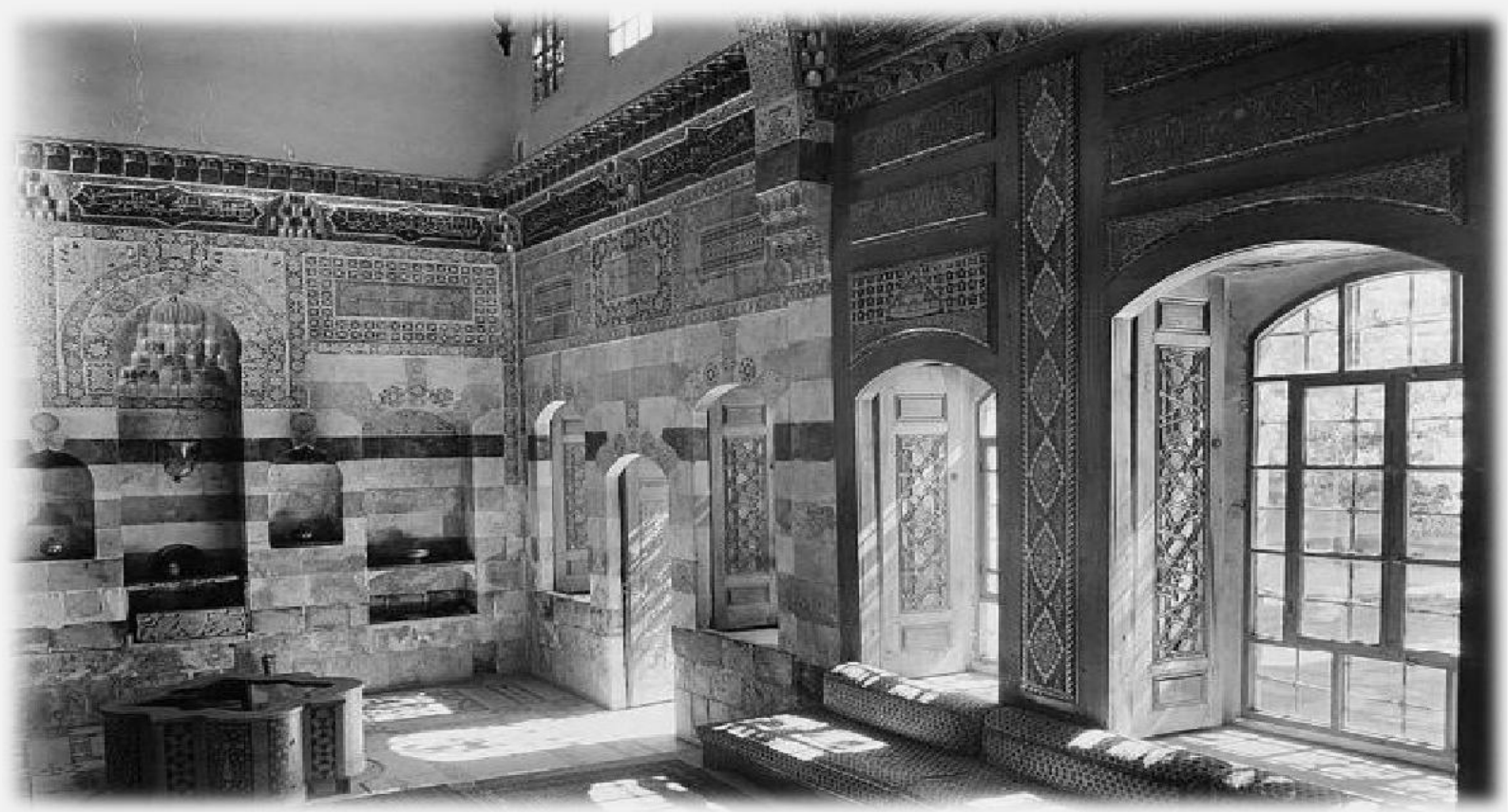
صورة الملك فاروق وهو صغير بلباس الكشافة المصرية ويظهر الطربوش على رأسه

ولا ريب أن الكاتبة تتمتع بعقل فلسفي جامع جوال تمكنت معه من تقديم رؤية متكاملة عن الأنوثة في فكر ابن عربي، لكن لا بد من القول إنها لم تسلم من تغليب السياقات المعاصرة لخطاب المرأة على سياقات ابن عربي التاريخية، فصيرتها جزءاً من خطاب المرأة المعاصر، أي أن نفس الانتقائية والنفعية المباشرة كان غالباً على القراءة العلمية، وتكفي الإشارة هنا إلى مثالين وردا في سياق الحديث عن عورة المرأة، وعن الدرجة الفاصلة بين الرجل والمرأة. لكن ما يحدد للمؤلفة ابتعادها عن استعلاء المجتمع وذكره خاصة، وتغليب لغة معاصرة عاقلة باحثة عن إعادة صياغة العلاقة المجتمعية في أفق إنساني مشترك، وهو السياق الفكري الواضح عند ابن عربي، وهو سياق يقوم على الحب والانجذاب والتناغم وليس على التنافر والعداء بين الرجل والمرأة كما كان الغالب في كثير من طروحات خطاب المرأة وقد خفت والحمد لله. والحق أن الكاتبة لا تلتفت إلى هذه الجزئية تحديداً، فأخر كلماتها في الخلاصة تدعو إلى الوحدة والحب وليس إلى التنافر والعداء، لكنها تنهم بوضوح مقولات الفقه التقليدي وحماته بخلق ثنائيات وتعميقها ضمن تعريف للصفات والأفضليات وإسقاطها على الرجل والمرأة كما مر معنا.

ولعل ما يستحق التنويه هو قدرة المؤلفة على استخلاص رؤية متكاملة حول الأنوثة في الكون ونسبتها لابن عربي، وهذا هو مدار القدر والمدح معاً، أما القدر فبسبب إهمال السياق التاريخي والمجتمعي لابن عربي وفرز أفكاره وتطويع سياقاته الفكرية لصالح خطاب المرأة المعاصر، وأما المدح فلقدرتها الفائقة على فعل ذلك وللملمة شتات الأفكار المبعثرة في سفر الفتوحات المكية وفي الفصوص وديوان ابن عربي وفرزها لتؤلف من كل ذلك رؤية للأنوثة تنسبها لابن عربي من خلال اقتراح محاور بجزئيات فكرية ملحقه بها من إبداعها الفكري.

وبغض النظر، أخيراً، عن مساحات الالتقاء أو الإفتراق مع أفكار الكاتبة ورؤى ابن عربي وتأويلاته كما تعرضها المؤلفة، فإن ما في هذا الكتاب من جهد عملي وفكري يستحق القراءة وتستحق عليه الكاتبة الشكر والثناء، ولعله يفتح نافذة عقلية ينظر من خلالها إلى نفائس الفكر الصوفي القادرة على طرق آفاق اجتماعية جديدة تستوعب، من خلال مركزية الحب، طموحات التطور والمعاصرة.

ولعل الإيمان بمركزية الحب كما يطرحها الفكر الصوفي متلازماً مع مبدأ الرحمة المبعثت بإسراف حميد في ثنانيا التأملات الصوفية يتأزران لصياغة ذهنية اجتماعية رقيقة ناعمة تحل محل الحالية المليئة بالقسوة والتكبر وتسهم من ثم في تحرير الرجال قبل النساء من أسر تلك المفردات التراثية الكابحة للتطور والمعاصرة والمتغربة بكبر وجهل عن روح الإسلام المتدفق إنسانية وعدلاً.



الفكر المعماري العربي "جذوره وأبعاده"



د. بديع العابد

معماري استشاري

ناشط رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم

عمان - المملكة الأردنية الهاشمية

badi@go.com.jo

المصدر: مجلة الأثرية العربية

■ الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بديع العابد ، الفكر المعماري العربي: جذوره وأبعاده.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ١٢٦ - ١٤٥.

(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

والإجابة على هذا السؤال ذات شقين ، وذلك لأن التاريخ العربي مر بمرحلتين حضاريتين وهما: مرحلة ما قبل الإسلام والمرحلة الإسلامية. أما مرحلة ما قبل الإسلام فتتضمن أيضا مرحلتين حضاريتين^(٣): الأولى ، مرحلة العروبة غير الصريحة ، واللغة العربية غير الصريحة ، والثانية مرحلة ظهور العروبة الصريحة واللغة العربية الصريحة أو لغة القرآن الكريم. أما مرحلة العروبة غير الصريحة فتحتاج لدراستها لعلمي الآثار واللغات وذلك عن طريق التنقيب وتحديد هوية الأثر ، وأصحاب الأثر ومعتقداتهم ، ثم إلى الحفاظ والترميم والعرض والنشر ، وهذه الدراسة ليست معنية بهذه المرحلة ، وذلك لأن فكر المدرسة الأثرية العربية لم يتشكل إلا في مرحلة العروبة الصريحة ، ولكننا سنعرض لبعض من انجازاتها المعمارية التي وصلت البنا موثقة في الشعر الجاهلي في مرحلة العروبة الصريحة ، وربما يجدر بنا الإشارة إلى أن كثيرا من الدراسات الأثرية قد كرست لدراسة مرحلة العروبة غير الصريحة^(٤).

أما مرحلة العروبة الصريحة فهي التي أفرزت لنا أسس علم الآثار وقواعده وأسلوبه وأهدافه ، والدراسة التي نحن بصدها ستكرس لعرض هذه المرحلة وتحليل انجازاتها. ويجب علينا هنا أن نعي حقيقة واضحة وهي التمييز بين بداية ونشأة كل من الحضارة العربية والمدرسة الأثرية العربية ، فالحضارة العربية قديمة قدم التاريخ العربي^(٥) ، في حين أن المدرسة الأثرية ابتدأت مع بداية مرحلة العروبة الصريحة وظهور الشعر الجاهلي ، وذلك بالرغم من وجود كتابات ثمودية ولحيانية ودادية ومعينية ونبطية ومسندية^(٦) وعربية^(٧) ، في شمال غرب الجزيرة العربية (الحجر ، العلا ، تيماء ، والبتراء) ، وفي اليمن بجنوب الجزيرة العربية ، وبالرغم أيضا من وجود نقوش وكتابات مسمارية وبابية وكلدانية وأشورية وآرامية وسريانية وكنعانية على الآثار السامية في العراق وسوريا وفلسطين. وذلك لأن الاهتمام بهذه الكتابات لم يأت إلا متأخرا بعد ظهور الاسلام (وبعد أن تشكلت وتكونت مفاهيم وعناصر وأسلوب المدرسة الأثرية العربية قبل ظهور الاسلام) ، كما هو الحال في محاولات الهمداني والمسعودي والجاحظ وابن النديم والبغدادي وغيرهم ، والتي سنعرض لهم لاحقا في هذه الدراسة ، أما الإجابة على الشق الثاني من السؤال ، فهو أن علم الآثار لا يصلح لدراسة المرحلة الحضارية العربية الإسلامية للأسباب الآتية :

١- أن المرحلة الحضارية العربية الإسلامية بجميع ظواهرها الحضارية مؤرخة وموثقة كتابيا.

٢- أن الاسلام جاء في سنواته الأولى بفكر كامل ، وأن جميع الظواهر الحضارية لهذه المرحلة ، بما فيها الظاهرة الحضارية المعمارية كانت نتيجة لافرازات هذا الفكر وليس العكس.

٣- أن المرحلة الحضارية العربية الإسلامية مرحلة متواصلة ، منتشرة في المكان ومستمرة في الزمان ، بدأت ونمت وتطورت ضمن لغة الاسلام وفكره وفلسفته ، وكانت وما زالت وستبقى قادرة على تحريك وشحن فكر ظواهرها الحضارية ، وبالذات الظاهرة المعمارية التي نحن بصدها في هذه الدراسة.

وحرى بنا قبل أن ننهي الإجابة على السؤال المطروح أن ننوه بنقطة تبدو على جانب كبير من الأهمية وهي ، ارتباط علم الآثار بفلسفة التاريخ العربي^(٨) ، والعربي الاسلامي ، خاصة وأن الفكر

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالمدرسة الأثرية العربية ، وذلك بتوضيح نشأتها وأهدافها ، وعناصر فكرها وأسلوبها وطرق تفسيرها ، كما ورد في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، ثم نعرض لآراء ولمساهمة العلماء المسلمين في تشكيل فكر هذه المدرسة وتكوينه. وتتطرق الدراسة بعد ذلك لدورها في تسجيل المنجزات الحضارية العربية وتوثيقها وتفسيرها في العصر الجاهلي وعلى وجه الخصوص المنجزات المعمارية. وتمتد هذه الدراسة على ثلاثة أجزاء : الأول ، سيكرس للعصر الجاهلي وهو موضوعنا في هذه الورقة ويغطي الفترة الزمنية المبتدأة بنشأة الشعر الجاهلي إلى ظهور الاسلام ، وسيكرس الجزء الثاني ، لدراسة الفكر الأثري بالقرآن الكريم ، أما الجزء الثالث ، فسيكرس لدراسة انجازات العلماء المسلمين الأثرية من جغرافيين ومؤرخين ورحالة ، وسيعني الجزء ان الأول والثاني بأسس وقواعد علم الآثار ومنهجه التفسيري والفكري ، أما الجزء الثالث ، فسيعني بتطبيقات علم الآثار ومنجزاته وتطوره.

الفكر الأثري

ينبغي علينا في بادئ الأمر تعريف علم الآثار ، لكي يتسنى لنا التعرف على فكر المدرسة الأثرية العربية. فعلم الآثار^(١) هو : الدراسة العلمية للظواهر الحضارية للشعوب الغابرة (الحضارات المنقرضة) ، وذلك للوقوف على تاريخ هذه الشعوب والتعرف على طرق معيشتها وتقنياتها وتفاعلها مع البيئة ، ومن هنا كانت دراسة الآثار تشمل جميع أسباب الحياة اليومية للحضارات المنقرضة ، وما خلقته من منشآت معمارية كالمساكن والهياكل ومواد البناء وتقنيته ، إضافة إلى المنشآت المدنية كالسدود ، والمنشآت العسكرية كالحصون والقلاع. كما تشمل الفنون من نحت وتصوير ، وصناعة الحلي وأدوات الزينة والثياب ، وطرق نسجها وتلوينها وتزيينها ، وكذلك الصناعات اليدوية ، كأدوات الطعام ، والأدوات الحربية ، وينضوي تحتها أيضا دراسة اللغات القديمة ، لها لها من دور توثيقي من ناحية ، ولكونها معبرة عن تفكير أصحابها من ناحية أخرى ، وربما كانت دراسة الحضارات المنقرضة من خلال اللغة ، أقوى دلالة في التعرف على انجازاتها الحضارية من استقصاء بقايا العمران واستنطاقها ، وذلك لأن الهدف من الاستنطاق والاستقراء هو التوثيق باللغة في نهاية الأمر. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فالمدرسة الأثرية ، تتشكل من علمين متلازمين^(٢) هما : (١) علم الآثار ، (٢) علم اللغات

ويبدو أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر - على الأقل في المرحلة السابقة لانفراد اللغة بالتوثيق بالكامل - كما يبدو أنه من الصعب الفصل بين العلمين فهما يكملان بعضهما بعضا ، فعلم الآثار ، كما أسلفنا ، يهتم بالأشياء والأشكال المادية ، وعلم اللغات يهتم بالنصوص والنقوش والكتابات ، التي تسهم بدورها وتيسر وتساعد على فهم المباني الأثرية ، وتقدم المعلومات عن كثير من الأعمال والأشياء التي لم يبق لها أثر مادي. وسنعرض لدور اللغة عند كلامنا عن الاستقصاء الأثري والتفسير العلمي ، كما سنعرض للعلاقة بين هذين العلمين لاحقا في هذه الدراسة ، وذلك بعد أن نجيب على تساؤل ملح من شأنه أن يوضح أمامنا منهاج هذه الدراسة ، والسؤال هو: هل يصلح علم الآثار بأسلوبه وأهدافه لدراسة الحضارة العربية والعربية الإسلامية ؟

على الجنة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا
يتضح لنا أن محاولة تبع لم تقتصر على تأكيد المفهومين
السابقين (التوثيق الأثري والأخبار عنه) بل اتسعت لترسم العلاقة
بين الأثر والبيئة الاجتماعية والجغرافية والمناخية، فربطت محاولة
تبع بين الأثر واصحابه، وبين الأثر والمكان، وبين الأثر والزمان،
كما وضحت لنا طريقة (أسلوب) الأخبار عن الأثر. وهذه العلاقات في
واقع الأمر، هي العناصر التي شكلت ركائز فكر المدرسة الأثرية، وهي
موضوعنا التالي:

عناصر المدرسة الأثرية

- ١- الإنسان
- ٢- الأثر
- ٣- المكان
- ٤- البيئة
- ٥- الخبر

وهذه العناصر وبخاصة العناصر الأربعة الأولى تداخلت في
أسلوب المدرسة الأثرية حتى أصبحت مادة له كما سيتبين لنا بعد
قليل، أما العنصر الخامس فكان نتيجة لتداخل العناصر الأربعة،
كما كان غاية وهدفا لأسلوب المدرسة الأثرية، بل هو الهدف لكل
الدراسات الأثرية، وقد تكررت هذه العناصر في محاولات لعلمة بن
ذي جذن كما في قوله^(٢٢):

كفي عبرة أن يمس سلحين قد هوى وبينون والدنيا قريب بعيدا
وقال أيضا^(٢٣):

أبعد غمدان لا عين ولا أثر أم بعد بينون يبني الناس أبياتا
وبعد حمير اذ شالت نعماتهم حثهم ريب هذا الدهر أحياتا
وقال أيضا^(٢٤):

أولا ترين وكل شيء هالك بينون هالكة كان لم تعمّر
أولا ترين وكل شيء هالك سلحين مدبرة كظهر الأدير
أولا ترين ملوك ناعط أصبحوا تسفى عليهم كل ريح صرصر
أوما سمعت بحمير ويوتهم أمست معطلة مساكن حمير
وقال أيضا^(٢٥):

تعرف في آثارهم أنهم أساس ملك ليس بالمبتدع
تشهد للماضيين منا بأن نالوا من الملك ونقب القلع
ما لم ينل غيرهم معشر يتبعون الدهر ليسوا تبع
وقال أيضا^(٢٦):

هل لانس بمثل آثارهم بآرم ذات البناء اليفع
أو مثل صرواح وما دونها مما بنت بلقيس أو ذو تبع

هذه المحاولات لم تقتصر على تكرار عناصر المدرسة الأثرية
فحسب بل تجاوزت ذلك لتوضح وتؤكد طبيعة ونوعية العلاقة القائمة
بين المدرسة الأثرية وبين مفهومي الدروس والعبر والتواصل
الحضاري في فلسفة التاريخ العربي والعربي الاسلامي، القائمة على
البحث والتنقيب والاعتبار والاتعاظ بما حدث للحضارات السابقة
(المنقرضة). كما تمكنت هذه المحاولات من توظيف عناصر المدرسة
الأثرية كمادة لأسلوبها، فاسفر هذا التوظيف عن تحديد عناصر هذا
الأسلوب والذي سنعرض له فيما يلي من دراسة وتحليل.

الاسلامي عني بدراسة الحضارات السابقة للإسلام للتفكير والتأمل
والاعتاظ والاعتبار بما حصل لها، وربما لهذا السبب نشط العلماء
المسلون في دراسة الحضارات السابقة للإسلام، الأمر الذي أثرى فكر
المدرسة الأثرية العربية، كما سيتبين لنا فيما يلي من عرض وتحليل
لمفهوم الآثار.

مفهوم الآثار

الأثر لغة هو بقية الشيء، والأثر أيضا الخبر^(٢٧)، وكذلك ورد الأثر
بمعنى العين أي "العلامة"، فقليل "لا أثر بعد العين"^(٢٨)، وقيل
أيضا: "اقرار العين ببقاء الأثر بعد ذهاب العين"^(٢٩)، أي أن الأثر
دال على وجود العين بعد زوال العين نفسها، فأثرها أي خبرها باق
للدلالة عليها، وقد ورد مثل هذا المفهوم في شعر نسب إلى الملك^(٣٠)
الحميري أسعد تبع^(٣١):

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

كما ورد هذا المفهوم في شعر لبيد بن أبي ربيعة^(٣٢):

وكذا الزمان يذهب بالناس وتبقى الرسوم والآثار

وقد أكد القرآن الكريم المعاني والمفاهيم السابقة، ففي سورة
"غافر" ورد ذكر الآثار بمعنى البقايا الحضارية، كما في قوله تعالى:
"كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض"^(٣٣)، وورد الأثر بمعنى
العلامة في قوله تعالى: "سيماهم في وجوههم من أثر السجود"^(٣٤)،
واستنادا إلى ما سبق، نستطيع أن نستخلص مفهومين للآثار: أولهما،
أن الآثار مفهوم متعلق ببقايا الأشياء (الانجازات الحضارية)،
وثانيهما، مفهوم يختص بالدلالة أو الاخبار عن هذه الانجازات. ومن
خلال هذين المفهومين نشأت المدرسة الأثرية العربية ونمت
وتطورت، في بداية الأمر، ثم العربية الاسلامية فيما بعد. والواقع أن
فكر المدرسة الأثرية اتسع وتشعب بمقدار اتساع وتشعب المفهومين
السابقين، فبقايا الأشياء (الآثار)، قسمها السياغي في معالم الآثار
اليمنية، (ص - ١٠) إلى قسمين^(٣٥): قسم ثابت يختص بالمباني
والعمران وقسم متنقل يختص بالتمائيل والصور والأدوات، وهذه
الدراسة معنية بالقسم الأول فقط وذلك لتوظيفه في دراسة الظاهرة
الحضارية المعمارية العربية. والقسم الخاص بالعمران أيضا مقسوم
إلى قسمين: قسم خاص بالعمران الثابت وقسم خاص بالعمران
المتنقل. ولقد أفرز لنا القسم الأول عناصر المدرسة الأثرية، وأفرز
القسم الثاني أسلوبها، وللتعرف على هذه العناصر سنعرض لبداية
الشعر الجاهلي ونشأته، وقد ذكرنا سابقا أن نشأة المدرسة الأثرية
ارتبطت بنشأة الشعر الجاهلي، وأن الشعر الجاهلي تفاعل مع البيئة
التي نشأ بها اجتماعيا وجغرافيا ومناخيا، فكان وما يزال سجلا حافلا
بالمعجزات الحضارية والأحداث الاجتماعية والسياسية العربية سواء
المعاصر منها لنشأته أو السابق منها على نشأته^(٣٦)، الأمر الذي حدى
بالخليفة عمر بن الخطاب بأن يصف الشعر بأنه "علم قوم لم يكن
لهم أعلم منه"^(٣٧). ولقد كانت باكورة هذا السجل الحضاري في شعر
منسوب إلى الملك الحميري أسعد تبع^(٣٨):

مآثرنا في الأرض مصداق قولنا اذا ما طلبنا شاهدا ودليلا

وعلمي بهلكي سوف يبلى جدي ويرجع ملكا كاسف اللون ماحلا

وملك جميع الناس يبلى وملكننا على الناس باق ذكره ليس زائلا

وقال أيضا^(٣٩):

وريدان قصري في ظفار ومنزلي به اس جدي دورنا والمناهلا

عناصر أسلوب المدرسة الأثرية

- ١- تحديد هوية أصحاب الأثر
- ٢- تحديد هوية الأثر واستعماله
- ٣- المكان
- ٤- مواد البناء
- ٥- المؤثرات البيئية
- ٦- الاستقصاء الأثري

والواقع أن هناك عناصر أخرى ، كتقانة البناء والنقوش والكتابات (اللغة) وأحدى الظواهر الاجتماعية وهي الدين. ولكن ولمحدودية استعمال هذه العناصر رأينا أن نعرض للأول ضمن تقانة الاستقصاء الأثري ، وأن نعرض للنقوش والكتابات واللغة والدين عند الكلام عن التفسير الأثري لاحقا في هذا الجزء .

ولقد تأكدت العناصر السابقة عند شعراء البيئة العدنانية الذين كان لهم دور كبير في تدوين التاريخ العربي ، وتوثيق منجزاته الحضارية ، سواء كانت هذه المنجزات معاصرة لهم أو سابقة لبداية الشعر العربي ونشأته كما يتضح في شعر امرئ القيس^(٢٧) :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى ، بين الدخول فحومل
تري بعر الأرام في عرصاتها وقيعانها ، كأنه حب فلفل
فتوضح فالمقرة لم يعف رسمها لها نسجتها من جنوب وشمال
وان شفاي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
وتيماء لم يترك بها جدد نخلة ولا أطما الا مشيدا بحدل

فأصحاب الأثر عند امرئ القيس هم الحبيبة وعشيرتها ، والعمران هو منزل محبوبته وديار عشيرتها ، والمكان هو الأرض المحصورة بين الدخول^(٢٨) وحومل ، وتوضح^(٢٩) والمقرة ، ومواد وتقانة البناء يمكن الاستدلال عليها من العوامل البيئية كالأرض الصلبة ، بعد منقطع اللوى ، التي تصلح لتثبيت الأوتاد الخاصة بالأخبية والخيام ، والمؤثرات البيئية هي رياح الجنوب والشمال ، كما تتضح مواد وتقانة البناء والمؤثرات في مدينة تيماء^(٣٠) التي أودى بعمرانها سيل^(٣١) جارف فلم يبق منها الا الحصون المشيدة بالحجارة الصلبة. ويجدر بنا أن ننوه بأن عرض امرئ القيس لما حدث بمدينة تيماء هو خروج عن المألوف عند شعراء البيئة اليمنية ، وقد درج عليه شعراء البيئة العدنانية ، فخرجوا عن نطاق التوثيق الاقليمي أو الخاص ، كما هو الحال عند شعراء اليمن ، ليتناولوا كل المنجزات الحضارية العربية بالتوثيق ، الأمر الذي أسفر عن تزويدنا بمعلومات قيمة عن طبيعة العمران في البيئة العربية. ومما يجدر الإشارة اليه أن محاولة امرئ القيس التوثيقية لم تكن ابتكارا بل تقليدا لمحاولات توثيقية سابقة كما ذكر امرؤ القيس نفسه^(٣٢) :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نيكى الديار كما بكى ابن خدام
ولم تذكر كتب الأدب^(٣٣) من أمر ابن خدام شيئا ، ولكننا نستطيع القول بأنه رائد في التوثيق الأثري نهج امرئ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين على منهجه .

ويبدو أن التباين في اهتمام كلا الفريقين اليمني والعدناني انعكس على العلاقة بين عناصر أسلوب المدرسة الأثرية ، فتباينت العلاقة بين هذه العناصر تبعا لمعايشة الموثق (الشاعر) مع الأثر. فالعامل البشري (الإنسان) والعمران عنصران متلازمان لا ينفصلان ، فلا وجود للعمران بدون الإنسان ولا غنى للإنسان عن العمران ، ولهذا

نجد أن الآثار نتيجة مباشرة وحتمية لانفصال العامل البشري عن العمران. وحيث أن المدرسة الأثرية تعاملت مع نوعين من السكان: الأول مستقر كما في اليمن ومدن الحجاز (مدائن صالح ، العلا ، تيماء ، مكة ، المدينة ، والطائف) ، والمراكز الحضرية في العراق وسوريا وفلسطين ، والثاني ، غير مستقر ودائم التنقل والترحال من مكان إلى آخر داخل الجزيرة العربية في بوادي الحجاز ونجد والشام والعراق وديار بكر. هذا التنوع الاجتماعي أوجد بدوره نوعين من العمران : ثابت ومتنقل ، كما أسلفنا ، وبالتالي أسفر على نوعين من الآثار ، فكانت آثار العمران الثابت أطول بقاء وأكثر دلالة على العمران نفسه ، وأما آثار العمران المتنقل فكانت سريعة الزوال وضعيفة الدلالة ، وقد انعكست هاتان الحالتان على أسلوب المدرسة الأثرية ، ففي الحالة الأولى أخذ الأسلوب صورة التوثيق المطلق المرتبط بالمشاهدة والمعبّر عنه بالوصف والتعليق الشامل ، وذلك لاستمرار وجود الأثر ، ولهذا ربما نستطيع القول أن الاهتمام بالمكان كان المحور الرئيسي في أسلوب المدرسة الأثرية في اليمن كما تبين لنا في شعر تبع وعلقمة وربما يتضح أكثر في محاولة عبيد^(٣٤) :

حللنا بدار كان فيها أنيسها فبادوا وخلوا ذات شيد حصونها
فصاروا قطينا للفلاة بغربة رميمها وصرنا في الديار قطينها
فسوف يليها بعدنا من يحلها ويسكن عوض سهلها وحزونها

أما في الحالة الثانية فكان أسلوب التوثيق فيها أكثر انفعالا وأعمق تحليلا وذلك لكون التوثيق فيها حقيقة معاشه ، عبر فيها الموثق (الشاعر) عن انفعالاته من جراء معايشته للعمران ثم لآثار العمران ولذلك كان التركيز على العامل البشري (المحبوبة وعشيرتها) وعلى المكان في وقت واحد لارتباطهما بذكريات شخصية للموثق ، ومن ثم التركيز عليه في المكان الذي كان يقيم فيه وربما لهذه الأسباب كان أسلوب المدرسة الأثرية لآثار العمران المتنقل أكثر دقة وتقصيلا منه بالنسبة لآثار العمران الثابت ، أضف إلى ذلك أن العوامل البيئية كانت أكثر تأثيرا في آثار العمران المتنقل منها في آثار العمران الثابت فالعواصف الرملية والرياح الشديدة والأمطار قادرة على طمس وتغطية ومحو آثار العمران المتنقل ، ولكنها قليلة التأثير على العمران الثابت الذي لا يتأثر الا بالأعاصير العاتية والسيول الجارفة والاهتزازات والزلازل الأرضية القليلة الحدوث ، الأمر الذي يتطلب جهدا أكبر وتقانة أعقد في الاستنطاق والاستقراء والاستدلال على آثار العمران المتنقل. اذا نحن بصدد أسلوب توثيقي ذو استقراء واستقصاء تحليلي يعتمد على التعايش مع الأثر عاطفيا ونفسيا واجتماعيا وعلميا ، ولقد اعتمد هذا الأسلوب على الملاحظة الدقيقة ، وتبين تقانة الوصف والتحليل العلمي كما تبين لنا من شعر امرئ القيس ، ولكي نتعرف على هذا الأسلوب بدقة علينا أن نعرض لعناصره بالشرح والتحليل .

١ - تحديد هوية أصحاب الأثر

اكتسب هذا العنصر أهميته من واقع الانتماء القومي كما هو الحال في محاولات الشعراء اليمنيين ومن واقع العلاقة الثنائية القائمة بين الموثق وقومه وبينه وبين محبوبته وما تخللها من تجربة عاطفية معاشة شملت الود والقرب والصد والهجران الأمر الذي فرض تسجيل هذه اللحظات العاطفية من واقع التعايش معها ، فالتسعت بذلك دائرة التوثيق الأثري لتشمل الأماكن التي شهدت أحداث هذه

نسجت ووضحت العلاقة القائمة بين أصحاب الأثر ونوعه كما في قصر ريدان الذي نسبه لنفسه وكذلك نسجت ووضحت العلاقة بين أصحاب الأثر والمكان من ناحية أخرى ، فقد حدد تبع المكان (منطقة ظفار) الذي يقع فيه قصره. كما نسجت ووضحت العلاقة بين المكان ونوع الأثر كما في الثمانين سدا المقامين على أرض يحصب ، وقد تعرفنا من محاولات تبع أيضا على القبور^(٤٢) :

وغيهان محفوفة بالكروم لها بهجة ولها منظر
بها كان يقبر من قد مضى من آبائنا وبها نقبر
إذا مقابرنا بعثر فحشو مقابرنا الجواهر

وقد نهج علقمة على نفس الوتيرة فربط بين أصحاب الأثر ونوع الأثر فحدد لنا المقابر التي نحتوها في الجبال كما حدد لنا عمران وقصور صرواح التي أسهم في بنائها كل من بلقيس وتبع.

ولقد استمر هذا النهج عند شعراء البيئة العدنانية فربطوا بين أصحاب الأثر ونوعه ، وبين المكان ونوع الأثر. ويتضح هذا الربط فيما تقدم ذكره من شعر لامرئ القيس وزهير وطرفة والناطقة والأعشى. وتحديد نوع الأثر يفيدنا في معرفة أنواع المنشآت المعمارية التي كانت مستعملة في المرحلتين الحضارتين العربيتين: الجاهلية والاسلامية ، الأمر الذي يسر لنا دراسة الظاهرة الحضارية المعمارية من خلال التوثيق الأثري الذي نجده في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ومؤلفات العلماء المسلمين ، ولكننا الآن معنيون بتحديد نوع الأثر في المرحلة الحضارية العربية (الجاهلية). ففيما تقدم عرضه تعرفنا على بعض أنواع العمران التي كانت قائمة في الجاهلية كالقصور والبيوت ولأطام (الحصون) والمقابر والسدود والمباني الدينية كالكنيسة الشريفة التي ورد ذكرها فيما تقدم ذكره من شعر زهير وأيضا في شعر الأعشى^(٤٣) :

فاني وتوبي راهب اللج والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم
وقد ذكر الأعشى مباني أخرى للعبادة ككنيسة نجران^(٤٤) :

وكعبة نجران حتم عليك حتي تناخي بأبوابها
كما تعرفنا على بناء الابراج من شعر الأعشى^(٤٥) :
يبنى القنود بمنزل البرج متصلا مؤيدا قد أنافوا فوقه بابا
وأيا^(٤٦) :

ومغافر سدس تخال محاله برجا ، تشيده النبيط القرمدا
وكذلك عرفنا بعض أنواع المباني التجارية من شعر الأعشى^(٤٧) :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاموشل شلول مشلشل شول
كما تعرفنا عليها في شعر طرفة^(٤٨) :

فان تبغني في حلقة القوم تلقتني وان تلتسني في الحوانيت تصطد
وكذلك تعرفنا على منارات الأديرة من شعر امرئ القيس^(٤٩) :

تضئ ظلاما بالعشاء ، كأنها منارة مهسي راهب مبتتل

وتحديد هوية ونوع الأثر يسر لنا التعرف على مبان ومنجزات معمارية لم يعد لها وجود كبعض القصور في العراق ، وكدار الندوة في مكة ، فقد ورد ذكر الحضرة في شعر الأعشى^(٥٠) :

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمي وهل خالد من سلم
أقام بها سابور الجنود حولين تضرب فيه القدم

وتقع هذه المدينة المحصنة (الحضر) في منطقة تكريت بين دجلة والفرات ، وقد حصنها الضيزن^(٥١) أحد ملوك قضاة ، وقد حاول سابور ملك الفرس هدمها على مدار عامين ويبدو أنه لم يتمكن: ولا يفوتنا هنا أن ننوه بوعي المحاولة التوثيقية وبالذات توثيق

العلاقة كمنازل وديار المحبوبة وقومها مما يسر لنا التعرف على مكان الأثر وزمانه. كما كان لشيوخ هذه العلاقة في المجتمع الجاهلي الأثر الأكبر في تحديد عناصر المدرسة الأثرية ، وكذلك عناصر وتقانة أسلوبها وقد ورد تحديد هوية أصحاب الأثر فيها تقدم عرضه فتعرفنا على أصحاب الآثار اليمينية كما تعرفنا على أصحاب آثار منطقة الدخول وحومل ، والواقع أن تحديد هوية أصحاب الأثر كان صفة لازمة وعنصر رئيسيا عند غالبية الشعراء الجاهليين ، خاصة إذا كان الأثر ديار المحبوبة ، وذلك لارتباطه بأسباب عاطفية ونفسية كما أسلفنا ونظرا لشمولية النظرة والاهتمام عند شعراء البيئة العدنانية نجدهم قد تجاوزوا الحدود القبلية وتعاملوا مع آثار غيرهم فحددوا أصحابها الأمر الذي أثرى معلوماتنا الأثرية والمعمارية ، ومثل هذا الاهتمام نجده في شعر زهير^(٥٢) :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلثم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم
ومع أن البيت (الكنيسة) ليس أثرا إذ ما زال عملا معماريا يؤدي وظيفته الدينية كبيت لله سبحانه وتعالى ، إلا أن تحديد هوية بناته يساعد في دراسة تطور بناء وصياغة هذا العمل المعماري. ونجد مثل هذا التحديد في شعر طرفة^(٥٣) :

لخولة أطلال ببرقة تهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
كقنطرة الرومي أقسم ريبها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد
فأصحاب الأثر عند طرفة هم: محبوبته خولة وقومها وكذلك الرجل الرومي الذي يرفض أن تبني قنطرته إلا بالقرميد ، وتعاقبت المحاولات فنجد أن النابغة حدد محبوبته كصاحبة للأثر^(٥٤) :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
كما نجد في محاولات الأعشى سجلا حافلا بأصحاب الآثار في المناطق المختلفة من الجزيرة العربية^(٥٥) :

فأضحت كبنيان التهامي شاده بطين وجيار وكلس وقرمد
وكما في قوله^(٥٦) :

ألم تروا آرمأ وعادا أودى بها الليل والنهار
بادوا فلما أن تأدوا قفعلأثرهم قدار
وأهل غمدان جمعوا للدهر ما يجمع الخيار
وأهل جوأت عليهم فأفسدت عيشهم ، فباروا
وكما في قوله^(٥٧) :

فاستنزلوا أهل جو من منازلهم وهدموا شاخص البنيان ، فاتضعا
وكما في قوله^(٥٨) :

فلما أتت أطام جو وأهله أنيخت ، وألقت رحلها بفنائكا
ولقد كان تحديد هوية أصحاب الأثر عرفا جاريا عند شعراء الجاهلية ، والواقع أن هذا العنصر أكبر من أن تتسع له هذه الدراسة بالحصر والتحديد ، لذل نكتفي بالأمثلة التي أوردناها لتحديد الاطار العام لهذا العنصر ودوره في التوثيق الأثري وعلاقته وارتباطه بتحديد هوية ونوع الأثر الذي سنعرض له فيما يلي بالدراسة والتحليل.

٢- تحديد هوية الأثر واستعمالاته

ارتبط هذا العنصر بتحديد هوية أصحاب الأثر تارة وبتحديد المكان تارة أخرى أو بتحديد أصحاب الأثر والمكان معا. ولقد تعرفنا على نوع الأثر من واقع العلاقة القائمة بين الأثر وبين أصحابه في المحاولات التي عرضناها سابقا ، كما تعرفنا من نفس المحاولات على نوع الأثر من خلال العلاقة القائمة بين الأثر والمكان. فمحاولة تبع

ولكن دعا من قيس عيلان عصبه يسوقون في أعلى الحجاز البرابرا
كما ورد ذكر تهامة في شعر ابن بركة الشمالي^(٥٩):

أروى تهامة ثم أصبح جالسا بشعوف بين الشت والطباق
وورد ذكر نجد في شعر عمرو بن كلثوم^(٦٠):

يكون تقالها شرقي نجد وساحتها قضاة أجمعينا
كما ورد ذكر نجد في شعر أبي ذؤيب^(٦١):

في عانة بجنوب السي مشربها نهور ومصدرها عن مائها نجد
وورد ذكر اليمن في شعر عبد يغوث^(٦٢):

فيا راكبا اما عرضت فبلعن ندماي من نجران ان لا تلاقيا
أبا كرب والأيهمين كليهما وقيس بأعلى حضرموت اليماني

والملاحظ أن هذا التقسيم الجغرافي أخذ شكلا طويلا باستثناء اليمن فقد شملت الشريط العرضي الجنوبي للجزيرة. وقد حوت هذه الأقسام المدن والمراكز الحضارية المعروفة كمكة والمدينة وصنعاء... بالإضافة إلى منازل القبائل العربية وديارها. كما اشتملت على مجموعة من الأماكن: كالدارات والبرق (مفردتها برقة) والمغاني، والدمن، والمعاهد، والربع، والمحال، وسنأتي على ذكر هذه الأماكن ودورها في التوثيق الأثري عند الكلام عن دور العلماء والجغرافيين المسلمين في بناء وتطوير فكر المدرسة الأثرية العربية. ونكتفي هنا بأن نعرض للأماكن التي سبق ذكرها في هذه الدراسة، فنجد أن قصر ريدان والسدود التي ذكرها تبع تقع في مدينة ظفار وأرض يحصب وكلا المكانين يقعان في اقليم اليمن، كما عرفنا أن قصور بلقيس وتبع تقع في مدينة صرواح وهي أيضا بإقليم اليمن. كما تعرفنا على مكان منازل قوم محبوبة امرئ القيس الكائنة بين منطقتي الدخول وحومل بأرض اليمامة، كما تعرفنا على مدينة تيماء كمركز ومكان أثري يقع في شمال اقليم الحجاز، وتعرفنا أيضا على مكان آثار دار خولة، محبوبة طرفة بن العبد، الكائنة ببرقة تهمد، بمنزل بني دارم، وكذلك دارمية، محبوبة النابغة، الكائنة بمزقة الأرض عند ماء بني سعد المعروف^(٦٣) بالسند. أما زهير فقد حدد لنا مكان منازل أم أوفى، الكائنة بحومانة الدراج، عند منقطع رمل الثعلبية في بلاد اسد^(٦٤). أما الأعشى، فحدد لنا مكان حصون طسم وجديس، الكائنة بمدينة جو باليمن، كما حدد لنا مكان كنيسة (كعبة) نجران بأن نسبها إلى المدينة نفسها، وتقع مدينة نجران في جنوب الجزيرة العربية، كما حدد لنا مدينة تيماء كمكان لآثار حصن الأبلق^(٦٥):

ولا عادي لم يمنع الموت ماله ورد بتيماء اليهودي أبلق

وتعرفنا على مكان آثار حصن مدينة الحضر والكائنة في منطقة تكريت بين دجلة والفرات، حيث ديار ومنازل قضاة أصحاب الأثر. كما تعرفنا على مكان قصر الخورنق في شعر الأسود يعفر، في مدينة الحيرة حاضرة دولة المنادرة. والواقع أن الأماكن الأثرية التي ورد ذكرها في الشعر الجاهلي كثيرة مما يجعلنا نكتفي بهذا القدر، خاصة وأننا لسنا بصدد حصرها، وإنما نهدف إلى توضيح فكرة المكان وقيمه الأثرية من ناحية، وأهمية هذا العنصر وارتباطه ببقية العناصر من ناحية أخرى، وبخاصة مواد البناء، والتي سنعرض لها فيما يلي من دراسة وتحليل.

٤- مواد البناء

تعرفنا من خلال العرض السابق على نوعين من البيئة البشرية والجغرافية احدهما بيئة مستقرة ثابتة، والأخرى متنقلة. وقد انعكس

محاولة التخریب. ولهذه المدينة المحصنة قصة طويلة ارتبطت بالأسطورة، وردت في المصادر الإسلامية، وسنعرض لها عند الكلام عن دور الاثاريين المسلمين في تطوير فكر المدرسة الأثرية العربية. كما تعرفنا من شعر الأسود يعفر^(٥٦) على بعض قصور وكعبات اللخمين في الحيرة:

ماذا أوئل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد أباد؟

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر، ذي الكعبات من سنداد ويقع قصر الخورنق في مدينة الحيرة وكذلك بارق والكعبات. وقد ارتبط الخورنق بقصة اسطورية سنعرض لها لاحقا عند الكلام عن دور الاثاريين المسلمين.

أما المباني الادارية، كدار الندوة في مكة فقد تعرفنا عليها من خلال كتابات المؤرخين المسلمين^(٥٧) وهي أول دار بنيت بمكة، بناها قصي بن كلاب بن مرة، عندما تملك مكة وقد توارثها أحفاده إلى أن اشتراها معاوية بن أبي سفيان وجعلها دارا للامارة^(٥٨). ونستطيع بما سبق أن نتعرف على الدور الذي لعبه هذا العنصر في تحديد أنواع المنشآت المعمارية التي كانت قائمة في العصر الجاهلي وارتباطها في المكان الذي سنعرض له فيما يلي من دراسة وتحليل.

٢- المكان

أشرنا فيما سبق إلى أن المكان ارتبط بتحديد أصحاب الأثر، وبتحديد هوية الأثر ونوعه. وهذه العناصر الثلاثة مجتمعة تشكل في رأينا تقانة التوثيق الأثري فهي توفر العناصر الرئيسية لمحاولة دراسة أو إعادة دراسة أثر ما. إذ بواسطتها نستطيع تحقيق شخصية الأثر وتاريخ انشائه والغرض الذي أنشئ من أجله. وأما دور المكان منفردا فيتعلق بتحقيق وتحديد موقع الأثر عند الشروع في أي دراسة أثرية، ويبدو أنه لم يغيب عن بال المؤرخين (الشعراء) العرب ما لهذا العنصر من أهمية، فعنوا به وحرصوا على تحديده، وتبين لنا هذا الحرص فيما تقدم عرضه من محاولات توثيقية لشعراء البيئتين اليمنية والعُدنانية. وقد سبقت الإشارة إلى طبيعة العلاقة بين الأثر والمكان، وإلى تأثير هذه العلاقة على أسلوب المدرسة الأثرية. فثبوت الأثر في البيئة اليمنية زاد من قيمة المكان في التوثيق الأثري، وأضعف من قيمة المكان كوسيلة للاستنتاج والتعرف على الأثر، ولكن عدم ثبوت الأثر في البيئة العُدنانية زاد من قيمة المكان في عمليتي التوثيق والاستقصاء الأثريين.

وقد تعامل المؤرخون أو الاثاريون العرب مع المكان ابتداء من التقسيم الجغرافي العام للجزيرة العربية، وانتهاء بموقع الأثر (البناء). واجمع الجغرافيون العرب - كما سنعرض لآرائهم لاحقا في هذا الجزء - على أن الشعراء الجاهليين قسموا الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام: الحجاز، تهامة، نجد، اليمن. وضمن الأقسام الأربعة الأولى كانت منازل القبائل العربية العُدنانية^(٥٩) والقحطانية النازحة إلى البيئة العُدنانية. وأما اليمن فكانت مقصورة على العرب العاربة (القحطانيين)، ولقد ورد ذكر منازل وديار هذه القبائل في شعر الجاهليين، ومن خلالها وثقت الأماكن الأثرية وحددت في الجزيرة العربية فنجد ذكر السراة في شعر الفضل اللهبي^(٥٦):

يؤبن مع الركائب كل مصر ويأتين الأقاول بالسراة

كما ورد ذكر الحجاز في شعر لبيد^(٥٧):

مربة حلت بقيد وجاورت أهل الحجاز فأين منك مرامها

كما ورد في شعر طرفه^(٥٨):

٥- المؤثرات البيئية

تنحصر المؤثرات البيئية بين طبيعة المكان الجغرافية المقام عليه الأثر والعوامل المناخية، فالحالة الأولى حددت لنا نوعية العلاقة بين الأثر والبيئة الجغرافية المقام عليها الأثر، سواء من حيث استعمال مواد البناء المحلية أو من حيث التكوين الطبيعي للمكان، أو من حيث موقع الأثر في أرض منبسطة أو على منحدر أو مرتفع من الأرض. فبناء الأثر بالمواد المحلية يساعد في التعرف على الأثر من ناحية كما أنها تساعد على بقاء الأثر إيجاباً أو سلباً تبعاً لطبيعة هذه المواد. أما التكوين الطبيعي للمكان فيساعدنا في معرفة ما إذا كان المكان معرضاً للهزات الأرضية أو الزلازل الأمر الذي يسهل على الأثر عملية استقصاء تاريخ الأثر من ناحية أو وجوده من ناحية أخرى إذا لم يعد لهذا الوجود أثر بفعل الهزات الزلازل. وأما موقع الأثر فيساعد في حفظ الأثر، خاصة إذا كان على مرتفع من الأرض، من أيدي العابثين أو من العوامل المناخية كالسيول الجارفة. وأما إذا كان الأثر في منخفض من الأرض فربما يكون عرضة للعبث والسيول والأمطار والرياح التي تساعد جميعها في خراب الأثر واندثاره، أما العوامل المناخية فهي الأمطار والسيول والرياح والعواصف والأعاصير، وجميعها ذات تأثير سلبي على الآثار كما أسلفنا. وقد تنبه الأثاريون العرب لهذه المؤثرات البيئية فذكروها بأسهاب وتفصيل. إذ ورد في الشعر الجاهلي ذكر السيول والأعاصير والرياح الشديدة التي تذهب بالآثار. وتعرفنا على أربعة أنواع من الرياح الرئيسية^(٧٥) هي: الجنوب والشمال والصباء والديبور، فالرياح الجنوبية تهب من اليمين باتجاه الشمال وسميت باليمانية أيضاً، وأما الشمال فتهب من الشام باتجاه الجنوب وسميت بالشامية، وأما الصبا فتهب من الشرق باتجاه الغرب وسميت بالقبول لأنها تأتي من قبل الكعبة^(٧٦)، وأما الديبور فتهب من الغرب باتجاه الشرق وسميت بذلك لأنها تأتي من دبر الكعبة، وقيل لأن مستقبل الشرق يستدبرها^(٧٧)، أي تأتي من خلفه. وهناك رياح فرعية كالنكباء^(٧٨) وهي التي تهب بين ريحين رئيسيتين، والنسيم وهي رياح ضعيفة لا تمحو الآثار، والزعرع وهي التي تقلع الأشجار وتمحو الآثار، والذاريات والمعصرات وهي التي تجئ بالمطر، والاعصار والروامس والصرصر^(٧٩) وهي الرياح الباردة وغالبا ما تهب باتجاه رأسي، والعقيم والعاتية والقاصفة^(٨٠) وهي التي تقصف الأشجار وتكسرها وتمحو الآثار. وسنعرض لبعض ما ورد منها في الشعر الجاهلي، وقد سبق وأن عرضنا لشعر علقمة الذي يوضح فيه تأثير الريح الصرصر في خراب عمران مدينة ناعط كما وضع لنا تأثير الرياح في خراب قصر غمدان^(٨١):

أبعد غمدان حين أمسى سفاية المور والرياح

وجاء ذكر هذه الرياح، بأسمائها تارة، وبصفات تارة أخرى، في الشعر الجاهلي، كمسببة لطمس الآثار ومحوها واندثارها، وقد أشرنا لرياح الجنوب والشمال في شعر امرؤ القيس، وبيننا كيف أن ريح الجنوب تعمل على طمس الآثار ومحوها، وكيف أن ريح الشمال تعمل على الكشف عن هذه الآثار، كما بين لنا امرؤ القيس دور السيول في محو آثار مدينة تيماء التي لم يبق منها سوى الحصون المشيدة بالحجارة الصلبة. وقد ورد ذكر ريح الصبا في شعر الحادرة^(٨٢):

بغريض سارية، أدركته الصبا من ماء اسجر، طيب المستنقع

هذا التنوع البيئي والاجتماعي على طبيعة البناء ونوع مواده. فالبيئة الثابتة استعملت مواد البناء الصلبة كالحجارة والرخام والقرميد والجير والكلس والخشب، أما البيئة المتنقلة فقد استعملت المواد الخفيفة السهلة الفك والتركيب والمتعددة الاستعمال كالمنسوجات الصوفية والجلود والأعمدة الخشبية. وقد ورد ذكر هذه المواد في شعر كل من شعراء البيئة اليمنية والعنانية، فنجد في شعر تبع ذكر مواد البناء الرئيسية كالرخام والتجملية كالذهب والجواهر^(٦٦):

ومأرب قد نطقت بالرخام وفي سقفا الذهب الأحمر
وقال أيضاً^(٦٧):

عرشها شرع ثمانون باعا كلته بجوهر وفريد
وبدر قد قيدته ويقوت وبالتبر أيما تقييد

كما نجد ذكر لمواد البناء في شعر علقمة^(٦٨):

وأيضاً:

أعلاه فيه رخام عال وأسفلها جروب
وأيضاً^(٦٩):

واسأل بينون وحيطانها قد نطقت بالدر والجوهر
وأيضاً^(٧٠):

عمرت حمير تشيد قصورا من رخام ومرمر وسلام
نحتوا الصخر في الجبال بيوتا فهمومها بقوة واعتزام

كما نجد ذكراً لمواد البناء وللبعض العناصر التجميلية كالتماثيل في شعر أمية بن أبي الصلت^(٧١):

منطق بالرخام المستزاد له ترى على كل ركن منه تماثالا

وتطور الوضع عند الأفوه الأودي فذكر لنا مواد البناء ووظيفتها في عملية البناء^(٧٢):

والبيت لا يبتنى الا له عمد ولا عماد اذ لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتدة وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

والأعمدة والأوتاد المذكورة في شعر الأفوه لا تستعمل الا في بيوت الشعر والأخبية والخيام. ولقد ورد ذكر الخيام والقباب المصنوعة من الجلد في شعر عنتره^(٧٣):

وفي أرض الحجاز خيام قوم حلال الوصل عندهم حرام
وبين قباب ذاك الحي خذر رداح لا يماط لها لشام

وأيضاً^(٧٤):

أروح من الصباح إلى مغيب وأرقد بين أطناب الخيام

ولقد ورد فيما تقدم ذكره من شعر الأعشى ذكر مواد البناء المستعملة في تهامة واليمن والمناطق الصخرية في شمال الحجاز: كالرخام والحجارة والطين والجير والكلس والقرميد والبلاط، وورد ذكر هذه المواد بالإضافة إلى المرمر والأجر فيما تقدم ذكره من شعر النابغة. وتحديد مواد البناء التي بنى بها أثر ما، تكون أحد العوامل التي تساعد في التعرف على هوية هذا الأثر، كما أن نوعية مواد البناء تعطينا فكرة واضحة عن امكانية بقاء الآثار أو اندثارها، فمواد البناء الصلبة تساعد على بقاء الآثار فترة طويلة وذلك من خلال مقاومتها للعوامل والمؤثرات البيئية من رياح وأمطار وأعاصير وسيول وهزات أرضية، أما المواد غير الصلبة وضعيفة المقاومة فلا تساعد على بقاء الآثار بل تساعد على سرعة اندثارها وزوالها. ومن هنا تتضح العلاقة بين مواد البناء والعوامل والمؤثرات البيئية التي سنعرض لها بشئ من الدراسة والتحليل.

وأيضاً^(٩٥):

دمن تلاعبت الرياح برسمها حتى تنكر نؤيها المههوم
وأيضاً^(٩٦):

عفت الرياح محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
رزقت مرابع النجوم وصاحبها ودق الرواعد جودها فرهامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها اقلامها
وأيضاً^(٩٧):

ورمي دوابرها السفا وتهيجت ربح المصايف سومها وسهامها
كما ورد تأثير الرياح على العمران في شعر سلامة بن جندل^(٩٨):
كانت لنا مرة دارا فغيرها مر الرياح بسافي الترب مجلوب

وحقيقة الأمر أن المؤثرات البيئية لعبت دورا كبيرا في خراب العمران واندثار الآثار ، ولقد أترى الأثريون العرب معلوماتنا عن هذه المؤثرات التي ساعدت بدورها في عملية تخير الأوقات المناسبة للتنقيب عن الآثار من ناحية ، وفي عملية الاستقصاء الأثري من ناحية أخرى ، وهو ما سنعرض له فيما يلي بشئ من الدراسة والتحليل .

٦- الاستقصاء الأثري

يشكل هذا العنصر العمود الفقري لأسلوب المدرسة الأثرية ، اذ من خلاله نستطيع استقصاء وتحديد وتأكيد جميع العناصر السابقة . ويشمل هذا العنصر التحقق من أصحاب الأثر وهويته ومكانه ، كما يشمل التأكد والتحقق من مواد وتقانة بناء الأثر ، فعملية الاستقصاء الأثري استثمرت المؤثرات البيئية بشريا وجغرافيا في التعرف على الأثر .

والتحقق من أصحاب الأثر يتأتى بطريقتين: الأولى من خلال النقوش والكتابات المتروكة على الأثر ، والثانية من خلال العلاقة بين أصحاب الأثر ومكان الأثر . فالأولى كانت مقتصرة على آثار العمران الثابت في مناطق الاستقرار الحضري كاليمن والمراكز الحضرية في باقي الجزيرة العربية . ويبدو أن الاهتمام بالنقوش والكتابات الأثرية لم يكن واردا في عرف الأثريين في ذلك الوقت ، وربما يكون مرد ذلك إلى أن الشعراء اليمنيين قاموا بتوثيق منجزاتهم الحضارية بأنفسهم ، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأنهم كانوا على علم بلغة أو لغات الكتابات المنقوشة على الآثار اليمنية ، في المرحلة التي سبقت عملية التوثيق الأثري ، التي ابتدأت بمحاولات اسعد تبع في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . فاللغات السبئية والمعينية والقبتانية والدادنية والحيانة لا تختلف كثيرا عن المسند الحميري وعلى هذا الأساس فان استعمال اللغة في عملية الاستقصاء الأثري تبدو أمرا واردا بالرغم من عدم وجود دليل صريح على ذلك ، أما بالنسبة لعدم استثمار النقوش والكتابات التي وجدت على آثار باقي المراكز الحضرية في الجزيرة العربية ، في عملية التحقق من أصحاب الأثر ، فربما يعود ذلك إلى توارد الخبر وتداوله بين الناس حتى وصل إلى شعراء البيئة العدنانية ، هذا بالإضافة إلى جهلهم باللغات التي دونت بها الكتابات الأثرية ، وربما لعب توارد الخبر وتداوله دورا في عدم محاولة شعراء البيئة العدنانية فك رموز هذه اللغات وفهمها ، أضف إلى ذلك عدم وجود الضروري الحضارية لفك رموزها وفهمها .

أما التحقق من أصحاب الأثر من خلال العلاقة بمكان الأثر فهو أمر متعارف عليه عند شعراء البيئة العدنانية فقد ارتبطت القبائل

لعب السيول به ، فأصبح ماؤه غللا ، تقطع في أصول الخروع كما ورد ذكر الصبا في شعر المسيب بن علس^(٩٣):

أو صوب غادية ، أدركته الصبا بيزيل أزهر ، مدمج بسياح
واذا تهيج الريح من صرادهها تلجأ ، ينبخ النيب بالجعجاع
وورد ذكر ريح الدبور في شعر الأعشى^(٩٤):

لها جرس كحفيف الحصاد صادف بالليل ريحا دبورا
كما ذكر لنا الأسود يعفر بعض المؤثرات البيئية التي تسبب خراب العمران^(٩٥):

أرض تخيرها ، لطيب مقيلهها ، كعب بن مامة ، وابن أم دؤاد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
كما عرض النابغة للمؤثرات البيئية التي تسبب خراب العمران^(٩٦):
أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعمي ، فذات الأساور
تحاورها الأرواح ينسفن تربها وكل ملث ذي أهاضيب راعد
والأرواح هنا هي الرياح والملت الأمطار كما عرض للرياح الهوج التي تؤدي بالعمران وتسرع في خرابه فقال^(٩٧):

أقوى وأقفر من نعم ، وغيره هوج الرياح بهايي الترب ، موار
كما عرض للاشراج وهي المياه المنحدرة من أعلى إلى أسفل وكذلك للرامسات (وهي الرياح الشديدة) ودورها في خراب العمران^(٩٨):

فمجتمع الأشراج غير رسمها مصايف مرت ، بعدنا ، ومرايع
كان مجر الرامسات ذيولها عليه ، حصير ، نمقته الصوانع
وكذلك عرض للساريات وهي السحب المحملة بالأمطار الهواطل^(٩٩):
دعاك الهوى واستجھلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل
وقفت بربع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الهواطل
كما نجد في شعر طرفة عرضا للمؤثرات البيئية التي تسبب في خراب العمران فيقول^(٩٠):

لهند بخزان الشريف طول تلوح وأدنى عهدهن محيل
وبالسفح آيات كان رسومها يمان ، وشته ريدة وسحول
أربت بها ناجة تزدهي الحصى واسحم وكاف العشي هطول
فغيرن آيات الديار ، مع البلى وليس على ريب الزمان كفيل
وكذلك نجد في شعر عنتره عرضا للمؤثرات البيئية التي تسبب في خراب العمران^(٩١):

طال النواء على رسوم المنزل بين اللكيك وبين ذات الحرمل
فوقفت في عرصاتها متحيرا أسل الديار كفعل من لم يذهل
لعبت بها الأنواء بعد أنيسها والرامسات وكل جون مسبل
وأيضاً^(٩٢):

لمن طلل بوادي الرمل بالي محت آثاره ريح الشمال
وقفت بها ودمني من جفوني يفيض على مغانيه الخوالي
والمقصود بالأنواء هو الرياح والأمطار القوية التي تلمس الآثار ، كما نجد في شعر زهير عرضا للمؤثرات البيئية التي تسبب في خراب العمران^(٩٣):

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعب الزمان بها وغيرها بعدي سواقي المور والقطر
والسواقي هي الرياح الشديدة المحملة بالأتربة والقطر المطر . كما نجد في شعر لبيد عرضا للمؤثرات البيئية التي تسبب في خراب العمران^(٩٤):

هلكت عامر فلم يبق منها برياض الأعراف الا الديار
غير آل ومنة وعريش رغدتها الرياح والأمطار

عند حفره وأثناء استعماله عندما كانت دارمية مأهولة ، مما سبب عناء في التعرف عليه وتتابع محاولات الاستقصاء والاستنطاق الأثري عند النابغة بما فيها من عناء ومكابدة فيدخل عنصرين جديدين وهما الزمن والرماد^(١٠١):

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
رماد ككحل العين لأيا أئينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

فالأول يرقى بعملية الاستقصاء الأثري إلى عملية التنقيب عن الآثار ويدل على أن هذا التنقيب كان هدفا مقصودا وغاية واعية عند النابغة. أما الرماد فهو عنصر مادي من بقايا ومخلفات أصحاب الأثر استثماره النابغة للاستدلال على عمران قوم محبوبته ، والصعوبة التي واجهت النابغة في البحث عن هذا العنصر وتوظيفه في التعرف على ديار ومنازل محبوبته وعشيرتها تؤكد الهدف المقصود والغاية الواعية لتحويل الاستقصاء الأثري إلى عملية شاملة للتنقيب عن الآثار. والنابغة لم يكن الوحيد الذي استثمار الرماد في عملية الاستقصاء الأثري فنجد الأعشى قد استثمار هذا العنصر أيضا^(١٠٢):

لميثاء دار قد تعفت طولها ، عفتها نضيبضات الصبا ، فمسيلها
لما قد تعفى من رماد وعرصه ، بكيت ، وهل يبكي اليك محيلها

على أن محاولة المخيل السعدي تبدو أعمق فكرا وأوسع تحليلا^(١٠٣):

وأرى لها دارا بأغورة ال سيدان لم يدرس لها رسم
الارمادا هامدا دفعت عنه الرياح خوالد سحم
وبقية النؤي الذي دفعت أعضاده فتوى له جذم
فكان ما أبقى البوارح والا مطار ، من عرصاتها ، الوشم
يقرو بها البقر المسارب واخ تلطت به الآرام ، والأدم
وكان اطلاق الجآدر وال غزلان ، حول رسومها ، البهم
لم تعتذر منها مدافع ذي ضال ، ولا عقب ، ولا الزخم

العمق الفكري في محاولة السعدي يتضح في تفسيره للأسباب التي غيرت لون الرماد وأبقت عليه وهي الأمطار ، فالهاء عند اختلاطه بالرماد يدكن لونه وتتماسك ذراته فتنتقل وتقاوم هبوب الرياح عليها ، كما وضح ان خوالد السحم (حجارة الموقد) قد ساعدت في حماية الرماد بدفعها عنه الرياح ، كما استدل على الأثر من خلال التعرف على بقايا النؤي المنهار. هذا التحليل العميق لبقايا العمران يؤكد أن الاستقصاء الأثري قد ارتقى إلى عملية شاملة للتنقيب عن الآثار. ومما يعزز وجهة النظر هذه ويؤكد أنها هي أن عملية الاستقصاء الأثري أعقبت بوصف شامل لما آلت إليه الديار من خراب وهجران تسبب في استبدال العامل البشري بعناصر العمران البيئي كالحوانات البرية أمثال: البقر الوحشي وأولادها والجآدر والغزلان والبهم من أولاد الغنم. هذا الاستبدال البيئي أصبح عنصرا من عناصر الاستقصاء الأثري ، فأينما وجدت عناصر العمران البيئي من الحيوانات البرية غير الأليفة في بيئة العمران البشري ، تأكد انحسار العامل البشري من هذه البيئة ، ووجود الخراب والهجران ، لأن الحيوانات البرية بطبيعتها لا تتعايش مع العامل البشري. وهذا النوع من الاستدلال والاستقصاء الأثري سبق إلى ذكره واستثماره امرؤ القيس:

تري بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ولقد توسع الحارث بن حلزة الإشكري في استثمار العمران البيئي في عملية الاستقصاء الأثري فاستعرض خبرته السابقة في استثماره^(١٠٤):

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهراق الفرس

العربية بمساكن وديار متعارف على مكانها ضمن التقسيم الجغرافي للجزيرة العربية بالرغم من كثرة التنقل داخل حدود هذه الأماكن الجغرافية ، هذا التنقل أسفر بدوره عن تقسيمات فرعية لمنازل وديار القبائل العربية ارتبط بها الأثر فتحددت شخصية أصحابه من خلال هذا الارتباط كما في برقة "تهمد" و"حومانة الدراج" و"اللكيك والحرمل" و"الدخول فحومل وتوضح والمقرة" ، وخلاف ذلك من الأماكن التي ارتبطت بمنازل وديار القبائل العربية. ولما كانت محاولات شعراء البيئة العدنانية واضحة سواء في تحديد أصحاب الأثر أو نوعه أو مكانه ، فلم يكن للنقوش والكتابات دور في عملية الاستقصاء الأثري ، هذا بالإضافة إلى عدم استعمال النقوش و الكتابات على منازل وديار العدنانيين في مرحلة العروبة الصريحة في الفترة السابقة لظهور الاسلام والواقعة ما بين نشأة الشعر الجاهلي إلى ظهور الاسلام.

وحيث أن الاستقصاء الأثري لم يقتصر على التحقق من هوية أصحاب الأثر ونوعه ومكانه ، بل تجاوز ذلك إلى البحث في بقايا ومخلفات العمران وأصحاب الأثر واستثمار العمران البيئي من نبات وحيوان. ولقد استثمار الأثريون عناصر بقايا العمران ومخلفات أصحاب الأثر ، في عملية الاستقصاء الأثري: كالنؤي وهو الأخدود الذي يحفر حول البيت (الخيمة) لمنع دخول مياه المطر إلى داخل البيت ، والآثا في وهي الحجارة التي تستعمل في موقد النار ، وكذلك الرماد المتبقي في موائد النار ، كما استثماروا بقايا أثاث ومواد البيت كالعن وهو بقايا الصوف ، والاوراي والواخي وهي الحبال واللاتاد التي تستعمل لربط الدواب. ولقد وصلت عملية الاستقصاء الأثري من التقانة إلى درجة وصف وتحليل عملية البناء ، هذا بالإضافة إلى استثمار عناصر العمران البيئي من نبات وحيوان ، فالنبات يكون من بقايا العمران البشري ، والحيوان يجد لنفسه مكانا ومأوى ومرتعاً في بقايا العمران البشري. وسنعرض لجميع هذه العناصر كما وردت في الشعر الجاهلي ، فعلى سبيل المثال نجد في شعر النابغة عملية استقصاء أثري متكاملة ، فقد استثمار فيها بقايا العمران كالنؤي وموقد النار والأحجار المستعملة أما في موقد النار أو في بناء الجدران القليلة الارتفاع حول الأخبية والبيوت ، كما استثمار عناصر العمران البيئي كالثمار وهو نبات شجري قليل الارتفاع يزرع حول الأخبية أو في عرصات (ساحات) الحي ، فيقول^(٩٩):

عوجوا ، فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي وأحجار
أقوى وأقفر من نعم ، وغيره هوج الرياح يهايي الترب موار
وقفت فيها ، سرة اليوم أسألها عن آل نعم ، أمونا ، عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ، ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً الود به الا الثمام والاموقد النار
وتتضح عملية الاستقصاء الأثري بصورة واعية في الآيات الثلاث الأخيرة كما تتضح في المحاولة التالية لنفس الشاعر^(١٠٥):

يا دارميه بالعلاء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلاً أسألها عيت جوابا ، وما بالربع من أحد
الا الأوراي لأيا ما أئينه والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

هذه المحاولة توضح العناء الذي تكبده الأثري في عملية الاستقصاء والاستنطاق فلم يتمكن من العثور على الأوراي الا بعد بحث وتنقيب وذلك لعدم ظهوره بوضوح ، وأما النؤي فقد اتسع حتى أصبح كالحوض في الأرض الصلبة على شكل مغاير ومخالف لما كان عليه

تري جتوتين من تراب ، عليهما صفائح صم من صفيح منضد

فتقانة البناء عند طرفة تتساوى في قبري النحام وهو الغني كثير المال قليل الانفاق ، والصال المفسد والمهدد لماله ، ويصف هذه التقانة بأنها تتكون من كومتين (جتوتين) من التراب عليهما حجارة عريضة وصلبة ، إلا أن هذه التقانة تختلف عند لبيد^(١١٢) :

إذا دفنت أباك فاجعل فوقه خشبا وطينا
وصفائحا صم روا سيها يسددن العضونا
ليقين وجه المريء سفس ف التراب ولن يقينا

والاختلاف هنا يتضح في تغطية الميت بالواح الخشب والتطين عليها بالطين ثم تغطيتها بأحجار عريضة متلاصقة ببعضها البعض بحيث لا يترك بينها فروج ، لكي تقي وجه الميت من تسرب الأتربة التي ستوضع فوق هذه الصفائح الحجرية. والاختلاف بين التقنيتين ربما يكون في أسلوب التفسير وطريقته وليس في طبيعة التقانة نفسها ، فإذا قارنا بين التفسيرين نجد أن تفسير طرفة بسيط بينما نجد تفسير لبيد أكثر تحليلا وعمقا وشمولا. وتقانة البناء توضح لنا ارتباط الاستقصاء الأثري بالتفسير الأثري.

فيما تقدم من دراسة وتحليل عرضنا لمفهوم علم الآثار ولعناصر الفكر الأثري ولعناصر أسلوب المدرسة الأثرية ، وبيننا التداخل بين علم الآثار وعلم اللغات كما بينا التداخل بين عناصر الفكر الأثري وعناصر الأسلوب الأثري ، وعرضنا بالشرح والتحليل لتقانة التوثيق والاستقصاء من خلال عناصر الأسلوب الأثري ، وبيننا أن الهدف من الدراسات الأثرية هو التوثيق الأثري للتعريف بالمنجزات الحضارية المعمارية العربية ، ونرى أن حصيلة ما تقدم من عرض وتحليل هو أن الشعراء العرب في الجاهلية أسسوا علم الآثار وارسوا قواعد وأسس فكر المدرسة الأثرية العربية والتي سنوضح منهجها في تفسير الآثار فيما يلي من دراسة وتحليل.

التفسير الأثري

لقد نهجت المدرسة الأثرية العربية في تفسيرها للآثار منهجين :

١ - التفسير بواسطة الأسطورة

٢ - التفسير العلمي

١ - التفسير بواسطة الأسطورة

التفسير بواسطة الأسطورة كان شائعا عند العرب وكانوا ينسبون كل غريب من البنيان إلى سليمان^(١١٣) عليه السلام ، وقد ورد التفسير بواسطة الأسطورة في شعر النابغة^(١١٤) :

السليمان اذ قال الإله له قم في البرية فاحدها على الفند
وخيس الجن أني قد أذنت لهم يبنون تدمر في الصفاح والعمد

كما نسب الأعشى إلى سليمان بناء الحصن الأبلق بمدينة تيماء^(١١٥) :

ولا عادي لم يمنع الموت ماله ورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داود حقبة له أزج عال وطى موثق

ولقد نسب إلى سليمان ، الكثير من البنيان ، في المصادر الإسلامية وسنشير لها عند الكلام عن دور الأثريين المسلمين في تطوير فكر المدرسة الأثرية لاحقا في هذا الجزء. كما كان العرب في الجاهلية ينسبون كل أثر قديم إلى عاد وقد أشرنا إلى قول الشاعر^(١١٦) :

وبالجبيل معقل سعدنا اليه بسمر الصعاد
ملكناه من أوليات الزمان من بعد نوح ومن قبل عاد

لا شيء فيها غير أصورة سفع الخدود يلحن كالشمس

أوغير آثار الجياد بأع راض الجماد ، وآية الدعس

فوقفت فيها الركب أحدس في بعض الأمور وكنت ذا حدس

فبين أن الأصورة ، وهي قطعان البقر ، قد حلت مكان العامل البشري في الديار وهذا التغيير في طبيعة العمران مماثل للتغيير الذي تحدثه النار في حجارة الموقد فتحولها سفعا أي سوداء تميل إلى الاحمرار. كما تعرف واستدل من خلال آثار الجياد على المحابس والاوراي التي كانت تربط بها. ولقد استثمر هذا العنصر الأخنس التغلبي^(١١٥) :

فمن يك أسى في بلاد مقامه يسائل اطلالا ، لها ، لا تجاوب
فلاينة حطان بن قيس منازل كما نمق العنوان في الرق كاتب
تظل بها ريد النعام كأنها اماء تزجي بالعشي حواطب

وتحدد الاستدلال هنا بواسطة النعام - وهي أكثر الحيوانات نفورا وقلقا في مسكنها ومرعاها - من العمران البيئي والتي تنعم بالهدوء والطمأنينة لخلو المنازل من العامل البشري ، كما استثمر العامل البشري في عملية الاستقصاء الأثري كل من المرقش الأكبر^(١١٦) والمرقش الأصغر^(١١٧) ولبيد^(١١٨) وغيرهم كثر ونكتفي هنا بالإشارة إلى محاولة زهير بن أبي سلمى لشمولها^(١١٩) :

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفه واطلاؤها ينهضن من كل مجتم
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
آتافي سفعا في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتلم
فلما عرفت الدار قلت لربها الا أنعم صباحا أيها الربع واسلم
كأن فئات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

فابتدأ عملية الاستقصاء الأثري باستثمار عناصر العمران البيئي كالعين وهي بقر الوحش ، والآرام والغزلان ، ويبدو أنه اختار عناصر العمران البيئي لبيدأ بها ، ليوحي بالهجران الكامل للعامل البشري ، ثم أكد هذا الهجران بتحديد المدة الزمنية التي ابتعد فيها عن ديار امرأته أم أوفى^(١٢٠) . وجدير بنا أن نلاحظ أن عامل الزمن لم يقتصر على تأكيد الهجران فحسب ، بل ارتقى بالاستقصاء الأثري إلى التنقيب عن الآثار ، فجعل من الأول هدفا للأخير ، وارتقى بالأخير إلى محاولة واعية ومحددة الهدف وهو التعرف على ديار امرأته. ولكن الأمر لم يتوقف عند وعي محاولة زهير وانما فيها أضفته هذه المحاولة من وعي على فكر المدرسة الأثرية العربية ، هذا الوعي تأكد في تكرار ادخال عنصر الزمن في محاولة النابغة التي سبق أن أشرنا إليها. فإذا عدنا إلى محاولة زهير ، لوجدنا أنه انتقل إلى عملية الاستقصاء بعد أن أكد الهجران ووضع الهدف ، فابتدأ بالتعرف على عناصر الدار ، معتمدا على قوة الملاحظة وتقانة الوصف ، فعرض لحجارة الموقد وكيف آل لونها إلى السواد المشوب بالحمرة بفعل النار ، ثم عرض للنؤي المنهار ولبقايا المعرس (الرحل) وكذلك لبقايا الصوف المتناثر بين بقايا المنازل كثمار شجر الفنا ذي اللونين الأسود والأحمر ، وينتهي من هذا الاستقصاء للتعرف على دار امرأته.

والاستقصاء الأثري لم يقتصر على معرفة الأثر فحسب ، بل استثمر عملية التفسير الأثري من خلال الوصف التفصيلي لتقانة وأسلوب البناء ، فقد سبق وأن عرضنا لمحاولة الأفوه الأودي التي بين فيها تقانة بناء البيوت بالأتواد والأعمدة ، وسنعرض فيما يلي محاولة لطرفة يصف فيها تقانة بناء القبور^(١٢١) :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوي بالبطالة مفسد

لوجدنا أن التفسير بواسطة الأسطورة اقتصر على الجانب التوثيقي فقط ويشمل تحديد هوية صاحب الأثر وتحديد تاريخه ، أما باقي العناصر كالمكان وهو مدينة تيماء وتحديد هوية الأثر فقد خلون من العنصر الأسطوري في عملية التفسير ، بل أن الوصف الذي أورده الأعشى يتطابق مع هوية الأثر ، فالحيطان القوية العالية والخندق من صفات الحصون والقلاع ، كما أن باقي الوصف الذي أورده الأعشى يؤكد حقيقتين: أولهما أن الحصن ما زال عامرا ومأهولا وذلك لوجود الفتيات الحور الجميلات والمناصف (الخدم) والطباخ ، والحقيقة الثانية هي أن الوصف على محدوديته اعتمد على النظر والملاحظة الدقيقة وهذه العناصر بعض من صفات التفسير العلمي الذي سنعرض له فيما يلي بشئ من الدراسة والتحليل.

٢ - التفسير العلمي

وهذا التفسير أعم وأوسع ويرتكز عند دراسته أو إعادة دراسته للأثر على ما توفر من معلومات تركها أصحاب الأثر ، فالتفسير العلمي يبدأ عملية البحث والاستقصاء الأثري من المعلوم ، في محاولة لسبر أغوار المجهول ، وهذه العملية المعقدة اعتمدت على النقوش والكتابات ووجدت لها مصدرا في الحياة الأدبية والدينية والاجتماعية والتقنية لأصحاب الأثر ، ونهجت أسلوب المقارنة والمعارضة والنقد والتحليل. ولقد ابتكر الأثريون العرب هذا النهج في تفسيرهم للأثر ، وذلك من خلال عملية استقصاء علمي واضحة المعالم ابتدأت بالتحقق من : هوية أصحاب الأثر ، فهوية الأثر ، فالمكان الذي يقع فيه الأثر ، فمواد البناء فالمؤثرات البيئية وانتهت بالخبر أو تفسير الأثر. ولقد اختلف التفسير باختلاف البيئة والدوافع وراء عملية التفسير. فبينما نجد الأثريين العرب قد اشركوا الحياة الاجتماعية في عملية التفسير (من خلال الانتهاء القومي والإقليمي كما هو الحال عند شعراء البيئة اليمنية ، أو من خلال العلاقات العاطفية والنفسية والاقتصادية بالإضافة إلى الانتهاء القبلي والقومي عند شعراء البيئة العدنانية)، نجدهم لم يشركوا الحياة الدينية بنفس الكيفية التي اشركوا فيها الحياة الاجتماعية ، كما أنهم لم يشركوا النقوش والكتابات بالرغم من توفرها على آثار الجزيرة العربية ، وسنحاول فيما يلي من دراسة وتحليل أن نوضح الأسباب التي أدت إلى محدودية استعمال اللغة والدين في عملية التفسير.

اللغة

الوظيفة الرئيسية للغة هي عملية التوثيق الأثري ، فإذا كانت اللغة مدونة ومنقوشة على الأثر تصبح أحد عناصر الاستقصاء الأثري ، ومن ثم أحد عناصر التفسير الأثري ، لأن الأخير لا يتم إلا بواسطة اللغة ، وبعد انتهاء عملية التفسير تصبح العملية عملية توثيقية مرة أخرى. هذا التداخل في وظيفة اللغة يعود إلى سببين: أحدهما ، اختلاف لغة التوثيق عن لغة التفسير ، ففي هذه الحالة تدخل اللغة الأولى ضمن نطاق الاستقصاء الأثري وتدخل الثانية ضمن عملية التفسير الأثري ، وثانيهما أن تكون لغة التوثيق والتفسير الأثري واحدة ، فنحتاج لمعرفة المدونات والنقوش الأولى عن الأثر في عملية التفسير إذا كنا بصدد دراسة أو إعادة دراسة الأثر ، وفي كلا الحالتين تكون لغة التفسير هي نفسها لغة التوثيق.

ولقد اقتصر التفسير العلمي للمدرسة الأثرية العربية على الحالة الثانية ، أي على الآثار العربية واستعمال اللغة العربية بقلبيها:

وخطورة التفسير بالأسطورة لا تقتصر على تغيير هوية أصحاب الأثر وتاريخ بنائه والغاء عملية الاستقصاء العلمي فحسب ، بل تتجاوز ذلك إلى ابعاد حضارية ، فالادعاء بأن سليمان بنى تدمر وحصن الأبلق يتضمن ادعاء بأن اليهود في عهد سليمان كانوا قد سيطروا على أجزاء من سوريا وشمال الحجاز حيث مكاني مدينة تدمر وحصن الأبلق على الترتيب. وهذا الادعاء لا يحتاج إلى نفي ، لأن النقوش والكتابات الأثرية^(١١٧) تشير إلى أن اليهود كانوا يجهلون أساليب البناء ، بدليل أن سليمان استعان بالملك حيرام الثاني ملك صور لبناء "معبد الرب" ، وقد أمد الأخير الأول بفريق من البنائين والنجارين والحدادين وعلى رأسهم مهندس اسمه حيرام. ومما يدل على جهل اليهود بأعمال البناء ، أن الله سبحانه وتعالى سخر لسليمان الشياطين^(١١٨) والجن لاستخدامهم في عملية البناء كما في قوله تعالى^(١١٩):

"ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات عملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين".

ومن الآيات الكريمة نستدل أن الجن كانت مسخرة ومكلفة بأعمال محددة تنحصر في عمل المحاريب والتماثيل والجفان والقدور ، وأنهم استمروا في هذه الأعمال حتى توفي الله تعالى سليمان ، وقد تبينوا وفاته بعد سنة^(١٢٠) من وفاته الحقيقية عندما تأكلت عصاه وسقط. ومعنى هذا أن الأعمال العمرانية التي قام بها الجن لسليمان لم تنجز بالكامل لأنها لو أنجزت بالكامل لما دعت الضرورة استمرارهم في العمل أثناء موت سليمان وهروبهم منه عندما علموا بموته ، وهنا نتساءل كيف تسنى لسليمان بناء تدمر وحصن الأبلق إذا كان لم ينهي عمرانه داخل مملكته. ومما يدعونا أيضا إلى الاعتقاد بعدم أهلية اليهود لأعمال البناء والعمران هو أن تسخير الجن لخدمة سليمان كانت إحدى معجزات سليمان. والمعجزة تعني عجز البشر - قوم النبي - عن القيام بالأعمال التي تتضمنها ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه.

وينبغي علينا أن نعي فيما ذهبنا إليه من شرح وتحليل أننا لسنا بصدد نفي حقيقة ، هي أصلا لا وجود لها ، وإنما نحاول أن نؤكد أسطورة بنفي حقائق وجود عناصر الحدث الذي تنسب إليه الأسطورة ، وكذلك لكي نثبت أن الأثريين العرب استعملوا الأسطورة في تفسيرهم للآثار. كما ينبغي علينا أن نعي أن التفسير بواسطة الأسطورة استعمله شعراء البيئة العدنانية ، وربما يكون مرد ذلك إلى افتقار البيئة العدنانية إلى الأعمال المعمارية الضخمة ، فإذا استكملنا محاولة الأعشى:

بوازي كبداء السماء ودونه
له درمك في رأسه ومشارب
وحور كأمثال الدمى ، ومناصف
بلاط ودارات وكلس وخندق
ومسك وريحان وراح تصفق
وقدر ، وطباخ ، وصاع ، وديسق

البيئة العدنانية كما هو الحال في البيئة اليمنية. فالأخيرة اتخذت من جدران وحيطان العمران مجالا لها ، فهي ماثلة في آثار اليمن ، أما الأولى فلم نجد لها وجودا على حيطان وجدران آثار عمرانها في جنوب الحجاز ونجد ، بينما نجد كثيرا من النقوش في شمال الحجاز وسوريا وفلسطين ، والتي صنفت على أنها نقوش "نبطية" وليست عربية ، ولكننا لم نعدم بعض المحاولات في مكة ، سنعرض لها بعد أن نوضح كيفية انتشار الكتابة في البيئة العدنانية وارتباطها في الدراسات الأثرية ، فقد ورد في شعر المرقش الأكبر ذكرا للكتابة المنمقة المكتوبة على الجلد بواسطة القلم^(١٢٧) :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم
كما ورد ذكر الكتابة المنمقة في شعر سلامة بن جندل^(١٢٨) :

لمن طلل مثل الكتاب المنق خلا عهده بين الصليب فمطرق
وورد ذكر الكتابة المنمقة أيضا في شعر طرفة^(١٢٩) :

كسطور الرق رقصه بالضحي مرقش يشمه
وورد في شعر أمية بن أبي الصلت ذكر الخط وأدوات الكتابة كالقلم^(١٣٠) :

قومي لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم
كما ورد في شعر الحارث بن حلزة ذكر الكتابة ونوع الورق الذي يكتب عليه كالمهراق وهي الصحائف الحريرية البيضاء المقواة بالصمغ^(١٣١) :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهراق الفرس
كما ذكر الحارث أن حلف ذي المجاز كان مكتوبا في مهراق^(١٣٢) :
واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الخون والتعدي وهل تنق ض ما في المهراق الأهواء
كما بين لنا ابن أبي خازم وهو شاعر جاهلي قديم ما يفيد وجود كتب مؤلفة في العصر الجاهلي^(١٣٣) :

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار
وورد ذكر الخط والكتب (الزبر) في شعر الحرار بن المنقذ^(١٣٤) :
وترى فيها رسوم قد عفت مثل خط اللام في وحي الزبر
وورد ذكر التثنيق في الكتابة على أيدي كتاب متخصصين في شعر الأخنس بن شهاب التغلبي :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقص العنوان في الرق كاتب
وورد في شعر لبيد بن أبي ربيعة ما يفيد أن الكتابة على الحجر كانت شائعة في البيئة العدنانية^(١٣٥) :

فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها
كما ورد أيضا في شعر زهير ما يفيد أن الكتابة على الحجر كانت شائعة في البيئة العدنانية^(١٣٦) :

لمن الديار غشيتها بالفدقد كالوحي في حجر المسيل المخلد
هذه الأمثلة توضح أن الكتابة كانت معروفة ومنتشرة^(١٣٧) في الجاهلية ، كما توحى التعابير التي استعملها الشعراء ان الكتابة كانت على مستوى رفيع من الاتقان والجمال ، واللافت للنظر أن هذه المحاولات لم تقتصر على تعريفنا بأن الكتابة كانت منتشرة في الجاهلية فحسب ، ولكنها أكدت وجود علاقة بين الآثار والكتابة. فمحاولة الأخنس توحى بأن العلاقة بين المنازل والكتابة أكبر من استعارة بلاغية أو تشبيه لغوي ، ولكنها تؤكد وجود تفسير شكلي جمالي للأثر ، مرتبط بتفسير شكلي جمالي للكتابة .

المسند الحميري والعدناني ، وسبق وبيننا أنه لم يكن للنقوش والكتابات دور صريح في عملية الاستقصاء الأثري ، كما سبق وبيننا أن جميع الأقلام اليمنية هي أصلا قلم واحد وهو المسند الحميري ، وقد ذهب الأستاذ الألوسي^(١٣٨) إلى أن جميع اللغات (الأقلام) العربية من يمنية وعدنانية ذات أصل حميري ويدل على رأيه بشعر لرجل - كندي من دومة الجندل يمين فيه على قريش بأنهم تعلموا خط الجزم من المسند الحميري^(١٣٩) :

وتجحدوا نعماء بشر عليكم فقد كان ميمون النقية أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتم من الهال ما قد كان شتى مبعثرا
وأفئتم ما كان بالهال مهملا وطامنتم ما كان منه مبثرا
فأجريت الأقلام عودا وبداة وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند الحي حميرا وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

ويقول الألوسي أن تسمية الجزم ترجع إلى أن الخط الكوفي كان يسمى بخط الجزم قبل انشاء مدينة الكوفة ، وذلك لأنه جزم أو اقتطع وولد من المسند الحميري^(١٣٩) والواقع أننا نميل إلى هذا الرأي وذلك لعدة أسباب نذكر منها: أن الشعر الجاهلي لم يشر إلى وجود أي خلاف جذري في معنى أو في الدلالات البيئية للغة المستعملة في اليمن عن لغة الشعر (العربية الفصحى) ، بينما نجد الشعر الجاهلي يشير إلى الخلافات اللغوية بين اللغة العربية واللغات الأخرى كالفارسية مثلا ، فنجد النابغة^(١٤٠) يصف الدار بالاستعجام لعجزه عن التعرف عليها ، كما نجد عنتره^(١٤١) يصف عدم الافصاح "بالعجبه الطمطمية". ومن هذه الأسباب أيضا تشابه المعنى في كثير من الكلمات والألفاظ في اللغتين العربية الفصحى والجنوبية (الأقلام اليمنية) فقد أورد الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه ، تاريخ /العربي (ج ١٠/١٢) الكثير من الكلمات العربية الفصحى ومثباتها في اللغات العربية الجنوبية نذكر منها الكلمات الخاصة بالأسرة كالآب والأم والولد والأبن والأخ والأخت ، ونذكر أيضا الكلمات الخاصة بالكون والبيئة: كالأرض والسماء والماء والشمس والقمر والليل واليوم والأمة والانسان والنفس واللسان والراس واليد... ، كما ذكر الدكتور جواد على في كتابه ، /المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (ج ٨/١٠-٢٤) ، الكثير من الكلمات الخاصة بالبناء والمثالة في كلا اللغتين نذكر منها: بناء ومبنى ، وقلعة وحفر ، وعلى وعليه ، وعود ، وسقف ، والخلف (الباب) ، والرتاج والمصرع والمصرع واللبن ... ، وغيرها من الكلمات التي ربما يشوبها بعض الخلافات اللفظية. وسبب آخر هو أن كثيرا من الشعراء اليمنيين الأصل قالوا شعرا بالعربية الفصحى كامرئ القيس وعبد يغوث والمتلمس وطرفة وكثير غيرهم ، كما أن عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام قال خطبته في بلاط الملك اليمني معد يكرب باللغة العربية ، وقد أشرنا إلى هذه الخطبة في القسم الأول من هذه الدراسة (التفسير التاريخي) كما أشرنا فيها إلى التاجر الزبيدي اليمني الذي قال شعرا بالعربية الفصحى في مكة ، أسفر عن تأسيس حلف الفضول. ونخلص من ذلك إلى أن الاختلاف بين اللغتين العربية الشمالية والجنوبية ربما كان مقصورا على شكل الحروف وشكل الكتابة وربما النطق ، أما المعنى ففي الأعم الأغلب كان واحدا ومتجانسا في اللغتين واستنادا إلى كل ما سبق نميل إلى الاعتقاد بوحدة^(١٤٢) اللغتين ، بالرغم من خلو آثار بعض المراكز الحضارية في البيئة العدنانية من النقوش والكتابات لأن الكتابة كانت معروفة في

إلى تصنيف هذا النقش وغيره من النقوش النبطية التي وجدت في مدائن صالح.



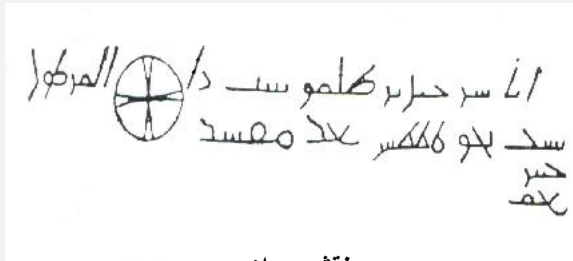
حجر النمارة

الخط العربي في القرن الرابع الميلادي

هذا النقش وجد على حجر قبر امرئ القيس بن عمرو أحد ملوك اللخميين في الحيرة ، وعثر عليه في خرائب النمارة ، بمنطقة حوران ، ويعود تاريخه إلى سنة ٣٢٤ م.

قراءة النقش

- ١- تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج .
 - ٢- وملك الاسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء .
 - ٣- يزجو في حجب نجران مدينة شمر وملك معدو وأنزل بنيه .
 - ٤- الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
 - ٥- عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده .
- النص والترجمة منقولان من الجزء الخامس من كتاب ، تاريخ الجنس العربي ، للأستاذ محمد عزة دروزة ، (ص: ٤٠٤) ومن الجزء الأول من كتاب ، تاريخ الآداب العربية ، للأستاذ مصطفى الرافعي ، (ص: ٨٥).



نقش حران

الخط العربي في أواخر القرن السادس الميلادي

قراءة النقش

"أنا شرحبيل بن ظلموا بنيت ذا المرطول

سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام"

ولقد صاحب هذا النقش نص يوناني جاء فيه : "أسس شرحبيل بن ظالم سيد القبيلة مرطول مار يوحنا في سنة ٤٦٣ من الأندقراطية الأولى" والجملة الأخيرة تعبير زمني عند الرومان ، ويخمن كتابته سنة ٥٦٨ م.

النص والترجمات منقولة من الجزء الثامن من كتاب ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، للدكتور جواد علي ، (ص: ١٧٧) ومن الجزء الخامس من كتاب تاريخ الجنس العربي ، للأستاذ محمد عزة دروزة ، (ص: ٣٩).

فالكثابة إذن أخذت دورا ثانويا في التفسير الأثرى ، يتمثل في شكل الكثابة وليس في مضمونها ، وهذه الظاهرة تكررت في محاولات كل من: المرقش الأكبر ، سلامة بن جندل ، الحارث بن حلزة اليشكري والهمار بن المنقذ ، ولكن الأمر ، اختلف عند لبيد وزهير ، فاحتاج إلى مزيد من التفكير والتأمل ، ومرد ذلك إلى أن الشعارين تجاوزا استعمال الكثابة من خلال الشكل إلى محاولة استعمال المضمون ، فربطوا بين مادة البناء السلام (الحجر) والوحي (الكثابة) ، بالإضافة إلى ربطهما بين آثار الديار والكثابة المنقوشة على الحجر . والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو اختيار الحجارة ، فهل كان اختيارها مجرد مصادفة أم أن الكثابة المنقوشة على الحجارة تخص آثار الديار ، فتكون بذلك عملا مقصودا ، هذا السؤال يضعنا أمام احتمالين لا نملك إثبات أو نفي أي منهما ، فإذا كان اختيار الحجارة كمادة للكثابة مجرد مصادفة ، فإن محاولتي لبيد وزهير لا تخرجا عن حدود المحاولات السابقة ، أما إذا كانت الحجارة المنقوشة تخص آثار الديار ، بالرغم من عدم معرفتنا بما تحويه من كتابة فبإمكاننا الادعاء أن التفسير العلمي للآثار قد اعتمد على النقوش والكتابات في دراسته لآثار البيئة العدنانية . ولكن وفي جميع الأحوال تبقى حقيقة واحدة نملك اقرارها وهي أن ما ذكره كل من لبيد وزهير يؤكد وجود مدونات حجرية في البيئة العدنانية سواء كانت هذه النقوش مكتوبة بالعربية الفصحى - لغة الشعر الجاهلي - أم بأي قلم آخر .

ومما يعزز هذه الحقيقة ما ذكره ابن النديم في الفهرست (ص: ٧-٨) : من أن قریش عندما هدمت الكعبة وجدوا في ركن من أركانها حجرا مكتوبا فيه : "السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة" ، وهو مكتوب بخط "الحزم" ، كما ذكر ابن النديم : ان خزانة الخليفة المأمون كانت تحوي كتابا بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي عليه الصلاة والسلام ، يذكر فيه ديننا له على رجل حبيري قيمته ألف درهم فضة . وأضاف ابن النديم ، ان هذا الكتاب كتب بخط يشبه خط النساء ، ولم يوضح ما هو خط النساء كما ذكر ابن النديم : وجود شاهد قبر بمكة يحمل اسم أسيد بن أبي العيص ، وهو أحد كتاب العرب .

فإذا أخذنا بروايات ابن النديم نجد أن الاحتمال الثاني أقرب إلى الواقع . ولكن رغم سعة اطلاع ابن النديم وموسوعيته ، إلا أننا لا نستطيع الأخذ بكل هذه الروايات وذلك لانفراد ابن النديم بذكرها ، ولعدم ذكره للمصادر التي استقى منها هذه المعلومات .

ومما يعزز هذه الحقيقة أيضا النقوش والكتابات الأثرية التي عثر عليها في بلاد الشام وشمال الحجاز ، نذكر منها حجر النمارة (شكل - ١) ، ونقش حران (شكل - ٢) ، وهما نقشان بالقلم النبطي (العربي) ، اذ يرجع تاريخ الأول إلى القرن الرابع الميلادي ، في حين يرجع تاريخ الثاني إلى القرن السادس الميلادي . والأخير نقش معماري يؤرخ لبناء كنيسة (ذا المرطول بحران اللجا) وهذا النقش يسهم في عملية التفسير العلمي للآثار ، ولكن تصنيفه كنقش نبطي أعاق توظيف هذا النقش في عملية التفسير العلمي ، ومع أننا لا نغير هذا التصنيف اهتماما - لكون هذا النقش مقروءا بالعربية التي نستعملها اليوم كما يظهر في شكل الحروف وفي شكل الكلمات وفي طريقة الكتابة الهائلة وفي الأسماء العربية المذكورة في النقش وحتى في البناء اللغوي للنقش ، أضف إلى ذلك أن الانباط عرب^(١٣٨) ، إلا أننا نميل

نذكر منها: الكعبة المشرفة بمكة، وكعبة نجران، وبيت ريام^(١٥٠)، وبيت العزى (الغغب)^(١٥١)، وكعبة ذي الخلفة^(١٥٢)، (الكعبة اليمانية) وكعبة ايداد^(١٥٣) (سنداد). أما الكعبة المشرفة فقد ارتبط بها الصنم هبل^(١٥٤) وكان موضوعا في جوفها، وسبق أن ذكرنا أن الكعبة المشرفة لا يمكن دراستها من وجهة نظر أثرية، وذلك لاستمرارها في أداء وظيفتها، أما باقي الكعبات فهي عبارة عن بيوت مربعة المسقط مكعبة الشكل، كانت تحوي أصناما، ولا يوجد خلاف بين الرواة^(١٥٥) على شكل هذه البيوت، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن التكعيب كان مذهبا فنيا ومعماريا متبعاً في الجاهلية، وهذا يسهم في عملية التفسير العلمي للآثار، وربما تكون الكعبة المشرفة مثالا حيا على مثل هذا النوع من مباني العبادة، إلا أن اختلاف مواد البناء التي استعملت في بناء باقي الكعبات ربما يعوق عملية دراسة التفاصيل المعمارية والانشائية لهذا النوع من المباني، وذلك لصعوبة القياس من ناحية والتطورات التي حدثت في بناء الكعبة المشرفة على مر العصور من ناحية أخرى، أضف إلى ذلك انعدام الوصف التحليلي لهذه الكعبات في الشعر الجاهلي، الأمر الذي زاد من صعوبة دراستها والتعرف على تقانة بنائها. إلا أننا أمام حالة فريدة من نوعها وهي كعبة نجران، التي سبق وأن أشرنا إليها في شعر الأعشى. فقد بين ابن الكلبي في كتابه، *الأصنام*، (ص ٤٥): أنها لم تكن كعبة عبادة بل غرفة لبني الحارث بن كعب. وقد ذهب، جواد علي في كتابه، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج ١٧/٩): إلى أن كعبة نجران عبارة عن بيعة للنصارى بنيت من الجلد^(١٥٦)، بناها بنو عبد المدان بن الريان الحارثي، رؤساء نصارى نجران، مضاهاة للكعبة المشرفة بمكة المكرمة، ولقد بنى رابه على الأخبار التي وردت عن هذه الكعبة، وعلى أسماء أصحابها المسيحية وعلى كون نجران مركز المسيحية في اليمن. ونحن نميل إلى رأي الدكتور جواد علي، ونخلص من ذلك إلى أن العمارة الدينية المسيحية الأولى في البيئة اليمنية، قد وقعت تحت تأثير العمارة الدينية المحلية للبيئة العدنانية العربية. فالمسيحية اذن تبنت الاتجاه التكعبي المعماري في مبانيها الدينية، وبنفس الشكل الذي أفرزته الحنفية (الاسلامية) وكما تبنته الوثنية العربية في مبانيها الدينية المتمثلة في الكعبة المشرفة وفي باقي الكعبات التي أسلفنا ذكرها.

والحنيفية دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، وكانت ديانة العرب قبل أن يتحولوا إلى عبادة الأصنام. والحنيفية أول دين سماوي أقام مبنى للعبادة وهو الكعبة المشرفة التي ما تزال ماثلة إلى يومنا هذا، وقد تعاقبت عليها الوثنية والاسلام، ولم يصل إلى علمنا أن الحنفية ارتبطت بأي مبنى ديني آخر غير الكعبة. *الحنيفية اذن لم تسهم في عملية التفسير العلمي للآثار وانما ارسدت لنا اتجاها معماريا وفنيا، وهو الاتجاه التكعبي*، وقد طغى هذا الاتجاه على جميع المباني الدينية الوثنية، والمسيحية في بلاد اليمن، أما اليهودية فلم يرد لمبانيها الدينية ذكر في الشعر الجاهلي، وربما يكون مرد ذلك إلى حداثة عهدها في الحجاز واليمن، وإلى عزلة اليهود المعهودة فيهم وإلى استعمالهم نفس المباني التي كان يستعملها سكان المدينة المنورة والمعروفة بالاطام (الحصون)، فلم يجد الشعراء الجاهليون في هذه الاطام أو في البيئة اليهودية أي غريب غير مألوف يسترعي انتباههم.

كامتداد لنهاية فترة التوثيق بالأقلام العربية التي سادت قبل نشأة الشعر الجاهلي، كالمسند الحيمري والجزم، وذلك لأن الشعراء العرب لم يستعملوا هذه المدونات والنقوش. وربما يعود ذلك أما إلى عدم اهتمامهم بها أو لجهل معظمهم القراءة كما أسلفنا، ولكننا نرجح الاحتمال الأول، وذلك لأن بعض الشعراء كانوا يجيدون القراءة والكتابة^(١٣٩). ومما يدل على ذلك المراسلات التي كانت معروفة في الجاهلية كصحيفة المتلمس^(١٤٠) وصحيفة لقيط^(١٤١) وصحيفة المقاطعة^(١٤٢) (صحيفة قريش)، كما كتب أحد الشعراء على باب دار الندوة^(١٤٣) شعرا. فكما نرى أن المحاولتين الأخيرتين تجاوزتا حدود التعريف بانتشار الكتابة إلى الارتباط بمبان ذات قيمة معمارية وأثرية، ولكن دون الاسهام في عملية التفسير العلمي وتبقى أمامنا محاولة أخيرة، فريدة، ومميزة وهي كتابة المعلقات وتعليقها على جدران الكعبة^(١٤٤)، وما تتميز به هذه المحاولة - إذا صح حدوثها - هو أن أحد المعلقات، وهي معلقة زهير، حددت نوع ووظيفة البناء كما حددت هوية بناء المبنى الذي علقت عليه:

فأقسم بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

فتعرفنا على نوع ووظيفة البناء الدينية من خلال عملية الطواف، لأن الطواف لا يتم إلا في الكعبة، كما حدد زهير قبيلتي قريش وجرهم كبناء للكعبة الشريفة، وبذلك تكون الكتابة قد استعملت في عملية التفسير العلمي للآثار، ولكننا لا نستطيع التعويل على هذه المحاولة، وذلك لانعدام السند التاريخي من ناحية ولعدم توفر الفكرة من ناحية ثانية. فالسند التاريخي لا يتم الا بثبوت الخبر أو ترجيح ثبوته وهذا لم يتأت لنا، والفكرة لا يؤخذ بها ولا يعول عليها الا اذا كانت مقصورة على الهدف الذي كرس له، وهذا أيضا لم يتوفر لنا، وذلك لأن الغرض من قول القصيدة لم يكن تعليقها على الكعبة، كما أن فكرة تحديد هوية بناء الكعبة لم تكن مقصودة لذاتها^(١٤٥)، وانما جاءت في سياق القصيدة. أضف إلى ذلك أن الكعبة ليست اثرا وانما هي صرح معماري قائم إلى الآن، ويؤدي وظيفته بكفاءة تامة، ولم ينفصل عنه العامل البشري اطلاقا، ابتداءا من بناء ابراهيم واسماعيل^(١٤٦) لها حتى يومنا الحاضر. والكعبة هي الصرح المعماري الوحيد في العالم الذي يستعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم على مدار الزمن. اذن ولكل هذه الأسباب نستطيع القول أن الكتابة لم تلعب دورا في عملية التفسير العلمي للآثار شأنها شأن الدين، الذي سنعرض له فيما يلي بشئ من الدراسة والتحليل.

الدين

لقد ترك الشعر الجاهلي معلومات لا بأس بها عن الحياة الدينية^(١٤٧) في العصر الجاهلي، فتعرفنا على الديانات التي كانت سائدة في البيئتين اليمنية والعدنانية: من وثنية وحنيفية^(١٤٨) ومسيحية. وكانت الوثنية أقدم هذه الديانات وأكثرها انتشارا في جميع أنحاء الجزيرة العربية. واكتسبت الوثنية شكلها ووجودها الفعلي في البيئة العدنانية بعد انحسار الحنفية، وذلك بعد ادخال الاصنام إلى مكة على يد عمرو بن لحي الخزاعي^(١٤٩). والديانة الوثنية ربما تسهم في دراسة الآثار المتنقلة، لأن العنصر الرئيسي فيها هو التماثيل على اختلاف مادة صنعها، ولكن الوثنية لم تسهم في دراسة الآثار المعمارية ولا في التفسير العلمي للآثار بشكل فعال، وذلك لعدم ارتباط هذه الأصنام بمبان ثابتة، هذا مع وجود بعض الاستثناءات

تسجيلها ، كالمحاولات التي عرضناها للافوه الاودي ، والخاصة بتقانة بناء البيوت ، وكذلك محاولات طرفة ولبيد الخاصة ببناء القبور ، كما تعرفنا على عناصر ومواد البناء المختلفة ، ووظيفة كل عنصر من هذه العناصر ، نذكر منها: النؤي ، والأوراي ، والاوئاد ، والاعمدة...وما يمنعنا من حصر هذه العناصر وتحليلها وابرار دور التقانة بالتفصيل في عملية التفسير العلمي ، هو أن الأثاريين المسلمين قاموا بحصر جميع عناصر هذه التقانة وافردوا لها كتباً خاصة سنعرض لها لاحقاً في الجزء الأخير من هذه الدراسة ، ابراراً لأدوارهم وتقديرهم لجهودهم ، واعترافاً بفضلهم وبياناً لموقع الفكر الأثري ومكانته عند العرب المسلمين.

أما المقارنات الأثرية فقد كان لها دور في عملية التفسير العلمي ، ظهر واتضح في محاولات أسعد تبع وعلمة بن ذي جذن ، فكلاهما أبرز هذا العامل من خلال منظور اقليمي قومي ، وبطريقة يغلب عليها طابع الفخر وليس الطابع التحليلي العلمي ، ولكن هذه المحاولات لم تخل من ابرار خصائص القرين ، آثار البيئة اليمنية - ولكنها أغفلت خصائص المقارن ، وربما يعود هذا الاغفال لعدم ذكر المقارن أصلاً. وبالرغم من ذلك فانه يمكن توظيف هذه المحاولات في عملية التفسير العلمي للآثار.

بناءً على ما تقدم يكون التفسير العلمي قد وظف جميع عناصر أسلوب المدرسة الأثرية ، بما فيها اللغة والدين وتقانة البناء ، معتمداً في ذلك على الملاحظة الدقيقة ، وممتبناً تقانة الوصف التحليلي ، ومتخذاً من الشعر وسيلة في عملية التوثيق الأثري. ومع كل ذلك ، لا نرى في الشعر الجاهلي ، محاولة تفسير علمي شاملة وظفت أو حاولت توظيف العناصر التي عرضنا لها ، ولكننا نرى في جميع المحاولات الجزئية التي عرضنا لبعض منها ، تحقيقاً لشمولية التفسير العلمي للآثار ، وهنا ينبغي علينا أن نعي ، أن عدم وجود محاولة شاملة للتفسير العلمي ، لا تعني قصوراً في فكر المدرسة الأثرية العربية في العصر الجاهلي ، وإنما قصوراً في التطبيق ، له أسبابه وظروفه التي أوضحناها على مدار هذه الدراسة. وأخيراً فإننا نخلص بعد كل ما تقدم من شرح وتحليل ، إلى أن المحاولات الأثرية التي أفرزها الشعر الجاهلي ، قد أرست قواعد وأسس فكر المدرسة الأثرية العربية ، التي ارتقى بها القرآن الكريم ، وربطها بفلسفة التاريخ الإسلامي ، وعمل على إعادة تشكيل هذه المدرسة وصلل مفاهيمها وفكرها وهو الموضوع التالي في دراستنا.

والمسيحية لم تكن أفضل وضعاً من اليهودية ، إذ لم يرد لمبانيها الدينية ذكر مباشر في الشعر الجاهلي ، باستثناء ما سبق ذكره عن كعبة نجران ، وما ورد ذكره عن بعض العناصر التي توحى بوجود مبان للديانة المسيحية ، كمنارة الراهب التي أشرنا إليها سابقاً في شعر امرئ القيس ، والناقوس^(١٥٧) الذي ورد ذكره في شعر المثلث^(١٥٨) ، والمرقس الأكبر^(١٥٩) ، والأعشى^(١٦٠) ، والأسود يعفر^(١٦١) . والمسيحية نشأت في بلاد الشام وتركزت في المناطق البعيدة عن العمران الحضري والريفي ، وذلك لأنها كانت مضطهدة من الرومان. ولم يعرف للمسيحية مبان دينية ذات قيمة تذكر ، قبل القرن الرابع الميلادي^(١٦٢) ، وربما كانت مبانيها الدينية في بادئ الأمر هي بيوت اقامة الرهبان الذين هربوا من الاضطهاد الروماني إلى المناطق المعزولة والنائية طلباً للسلامة.

هذه العزلة السياسية ، أدت بدورها إلى عزلة بيئية : اجتماعية وعمرانية فالاتباع بحاجة إلى التوجيه والارشاد وتعلم طقوس الدين وممارسته ؟ وإلى بيئة حضرية تفرض أو تمارس نوعاً من التقارب البيئي العمراني فتشجع على استحداث مبان خاصة للعبادة. أضف إلى ذلك أن طبيعة الدين المسيحي ، كما وردت في وصايا^(١٦٣) المسيح عليه السلام لا تتطلب مبان خاصة للعبادة ، وأكثر من ذلك أن الطبيعة التقشفية^(١٦٤) ، للمسيحية لم تساعد على استحداث مثل هذه المباني: وأكثر من ذلك أيضاً ، أن المسيحية دين عاطفي - يهدف إلى سعادة الانسان ، بتخليص الجسد وتطهير الروح من الآثام - لا تحوي فكراً^(١٦٥) قادراً على افرار ظواهر حضارية: كالفن والعمارة. وربما لهذه الأسباب جميعاً تبنت المسيحية الاتجاه التكعيبي في البيئة اليمنية ، فقد توفر لها الحرية السياسية والتقارب البيئي والعمراني فكان لرعاتها حرية الاختيار بين التكعيبة العدنانية وعمارة المعابد والمساجد^(١٦٦) في البيئة اليمنية ، فاختاروا بساطة التكيب ربما لتناسبها مع الطبيعة التقشفية للدين المسيحي ، ولكن حرية الاختيار انعدمت عند اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية ، فكان الاعتراف السياسي مصحوباً بفرض عمارة خارجية ودخيلة على البيئة العربية في بلاد الشام وعلى الديانة المسيحية ، وهي البازيليكا^(١٦٧) الرومانية (البزنطية)، الأمر الذي أدى إلى خلق انفصام بيئي ديني ومعماري ، وربما يكون هذا الانفصام أحد الأسباب التي أدت إلى عزوف الشعر الجاهلي عن توثيق مباني العبادة المسيحية ، واكتفى بالتلميح ببعض أجزائها. أضف إلى ذلك تزامن الشعر الجاهلي ونشأة مباني العبادة المسيحية ، فلم يكن للأخيرة جذور بيئية كما لم يكن للشعراء خبرة سابقة بهذا النوع من المباني سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى البيئي (القومي). ونخلص من ذلك إلى أن الدين المسيحي لم يسهم في عملية التفسير العلمي للآثار في العصر الجاهلي ، ولكنه أسهم فيها بعد ، فقد أفرد بعض الأثاريين المسلمين ، كتباً خاصة عن الديارات المسيحية في ديار الإسلام ، سنعرض لها بالتفصيل في الجزء الأخير من هذه الدراسة.

نخلص مما تقدم عرض أن الدين لم يسهم في التفسير العلمي ، بشكل ايجابي ، باستثناء الحنيقة ، التي أرست لنا مفاهيم الاتجاه التكعيبي في الفن والعمارة وما عدا ذلك كان تلميحاً لا يثري عملية التفسير. فالكتابة والدين اذن لم يسهما في عملية التفسير العلمي للآثار في العصر الجاهلي. ويبدو أن الإسهام الفعلي في التفسير العلمي للآثار ، اعتمد على تقانة البناء ، التي أسهب الشعر الجاهلي في

الهوامش

- ١- هذا التعريف ورد في مجموعة من الكتب العربية سنعرض لها بالتفصيل في الجزء الأخير من هذه الدراسة ونكتفي هنا بذكر بعض منها.
 - أ - الجاحظ، *الحيوان*، (ج ٤٢/ ٤٨، ٦٨ - ٧٣)
 - ب- البيروني، *الأثار الباقية من القرون الخالية*، (ص ٤-)
 - ج- اسامة بن منقذ، *المنازل والديار*، (ج ١/ ٤٠-)
 - د- الزبيدي، *تاج العروس*، (ج ١٠/ ١٠ - ٤٢)
 - هـ- عبد اللطيف البغدادي، *الإفادة والاعتبار*، (ص: ١٧- ٧٦)
- ٢- انظر: الجاحظ، *الحيوان*، (ج ٦٨/ ٧٥)
- ٣- عرض المؤلف بالتفصيل للبدية الزمنية للجنس العربي ومراحل الحضارية في القسم الأول من هذه الدراسة، والخاص بالتفسير التاريخي للظاهرة المعمارية، وسيسار إلى هذا القسم فيما بعد بالتفسير التاريخي. وقد قدم هذا القسم كبحث في ندوة الحضارة الإسلامية التي أقيمت في الكويت بتاريخ ١٧ - ١٢ / ٢٠ / ١٩٨٤، برعاية منظمة اليونسكو. وستطبع جميع الأبحاث التي قدمت في الندوة بكتاب خاص لم يصدر بعد.
- انظر: محمد عزة دروزة، *تاريخ الجنس العربي*، (ج ١٠/ ٥٨-)
- ٤- الدكتور الأنصاري هو رئيس قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض، ويرأس مشروع التنقيب عن الآثار في المملكة العربية السعودية ومن منجزاته التي وصلت إلينا:
 - أ - د. الأنصاري، *قرية الفاو*، جامعة الرياض، (١٣٧٥ - ١٤٠٢ هـ)
 - ب- د. الأنصاري وآخرون، *مواقع أثرية مصورة من حضارة العرب في المملكة السعودية، العلا (ريدان)، الحجر (مدائن صالح)*، جامعة الملك سعود ١٩٨٤.
- ٥- انظر: المؤلف، *التفسير التاريخي*.
- محمد عزة دروزة، *تاريخ الجنس العربي*، (ج ١٠/ ٥٨-)
- ٦- ان كثرة تسميات اللغات لا تعني بالضرورة أنها لغات مستقلة، فقد ذكر الدكتور جواد علي في كتابه، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج ٢٣- ٢٤، ٢٤١، أن الكتابات اللحيانية والتمودية لا تعني لغات خاصة بهذه الأقوام بالرغم من وجود تباين في كتابة بعض حروف هذه "اللغات"، ويرجع هذا التباين إلى نوعية القلم المستعمل في الكتابة ولكنها جميعا في رأيه مشتقة من القلم المسند، كما ذكر أن الكتابات الصفوية اطلقت على الخطوط التي وجدت بمنطقة الصفا القريبة من حوران بجنوب سوريا فهي منسوبة إلى المكان وليس إلى لغة مستقلة، ويشاركة في هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج ٣٣/ ١)، فيرجع جميع الكتابات "اللحيانية، الدادانية، الصفوية، التمودية، المعينية، والسبئية"، إلى الخط المسند أو القلم المعيني الجنوبي، وفي رأيه أن جميع هذه الكتابات (اللغات) عربية لأن خصائصها اللغوية قريبة من خصائص اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، كما يرجع شوقي ضيف، تطور القلم العربي إلى القلم النبطي الذي اشتق من القلم الأرامي المشتق أصلا من القلم الفينيقي، ويعزي تغلب القلم العربي المتطور عن القلم النبطي على القلم المعيني الجنوبي (بالرغم من كونهما متشابهان في خصائص اللغة) إلى تخلي عرب الحجاز عن القلم المعيني وتبنيهم القلم العربي، وهناك رأي آخر تبناه الأستاذ محمود شكري الألوسي في كتابه، *بلوغ الأرب*، (ج ٣٦٧/ ٣ - ٣٧٤)، يقول بتطور القلم العربي عن المسند الحميري، وسمي بالبدية بخط الجزم قبل أن يسمى بالكوفي وذلك لأنه اقتطع من المسند الحميري ذو "الحروف المتصلة".
- ٧- المراحل الأولى للقلم العربي ظهرت في بعض النقوش التي وجدت في منطقة حران بسوريا.
 - انظر: محمد عزة دروزة، *تاريخ الجنس العربي*، (ج ٣٩/ ٥ - ٤٠٤)
 - مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، (ج ٨٥/ ١)
 - د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج ٣٥/ ١)
- ٨- انظر: المؤلف، *التفسير التاريخي*.
- ٩- انظر: انظر الزبيدي، *تاج العروس*، (ج ١٢/ ١٠)
- ١٠- المصدر السابق، (ج ٢٢/ ١٠)

- ١١- المصدر السابق، (ج ٢٢/ ١٠)
- ١٢- أسعد تبع أحد ملوك الدولة الحميرية الثانية الممتدة بين (٣٠٠- ٥٢٥م)، وحكم من (٣٤٠ - ٣٧٨م).
- انظر: الهمداني، *الاكليد*، (ج ١٦/ ٨)
- ١٣- انظر: السياغي، *معالم الآثار اليمنية*، (ص ٨-)
- الهمداني، *الاكليد*، (ج ١٦/ ٨)
- ١٤- انظر: أسامة بن منقذ، *المنازل والديار*، (ج ٦/ ١)
- ١٥- انظر: سورة غافر، الآية ٢١
- ١٦- انظر: سورة الفتح، الآية ٢٩
- الصابوني، *صفوة التفسير*، (ج ٢٢٨/ ٣)
- ١٧- هذا التقسيم ورد أيضا في مجلة الآثار السعودية، *اطلال*، العدد الأول، (ص ٥) سنة ١٩٧٧.
- ١٨- تناول المؤلف التواصل التاريخي والحضاري والاجتماعي بأسهاب في *التفسير التاريخي*.
- ١٩- انظر: ابن رشيقي، *العبد*، (ج ٢٧/ ١)
- ابن سلام الجمحي، *طبقات الشعراء*، (ص ١٧-)
- ٢٠- انظر: الهمداني، *الاكليد*، (ج ٢٢٥/ ٨)
- السياغي، *معالم الآثار اليمنية*، (ص ٨، ٧)
- ٢١- انظر الهمداني، *الاكليد*، (ج ٢٩/ ٨)
- ٢٢- المصدر السابق، (ج ٥٤/ ٨)
- ٢٣- المصدر السابق، (ج ٥٥/ ٨)
- ٢٤- المصدر السابق، (ج ٥٦/ ٨)
- ٢٥- المصدر السابق، (ج ٦٤/ ٨)
- ٢٦- المصدر السابق، (ج ٧٩/ ٨)
- ٢٧- انظر: الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، (ص: ٤ - ٨)
- د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج ٢٣٢/ ١ - ٢٦٥)
- د. طه حسين، *في الأدب الجاهلي*، (ص: ٢٠٢ - ٢٠٤)
- ٢٨- انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، (ج ٤٤٥/ ٢ - ٣٢٥)
- البكري، *معجم ما استعجم*، (ج ٤٧٧/ ٢ - ٥٤٨)
- الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، (ص: ٤ - ٨)
- ٢٩- انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، (ج ٢٥٩/ ٢ - ١٧٤)
- البكري، *معجم ما استعجم*، (ج ٣٢٤/ ١ - ٤٣٥١)
- الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، (ص: ٨ - ٤)
- ٣٠- ثيماء مدينة قديمة تقع على بعد ١٠٠ كم شمال شرقي مدائن صالح، وهي مركز حضاري عربي قديم، وقد جاء ذكرها في نقش تيغلات بلاسر الثالث ملك آشور (٧٢٧ - ٧٤٤) ق.م.
- انظر: مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، إدارة الآثار والمتاحف وزارة المعارف، الرياض، (ص ٩٧) سنة ١٩٧٥م.
- ٣١- انظر: الزوزني، *شرح المعلقات السبع*، (ص ٤٦-)
- د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج ٢١/ ١)
- ٣٢- انظر: ابن سلام الجمحي، *طبقات الشعراء*، (ص ٢١-)
- عبد العظيم قناوي، *الوصف في الشعر العربي*، (ج ٣٢/ ١)
- د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج ١٨٣/ ١)
- ٣٣- انظر: المصدر الأول والمرجعين في الملاحظة السابقة (٣٢)
- ٣٤- هو عبيد بن ثعلبة بن يربوع من بني حنيفة، نزل اليمامة بموضع يقال له فادان، بها آثار فأقام بها.
- انظر: البكري، *معجم ما استعجم*، (ج ٨٤/ ١)
- ٣٥- انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، (ص: ١٩ - ٢٣)
- ٣٦- انظر: ديوان طرفة بن العبد، (ص ١٩ -)
- ٣٧- انظر: ديوان النابغة الذبياني، (ص ٣٠ -)
- ٣٨- انظر: ديوان الأعشى، (ص ٤٧ -)
- ٣٩- المصدر السابق، (ص ٧١ -)
- ٤٠- المصدر السابق، (ص ١٠٦ -)
- ٤١- المصدر السابق، (ص ١٣٢ -)
- ٤٢- انظر: الهمداني، *الاكليد*، (ص ٦٩ -)

- ٤٣- انظر : ديوان الأعشى ، (ص - ١٨٣)
- ٤٤- المصدر السابق ، (ص - ٢٥)
- ٤٥- انظر المصدر السابق ، (ص - ١٤)
- ٤٦- المصدر السابق ، (ص - ٥٥)
- ٤٧- المصدر السابق ، (ص - ١٤٧)
- ٤٨- انظر : ديوان طرفة بن العبد ، (ص : ٣٠)
- ٤٩- انظر : الروزي ، شرح المعلقات السبع ، (ص : ٢٦)
- ٥٠- انظر : ديوان الأعشى ، (ص - ٢٠٠)
- ٥١- انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٢/٢٦٧-٢٦٩)
- البكري ، معجم ما استعجم ، (ج ١/٤٥٣ - ٤٥٥)
- سراج الدين بن عمرو الوردی ، خريدة العجائب ، (ص : ٣٦ - ٣٧)
- ٥٢- انظر : الخطيب التبريزي شرح اختيارات المفضل ، (ج ٢/٩٦٩)
- الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، (ص : ٣٩٧)
- ٥٣- انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، (ص : ٦٩)
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٢/٤٢٣)
- ٥٤- انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٢/٤٢٣)
- ٥٥- انظر : البكري ، معجم ما استعجم ، (ج ١/٥٠٠-٩)
- ٥٦- انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٣/٢٠٥)
- ٥٧- انظر : ديوان لبید بن أبي ربيعة ، (ص - ٣٠١)
- ٥٨- انظر : البكري ، معجم ما استعجم ، (ج ١/٦١)
- ملاحظة: لم أجد هذا البيت في ديوان طرفة بن العبد ، المطبوع بدار صادر ، بيروت.
- ٥٩- المصدر السابق ، (ج ١/١٦)
- ٦٠- انظر : الروزي ، شرح المعلقات السبع ، (ص - ١٤٨)
- ٦١- انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٥/٢٦٢)
- ٦٢- انظر : طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، (ص - ١٨٦)
- ٦٣- انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٣/٢٦٧)
- ٦٤- المصدر السابق ، (ج ٣/٣٢٥)
- ٦٥- انظر : ديوان الأعشى ، (ص : ١١٦)
- ٦٦- انظر : الهمداني ، الاكليل ، (ص - ٤٨)
- ٦٧- المصدر السابق ، (ص - ٥٠)
- ٦٨- المصدر السابق ، (ص - ١٥)
- ٦٩- المصدر السابق ، (ص - ٥٥)
- ٧٠- المصدر السابق ، (ص : ٦٤ ، ٦٥)
- ٧١- المصدر السابق ، (ص - ١٤)
- ٧٢- انظر : جرجي زيدان ، تاريخ الآداب العربية ، (ج ١/١٣٤)
- ٧٣- انظر : ديوان عنترة ، (ص - ٢١٢)
- ٧٤- المصدر السابق ، (ص - ٢١٩)
- ٧٥- انظر : ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، (ص - ٩٣)
- الألوسي ، بلوغ الأرب ، (ج ٣/٣٦٠)
- ٧٦- المصدر والمرجع السابقين ، (ج ٣/٣٦٠)
- ٧٧- المصدر والمرجع السابقين ، (ج ٣/٣٦٠)
- ٧٨- المصدر والمرجع السابقين
- ٧٩- المصدر والمرجع السابقين
- ٨٠- المصدر والمرجع السابقين
- ٨١- انظر : الهمداني ، الاكليل ، (ج ١/١٥٨)
- ٨٢- انظر : الخطيب التبريزي ، شرح اختيارات المفضل ، (ج ١/٢١٧ - ٢١٨)
- ٨٣- المصدر السابق ، (ج ١/٣٠٦ ، ٣١٥)
- ٨٤- انظر : ديوان الأعشى ، (ص - ٨٨)
- عبد العظيم قناوي ، الوصف في الشعر العربي ، (ج ١/٦)
- ٨٥- انظر : الخطيب التبريزي ، شرح اختيارات المفضل ، (ج ٢/٩٦٩)
- الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، (ص - ٣٩٧)
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ج ٢/٤٢٣)
- ٨٦- انظر : ديوان النابغة ، (ص - ٤٣)
- ٨٧- المصدر السابق ، (ص - ٤٨)
- ٨٨- المصدر السابق ، (ص : ٨٧ - ٩٧)
- ٨٩- المصدر السابق ، (ص - ٨٧)
- ٩٠- انظر : ديوان طرفة بن العبد ، (ص : ٧٩ - ٨٠)
- ٩١- انظر : ديوان عنترة بن شداد ، (ص - ٥٦)
- ٩٢- المصدر السابق ، (ص - ١٨٧)
- ٩٣- انظر : ديوان زهير بن أبي سلمى ، (ص - ٨٥)
- ٩٤- انظر : ديوان لبید بن أبي ربيعة ، (ص - ٤٥)
- ٩٥- المصدر السابق ، (ص - ١١٩)
- ٩٦- المصدر السابق ، (ص : ٢٩٨ - ٢٩٩)
- ٩٧- المصدر السابق ، (ص - ٣٠٦)
- ٩٨- انظر : الخطيب التبريزي ، شرح اختيارات المفضل ، (ج ١/٢١٧ - ٢١٨)
- ٩٩- انظر : ديوان النابغة الذبياني ، (ص - ٤٨)
- ١٠٠- المصدر السابق ، (ص - ٣٠)
- ١٠١- المصدر السابق ، (ص : ٧٨ - ٧٩)
- ١٠٢- انظر : ديوان الأعشى ، (ص - ١٣٤)
- ١٠٣- انظر : الخطيب التبريزي ، شرح اختيارات المفضل ، (ج ١/٥٣٥ - ٥٤٤)
- ١٠٤- المصدر السابق ، (ج ٢/٦٣٢ - ٦٣٤)
- ١٠٥- ربد النعام هي النعام الضارب لونها إلى السواد.
- انظر : المصدر السابق (ج ٢/٩٢٢ - ٩٢٣)
- ١٠٦- المصدر السابق ، (ج ٢/١٠٠٩ ، ١٠٥٤ - ١٠٥٥)
- ١٠٧- المصدر السابق ، (ج ٢/١١٠٧)
- ١٠٨- انظر : ديوان لبید بن أبي ربيعة ، (ص : ٢٩٧ - ٣٠٠)
- ١٠٩- انظر : ديوان زهير بن أبي سلمى ، (ص : ٢٠ - ٢٢)
- ١١٠- هي زوجة زهير بن أبي سلمى وقد ورد اسمها في مطلع معلقته التي أشرنا إليها عندما
- تكلّمنا عن المكان في بداية هذا الجزء.
- ١١١- انظر : ديوان طرفة بن العبد ، (ص : ٣٣)
- ١١٢- انظر : ديوان لبید بن أبي ربيعة ، (ص : ٣٣٥)
- ١١٣- انظر : الهمداني ، الاكليل ، (ج ٨/١٤)
- ١١٤- انظر : ديوان النابغة الذبياني ، (ص : ٣٣)
- د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (ج ٣/٧٩)
- ١١٥- انظر : ديوان الأعشى ، (ص : ١١٧)
- ١١٦- انظر : د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (ج ١/٣٠٨)
- ١١٧- محمد عزة دروزة ، تاريخ الجنس العربي ، (ج ٤/٦٧)
- ١١٨- انظر : سورة (ص) ، (الآيات : ٣٦ - ٣٧)
- "فسخرنا الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشباطين كل بناء وغواص".
- ١١٩- انظر : سورة سبأ ، (الآيات : ١٢ - ١٤)
- ١٢٠- انظر : الصابوني ، صفوة التفاسير ، (ج ٢/٥٤٨ - ٥٤٩)
- ١٢١- انظر : محمود شكري الألوسي ، بلوغ الأرب ، (ج ٣/٣٦٨ - ٣٧٩)
- ١٢٢- المرجع السابق
- د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (ج ٨/١٦٣)
- ١٢٣- المرجعان السابقين
- ١٢٤- انظر : ديوان النابغة ، (ص - ٤٨)
- فاستعجمت دار نعيمى ما تكلّمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار
- أي أن الدار عجزت عن الجواب لعدم وضوح الدلالات البيئية.
- ١٢٥- انظر : ديوان عنترة ، (ص - ٧٨)
- كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطي
- والأعجم الطمطي هو الذي لا يفصح في كلامه.
- ١٢٦- يقول ابن النديم حول موضوع وحدة اللغة العربية العدنانية في كتابه الفهرست ، (ص : ٧):
- "...فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد
- الفصح في العدنانية وكثر هذا بعد معد
- بن عدنان ، ولكل قبيلة من قبائل
- العرب لغة تنفرد بها وتتخذ عنها وقد

١٤٣- ذكر محمد بن سلام الجمحي في كتابه، *طبقات الشعراء*، (ص: ٩١): أن قريش وجدت في صحيفة أحد الأيام بيتين من الشعر مكتوبين على باب دار الندوة:

الهي قريش عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحثا لا خليط له وقولها: رحلت غير أنت غير
انظر: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٧)
١٤٤- عرض الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، في كتابه، *تاريخ الآداب العربية*، (ج: ١٨٣-١٨٩) لموضوع المعلقات ونفى تعليقها على جدار الكعبة.
انظر: د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي* (ج: ١/١٤٠)
د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٩/٢٥٠-٢٦٥)
١٤٥- جاء تحديد هوية بناء الكعبة في سياق القصيدة، عندما مدح زهير كلا من هرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين قاما بالصلح بين عبس وذبيان، فاقسم بالبيت الحرام ذاكرا من بناء، وقد قدم قريش على جرهم لأجل القافية، وليس المقصود بهذا التقديم تزييف التاريخ، وإنما أشراك القبيلتين بنفس العمل بدون تحديد زمني.

انظر: ديوان زهير، (ص: ٢٣)

الزوزني، شرح المعلقات السبع، (ص: ٩٢)

١٤٦- انظر: سورة البقرة، الآية: ١٢٧:

"وَأَذِيعُوا لِرَبِّهِمْ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَأَسْمَاعِيلَ".

١٤٧- انظر: ابن السائب الكلبي، *الأصنام*

: محمود الألوسي، *بلوغ الأرب*، (ج: ٣/١٩٤-٢١١)

: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٨٠-٤٠١)

د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٦/٢١٢-٣٣٥)

١٤٨- انظر: القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ١٣٥

"قُلْ بَلْ مَلَكٌ بَرَكْنَا فَمِنْهُمَا مَنْ شَرَّكُوكَ" سورة آل عمران، الآية: ٦٧
"مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".

سورة آل عمران، الآية: ٩٥:

"قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"

سورة النساء، الآية: ١٢٥:

"وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..."

سورة النحل، الآية: ١٢٠:

"إِنْ إِبْرَاهِيمُ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا..."

سورة النحل، الآية: ١٢٣:

"ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..."

انظر: محمود شكري الألوسي، *بلوغ الأرب*، (ج: ٣/١٩٦)

د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٩/٤٤٩-٥١٠)

١٤٩- ذكر ابن الكلبي في كتابه، *الأصنام*، (ص: ٥-٨): أن الأصل في عبادة الأصنام هو تفرق أولاد إسماعيل عليه السلام، فلما تفرقوا وارتحلوا عن مكة كانوا يحملون معهم حجارة من الحرم، "تعطيها للحرم وصباية بهكة" وكانوا يطوفون حول هذه الحجارة كطوافهم بالكعبة، "بالرغم من زيارتهم لمكة وحجهم للبيت"، ثم استقر بهم الأمر إلى عبادة هذه الحجارة وإلى عبادة الأوثان التي كانت سائدة قبل الحنيفية، وتؤكد انتماءهم إلى الوثنية وتخيلهم عن الحنيفية عندما انتزع عمرو بن لحي أمر مكة فاحضر تماثيل حجرية من الشام ونصبها حول الكعبة.

انظر: محمود شكري الألوسي، *بلوغ الأرب*، (ج: ٣/٢٠٠)

د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٦/٤٥٠)

١٥٠- ريام بيت لحمير يقع في مدينة صنعاء، وهدم في عهد تبع، وقد قال فيه الأفوه الأودي

شعرا أوردته الهمداني في، *الأكليل*، (ج: ٨/٦٦):

أنا بنو أود الذي بلوأكه صعبت رثام وقد غزاها الأجدع

انظر: ابن الكلبي، *الأصنام*، (ص: ١١)

١٥١- ذكر ابن الكلبي، في كتابه، *الأصنام*، (ص: ١٩-٢٠): أن الغيبغ هو منحر مخصص لنحر هدايا العزى. بينها ذكر جواد علي، في كتابه *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٦/٢٢٨): أن الغيبغ عبارة عن حفرة تحت اللات تحفظ فيها الهدايا والتذور والأموال المقدمة لللات، ولم يذكر د. جواد علي

اشتركوا في الأصل قال [محمد بن اسحاق]: وان الزيادة في اللفظة امتنع العرب منها بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم لأجل القرآن....

ولقد تنطرق إلى وحدة القلمين العدناني والمسندي الحميري كل من:

: محمد عزة دروزة، *تاريخ الجنس العربي*، (ج: ٤٦، ٥)

د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٨/١٥٦)

١٢٧- انظر: د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج: ١/١٣٨)

: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٨)

: الخطيب التبريزي، *شرح اختيارات المفضل*، (ج: ٢/١٠٥٥)

١٢٨- انظر: د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج: ١/١٣٨)

١٢٩- انظر: ديوان طرفة بن العبد، (ص: ٨٤)

: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٨)

١٣٠- انظر: محمود شكري الألوسي، *بلوغ الأرب*، (ج: ٣/٣٦٩)

١٣١- انظر: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٩)

١٣٢- المرجع السابق

١٣٣- المرجع السابق

١٣٤- انظر: الخطيب التبريزي، *شرح اختيارات المفضل*، (ج: ١/٤٢٦)

١٣٥- انظر: ديوان لبيد بن أبي ربيعة، (ص: ٢٩٧-٢٩٨)

د. شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (ج: ١/١٣٨)

١٣٦- انظر: د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٨/٣٦٥)

١٣٧- ذكر أحمد الحوفي في كتابه، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٩):

ان الشعراء "عدي بن زيد العبادي، ولقيط بن يعمر الأيادي، وسويد بن الصامت الأوسي، وعبد الله بن رواحة، والربيع بن زياد العسبي، والمرقس الأكبر وأخوه حرملة، وكعب بن مالك الأنصاري، والزبرقان بن بدر وكعب بن زهير وأخيه بجير بن زهير، ولبيد العامري، جميعهم يجيدون القراءة والكتابة".

: انظر: د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٩/٢٥٢)

١٣٨- انظر: د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٥/٣-٧٥)

١٣٩- انظر: هامش (رقم: ١٣٨)

١٤٠- تلخص قصة صحيفة المتلمس في أنه وابن أخته طرفة بن العبد تعرضا لغضب عمرو بن هند ملك الحيرة، فأراد الملك قتلهم، فكتب بصحيفتين إلى عاملة على البحرين وحملها للمتلمس وطرفة وأمرهما بالمسير إلى البحرين فرغب الأول عن المسير لشكوكهما بما تحويه الصحيفة، أما طرفة فتابع المسير وسلم الصحيفة إلى عامل البحرين، فنفذ الأخير أمر الملك وقتل طرفة، وبهذا قال المتلمس شعرا:

أودي الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس

الى الصحيفة، لا أبالك انه يخشى عليك من الحبا النقرس

: انظر: د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٨/٢٦٧)

١٤١- تلخص قصة صحيفة لقيط في أن قومه اياذ أغارت على بلاد الفرس وأوقعت بهم، فاراد الفرس الانتقام مما فعلت اياذ بهم، فاستعدوا وبدءوا بتجهيز جيشهم، فتنبه لقيط بن يعمر الأيادي، الذي كان يعمل مترجما عند كسرى، إلى نية الفرس بغزو اياذ، فأرسل شعرا مكتوبا على صحيفة يحذرهم فيه من نية الفرس:

سلام بالصحيفة من لقيط على من بالجزيرة من اياذ

بان اللبت يأتكم دلاقا فلا يحسبكم شوك القتاد

انظر: محمود الألوسي، *بلوغ الأرب*، (ج: ٣/٣٧٣)

: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٤٠)

د. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (ج: ٨/٢٦٧)

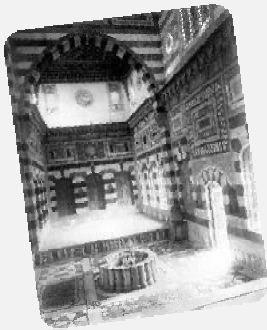
١٤٢- وتتلخص قصة صحيفة المقاطعة في أن قريش تعاهدت على مقاطعة بني هاشم، وبني عبد المطلب، عندما رفض بنو هاشم التخلي عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكتبت قريش صحيفة المقاطعة وعلقتها في الكعبة.

انظر: أحمد الحوفي، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، (ص: ٣٦)

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أحمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م.
- إدارة الآثار والمتاحف: مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، وزارة المعارف، ٣٩٥هـ، ١٩٧٩م.
- أسامة بن منقذ: (٤٨٨ - ٥٨٤هـ) المنازل والديار، جزآن، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٩م.
- الأعشى، ميمون بن قيس، ديوانه، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت. بدون تاريخ نشر.
- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، منشورات أمين دمع ودار الشوق العربي، بيروت بدون تاريخ نشر.
- انجيل برنابا، تحقيق سيف الدين أحمد فاضل، دار القلم الكويت ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م
- البغدادي، عبد اللطيف، (٥٧٧ - ٥٦٩)، الافادة والاعتبار، تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- بدیع العابد، الفكر المعماري العربي جذوره وأبعاده- التفسير التاريخي، بحث مقدم إلى ندوة الحضارة الإسلامية، المنعقدة في الكويت، ١٧-٢٠/١٢/١٩٨٤م.
- البكري - عبد الله (المتوفي ٤٨٧هـ) معجم ما استعجم، ٤ أجزاء، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- البلاذري، ابي العباس، احمد بن يحيى، فتوح البلدان، (المتوفي ٢٧١هـ)، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م.
- البيروني، أبو الريحان، محمد بن أحمد (المتوفي ٤٤٠ هـ، ١٠٤٨م) الآثار الباقية من القرون الخالية، طبعة لينزغ، برلين، ١٨٧٨م.
- التبريزي، يحيى بن علي، الخطيب، (٤٢١ - ٥٠٢هـ)، شرح اختيارات الفضل، تحقيق فخر الدين قباوة، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- الجاحظ، عمرو بن حرب، (١٥٠-٢٥٥هـ)، الحيوان، ٧ أجزاء، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، تحقيق عبد السلام هارون، ١٩٣٨-١٩٤٥م.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م.
- جرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ٤ أجزاء، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ابن رشيقي، أبو علي الحسن ابن رشيقي، (٣٩٠-٤٥٦هـ)، العمدة، جزآن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار الجيل، دمشق ١٩٧٢م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، متسلسل الصدور.
- زهير بن أبي سلمى، ديوانه، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٦٨م.
- الزوزني، الحسن بن أحمد، شرح المعلقات السبع، مكتبة محمد علي صالح، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي، (المتوفي ٢٣٢هـ) طبقات الشعراء، غير مذكور اسم الناشر أو سنة النشر.
- السياغي، حسين أحمد، معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٠م.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ٥ أجزاء، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، (المتوفي ٣١٠هـ)، ١١ مجلد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

- المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات، كما أن الطبري الذي ذكر قصة هدم اللات، في كتابه، تاريخ الطبري، (ج٣/٩٨-١٠٠)، لم يلمح بشيء عن الغبغ وبهذا نميل إلى ترجيح رأي ابن الكلبي.
- ١٥٢- ذكر ابن الكلبي، الأضنام، (ص- ٣٤): أن ذي الخلصة "كان مروءة" يبيضاء منقوشة، عليها كهية التاج. وكانت بتباله، بين مكة واليمن"
- انظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (ج٦/٢٧٠-٢٧٣، ٤٤٥)
- ١٥٣- ذكر ابن الكلبي، الأضنام، (ص- ٤٥): أن كعبة اياذ كانت في منطقة سندان بين الكوفة والبصرة، وأنها كانت منزلاً شريفاً وليست بيت عبادة.
- انظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (ج٦/٢٢٨)
- ١٥٤- ذكر ابن الكلبي، الأضنام، (ص: ٢٨-٢٧): أن هبل كان من أعظم أضنام قريش وكان موضوعاً في جوف الكعبة، وهو من العقيق الأحمر منحوت على صورة الإنسان، ومكسور اليد اليمنى، وقد جعلت له قريشاً يدا من ذهب عوضاً عن اليد المكسورة.
- انظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (ج٦/٢٥٣-٢٥٥)
- ١٥٥- إضافة إلى المصادر والمراجع التي ذكرناها سابقاً مثل الأضنام، وبلوغ الأرب... انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، (ج٤/٤٦٣)
- : القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (ص: ١١٣-١١٥)
- ١٥٦- ذكر د. جواد علي، في كتابه، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (ج٦/٤١٧)، بناء كعبة نجران بالجلد ونسب ذلك إلى ابن الكلبي، وبالرجوع إلى كتاب الأضنام، (ص: ٤٤-٤٥)، لم نجد ذكراً للجلد كمادة بناء لكعبة نجران.
- ١٥٧- اعتبر د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (ج٦/٦٥٨-٦٥٩)، أن الناقوس هو العنصر الذي يميز معابد النصارى من معابد اليهود والوثنيين، وقد قام بحصر الآيات الشعرية التي ورد فيها ذكر الناقوس.
- ١٥٨- حنت قلوصي بها واللبل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس نقلا عن المرجع السابق.
- ١٥٩- وتسمع ترقاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس نقلا عن المرجع السابق.
- ١٦٠- وكأس كعين الديك باكرت حددا بفتيان صدق والنواقيس تضرب نقلا عن المرجع السابق، وديوان الأعشى، (ص- ١١)
- ١٦١- وقد سبأت لفتيان ذوى كرم قبل الصباح ولما تفرغ النفس نقلا عن المرجع السابق.
- ١٦٢- كانت بداية اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالدين المسيحي في عهد الإمبراطور قسطنطين (٢٨٨-٣٧٠)، عندما دعا إلى مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م، ثم نقل عاصمته إلى بيزنطة (القسطنطينية) سنة ٣٣٠م، وذكر المسعودي في كتابه، مروج الذهب، (ج١/٣٥٤-٣٥٤) أن "أم قسطنطين هيلانه قامت ببناء الكنائس في بلاد الشام بعد مؤتمر نيقية". ومنذ هذا الوقت ابتدأت المسيحية باستعارة أشكال كنائسها من المباني الرومانية المعروفة بـ"البازيليكا" والتي كانت تقام في روما لخدمة الأغراض التجارية.
- انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١/١٥٣/١٥٧)
- ولمعرفة وظيفة البازيليكا، انظر موسوعة كولومبيا الأمريكية، مدخل الباب.
- ١٦٣- "...واذا صليتم فادخلوا بيوتكم، واغلقوا أبوابكم ولا يسمعكم أحد...."
- انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (ج١/٧٠)
- :انجيل برنابا، (ص: ٥٣-٦٤)
- ١٦٤- "ولا تهتموا بهماشكم، ولا ما تأكلون، ولا ما تشربون، ولا ما تلبسون، وانظروا إلى طير السماء لا يزرعن، ولا يحصدن، ولا يجمعن في البيوت...."
- انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (ج١/٧١)
- :انجيل برنابا، (ص: ٥٣-٦٤)
- ١٦٥- المسيحية دين عاطفي لا يحوي فكراً قادراً على إبراز أية ظاهرة حضارية كالفن والعمارة فأى دراسة عميقة وتحليلية للإنجيل لن تثري فكر القارئ في شيء، فلا تفكر في أمر الخلق ولا شواهد على دقة نظام الكون، ولا تنظيم للمجتمع، ولا دستور دينوي ولا حث على العلم، ولا فلسفة للتاريخ، ولا منهج اقتصادي....
- ١٦٦- ذكر الهمداني، في الإكليل، (ج٨/٦٦)، كلمة "المساجد" لتدل على معابد وهيكل الحضارة العربية اليمنية قبل الإسلام.
- ١٦٧- انظر: الهامش (رقم- ١٦٢)



من مؤلفات الدكتور بدیع العابد:

- *Al-Hifadh al-M'amariy fiy al-Hadhara al-Arabiya al-Islamiyyha*, (2010)

الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية

Architectural Conservation In Arabic Islamic Civilization, published by The Islamic Educational Scientific and Cultural Organization (ISESCO), Rabat – Morocco.

- *The Architectural Identity Of Jerusalem, The Dome Of The Rock Or The So-Called Temple*, (2009)

الهوية المعمارية للقدس – قبة الصخرة أم الهيكل المزعوم

published by the support of The Ministry of Culture in the occasion Jerusalem is the Capital of Arabic Culture, Amman – Jordan.

- *Al-Markiz ath-Taqladiy li-Madinat al-Quds Baiyn ath-Tawasol wa-Taquwied – Dawaer at-Thakhtiyat al-'Omrianiy fiy al-Quada`ala Hawiytoho al-M`mariya*. (2008)

المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض – دور التخطيط

العمرياني في القضاء على هويته المعمارية

The Traditional Center Of Jerusalem Between Continuity & Destruction The Role Of Urban Planning In Destroying Its Architectural Identity, published by The Cultural Department, Great Municipality of Amman, Amman – Jordan.

- Co-Editor of the Proceeding Book of The Fifth Scientific Conference of the Jordanian Society for the History of Science, ar-Riydhiyat Fi al-Hadhara al-Arabiya al-Islamiya – 'Alim wa 'Alim, (Mathematics In Arabic Islamic Civilization – Science & Scientist)

الرياضيات في الحضارة العربية الإسلامية علم وعالم

Published by The Jordanian Society For The History Of Arabic Science, Dar al-Yaquot, Amman – Jordan, 2008.

- Co-Editor of the Proceeding Book of The Fourth Scientific Conference Of Jordanian Society For The History Of Science, (The Role Of Arabic Islamic Science In The Progress Of Western Science)

دور التراث العلمي العربي الإسلامي في المنجزات العلمية الغربية

Published by The Jordanian Society For The History Of Arabic Science, Dar Wael, Amman – Jordan, 2004.

- Ph.D. Thesis, *Aspects Of Arabic Islamic Architectural Discourse*, published by The Technical University Of Delft, With ISBN No. 909005005-1, April 1st, 1992.

- Editor Of The *Special Architectural Issue Of The Magazine Of The Jordanian Engineer*, published in the occasion of the 7th Architectural Week, No., 51, 29th June, 1993.

- طرفة بن العبد، ديوانه، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- طه حسين، في الأدب الجاهلي، الطبعة الرابعة عشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.
- عبد الرحمن الأنصاري، قرية الفاو، جامعة الرياض، (١٣٧٥ - ١٤٠٢هـ)
- عبد الرحمن الأنصاري وآخرون، مواقع أثرية مصورة من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م.
- عبد العظيم قناوي، الوصف في الشعر الجاهلي، الجزء الأول، مصطفى الباي الحلبي، ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.
- عنتر بن شداد، ديوانه، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٦هـ) الشعر والشعراء، دار أحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- —، أدب الكاتب، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
- ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب الكلبي، (المتوفي ٢٠٤هـ)، الأضنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٥م.
- لبید بن أبي ربيعة، ديوانه، شرح وتحقيق احسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م.
- محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ١٣ جزءاً، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ٣ أجزاء، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.
- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ أجزاء، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١م.
- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٣ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ، ١٩٥٩م.
- النابغة الذبياني، ديوانه، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- ناجي زين الدين المصرف، مصور الخط العربي، مكتبة النهضة بغداد، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- —، موسوعة الخط العربي، جزآن، دار الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٤م.
- ابن النديم، محمد بن أسحق بن يعقوب، (٢٩٧ - ٣٧٨هـ)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، (المتوفي ٣٥٠هـ)، الاكليل، الجزء الثامن، تحقيق أمين فارس، دار العودة، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- —، صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع الحوالي، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- الوردی، سراج الدين، خريدة العجائب، مطبعة الشيخ عثمان، القاهرة، ١٣٠٩هـ.
- ياقوت الحموي، (المتوفي ٦٢٦هـ، ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
- البعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (المتوفي ٢٨٤هـ أو ٢٩٢هـ)، تاريخ البعقوبي، جزآن دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر.

في اللوحة الفنية ، لأنها بمثابة نقطة جذب للعين المتأمل بل هي أول ما تقع عليه عين الناظر عندما يقف أمام هذه اللوحة .

وقد برع الفنان في اختيار ألوان اللوحة ، حيث انتقاها من مجموعة البنيات والتي يكثر استخدامها في رسم المدن القديمة التي يغلب البناء فيها بالحجر ، وابتعد عن استخدام الألوان الساخنة لأنها تشير إلى الحركات العنيفة ، بينما أراد أن يبرز فيها الجوانب الروحانية . وكذلك ابتعد عن الأزرق الصريح في تلوين السماء حتى لا يتنافر مع باقي ألوان اللوحة .

ومن الجدير بالذكر ؛ أن سعر لوحة المؤذن المصري تجاوز نصف مليون جنيه إسترليني ، فقد كانت من أهم القطع الفنية النادرة التي عرضت للبيع في مزاد عالمي بلندن يضم ٥٠ لوحة فنية تاريخية ، كما قدر خبراء المؤسسة العالمية قيمتها بما يتراوح بين ٤٥٠ ألف و ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني . وقد بيعت بالفعل بـ ٥٠٤١٨ جنيه إسترليني لمشتري حرص على إخفاء هويته .

كان المؤذن في القاهرة القديمة علامة من علاماتها البارزة التي أثارت اهتمام وتساؤلات الزائرين ، ولا سيما المستشرقين من هواة الفن ومحترفيه ، ومن بينهم الفنان الفرنسي الشهير جان ليون جيروم Jean-Léon Gérôme (١٨٢٤ - ١٩٠٤) رائد الواقعية في الرسم في القرن التاسع عشر ، الذي اهتم في العديد من لوحاته بتصوير بعض مظاهر الحياة في مصر ، وكان شغوفاً برسم المصلين أثناء أدائهم لفريضة الصلاة وكذلك اهتم بالمؤذن وكرر رسمه أكثر من مرة في لوحات متعددة .

ومن أجمل لوحاته لوحة: "النداء للصلاة" أو "المؤذن المصري" والتي رسمت عام ١٨٦٥ لمؤذن يرفع آذان العصر من فوق أحدي مآذن القاهرة القديمة في فصل الصيف ، بينما تلوذ المدينة حوله بالصمت . وفي هذه اللوحة نراه يهتم برسم المؤذن ، ونرى مؤذنة المسجد في الناحية اليمنى من اللوحة لتملأ مقدمة اللوحة ، ومن أسفل نرى الكثير من مآذن القاهرة وبيوتها عن بعد .

وأهم ما يميز تلك اللوحة أن جيروم التقط منظر أمامي للمؤذن الذي اعتلى المؤذنة للإعلان عن موعد الصلاة ، بينما ترك الفنان النصف السفلي للجانب الأيسر للمدينة ومآذنها العالية وترك باقي المساحة اليسرى للفراغ السماوي . وهنا نرى المؤذن وقد رسم بدقة غاية في البراعة ، يرتفع بقامته وبروحه نحو السماء منادياً للصلاة في خشوع . فالمؤذن في هذه اللوحة بهلبسه التاريخية وصورته الجسدية وحالته النفسية يجعل من اللوحة مادة وثائقية كأغلب لوحات المستشرقين .

وقد اعتمد الفنان على تقسيم لوحته باستخدام نسبة تسمى بالنسبة الذهبية في تقسيم اللوحة ، حيث قسم لوحته طولياً إلى الثلث والثلثين ، الثلث الأيمن وفيه المؤذنة والمؤذن والثلثين للمساحة الباقية . ثم قسمها عرضياً إلى الثلث والثلثين كذلك ، الثلث الأسفل للمدينة والثلثين أعلى للفراغ السماوي . ونراه قد عمد إلى وضع المؤذن في نقطة التقاء الخطين القاسمين للوحة ، أي بؤرة اللوحة وهي المكان الأهم على الإطلاق

لوحة النداء للصلاة



بفلم

أسماء صلاح

كاتبة وباحثة في علم الاجتماع
عضو هيئة تحرير دورية كان التاريخية
wasma_art@yahoo.com

كان التاريخي

The first Arabic Referred Journal Published in Electronic Format,
Specialized in Historical Studies and Research.

ISSN: 2090 – 0449

Third Year - Issue (9) September 2010 | Ramadan 1431

Kan historique périodique

www.historicalkan.com



The Journal Issued Quarterly By : Junior Historian Series